الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



رواية

جيوكوندا بيلي

المرأة المسكونة

ترجمة: د. طلعت شاهين

• الكاتبة:
جيوكوندا بيلى، كاتبة وشاعرة من نيكاراجوا.
• ولدت عام ١٩٤٨، فى ماناجوا عاصمة نيكاراجوا، وهى واحدة من أهم المبدعين فى منطقة وسط وجنوب أمريكا اللاتينية.
• بدأت حياتها كشاعرة، وحققت خلال مسيرتها الشعرية العديد من النجاحات الأدبية بدواوينها "على العشب"، "خط النار"، "رعود وقوس قزح"، "حب متمرد"، "من ضلع حواء"، "عين المرأة".
• فازت بالعديد من الجوائز أبرزها جائزة "ماريانوا فيليس خيل" عام ١٩٧٢،
و"كاسادى لاس أميركاس" عام ١٩٧٨،
و"سورخوانادي لاكروث" عام ٢٠٠٨، وجائزة "الريشة الفضية" عام ٢٠٠٥، و"الجائزة الدولية لجيل ٢٧ للشعر" عام ٢٠٠٠.
• تحولت إلى الرواية منذ الثمانينيات واستهلت مسيرتها الروائية بروايتها الأولى "المرأة المسكونة" التى صدرت عام ١٩٨٨، وحازت عنها عدة جوائز منها جائزة أفضل رواية عن اتحاد الناشرين عام ١٩٩٢ وتمت ترجمتها إلى أكثر من خمس وعشرين لغة وتتابعت رواياتها المهمة.. "صوفيا سيدة النبوءات" و"سلالا" و"رق الغواية" و"الكون فى راحة اليد"، بالإضافة إلى مذكراتها خلال الثورة الساندينية والتى عنونتها بـ"البلاد تحت جلدى"

الجائزة:
جائزة "كاسا دي لاس اميركاس"
ويطلق عليها جائزة "بيت الأميركتين"
وهى جائزة أدبية أنشأت في هافانا "كوبا"
منذ عام ١٩٦٠ تحت اسم "جائزة المسابقة الأدبية الأمريكية اللاتينية".
وكان يجرى منحها سنوياً لأديب من أمريكا اللاتينية فى مجالات الشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرح والدراسات الأدبية، وتحولت إلى اسمها الحالى منذ عام ١٩٦٤، وفى عام ١٩٧٠ أضافت إلى جوائزها جائزة عن "الشهادات والمذكرات" ثم أضيفت إليها فى عام ١٩٧٥ جوائز للكتابة للأطفال والفتيان، ثم قررت اللجنة المشرفة عليها فى عام ١٩٧٥ إضافة الآداب الكاريبية المكتوبة باللغة الإنجليزية، وتوسعت فى عام ١٩٧٩ لتمنح جوائزها أيضا لكتاب أمريكا اللاتينية الذين يكتبون باللغة البرازيلية.
وفى عام ١٩٨٠ امتدت لتشمل الأدب المكتوب باللغات المحلية للقبائل الهندية الأصلية التى لاتزال تحتفظ بها الكثير من تلك القبائل.

المرأة المسكونة

بيلى، چيوكوندا.

« المرأة المسكونة»: رواية/ تأليف: چيوكوندا بيلى؛ ترجمة وتقديم: طلعت شاهين. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

٦٥٤ص ؛ ٢٢ سم .

تدمك ٠ ٧٣٣ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الأمريكية.

أ ـ شاهين، طلعت (مترجم ومقدم)

ب ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٤٢١٢/ ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -733 - 0

ديوى ٨٢٣

المرأة المسكونة

رواية

جيوكوندا بيلي

ترجمة: د. طلعت شاهين



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٠

• الكتاب: المرأة المسكونة

La Mujer habitada

• تأليف: جيوكنده بيللى

Gioconda belli

• ترجمة: د. طلعت شاهين

• الطبعة الأولى ٢٠١٠.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

مقدمة

تعتبر الكاتبة والشاعرة «جيوكوندا بيلى» (نيكاراجوا ١٩٤٨) واحدة من أهم المبدعين فى منطقة وسط جنوب أمريكا اللاتينية الناطقة باللغة الإسبانية، بدأت حياتها شاعرة مناضلة فى جبهة «الساندينستا» بقيادة «دانييل أورتيجا» التى كافحت ضد نظام الحكم الدكتاتورى للجنرال «سموزا» المدعم من الولايات المتحدة الأمريكية طوال عقود إلى أن أسقطته الثورة، ثم واصلت الكاتبة الكفاح خلال فترة الحرب التى تلت سقوط النظام الدكتاتورى ضد قوات «الكونترا» التى كانت تمولها وتدربها المخابرات الأمريكية فى محاولة لإسقاط الثورة والعودة إلى البلاد، وراح ضحيتها عشرات الآلاف من الفلاحين الأبرياء الذين كانوا يدعمون الثوار ويرفضون الخضوع للمطالب الأمريكية بالتخلى عن منجزات الثورة التى أسقطت الإقطاع والامتيازات الأجنبية التى كانت قائمة طوال عقود طويلة تحولت خلالها نيكاراجوا إلى إحدى «جمهوريات الموز» التى كانت تديرها شركة الفاكهة الأمريكية.

وخلال مسيرتها الشعرية فازت «جيوكوندا بيلى» بالعديد من الجوائز الأدبية أبرزها جائزة «ماريانوا فيليس خيل» عام ١٩٧٢، و«كاسا دى لاس أميركاس» ١٩٧٨ و«سور خوانا دى لا كروث» عام ٢٠٠٨، وجائزة «الريشة الفضية» عام ٢٠٠٥، و«الجائزة الدولية لجيل ٢٧ للشعر» عام ٢٠٠٠.

ثم مع منتصف الثمانينيات تحولت إلى كتابة الرواية وقدمت ثلاثة من أهم الأعمال الروائية: «المرأة المسكونة» وصوفيا سيدة النبوءات» و «سلالا» وبفضل هذا التوجه الجديد نحو الرواية حازت العديد من الجوائز أيضًا فى هذا المجال حيث فازت روايتها «المرأة المسكونة» بجوائز عدة، منها «أفضل رواية» عام ١٩٨٩، وجائزة «اتحاد الناشرين» عام ١٩٩٢، وتمت ترجمتها إلى العديد من اللغات، ونقدم نحن هنا فى «سلسلة الجوائز» الترجمة العربية لها.

والمتابع لإبداع «جيوكوندا بيلى» النثرى يكتشف أن ما يجمع بين تلك الأعمال الروائية هو البحث المستمر عن العقائد القديمة السابقة على وصول رحلات الاستكشاف بقيادة «كولومبس» لتلك البلاد، والتى يطلق عليها المؤرخون والنقاد مسمى «Precolombina» باعتبار أن هذه العقائد تمثل نسقًا أسطوريًا لإبراز أهمية الشخصية النسائية فى كل هذه الروايات، باعتبار أن تلك الشخصيات النسائية مناضلة من أجل الحياة والوطن والمستقبل، حيث نجد فى كل رواية شخصية نسائية أسطورية، عادة ما تحاول مساعدة

البطلة الشخصية المحورية فى كل رواية للوصول إلى هدفها، أو تلعب دورًا مكملا لدور البطلة الروائية لتشكلا معًا مجموعة من الشخصيات التى تحاول خلق توازن ميثيولوجى لشكل واحد.

يعتبر النقاد أن الكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلى» استفادت فى إبداعها الروائى من الجانب الشفاهى فى ثقافة بلادها التى تروى الأساطير التى تتوارثها أجيال السكان الأصليين فى البلاد، الذين يمثلون الجانب الأكبر تعدادًا بين السكان، وكل هذه الأعمال الشفاهية تؤكد على دور المرأة المهم فى مقاومة الغزاة الإسبان الذين غزوا تلك البلاد واستعبدوا أهلها ونهبوا ثرواتها من الذهب والفضة، ودمروا آثار حضارتها التى تؤكد الشواهد المتبقية من التدمير على أنها كانت حضارات متقدمة.

فى روايتها الأولى «المرأة المسكونة» الصادرة طبعتها الأولى عام ١٩٨٨، نجد شخصية «ايتثا» أو «نقطة الندى» ، التى تعبر عن النقاء البدائى فى الطبيعة وتنتمى إلى حياة شعب نيكاراجوا خلال الغزو الإسبانى بعد ما يسمى «عصر الاكتشاف»، وتعود إلى الحياة من جديد فى القرن العشرين من خلال تجسدها فى شجرة برتقال زرعتها شخصية رئيسية فى الرواية «اينيس» عمة البطلة «لافينيا» والتى تبنتها وأحسنت تربيتها فى ظل غياب الأبوين المشغولين بالحياة المعاصرة، وتتسلل البطلة الأسطورية إلى الشخصية المعاصرة من خلال عصير البرتقالات التى

تقطفها «لافينيا» من تلك الشجرة، فتكونان معًا مزيجًا واحدًا، فنرى الشخصية الأسطورية تلعب دور الحارس، بل والموجه، للشخصية المعاصرة لتواصل النضال القديم ضد كل أشكال الظلم والطغيان، فإذا كانت الشخصية الأسطورية «ايتشا» قد لعبت دورها فى التمرد على تقاليد القبيلة وتبعت حبيبها «لافينيا» للنضال ضد دكتاتورية «الجنرال الأكبر» الذى لا يقل قسوة وظلمًا فى تعامله مع مواطنى بلاده من الغازى الإسبانى.

وتعود العناصر الأسطورية إلى التجسيد مجددًا فى روايتها الثانية «صوفيا سيدة المعجزات» فتقدم لنا الشخصية النسائية الأسطورية من خلال «الساحرات»، أى تلك الكائنات التى تعرف أسرار الطبيعة وتسخرها من أجل خدمتها، وساحرات هذه الرواية هن : «شنتال» و«السيدة كارمن» اللتان تساعدان البطلة «صوفيا» فى التغلب على المواقف الصعبة فى حياتها المعاصرة، والوصول إلى هدفها.

أما فى الرواية الثالثة «وسلالا» فإننا نعثر على شخصية «ميليساندرا» التى تبحث فى المستقبل عن العالم الميثولوجى المثالى فى «وسلالا» التى تلعب النساء فيها دورًا مختلفًا تمامًا عن تلك الأدوار التى يفرضها المجتمع عليهن، أى هن نساء متمردات على أدوارهن فى هذا المجتمع فى محاولة لخلق مجتمع مثالى يؤمن بقدراتهن.

إن البحث فى الأعمال الروائية للكاتبة «جيوكوندا بيلى» يكشف دائمًا عن إصرارها على إحاطة شخصيات تلك الروايات بعناصر نسائية أسطورية لها ملامح نابعة عن أصول وتاريخ تلك المجتمعات القديمة لإبراز دور المرأة فى المجتمعات المعاصرة القائمة الآن، وأن الشخصية النسائية تسعى دائمًا من أجل حياة أكثر عدالة، وتأتى تلك الشخصيات الأسطورية مخترقة التاريخ والواقع لمساعدة بطلات هذه الأعمال من أجل التوصل إلى تحقيق هذا الهدف، وعندما تسير الأحداث بشكل غير منطقى لتحقيق الهدف فإنها تبحث عن طرق أخرى تؤدى أيضًا إلى تحقيق هذه الفكرة روائيًا من خلال التفكير فى القوى الخارقة للطبيعة التى يوفرها استخدام الشخصيات الأسطورية.

تجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الرواية «المرأة المسكونة» أول عمل روائى يترجم للكاتبة «جيوكوندا بيلى» إلى اللغة العربية، ولكن اسم هذه الكاتبة يعرفه القارئ العربى من خلال العديد من القصائد الشعرية المترجمة لها والتى نشرها المترجم نفسه فى العديد من الصحف والمجلات العربية، وصدرت مجمعة فيما بعد كجزء من كتابين مهمين: «الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية» و«الرؤية فى ليلة معتمة» وتأتى ترجمة هذه الرواية لتكمل حلقة تعارف القارئ العربى على إبداعها.

د. طلعت شاهين

إلى نورا أستورجا

التى ستظل تولد

أكسر تلك البيضة وتولد امرأة

ويولد الرجل. ويعيشان معًا

ويموتان، لكنهما يولدان مجددًا.

يولدان ويعودان إلى الموت

ويولدان مرة أخرى.

ولا يتخليان عن الميلاد أبدًا،

لأن الموت أكذوبة.

إدواردو جاليانو

"أسطورة هنود الماكيريتارى"،

ذاكرة النار.

ـ ١ ـ

يظهر الفجر... إنه لغريب كل ذلك الذى حدث منذ آخر مرة رأيت فيها "يارينثى"، فى ذلك اليوم فى الماء. يقول العجائز فى الاحتفال إنها تسافر باتجاه "تلالوكان"(*)، حدائق الشرق الباردة ـ بلد الخضرة والزهور التى تداعبها الأمطار الخفيفة ـ لكنى وجدت نفسى وحيدة لقرون فى بيت أرضى وجذور متأملة ومندهشة من جسدى المتحلل فى الدخان والحشائش. حافة الزمن طويل على ذكريات، تغذى الذاكرة، وحوافر الخيول، والتجمعات، والحراب، وخشية الضياع. "يارينثى" وأعصاب ظهره القوية.

منذ أيام وأنا أسمع خطوات الماء الصغيرة، وتيارات الماء الكبيرة فى باطن الأرض تقترب من بيتى فاتحة تحته أنفاقًا، وتغرينى من خلال المسام الرطب للأرض، كنت أشعر بأن العالم قريب، أتكهن به من خلال نغمات الأرض المختلفة. بعدها شاهدت الجذور أيادٍ ممتدة، تنادينى، وتغرينى بقوة الأمر الذى لايُقاوم. دخلتُ الشجرة، دخلتُ دورتها الدموية، مررتُ من

(*) إله المطر والسعادة.

خلالها كدغدغة حياة طويلة، انفتاح بتلات زهور، وانكماش أوراق. شعرت بملمسها الخشن، والمعمار الرقيق لأفرعها، وانتشرتُ فى الممرات الحيوية لهذا الجلد متمطية بعد زمان طويل، مطلقة شعر رأسى، متطلعة للسماء الزرقاء للسحاب الأبيض لأستمع إلى الطيور التى كانت تغنى كالسابق.

غنيتُ أيضا بفمى الجديد (كنت أود أن أرقص) وكانت هناك أزهار تغطينى، وتفوح من جميع أفرعى رائحة البرتقال. تساءلت إن كنتُ قد وصلت أخيرًا إلى الأراضى الاستوائية، إلى حديقة الوفرة والراحة، إلى الفرح الهادئ الذى لا ينتهى المخصص لمن يموتون تحت شعار "كيوتى ـ تلالوك"، سيد المياه، ربما كان علىّ أن أمضى زمنا أبديًا رغم أنفى.

رغم أنه كان موسم الإثمار، وليس الإزهار، فإن الشجرة اتخذت توقيتى الخاص، دورة أمسيات أخرى: أعود للميلاد بدم امرأة.

لم يمر أحد بهذا الميلاد كما حدث عندما أخرجت رأسى من بين فخذى أمى. فى هذه المرة لم يكن هناك تخوف ولا صرخات فرح. ولم تدفن القابلة حبلى السرى فى الركن المظلم من البيت، ولم تأخذنى بين ذراعيها لتقول لى: "تكونين فى البيت كالقلب فى الجسد... ستكونين الرماد الذى يغطى نار المكان". لم يبك أحد عندما وضعوا لى الاسم كما فعلت أمى، كانت خائفة لأنه منذ ظهور شرايين الذراعين الحمراء

بشعر فى الوجه، فإن كل التكهنات كانت محزنة. حتى أنهم خافوا من استدعاء العرّاف ليضع لى اسمى، ويعطينى ألوانى. فقد خاف أبواى من معرفة مصيرى.

غسلتنى القابلة، وطهرتنى متمتمة باسم "تشالشيوهيتلوكى"- أم وشقيقة الآلهة ـ وخلال هذه الاحتفالية نفسها أطلقوا علىّ اسم "إيتثا"(*)، نقطة الندى. منحونى الاسم النهائى دون انتظار بلوغى سن الرشد لاختياره لأنهم كانوا يخافون المستقبل. الآن، على العكس من ذلك، فإن كل شىء يبدو هادئًا من حولى: هناك حشائش حديثة القطع، زهور فى أصص كبيرة ونسمة باردة تحركنى، تهدهدنى تطوح بى من جانب إلى آخر كما لو كانت تحيينى، ترحب بى فى الضوء بعد ظلام طويل.

هذا المحيط بى غريب. تحيط بى جدران، مبان من جدران غليظة كتلك التى كان يجبرنا الإسبان على بنائها.

شاهدتُ امرأة، تلك التى تعتنى بالحديقة، طويلة، ذات شعر قاتم، جميلة. لها ملامح تشبه نساء الغزاة لكنها تتحرك بحزم، كما كنا نسير ونتحرك قبل قدوم الأيام السيئة. أتساءل إن كانت تعمل لدى الإسبان. لاأعتقد أنها تعمل فى الفلاحة، أو تعرف كيف تغزل. لها يدان رقيقتان وعينان كبيرتان، براقتان. تلمع بدهشة من لا يزال يكتشف شيئًا جديدًا.

(*) إيتثا. نقطة الندى.

عندما ذهبتْ تلك المرأة سكن كل شيء. لم أسمع أصوات المعبد، ولا حركة الكهنة. لم يكن يسكن هذا البيت وتلك الحديقة سوى تلك المرأة. ليس لها عائلة، ولا سيد ولا آلهة لأنها تخاف: أغلقت الأبواب والأقفال قبل أن تغادر.

***

في يوم أزهرت فيه أشجار البرتقال، استيقظت "لافينيا" مبكرًا للذهاب إلى العمل لأول مرة في حياتها. أسكتت المنبه وهي تحت سيطرة النعاس. كرهت صفارة السفينة تلك التي تعكر صفو الصباح. فركت عينيها وألقت عنها الكسل. كانت الرائحة تدخل من جميع النواحي. رائحة الأزهار التي تنطلق من الحديقة تحاصرها بقوة. أطلت من النافذة مقرفصة على السرير ونظرت من هناك إلى شجرة البرتقال المُزهرة. شجرة عجوز تقع بالضبط أمام نافذة غرفة النوم. زرعها بستاني عمتها "إينيس" منذ زمن مُقسِماً إنها ستثمر طوال العام، لأنها نبتة نتجت عن تهجين تم على يديه الساحرتين. وهو البستاني، الخبير في مجال التشجير. أحبت العمة الشجرة رغم أنها لم تزهر أبدًا طوال حياتها التي عاشتها.

اعتقدت "لافينيا" أن السبب هي أمطار ديسمبر المتأخرة: "مطر في غير موسمه، علامة على المعجزة". هذا ما كان يقوله جدها.

دخلت الحمّام بكسل. وأثناء مرورها فتحت الراديو رافعة عن الأرض الملابس التي سقطت بسبب

إهمالها عند عودتها، بعد سهرة طويلة، لتنام. كانت تحب غرفة نومها المزينة بسلال ووسائد ملونة. فكرت أثناء استحمامها أنه يمكنها براتبها كمهندسة معمارية أن تُحسّن من الديكور الفولكلورى، كانت متحمسة بسبب إقدامها على الذهاب إلى أول يوم عمل لها.

كانت رائحة الزهور تقطر من ماء الدش. إنه فأل حسن أن تزهر الشجرة تحديداً فى ذلك اليوم، قالت لنفسها، دعكت الشعر الطويل الكستنائى، ثم مررت بعد ذلك المشط لفرده. خرجت من الحمّام مجففة نفسها بالمنشفة الشاطئية الكبيرة وتزينت أمام المرآة التى تزيد من حجم العيون فيها، فتبدو ملامح وجهها لافتة للنظر. ما كانت تحب أن تكون مثل "سارا"، أفضل صديقاتها، أن تكون لها ملامح دمية من البورسلين. فإن لعدم الكمال جاذبيته. فملامح وجهها غير عادية ومناسبة لتلك الفترة. منذ الستينيات، موسيقى الروك، مودة الهيبى، والتنانير القصيرة كانت علامة على الحداثة التى تتمتع بها الآن، فى سنوات السبعينيات.

نعم، قالت لنفسها، اختارت الملابس بعناية كبيرة، هزت رأسها لتعديل خصلات الشعر ـ فالسر ليس فى التسريحة ـ كانت هى على نسق تلك الفترة. لقد انتقلت منذ أكثر من شهر تقريباً لتعيش فى بيت العمة "إينيس" بعد مغادرة البيت الأبوى. كانت امرأة وحيدة، شابة واستقلالية.

تولت العمة "إينيس" تربيتها منذ صغرها. كانت تمضى فى بيتها فترات طويلة؛ لأن أبويها كانا منشغلين بحياتهما الشبابية، والحياة الاجتماعية، والنجاح فى العمل. فقط عندما انتبها إلى أنها شبت، لاحظا أنها نمت، وبرز نهداها، والزغب، واستدارات جسدها، فقررا تطبيق قوانين الأبوة بإرسالها للدراسة فى أوروبا كما هو معتاد فى تلك الفترة بين الطبقة الراقية.

ما كانت تحب العمة "إينيس" مغادرتها المكان أبداً، لكنها رغم عدم رضاها عن الحقوق الأبوية لشقيقها، فقد اكتفت بتحذيرهما بأنها لن تترك لهما اختيار نوع دراستها كسكرتيرة مزدوجة اللغات أو طابعة على الآلة الكاتبة. فقد كانت تريد هى أن تكون مهندسة معمارية وهذا من حقها، قالت لها ذلك. لها كل الحق فى أن تبنى البيوت الكبيرة التى كانت ترسمها فى الحديقة، وتلك النماذج التى كانت تقيمها بعناية مستخدمة أعواد الثقاب وصناديق الأحذية القديمة، وتلك المدن السحرية. لها الحق فى أن تحلم بأن تكون شيئًا مهمًا، وأن تكون مستقلة. وفتحت أمامها الطريق قبل موتها. فقد أورثتها بيت أشجار البرتقال وكل ما كانت تملكه "عندما تريد أن تستقل بنفسها".

أنهت "لافينيا" ارتداء ملابسها مستنشقة بعمق تلك الروائح التى تنتشر فى قمة يناير دون أن تنتبه إلى الترتيب المتغير فى زمن الطبيعة، دون أن تشك فى

المصير الذى كان يشير إليها بإصبع طويل وغير مرئى. أغلقت باب الغرفة وقطعت البيت متممة على الملابس والأبواب. كان البناء رائعًا، نسق مُصغر للبيوت الاستعمارية الكبيرة التى تطل على الأفنية الداخلية. عندما تملكته كان يعانى من الإهمال، تصرّ أبوابه، ويقطر سقفه، ويهتز من روماتيزم الرطوبة والإهمال. بأموال حصلت عليها من بيع بعض الأثاث القديم وخبرتها كمهندسة معمارية، قامت بتحديثه. بعدها ملأته بالشجيرات، والوسائد الملونة، وأرفف الكتب والأسطوانات، لتنفض عنه الغبار الجنونى الذى يسكن الأفراد من كبار السن المنعزلين. كان الإهمال واضحًا فى ذلك اليوم، بعد عطلة نهاية الأسبوع بدون وجود "لوكريثيا"، الخادمة، الوحيدة التى كانت تنسقه، لأن "لافينيا" كانت معتادة على الحياة المرفهة والسهلة. فقط عندما تأتى "لوكريثيا"، ثلاثة أيام فى الأسبوع، كان البيت ينفض عنه الغبار ويمكن تناول الطعام ساخنا. وبقية أيام الأسبوع يكون الأكل فيه معلبًا، أو تناول أنواع من الجبن، والسجق والمكسرات، لأنها لم تكن تجيد الطهى.

كانت رياح يناير تبعثر زهور شجرة البلوط الوردية بين الأركان. وهوشت تسريحتها عندما خرجت إلى الشارع وسارت على الأرصفة العريضة لحيها. لم تكن ترى جيرانها إلا نادرًا، أشخاص من كبار السن، من عمر عمتها. ينتظرون الموت فى صمت، مدرعين بالذكريات خلف جدران بيوتهم

الضخمة، ينطفئون فى ظلال غرفهم. يحزنها مشاهدتهم فى الأمسيات مستلقين على كراسيهم البيضاء أمام أبواب بيوتهم المفتوحة على صالونات مهملة. تجعلهم الشيخوخة فى حالة مرعبة وانعزالية.
عادت للنظر إلى بيتها بشىء من الحزن، متذكرة عمتها "إينيس". وإن بدت ربما متقبلة موتها دون أن تصل إلى حالة الشيخوخة، وإن كانت "لافينيا" قد أحبت أن ترى هيئتها الطويلة والفارعة وهى تودعها من البوابة كما كانت تفعل عندما كانت تخرج هى من البيت، نظيفة ومهندمة، لتذهب إلى المدرسة فى الصباح. فى ذلك اليوم، كانت متأكدة، أنها ستودعها وداع امرأة لامرأة، واضعة فيها أحلامها التى لم يسمح لها زمنها بتحقيقها. لقد ترملت مبكرًا، لم تستطع العمة "إينيس" أبدًا أن تتغلب على عزلتها. ولم ينفعها فى شىء أن تكرس نفسها لرعاية الشعراء والفنانين، وحبيسة زمنها الموسوم بإخفاء التفاصيل الصغيرة.
آخر صورة تحتفظ بها عنها كانت وداعها لها فى مطار "فيوميثينو". كانتا قد أمضيتا معًا شهرين من الإجازة فى إيطاليا. واعترفت لها العمة إنها تفتقدها جدًا وإنها كادت تموت من الحزن. لم تشك "لافينيا" أبدًا فى مرضها القاتل الذى كان يلتهمها وإن كانت تحاول ـ بابتسامة أن تتغلب على معانى كلماتها ـ أن ترى إنه من الأفضل الاستمتاع بالزمن إلى أقصى حد ـ لا يمكن معرفة ما تخبئه الحياة لأى منا ـ وأمضت ثلاثة أشهر أخرى فى محاولة تعلم اللغة الفرنسية.

هذا ما قالته لها فى المطار من بين دموعها. تتذكر "لافينيا" إنها لاحظت إلى أى مدى كانت نحيلة بينما كانتا تبكيان محتضنتين أمام نظرات التفهم التى كانت يتطلع بها الإيطاليون إليهما. ووعدتها هى أن تكتب لها رسائل مطولة. وإن سرعان ما يدور الزمن وستكونان معًا مجددًا سعيدتين. ولم تعد إلى رؤيتها بعدها على الإطلاق. عندما ماتت لم ترغب فى العودة مبكرا لحضور جنازتها. ستتذكر العمة "إينيس" حية. وكانت تعرف إنها توافق على ذلك.

كانت الشوارع فى تلك الساعة خالية. حثت الخطى لتصل إلى الطريق العام، على حدود حيها الملىء بالعجزة. عند الناصية أوقفت سيارة تاكسى، "مرسيدس بنز" الفاخرة، توقفت إلى جانبها. لم تتوقف أبدًا عن الإعجاب بغرابة التاكسى "مرسيدس بنز"، فى "فاجواس"، يهدى الجنرال الأكبر رخصًا مجانية للعسكريين لاستيراد عربات "مرسيدس بنز" الذين يبيعونها بدورهم إلى الجمعيات لتستخدمها كسيارات أجرة، تلك الجمعيات كانوا هم أعضاء فيها، ويشترون أنواعًا حديثة. وبهذه الطريقة كانت "فاجواس" فقيرة ومترية وحارة، وعربات الأجرة فيها من ماركة "مرسيدس بنز".

لم تسترح جيدًا على الكراسى التى تفوح برائحة الجلد، وانتبهت إلى ما تبثه الإذاعة. كانوا يذيعون محاكمة مدير سجن "لا كونكورديا". فقد كانت المحاكمة حديث إجبارى فى الأيام الأخيرة، وكانت هى

قد سئمت الموضوع. لم تكن تريد سماع المزيد من تلك الأحداث المزعجة لكنها كانت سجينة فى التاكسى. وسائق التاكسى، كان منتبهًا للحديث الإذاعى دون أن يفقد انتباهه لمتابعة الطريق. نظرت هى من النافذة. من تلك المنطقة المرتفعة يمكن رؤية المدينة، والظلال البعيدة للبراكين الممتدة على طول شواطئ البحيرة. كان المشهد جميلا، كان جميلا إلى درجة الإحساس بعدم الرضاء من مسألة تحويل البحيرة إلى محمية للطيور. كانت تتخيل ما يمكن أن يحدث لو أن المدينة أدارت ظهرها لمشهد البحيرة، لو كان هناك متنزه على الشاطئ ليتنزه فيه العشاق والمربيات بعربيات الأطفال فى المساء. لكن الجنرالات الكبار لم يهتموا مطلقًا بالجماليات. كانت المدينة عبارة عن مجموعة من المتناقضات: قصور مسوّرة وبيوت فقيرة. ما كان لها أن تهرب من صوت الطبيب الشرعى، الشاهد الأساسى فى المحاكمة، كان صوته الواثق يصف آثار التعذيب التى عثر عليها فى جثة السجين. قال إن شقيق الميت ـ مُتهم أيضا بالتآمر ـ ألقى به مدير السجن إلى بركان "تاجو". وكان "التاجو" بركانًا فى حالة من النشاط تنبع منه حمم ملتهبة. لو نظر إليه أحد عند حلول الظلام فإنه يشاهد النار من على جوانبه. اعتقد الغزاة الإسبان أن بداخله ذهبًا مصهورًا. كان الطبيب يصف كسور وجراح الشقيق، القتيل أيضًا، كان يتحدث كأحد المهندسين عن آثار ناتجة عن زلزال. كان الحديث مليئًا بالكلمات التقنية

المتخصصة. تذكرت كيف كانوا يدمرون الأعمدة الأرضية فى الأفلام الوثائقية التى كان يعرضها عليهم الأستاذ بجامعة "بولونيا". ولكن الأمر هنا متعلق بالبشر، بالتدمير الذى حل ببناء بشرى.

"ما كان يجب أن أبقى فى "بولونيا""، فكرت، متذكرة شقتها هناك القريبة من برج الأجراس. كان هذا رد فعلها كلما واجهت الجانب المظلم فى "فاجواس". لكن فى أوروبا كان عليها أن تقنع بالعمل فى مجال الديكور الداخلى، وتجديدات المبانى القديمة على ألا تغير من ملامح واجهاتها، لأنها تاريخ أفضل ما مضى من زمن. فى "فاجواس" التحديات مختلفة. التحدى يتعلق بالسيطرة على الطبيعة البركانية، والزلزالية، والثرية: امتداد الأشجار التى تخترق الأسفلت المترامى. التشققات فى "فاجواس" كثيرة، وكذلك الرغبة فى الحياة. كانت تلك وطن الرغبة: جسد مفتوح، عريض، مثير، نهود غير مستوية لامرأة مصنوعة من الأرض، مستلقية على المشهد الطبيعى، مثيرة للخوف، وجميلة.

لم تكن ترغب فى سماع الحديث عن الأموات. التصقت بوجهها على زجاج النافذة، متأملة الشوارع بإمعان. ما تحتاجه "فاجواس" هو الحياة، لهذا السبب كانت هى تحلم ببناء مبان، أن تترك أثرًا، أن تمنحها لونًا، تحديدًا وتنسيقًا، أن تستبدل النسخ المشوه لناطحات السحاب النيويوركية بشارع "ترومان" بتخطيطات مناسبة للمشهد الطبيعى المحيط بها ـ

يتقدم التاكسى ببطء فى وسط الازدحام ـ رغم أن كل هذا يكاد يكون حلمًا مستحيلاً، فكرت، ناظرة إلى لافتة لبيع الشقق فى مبنى أُفتتح حديثًا. يمكن من الشارع رؤية السلالم الكهربائية، الشىء الأكثر حداثة فى البلاد، توجب على المركز التجارى أن يضع حارسًا على الباب لمنع الأطفال من باعة الصحف الجوالين من الدخول، الذين ما أن تم وضع السلالم الكهربائية حتى استخدموها لعبة يصعدون ويهبطون ساخرين ومثيرين الرعب بين السيدات الأنيقات اللاتى يأخذهن السلم الكهربائى إلى عالم الاستهلاك. كانت المدينة تبحث عن التحديث على حساب أى نوع من أنواع الأدوات الشاذة.

القتلى كانوا أعضاء فى حركة التحرير الوطنية السرية، "إنهم الشجعان الوحيدون فى هذا البلد"، كان يقول "أدريان"، زوج "سارا". "بأية طريقة أخرى يمكن إنهاء حالة القمع؟"، هكذا كان يقول وكيل النيابة عندما توقف التاكسى.

نظرت "لافينيا" إلى الساعة. إنها الثامنة صباحًا. الوصول فى الموعد المحدد. دفعت أجرة التاكسى. شاهدت السائق ينظر إلى الساقين الطويلتين، وانتبهت إلى السخرية فى ابتسامته التى تمنى لها بها "صباحًا طيبًا" بعد أن أجبرها على سماع الوصف الممل لحياة الطبقة الحاكمة المهجنة.

عبرت إلى المدخل. كان المبنى حديثًا. من نوع علب الكبريت. مستطيل، والحوائط رمادية مع

تفصيلات باللون الأحمر، به مصاعد، علامة على الرفاهية، كانت هناك خمسة أو ستة مصاعد فى كل "فاجواس". يقود المصعد إلى مكاتب أنيقة لأطباء ومهندسين ومحامين ومعماريين. قبل أيام، عندما جاءت لإجراء امتحان القبول فى العمل. توقفت "لافينيا" فى كل طابق بدافع من حب الاستطلاع. كلها متشابهة، أبواب كبيرة من الخشب واللافتات مكتوبة بحروف مذهبة.

دفعت الباب الخشبى لمكتب "المعماريون المتحدون، ش.م." فوجدت صالة استقبال واسعة وحديثة، أمام السكرتارية ذات العيون الخضراء التى طلبت منها الجلوس. السيد "سوليرا" سوف يستقبلها بعد لحظات.

أمسكت بمجلة وأشعلت سيجارة. فى مكان ما من المكتب يوجد جهاز راديو يواصل بث وقائع المحاكمة، من حسن الحظ أنها لم تكن تسمع الكلمات بوضوح.

لإضفاء مزيد من المهنية على مظهرها تظاهرت بالنظر إلى المجلة باهتمام، تلك البيوت التى يبدو على ديكوراتها الداخلية تقريبًا أنه من المستحيل تخيل كائنات بشرية يمكن أن تعيش فيها، يمكن القول إنها مصنوعة من أجل ملائكة سماويين، لا حاجة لهم إلى الاحتياجات البشرية البدائية كوضع السيقان على الموائد، أو تدخين سيجارة، أو تناول الطعام الطازج.

عندما حضرت للمقابلة، تحدث "خوليان سوليرا" بكثير من التفاصيل عن صعوبة العمل كمهندس معمارى فى "فاجواس". قال لها، هنا ليس مثل أوروبا، حيث تأتى السيدات بالصفحات وصور الرسومات الهندسية التى تقدمها مجلة "هاوس اند جاردن" و"هاوس بيوتيفيول". وقد عشقن مسكنًا فى جبال "الألب" ويقررن تطبيق الرسوم على بيت صيفى على الشاطئ. يجب إقناعهن بأن تلك الرسومات فى بلد آخر. هنا المناخ حار، ومواد البناء مختلفة. لكن المرأة هى المرأة، كما قال لها، لذلك سيكون سهلاً عليها توصيل الفكرة إليهن. لأن النساء يفهمن بعضهن بعضًا، وابتسم عندما ذكّرها بذلك، وعندما شاهدت كيف ابتسم عرفت أنه سوف يعطيها العمل، فقد كانت البداية فيها بعضًا من عدم الثقة. عندما دخلت مكتبه فى الأسبوع الماضى، تلبية للدعوة التى جاءت بناء على الصداقة التى تربطه بـ"أدريان"، فإن هذا سهّل من الأمر كثيرًا. تفحصها "سوليرا" جيدًا، سجل مدى تأنقها وطول تنورتها، وشعرها غير المنسق المجعد. لقد كان رجلا فى الأربعينيات، وله عينان يقظتان، كان مباشرًا وعمليًا، ولكن بالطريقة الترغيبية نفسها التى تسكن رجلا لاتينيًا فى هذا العمر. بعد التحية الأولى، عندما أخرجت هى ملفها وقدمت ما يثبت إعدادها الأكاديمى بحذق، ومدى كمال مشروعاتها الجامعية، ورؤيتها حول حاجات المعمار فى "فاجواس"، مدافعة عن عشقها للمعمار بالحماس النابع عن فتاة فى

الثالثة والعشرين، استسلم "خوليان". وبدأ يشرح لها عن مدى الصعوبات المحلية للمهنة مثل طفل يتحدث عن دراجته، وسرعان ما توصلا إلى أهمية التعاقد معها. وهى لم تندم مطلقًا على استخدامها للأسلحة الأنثوية التى تمتلكها كامرأة. استغلال الانطباع الذى تتركه الأنثى فى الرجال، فالبشرة الناعمة ليست مسئوليتها بل إرثها التاريخى.

طال الانتظار. عبَرَ الردهة رجل متوسط القامة ذو عينين رماديتين ودخل مكتب "سوليرا". قالت السكرتيرة ذات العينين الخضراوين لـ"لافينيا" أنه يمكنها أن تدخل.

كان المكتب حديثًا. به كراس من الجلد، ورسوم تجريدية على الجدران بإطارات من الألومنيوم. ونوافذ كبيرة الحجم تطل على مشهد البحيرة، والبراكين. وصور لحيوانات متوحشة كبيرة الحجم، تقدم السيد "سوليرا" لتحيتها، أعجبتها هذه الطريقة الدالة على رجولة قديمة، وإن كانت الرسميات قد غطت عليها. ورأت أن معاملتها بلقب "حضرتك" يليق بجيرانها من العجائز أكثر مما يليق بها.

قال "سوليرا": أقدم لك "فيليبى اتوربى".

كان المذكور واقفًا فى منتصف المسافة بينهما ويبدو عليه محيًا مبنى معماريًا بشكل جيد. ضغط على يدها بقوة. لاحظت "لافينيا" أن عضلات ذراعه واضحة، وأعصابه النافرة، وطبقة الزغب الأسود

الأجعد التى تغطيها، والذى يكاد يشبه شعر عانة المرأة. كان أكثر شبابًا من "سوليرا" وله نظرة ساخرة ظهرت عندما أشار إلى دراستها الأكاديمية، ومدى أهمية وجود امرأة فى فريق العمل، وكان يشرح لها هى دور "فيليبى" كمعمارى منسق، مكلف بتوزيع العمل والتفتيش عليه فى جميع المجالات. وقال "سوليرا" إن المعمارى "اتوربى" مكلف بتسهيل مهمتها للتعرف على قواعد وطرق العمل فى المكتب.

كان يبدو أن كلا الرجلين يستمتعان بدورهما الأبوى فى العمل. شعرت "لافينيا" أنها تبدو أقل منهما، فحيت من داخلها التوجه التطوعى الرجولى وتاقت إلى انتهاء عملية التعريف بينهم سريعًا. فهى لاتحب أن تبدو كما لو كانت فى واجهة عرض. هذا ذكّرها بعودتها من أوروبا عندما كان أبواها يقدمانها فى الاحتفالات، ويطلقانها بين الحاضرين حتى تكون تحت نظر تلك الحيوانات الصغيرة التى ترتدى الملابس الأنيقة وأربطة العنق. حيوانات أليفة تبحث عمن تمنحهم أطفالاً أصحاء وممتلئين، ومن تعد لهم الطعام، وتنسق لهم غرف النوم. كانوا يعرضونها تحت خيوط عنكبوت زجاجية وضوئية مثل قطعة من "البورسلين" فى ذلك السوق السجين لعمليات التزويج التى تفوح برائحة المزاد. لقد كانت تكره هذا المناخ. لم تكن ترغب فى المزيد من هذا. جاءت إلى هنا هربا منه، تحركت بشكل قلق. وأخيرًا، أنهى السيد "سوليرا" عملية التعارف وخرجت هى خلف "فيليبى".

سارا فى الممر نحو مكان مضاء من صالة الرسم، كانت النافذة الكبيرة تعبر المبنى من أقصاه إلى أقصاه غامرة المكان بضوء طبيعى. كان الديكور حديثًا، مقاعد مغطاة بقماش الكتان فى كل الأركان وتقسم المكان على شكل دوائر من المعماريين. قال "فيليبى"، "لكونك امرأة، سيكون لك امتياز امتلاك مكتب إلى جوار النافذة الكبيرة". وفتح الأبواب ليعرضه عليها، ثم أخذها إلى المكان الذى يعمل فيه هو. كان أكبر قليلا. وكان هناك أفيش بسيط بألوان الباستيل يعلن عن معرض لفنون الجرافيك، معلق على الحائط.

شاهدت فى الدولاب الذى يوجد خلف المكتب جهاز راديو أسود قديمًا جدًا. تساءلت "لافينيا" إنه ربما يكون هو الذى كان يستمع إلى المحاكمة، لكنها لم تقل شيئًا.

جلست على الكرسى القماشى ذى اللون الرملى، والمحاط بإطار من الحديد المطلى، بينما ظل هو معتمدًا على كرسى إلى جانب طاولة الرسم.

ـ لك اسم غريب ـ قال، متوجهًا بحديثه إليها بغير ألقاب.

ـ إنه نتيجة تعلق أمى بالأسماء الإيطالية ـ أجابت هى مبينة قبولها صاغرة بالإشارة إلى دور الأم.

ـ هل لك إخوة بأسماء على هذا النحو؟ "رمولو"، "ريمو"...؟

ـ لا، ليس لدى إخوة، كنت الابنة الوحيدة.

ـ آههه ـ تساءل هو، محملا تعبيره كل ما تشير إليه كلمة الابنة الوحيدة: البنت المرفهة، المدللة...

لم تستسلم للهجوم، علق ساخرًا أن الإنسان لايملك أين يولد لأن الميلاد ما هو إلا عملية قدرية. كانت تود أن تسأله إن كانت نغمة السخرية يمكن أن تكون نفسها لو إنها كانت رجلا وتحمل اسما مثل "ابولوينيو" أو "اخيل"، وهو أمر عادى فى "فاجواس"، لكنها فضلت عدم الصدام على الأقل فى ذلك اليوم. فالأيام قادمة، قالت لنفسها. وجهت الحوار إلى الجانب المهنى. كان "فيليبى" يعرف المهنة جيدًا، حكى لها أنه درس لبضع سنوات فى ألمانيا، وأضاف إنه، كان يعمل نهارًا، ويدرس فى الجامعة ليلا، من خلال الحديث وجدا همومًا مشتركة عن التناسق المحدد، الأشجار والبراكين، وتداخل المعمار فى المشهد العام الطبيعى، وإنسانية البناء اعتقدت أنهما سيتفاهمان فى مجال المهنة، بعد نحو الساعة كان يبدو أنه ينظر إليها بشكل آخر، بدا وكأنه أبعد التنورة القصيرة عن ذهنه، قطع التليفون حديثهما، رفع "فيليبى" السماعة واستمر فى حوار بكلمات قصيرة جدًا، من تلك التى يتكلمون بها عندما تكون هناك رغبة فى عدم الكلام فى حضور شخص آخر، تصنعت "لافينيا" عدم الاهتمام من خلال النظر من حولها إلى أن وضع هو السماعة، وأعلن أنه يجب أن يخرج وتركها على باب مكتبه مع مجموعة من الرسوم الهندسية.

وبعد أن أصبحت وحيدة فى ركنها جلست أمام طاولة الرسم. استدارت عدة دورات على الكرسى الدوار مستمتعة بشعورها أنها "معمارية" لأول مرة، كان المناخ فى الخارج حارًا. يمكن رؤية البخار نابعًا من الأسفلت. عند حلول المساء يرتفع البخار باتجاه السماء على هيئة أبراج من السحاب الكثيف. تراكمات من السحب البرتقالية التى تنزلق فى السماء قبل أن يختفى الضوء منهيا يوم العمل الأول.

فردت الرسوم الهندسية وبذلت جهدا للتعرف على المصطلحات. هذا كان تدريبًا عمليًا، النظرى يبدو مختلفا خلال التدريب العملى، شيئًا فشيئًا استطاعت أن تتبين مكان المركز التجارى، والبيوت الصغيرة المتشابهة خلال التنظيم الجديد. كان التخطيط عاديًا، يمكن أن يكون فى إحدى ضواحى الولايات المتحدة أو فى "فاجواس"، رغم أن التضاريس الجغرافية تقدم إمكانات أخرى. مؤسف الحد من التخيل بتلك الخطوط المربعة. بدأت ترسم دوائر، وتركت نفسها تسير بقوة تصوراتها، "أريد أن أعرف رأيك؟"، كان قد قال لها "فيليبى".

افتقدت فنجان قهوتها، وقفت وخرجت من ركنها، "مرثيدس" سكرتيرة المعماريين، امرأة شابة، سمراء وممتلئة، أبدت استعدادًا كافيًا، وقالت: "سأحضره لك الآن". وخرجت على الفور تحت نظر الرسامين اليقظة. بقيت "لافينيا" للحظات بالباب مبتسمة

للعيون المتسمرة بالرسوم الهندسية. عادت "مرثيدس" بفنجان من القهوة يتصاعد منه البخار.

قالت: ها هو يا آنسة "الاركون".

قالت هى: نادنى "لافينيا"، مناداتى باسم "الآنسة الاركون" يبدو رسميًا جدًا.

وسألت: ألا تعرفين إن كان "فيليبى" سيعود مبكرًا؟

قالت: لا أحد يعرف أبدًا متى يعود عندما يخرج فى منتصف الصباح.

عاد فى المساء مبكرًا وأطلقت "لافينيا" مجموعة من أفكارها.

قال "فيليبى":

ـ عليك أن تذهبى إلى رؤية المكان.

- ٢ -

عادت مع حلول المساء، فتحت الأبواب والنوافذ، كانت تبدو سعيدة، سعيدة مثلى تماما وأنا التى أمضيت اليوم كله فى التعرف على العالم، متنفسة من خلال أوراق هذا الجسد الجديد. من كان يمكنه أن يقول لى أن هذا سوف يحدث؟! عندما كان كبار السن يتحدثون عن جنان استوائية مكافأة لمن يموتون فى الماء تحت برج "كيوتى ـ تلالوك"، كنت أتخيل مناطق شفافة مصنوعة من عناصر الأحلام. لكن الواقع كثيرًا ما يكون أكثر خيالاً من الخيال نفسه. أنا لا أتجول فى حدائق، أنا جزء من الحديقة. وهذه الشجرة تعيش مجددًا مع حياتى. كانت مريضة تمامًا ولكنى وضعت عصارة فى كل أفرعها، وعندما يأتى الموسم ستعطى ثمارًا وتبدأ دورة الحياة من جديد.

أتساءل كيف أن العالم تغير. لاشك أنه تغير كثيرًا. هذه المرأة تعيش وحيدة، لا عائلة لها ولا سيد، تتصرف كصاحبة مقام رفيع تخدم نفسها

فقط، جاءت لتستلقى فى "الهاماكا"(*) بالقرب من أفرعى. تمدد جسدها وتفكر. لديها الوقت للتفكير، لتكون على هذا النحو، دون أن تفعل شيئًا، فقط تفكر.

تحيط بى جدران عالية. أتساءل ما الذى يمكن أن يحدث لأهلى، أين سيكون "يارينثى"؟ ترى هل هو يسكن فى شجرة أخرى أم إنه يتجول فى السماء كضوء أو متجسد فى شكل طائر طنان؟ أعتقد إننى مازلت أسمع صرخته، تلك الصرخة الطويلة اليائسة التى تثقب الهواء كأغنية مسمومة.

أتساءل عن ما سوف يبقى منا، من أمى التى لم أرها أبدا بعدما ذهبتُ أنا مع "يارينثى". لم تفهم أبدًا إنه لا يمكننى ببساطة أن أبقى فى البيت. لم تغفر أبدا لـ"ثيتالكواتل" إنه علمنى استخدام القوس والسهم.

***

عندما فتحت "لافينيا" باب البيت شعرت بالرائحة الذكية من جديد، رائحة الزهور، رائحة النظافة. كان البيت يبرق. كانت "لوكريثيا" قد نظفته. وجدت الورقة التى كتبتها بخطها البداتى تخبرها فيها إنها ستأتى الأربعاء مبكرًا لتراها قبل أن تذهب إلى

(*) الهاماكا: سرير معلق يتشكل من مجموعة من الحبال المضفرة، يتم تعليقه بين شجرتين أو حائطين أو فى شجرة من ناحية وفى حائط من ناحية أخرى. وهو مستخدم بكثرة فى المناطق الريفية والجبلية فى معظم دول أمريكا اللاتينية، وعادة ما يستلقى عليه الرحال طلبًا للراحة بعيدًا عن الحشرات والزواحف التى تسرى على أرض تلك المناطق الحارة.

العمل وتعد لها الإفطار. ابتسمت وهى تفكر فيما فكرت فيه "لوكريثيا"، فى طريقة وجودها ثلاث مرات فى الأسبوع، تنظم لها الحياة. دخلت إلى المطبخ وتناولت جرعة من شراب الروم، توجهت بعدها إلى "الهاماكا" فى الممر. ألقت بنفسها على خيوطها الناعمة التى تشكلت بحسب جسدها. كان الممر يضيع فى ضوء الغروب، تهبط الظلال بصمت على الأشياء الساكنة. وتكاد زهور شجرة البرتقال الصفراء تبدو فسفورية فى الظلام. تأرجحت برقة بالقدم، كان شيئًا طيبًا أن تظل هناك فى سكينة. وحيدة مع نفسها، وإن كانت تحب أن تحكى ما حدث اليوم مع العمة "إينيس"، أن ترى الفرحة فى عينيها الوضاحتين والحلوتين، أن ترى الحب الذى كان ينسكب من نظرتها عندما تحكى لها نجاحاتها الطفولية. أو كان يجب أن تزور "سارا"، لكن "سارا" لن تفهم أنها تشعر بالرضاء، لم تفهم أن يشعر الإنسان أنه نفسه، أن يتخذ قراراته بنفسه، وأن يضع حياته تحت سيطرته. لقد انتقلت سارة من الأب/الأب إلى الأب/الزوج، يجتهد "آدريان" أمامها فى لعب دور رجل البيت. فيما تستمع إليه "سارا" ضاحكة، لأن الأمر بالنسبة إليها يبدو طبيعيًا، الحفلات التى كانت تستعرض فيها كانت طبيعية أيضًا، إنها الحاجة إلى التناسل، تمامًا كرقصات الإغواء فى العالم الحيوانى. تزوجت "سارا" ببطاقات الزيارة، والكتابة الحروفية والكتابات التى أشارت بها عليها "ايميلى بوست". تتذكرها "لافينيا"

خارجة من الكنيسة كسحابة ضبابية من قماش التُل وفى يدها باقة من زهور الأوركيد البيضاء، والقفازات الطويلة. وهى صورة تتكرر عبر العصور وسوف تظل حتى زفاف الأحفاد الصاخبين والممتلئين. هذه ستكون حياتها. تحققها، هذه أيضًا الحياة التى حلم بها أبواها لها. لكن حفلات النادى كانت تصيبها بالضجر، إنها تفضل طرقا أخرى فى المتعة.

ربما ترغب فى الزواج فى يوم من الأيام، ولكن ليس الآن، زواجها يعنى تحديد حياتها، خضوعها، لتفعلها لا بد أن تعثر فى طريقها على رجل خاص جدًا، وربما حتى لو حدث هذا، يمكنهما أن يعيشا معا، وليسا فى حاجة إلى أوراق لإضفاء الشرعية على حبهما.

ترطب الهواء، أطل ضوء القمر المائل إلى الصفرة، كان صوت الصمت يبدو مخيفا فى بعض اللحظات، كما لو كان يختبئ بين أفرع شجرة البرتقال، كررت أنه ربما كان يجب أن تزور "سارا"، رغم كل شيء، فإن "سارا" وهى تحبان بعضهما، كانتا صديقتين منذ كانتا طفلتين صغيرتين. تتقبل كل منهما الأخرى رغم أنهما كانتا مختلفتين. ندمت للحظات أنها اختارت حياة العزلة، لكنها كانت قد قررت أن تتعلم الحياة وحيدة، كانت طريقتها فى تمجيد ذكرى عمتها "إينيس". "لا بد من تعلم أن يكون الإنسان رفيقًا طيبًا لنفسه"، كثيرًا ما كانت تقول هذا لنفسها.

استيقظت وقامت بتشغيل التليفزيون. على الشاشة الصغيرة، بالأبيض والأسود، كانوا يعرضون وقائع المحاكمة، لقد أدين مدير السجن، كان حرّاس المحكمة ينظرون إلى الطبيب الذى ربط بين المدير والجريمة بحزم. إنه انتصار مؤقت للعدالة، بعد أشهر قليلة تم الإفراج عن مدير السجن لحسن سلوكه وقُتل الطبيب فى طريق خال.

مرت فترة اعتقدت فيها "لافينيا" أن الأوضاع يمكن أن تكون مختلفة. مرحلة حماسية عندما كانت فى الثامنة عشرة وكانت تمضى الإجازة مع أبويها. وجدت الشوارع مغطاة بأفيشات حزب المعارضة. وكان الناس يغنون أغنية المرشح الأخضر بحماس حقيقى. يبحرون فى أحلام الحملة الانتخابية التى كان يمكن أن تنتهى بفوز المعارضة. وتفرقت كل الأحلام يوم الأحد الأخير من الحملة، فقد خرجت مظاهرة كبرى شقت الشوارع تطالب بتنازل الأسرة الحاكمة، وسحب مرشحها "ابن الدكتاتور". وخطب زعماء المعارضة فى المد البشرى. ما كان يجب أن يتحرك أحد، وما كان لأحد أن يعود لبيته، كان يجب استمرار المقاومة السلمية ضد الدكتاتورية. إلى أن بدأ الجنود فى النزول إلى الشوارع بخوذات القتال وتوجهوا نحو جماعة تحمل أعلامًا متعددة الألوان، كانت تشجع الخطب الحماسية. لم يتمكن أحد بعد ذلك أن يعرف كيف بدأت طلقات الرصاص ولا كيف برزت مئات الأحذية التى شاهدتها "لافينيا" ملقاة على الأرض

بينما كانت تجرى بين مجموعة من الخيول تتجه إلى حيث توجد عمتها التى كانت تلوح لها بيديها وتناديها.

انتظرت فى تلك الليلة كل العائلات فى قلق وهى تسمع طلقات رصاص القناصة فى الليل، وبزغ الفجر وسط صمت ثقيل. وأعلنت الإذاعات أن المرشح الأخضر ومعاونيه لجأوا إلى أحد الفنادق وطلبوا حماية سفير الولايات المتحدة. كان الحديث يدور حول ثلاثمائة أو ستمائة أو قتلى لا حصر لعددهم. لم يعرف أحد على الإطلاق كم بالضبط عدد الأشخاص الذين ماتوا وحملوا معهم إلى القبر آخر حلم للكثيرين فى التحرر من الدكتاتورية.

واشتد القمع.

وبدأت منذ تلك اللحظة تظهر المنشورات. "الكفاح المسلح هو البديل الوحيد". منشورات تُلقى تحت عقب الأبواب، جماعات مسلحة تستولى على معسكرات بعيدة فى الشمال، وجماعات أخرى تلقى خطابات حماسية فى الجامعة. وتزداد الدكتاتورية حزمًا والموت نتيجة "القمع" أصبح حالة يومية.

"إنه الجنون ـ كان يقول أبوها ـ لم يعد أمامنا سوى الخنوع". بينما كانت أمها تؤمن على الكلام بهزة من رأسها.

حتى عمتها "إينيس" أصابها اليأس، ولا تتذكر "لافينيا" بقشعريرة تسرى فى جسدها سوى أنها إلى أى حد كانت قريبة من الموت المجانى.

وانتهت الأخبار إلى مجرد إعلانات مثيرة عن جوارب "الحرية النايلون" "الحرية المثيرة ثمنها فقط ثمانى بيزوات"، هكذا يعرضها المذيع، ابتسمت وهى تفكر فى كيف أن الحداثة جاءت إلى "فاجواس" من خلال السيقان النسائية، وتعرض ماركة "بانتى ـ هاوس" بأسعار شعبية، الحرية من خلال الجوارب النسائية. أغلقت التليفزيون ودخلت السرير وفى يدها كتاب إلى أن انتصر عليها النعاس، وظهر الجد مرة أخرى يدعوها أن ترتدى الأجنحة.

***

الوقت ليل، ورطوبة الأرض تدخلنى من خلال الشرايين الخشبية الطويلة. أنا يقظة، هل هذا لأننى لن أنام بعد ذلك آبدًا، لن أغادر جسدى أبدًا إلى النوم، لن أعرف بعد اليوم ما تخبئه شفرة الموت؟ من المؤكد أن هناك أشياء كثيرة لن أشعر بها أبدًا بعد اليوم. بينما كنت أنظر نحو المرأة الغارقة فى الأفكار بالحديقة وددت لو أعرف ما الذى تفكر فيه وفى لحظات معينة شعرت بها قريبة جدًا منى، كما لو كانت أفكارها تمتزج بهمهمات الريح.

آه، لكن سرعان ما تحولتُ عنها إلى القمر، لقد بزغ بعيدا، يبدو كبيرًا ومصفر اللون، كثمرة فاكهة ناضجة ترتفع فى الأفق، تتضح، وتلمع بياضًا كلما ارتفعت نحو النقطة الأعلى فى السماء. النجوم وأسرارها من جديد، لقد كان الليل بالنسبة إلىّ هو دائما زمن السحر. آن أعود لرؤيته بعد الكثير من

التساؤلات كان كافيًا لانفض عنى الحزن الذى بدأ يشعر به الجميع الذين "لن ينتظرونى أبدًا" بعد اليوم. يجب علىّ أن أشكر الآلهة؛ لأنها جعلتنى أعود من جديد وأتنفس من خلال الكثير من الأفرع فى هذا الرداء الأخضر الواسع الذى قدموه لى لأعود.

بدأت أتأرجح فى الهواء، أتطوح وأشعر أنى "لافينيا"، كم من مرة فكرت فى أسرار الأشجار، كما لو لم أكن قد مررت من خلال جذوعها العريضة، أنا الآن أعرف الفارق بين الجذور والأقدام، لأن الجذور تمنح أحاسيس مختلفة، إنها أرجل نحيلة جدًا تتمدد فى الأرض، نصف جسدى مدفون فى الأرض، لم أشعر أبدًا بهذا الإحساس القوى بالتوازن عندما كنت أسرى قريبة من سطح الأرض، عندما كانت لدىّ أقدام فقط. كان الوقت ساعتها ليلا والأضواء تتداخل حول العصافير النائمة. والحياة تفور داخلى كما لو كنتُ حاملا، آلة نسيج للفراشات. والنمو البطىء للثمار فى ألوان الزهور، ممتع التفكير فى أننى سأكون أُما لثمرات برتقال. أنا التى امتنعت عن الحمل بالأطفال.

***

فى اليوم التالى، خرجت "لافينيا" مبكرًا، واتجهت إلى مكان البناء المشار إليه فى الرسوم الهندسية للمركز التجارى، كان اليوم حارًا، ورياح يناير تهب مثيرة الأتربة، هبط التاكسى عبر الطرقات نحو مكان بالقرب من البحيرة، عندما اقتربت من المكان شاهدت

من النافذة جزءًا من المشروع تحت الإنشاء، أساسات العديد من البيوت ذات النموذج الموحد، هبطت من التاكسى وبدأت تسير بين شوارع حديثة التمهيد معفرة بالجير المختلط بالتراب المصّر على تلطيخ بنطلوناتها باللون الأبيض، وجدت هنا وهناك مجموعات من العمال يبذلون جهدهم فى تركيب الأعمدة الزلزالية والتى سوف يتم رفع الحوائط عليها. كانوا ينظرون إليها أثناء مرورها ويطلقون صيحات الإعجاب، كانوا يتركون الأسمنت ليصفّروا أو إسماعها "مع السلامة أيتها الأم الصغيرة". هذا الحصار الذى تتعرض له النساء فى الشوارع يجب أن يكون مُجّرما، فكرت "لافينيا". الأفضل أن تتجاهلهم وإن كانت فى بعض اللحظات تتوقف لتسألهم عن سير العمل، توقفت لتلقى نظرة على الرسوم الهندسية. لم تتمكن من معرفة المكان الذى سيجرى فيه بناء المركز التجارى. وبعد محاولات للعثور على الاتجاه الصحيح اكتشفت أن العلامات تشير بوضوح إلى الجانب الآخر من الشارع. رفعت نظرها وتمعنت من جديد فى البيوت المبنية بالكرتون والأخشاب، إنها المستعمرة المؤقتة. أحياء مثل تلك التى تحتل هامش المدينة، وفى بعض الأحيان تتوغل نحو مناطق وسط المدينة.

خمنت إنه على الأقل يعيش هناك نحو خمسة آلاف شخص، كانت الأكواخ تبدو هادئة. هدوء الفقر، أطفال عراة، وأطفال فى بنطلونات قصيرة يملأون

صفائح الماء من الصنبور العام. نساء حافيات تنشرن الملابس ذات الأقمشة الرقيقة والممزقة على أسلاك صدئة، وهناك فى البعيد امرأة تطحن الذرة، وعلى الناصية يقف رجل سمين يعمل فى ورشة إطارات.

طبقًا للرسوم فإن طرف المركز التجارى سيتخطى ورشة الإطارات، ويقيم مكانها محلا لبيع المرطبات. وسوف تخترق جدران البناء الجديد الحدائق الصغيرة التى تنمو فيها شجيرات الموز واللوز.

والناس؟ ما الذى سيحدث مع الناس؟ تساءلت، كانت قد قرأت فى الصحف أكثر من مرة عن عملية الإجلاء. لم تتخيل مطلقا إنها ستشارك فى أى من عمليات الإخلاء.

نظرت من حولها، كانت رياح يناير تحرك الأعشاب التى تنمو فى الأرصفة التى لم يكتمل بناؤها. كان مجموعة من العمال يضعون كتلا من الأسمنت على أساسات أحد البيوت الجديدة، اقتربت منهم. سألت:

ـ هل تعرفون حضراتكم إنه فى الجهة المقابلة سوف يتم بناء مركز تجارى؟

نظر إليها العمال من أعلى إلى أسفل، ومسح أحدهم العرق فى منديل قذر، أزرق اللون كان يحمله ملتفا حول عنقه.

حرك رأسه بالإيجاب.

سألت "لافينيا":

-لكن، وهؤلاء الناس؟

نظرت إليها المجموعة بلا اهتمام، فتاة بيضاء ومهندمة جيدًا تطرح أسئلة، هم عمال أشداء. الصدور عارية وسمراء تلمع من العرق، يسيرون حفاة. أقدامهم مبيضة من الجير كالأيدى تمامًا.

الرجل الذى كان قد أشار من قبل بتكشيرة فى جبهته، رفع كتفيه فى تعبير واضح "لمن يعرف" "ماذا يهم".

سألت هى:

ـ ومنذ متى يعيشون هناك؟

ـ آهه ـ نطق ذو المنديل الأحمر- منذ سنوات، منذ أن أغرقتهم البحيرة.

ـ وماذا يقولون هم؟

الإشارة مرة أخرى، ولكنها صدرت من جميع أعضاء المجموعة، ردة فعل مطابقة تماما، وفورية.

ـ اسأليهم هم ـ قال ذو المنديل الأحمر- نحن لانعرف شيئاً.

ـ شكرًا.

أجابتهم مبتعدة، كانت تعرف إنهم لن يقولوا لها أكثر من ذلك.

عند عبورها الشارع شعرت بعيون الرجل ذو المنديل الأحمر تخترق ظهرها.

كانت تنز عرقاً، يجرى العرق بين سيقانها فيزيد من التصاق البنطلون على جسدها. والقميص الأحمر

يلتصق بظهرها، ولطخ الماكياج منديل "الكلينكس" الذى كانت تمسح به وجهها، توجهت "لافينيا" نحو الكوخ الخشبى الذى كان يُستخدم كورشة إطارات. كان الرجل السمين يضع إطارًا فى برميل ملىء بالماء. ينظر بصبر إلى الفقاقيع التى تشير إلى مكان الشروخ، طريقة بدائية، فقيرة، ومؤكدة، لتحديد الحالة. حيته هى، وبالداخل كان هناك رجل نحيف يخرج إطارًا من الكاوتشوك من دولابه بالضرب عليه بمطرقة. نظر إليها.

سألت "لافينيا" الرجل السمين:

ـ هل تعرف حضرتك إنه على هذه الأرض يفكرون فى بناء مركز تجارى.

ـ نعم.

أجابها هو متوقفًا عن العمل. كان الإطار ينفث الفقاقيع من جميع الجوانب. وانتبه هو.

ـ هل أنت موافق؟

الإشارة نفسها مرة أخرى التى رد بها العمال، تساءلت "لافينيا" مع نفسها لماذا تطرح هذه الأسئلة، ما الذى تريد أن تعرفه؟

ـ قالوا إنهم سوف ينقلوننا إلى مكان آخر، وإنهم سوف يمنحونا أرضاً أخرى، أنا هنا منذ خمس سنوات، وهناك ـ أشار إلى داخل حى الأكواخ ـ يوجد بيتى. تحاورنا مع الشركة لكنهم يتمسكون بأن هذه

الأرض ليست ملكا لنا. وبالتالى عرفنا أننا لا نملك شيئًا! لقد جئنا إلى هنا عندما أخرجنا الماء من البحيرة هناك ـ قال، مشيرًا إلى مكان غير محدد باتجاه البحيرة ـ خلال خمس سنوات لم يتحرك أحد، لقد استثمرنا هنا، حتى أننا أقمنا مدرسة بسواعدنا جميعًا. ولكن كل هذا لا يهمهم. لا أحد يستمع إلينا، وإذا لم نذهب سيتدخل الحرس ويلقى بنا بعيدًا. هذا ما قالوه. وحضرتك من تكونين؟ تساءل الرجل وفجأة ناظرا إليها بشك، كما لو كان نادمًا على الحديث معها أكثر مما يجب.

ـ هل أنت صحافية؟

ـ لا، لا،- أوضحت "لافينيا" قلقة ـ أنا معمارية، طلبوا منى مراجعة الرسوم الهندسية. أنا لم أكن أعرف الوضع.

ـ فى هذا البلد لا أحد يعرف ما الذى يناسبه.

قال السمين، بعد أن انتبه إلى الرسوم الهندسية تحت إبطها، فأعاد الإطار إلى الماء.

ابتعدت "لافينيا". سارت قليلاً فى الخلاء المواجه للمستعمرة لترى الشوارع الترابية تنتهى إلى داخل الأكواخ الخشبية والألواح المغطاة بأوراق الصحف، والأسقف بالجريد، والطوب والزنك، والأخشاب. تعدد أقل أو أكثر فقرًا، أطفال قذرون وعراة، وعاطلون أمام أبواب بيوتهم إلى جانب كلاب مسعورة، وأشجار موز، ودجاج يتنزه. وفى البعيد، يبدو سقف المدرسة. والأطفال جالسون على الأرض. المعلمة ترتدى فستانًا مخططًا وصندلاً بلاستيكيًا تقف أمام سبورة كبيرة.

شعرت بالأسى والانزعاج. لم تكن هذه الطريقة الأكثر راحة للتعرف على أنها جزء من الجهاز المدمر الذى يجبر هؤلاء الغجر على هجرة جديدة. لماذا لم ينبهها "فيليبى"؟ تساءلت، متوجهة نحو الطريق العام تحت حرارة خانقة، ورياح تثير الغبار.

عادت إلى المكتب فى تاكسى "مرسيدس بنز".

من خلف الأبواب الكبيرة استقبلها هواء المكيف، "سيلفيا" موظفة الاستقبال، لاحظت حالة العرق التى كانت عليها. قالت لها إنه خطر عليها هذا التغير الفجائى فى درجة الحرارة، وإنها سوف تصاب بنزلة برد.

دخلت هى إلى الحمّام وجففت بشرتها بمنشفة، وتحول التراب الملتصق بذراعيها إلى طين بمجرد أن تبللت بالماء، لاحظت فى المرآة أنها شاحبة، أخرجت الماكياج لتعيد إصلاحه قبل أن تذهب لتتحدث مع "فيليبى".

طرقت الباب.

-تفضلى.

قال "فيليبى"، ودخلت "لافينيا". كانت واعية بأن قميصها لا يزال مبللاً وملتصقًا بجسدها، وأن حلمتيها مشرعتان بفعل برودة هواء المكيف.

ـ هل ألقوا عليك دلواً من الماء؟

سأل هو، مبتسمًا بفم مفتوح وأسنان عريضة غير منتظمة بعض الشىء.

قالت "لافينيا":

ـ دلو من الماء البارد! لماذا لم تخبرنى بوضع أرض المركز التجارى؟

ـ كنت أعتقد أن الفتيات مثلك لا تهمها هذه الأشياء.

أجاب "فيليبى" ملقيًا عليها نظرته الساخرة مجددًا.

ـ إذًا هأنت ترى، إن لك أحكامًا مسبقة فيما يختص بشهادة ميلادى. بالطبع يهمنى هؤلاء الناس المساكين. لا أحب فكرة بدء الممارسة العملية لرسم بناء يتسبب فى طرد خمسة آلاف روح تقريبًا، كما يقول الكهنة...

نفضت القميص بالنفخ بداخله، مروّحة على صدرها، كانت موردة الوجه، وتشعر بوجنتيها مشتعلتين، واحمرار بشرتها بفعل التناقض بين درجة حرارة جسدها والهواء الاصطناعى البارد. استلقت على الكرسى، لم يعجبها رد فعل "فيليبى".

قال هو:

-اعتقدت إنه مناسب لك أن تتخلى عن بعض أفكارك الرومانتيكية عن المعمار.

ـ كان يمكنك أن تعطينى مزيدًا من الوقت...

ـ من الممكن، أنا أعتقد أن الأمر سيكون أصعب، ستكون الضربة أقسى... دعينى أطلب لك كوبًا من الماء. أنت محمرّة البشرة والبرد يمكن أن يؤذيك.

نظرت إليه "لافينيا"، تحول تعبيره إلى أكثر طلاوة، خرج من المكتب وعاد بكوب من الماء البارد.

شكرته هى مفكرة فى الطريقة التى كان يجمع فيها العنف بالفروسية.

ـ أكثر ما أثر فىّ هؤلاء الناس المستسلمون.

قالت "لافينيا" متذكرة إشارات الاستسلام، مرتشفة الماء ببطء.

قال "فيليبى":

ـ ليس أمامهم من بديل آخر، إما أن يخرجوا أو يطردهم الحرس.

ـ هذا ما قاله لى أحدهم.

بقيا يتبادلان الحديث حتى منتصف النهار، دعاها "فيليبى" للغداء فى كافيتيريا قريبة.

قالت هى:

ـ فى يوم آخر نذهب معًا، من الأفضل أن أذهب لتغيير ملابسى.

كان "فيليبى" غريبًا، فكرت، بينما كانت تتجه إلى بيتها، لقد تحدث مطولا عن واقع المهنة، كما يقول، حاول أن يوجه أصحاب المشروع نحو تغيير مكان المركز التجارى، وتقسيم الأرض، التى اشتروها من البلدية بثمن بخس، كانت الأرض ملكية عامة. "كانت تريد رأيه فقط"، قالت له، ليست هى المكلفة برسم الحوائط التى سوف تدوس على السمين وورشة إطاراته، حاول هو فقط أن "يضعها فى الصورة" كان من الأفضل أن تتعرف على الواقع، قال لها.

-٣-

شيئًا فشيئًا بدأتُ أفهم هذا الزمن. أُعِدُ نفسى، راقبت المرأة، يبدو أن النساء لم يعدن مدجنات بل أشخاص لهم وجود رئيسى. وحتى أصبح لهن استقلاليتهن الخاصة، ويعملن خارج البيت، هى، على سبيل المثال، تخرج للعمل صباحًا، لا أعرف ما هى الفضيلة فى ذلك، آمهاتنا، على الأقل، كن يقمن فقط بمهام البيت وكان هذا كافيًا. وأقول إنه الأفضل أن تكون لهن بنات يواصلن المسيرة بالبقاء فى البيت وأن يكون لهن أزواجًا يجعلهن ينسين ضيق العالم باحتضانهن ليلا. فيما هى لا تملك هذه السعادة.

يبدو أنه فى هذا الزمن لم تعد هناك عبادة لأى آلهة، لم تشعل هى بخورًا أبدًا ولم تنحن فى طقس. ولا تتظاهر أبدا بأن هناك "توناتويه" يضىء صباحاتها. نحن كنا نعيش دائمًا تحت وقع الخوف من آن تغيب الشمس إلى الأبد، لأنه، ما الذى يضمن لنا أنها ستضىء غدًا؟ ربما عثر الإسبان على طريقة ما لضمان ذلك، هم يقولون إنهم قادمون من أرض لاتغيب عنها الشمس أبدًا. لكن لم يكن وقتها هناك

شىء مؤكد، ولغتهم الثقيلة والغريبة تنطق بالأكاذيب. اكتشفنا عاداتهم الشاذة فى وقت قصير. كانوا قادرين على القتل من أجل أحجار أو من أجل ذهب معابدنا وملابسنا. ومع ذلك كانوا يعتقدون أننا فارغو العقول لأننا نضحى بالمقاتلين على مذبح الآلهة.

كيف أننا كرهنا تلك اللغة التى عرتنا، وفتحت خروقًا فى كل ما لدينا حتى وصلنا إلى ما أصبحنا عليه!.

وهذا الزمن له لغة مشابهة للغتهم ولكنها فقط أكثر حلاوة، مع بعض النغمات التى تشبه لغتنا. لاأريد أن أغامر بالتفكير فى "منتصرين ومنهزمين".

تواصل عصارتى عملها الذى لا يكل لتحويل الأزهار إلى فاكهة. وأصبحت اشعر بأن النطفة تتغلف باللحم الأصفر للبرتقال. أعرف أنه يجب علىّ أن أُسرع. هى وأنا سنلتقى قريبًا. زمن الثمار تادم، زمن النضج. أتساءل إن كنت سأشعر بالألم عند قطافها.

***

قضت "لافينيا" الشهر الأول من العمل فى تثبيت أقدامها على الأرض تحت رقابة "فيليبى" الذى لعب دوره بحب لوضعها فى مواجهة الواقع، الهبوط بها إلى الأرض، مناداتها.

اعتادت على الروتين اليومى للاستيقاظ المبكر للعمل كل صباح رغم أنها تتحسر على ترك الفراش الرطب واللذيذ. لن تفهم أبدًا لماذا لا يمكن تغيير

ساعات العمل المبكرة، ساعات الصباح الأفضل لمواصلة النوم. إضافة إلى أنه بالنسبة إليها فإن ذلك التوقيت لا يناسبها. فقد اعتادت أن تنام عندما تستيقظ المدينة. النوم عندما تعج الشوارع بسيارات التوزيع والأتوبيسات والتاكسيات لتوزيع حمولتها من البشر والحليب والخبز بالزبد. النوم رغم الشمس التى تدخل بلا خوف عبر شقوق الأبواب.

لكن هذا السبات لم يستمر طويلاً، فقد أصبحت الآن جزءًا من هذه الحركة الدائبة، تنفس ـ ضجيج ماكينات الآلات الطابعة فى المكاتب، فقد فهمت لماذا يجد الناس لذة كبرى فى الانزعاج، فى الأوقات الخانقة لتوقيع التعاقدات وإنهاء المشروعات، لقد كانت طريقة للإحساس بالأهمية، لتجد سببًا فى الخروج من العالم ـ البيت والدخول إلى عالم ـ كتاب التوازنات الملىء بالمخاطر، خطر الخسارة والمكاسب. وتحولت الحياة بهذه الطريقة إلى تجارة مهمة، مراهنة دائمة، ويمكن للواحد أن يحاول ألا يهرب الزمن من بين أصابعه، وأنه لا بد من عمل شىء بتلك الساعات الممتدة، وتلك الأيام المتكررة يومًا بعد آخر بشكل مترابط.

خرجت من السرير وبدأت الطقوس: إعداد الماء لصنع القهوة، النظر من النافذة لملاحظة عودة ميلاد الشجرة ـ البرتقالات المستقبلية بدأت تبرز الآن بين الأفرع كبالونات صغيرة خضراء ـ والدخول إلى الحمّام ورؤية وجهها فى المرآة. وتذكرت فى وجهها

تلك الصباحات التى تبدو بعيدة بشكل غريب، وقبيحة، من حسن الحظ أن يعرف الفرد أنه سرعان ما يعود إلى شكله المعتاد، فتحت الدش لتشعر بالماء يغسل النوم، ويعلن بدء اليوم. كانت تحب فرك الصابون حتى تفور الفقاعات فى جسدها العارى، وترى شعر عانتها يتحول إلى الأبيض، التعرف على ذلك الجسد المقرر عليها بشكل غريب ليكون لها طوال الحياة، قرون استشعارها فى الحياة، "لا بد من محبته"، كان يقول لها "خيرومى" بينما كان يمارس معها الحب على شاطئ البحر، بين أشجار الزيتون المتقصفة فى لحظات الهروب من سكن طلاب اللغة الفرنسية التى تتذكرها الآن. استحمامها يجعلها تتذكر "خيرومى"، اكتشاف ملمس الفاكهة الخضراء للجسد الذكورى، تماسك العضلات التى تستقبلها من نعومة عضلاته. وبهذه الطريقة تعرفت على أن بشرتها كانت مستعدة لاستقبال المداعبات، قدرتها على إصدار أصوات تدفع إلى التفكير فى تشابهها مع قطط، ونمور، وفهود غاباتها الاستوائية.

أغلقت عينيها تحت الدش، عرضت ذاكرتها صورة واضحة لـ"فيليبى" تقف على صور غرامياتها العارضة. شىء ما يجذبها إليه أكثر من الاهتمام بالمعمار، كانا يلعبان لعبة الفأر والقط كل منهما يبحث عن الآخر والتداخل فى هروبه. صهر أحلام متعارضة كانت الحجج للنقاش الطويل بين أحدهما والآخر بالمكتب، يتجادلان بشكل متكرر منذ اليوم الذى أرسلها

فيه لتعرف عملية الإجلاء الذى يتطلبه مشروع بناء المركز التجارى. ومع مرور الأسابيع فهمت هى مدى محدودية تأثير آرائها على الزبائن، ولم تتوقف عن الإصرار، على إنه رغم أن من يملكون المال ليسوا إنسانيين تمامًا، فهم كمعماريين، يملكون سلطة وضع رسم المشروع. كانت تعانى فى قبول الأوامر البسيطة، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة من الزبائن، بكل صبر ساعدها "فيليبى" للوصول إلى حلول ملتزمة. فقط من وقت إلى آخر كان يطلب منها بصوت عالٍ أن تتخلى عن تصرفاتها التى تبدو مثل "طفلة مدللة"، مكررا أنها تحصل على راتب لتُرضى العملاء وليس مقابل التهرب من مطالبهم، وبشكل خاص عندما يبين لها مدى عقم الجدل. كانت "لافينيا" واثقة أن "فيليبى" يتلذذ من الجدل، حتى عندما يتظاهر بنفاد الصبر عندما، يراها تطل من باب المكتب بوجه مستعد للعراك، وكانت نظراتهما أثناء الاجتماعات تتلاقى وتبتعد. مع ذلك فإن الاثنين، يظهران برودًا مهنيًا متحصنا بالمبانى والبيوت ومواد بناء الأسقف والجدران، ويتحدثان على هامش الأشياء، وتجنب الموضوعات الشخصية، وأكثر من مرة كانت ترغب فى دعوته إلى بيتها، ولكنها لم تتجرأ حتى على طلب أن يدعوها إلى الغداء مجددًا، كانت تشعر أنها منجذبة إلى حقل مغناطيسى كتراب الحديد، كان "فيليبى" يتظاهر بالاعتماد على الجاذبية، وفى الوقت نفسه يتهرب من دوار تركها هى. رغم أنه كان صعبًا التفكير

بأنه لن يحدث شيء، لا بد من أن تتحدد اللعبة فى يوم من الأيام، مكتوب فى عينى الاثنين ليلة التعرى التى سيتركان فيها الحبال ويغرقان معًا. لكن ربما، اعتقدت "لافينيا" أنه هو الذى يحمل فى داخله معان تقليدية، ويستمتع باستمرار اللعبة، أن يلقى إليها بفتات الخبز كما يلقيه لحمامة بالميدان ويهشها عندما يقتربان من الخامسة مساء، لحظة الانفصال، أو ربما كانت هى ضحية أوهام رومانتيكية، قالت لنفسها، بينما كانت تسحب ساقيها من جواربها، والواقع أن "فيليبى" كانت لديه حكايات حب غير شرعى مع سيدة متخيلة تنتظر بفارغ الصبر خروج زوجها ليستجيب إلى تلك المكالمات التليفونية الغريبة التى تخرجه من المكتب فى منتصف الصباح أو المساء، أو يكون "دون خوان" متعلق بعدة نساء، صاحبات مكاتب فى المساء، أو الطلاب الذين يحتاجونه، لأنه لا يوجد شخص طبيعى يمكن أن يكون ملتزمًا بفعل أشياء كثيرة، لايوجد أحد مثله مشغول لساعات طويلة خارج المكتب.

رن التليفون فأخرجها من حالة البلبلة، لقد كان "إنطونيو"، يدعوها إلى الرقص بالليل، قبلت فورًا ودون تفكير،، كانت فى حاجة إلى الترويح عن نفسها.

عندما وصلت إلى مدخل المبنى متعجلة، وجدت "فيليبى" فى انتظار المصعد. دخل كل منهما إلى جانب الآخر، وقفًا فى صمت بين رجال ونساء وعلى وجهيهما علامات الانزعاج. فكرت "لافينيا" فى ظاهرة المصاعد الغريبة، والصمت الثقيل الذى يحتويه، فى

أى مصعد، الأشخاص يشبهون الأسماك المملحة، خائفون من التقارب، يسرعون هربًا باتجاه الأبواب المفتوحة، والمصائر المتعارضة، الشقق، وعندما يخرجون من المكان الضيق يتنفسون بكل ما تستطيع رئاتهم، كمن يخرج لالتقاط الأنفاس بعد وجوده تحت سطح الماء. المصاعد، أحشاء، أشياء من العائلة نفسها.

عندما خرجا فى الطابق الرابع، قالت هذا لـ"فيليبى"، وهو ضحك من تخيلاتها.

كانت "سيلفيا" أمام مكتبها، تلقى تحية الصباح لكل من يأتون متخلفين عن مواعيدهم.

أطلقت "لافينيا" نكاتا على الطريقة الخادعة التى ألصقتها الشراشف على آجسادهم هذا الصباح. كانت تشعر باندماجها الكامل فى المناخ الشبابى والإبداعى للمكتب. تشعر بالابتعاد عن الشكل الرسمى ليوم عملها الأول، فالسيد "سوليرا"، أصبح الآن مجرد "خوليان"، والزملاء من الرجال يحترمونها ـ كانت المرأة الوحيدة التى تحتل منصبًا مهما، كل الأخريات كن يقمن بأعمال السكرتارية والمساعدات وعاملات النظافة ـ لم يكن سهلاً، تذكرت، عندما افترقت عن "فيليبى" فى الممر والدخول إلى مكتبها المريح، المزين الآن بزهور وآفيشات على الحائط. فى البداية كانوا يستمعون إلى آرائها ببعض الحسد، عندما كان يحين دورها لتقديم مشروع أو رسم، كانوا يخضعونها لوابل من

الأسئلة والاعتراضات. لكنها لم تكن تتراجع، كانت تعرف مدى فضائل شهادة ميلادها، ومدينة بشيء لمولدها فى طبقة اجتماعية علمتها كيف تكون سيدة العالم.

موقف "خوليان" نحوها كان يخفف محاولات الآخرين فرض تعاليهم الذكورية عليها، كثيرًا ما كان يشير إلى قدرتها على الإبداع ويشيد بمهنيتها، وكان يضعها مثالاً على الاهتمام بالوصول إلى مستوى أفضل، حتى لو كان هذا على حساب الامتداد الزمنى فى الاجتماعات بالعملاء.

تركت الحقيبة على المكتب وسارت فى ممر النافذة الكبيرة، وأخذت الأقلام لبرى أسنانها بالمقص الكهربائى. ودخلت "مرثيدس" حاملة القهوة ووضعت الصحف على المائدة.

أشياء قليلة كانت تُمتع "لافينيا" مثل ساعاتها الأولى بالمكتب، لتعد نفسها نفسيا لمشادات اليوم.

فتحت الصحف وتصفحت الأخبار اليومية، مرتشفة القهوة، بعد برهة دخل "فيليبى" ليبدأ عملية مراجعة مهام الأسبوع. كان اليوم جمعة، وسوف يجتمعون فى المساء ـ كالعادة ـ مع "خوليان" لتقييم ما تم إنجازه وتنظيم أعمال الأسبوع التالى.

فى لحظة من الحوار، ذكرت هى خططها لقضاء الليلة.

سألت "فيليبى":

-ألا تحب الرقص؟

قال هو:

ـ بالطبع أحبه، منذ طفولتى كنت أفوز بالمسابقات فى المدرسة.

ونظر إليها مبتسمًا، وفكرت "لافينيا" إنها منذ أيام لم تلاحظ أنه كان فى حالة طيبة.

فى تلك الليلة، وبينما كانت ترقص مع "إنطونيو" على خشبة مرقص "الفيل الوردى"، شاهدت "فيليبى" يتجه نحو البار، مرتشفا كأسًا، ويراقبها. فقدت التركيز للحظات، كانت مندهشة من رؤيته هناك، بين الدخان والموسيقى المزعجة، كان هناك قط يظهر ويختفى خلف الأزواج المتراقصين فى الحيز الضيق من الخشبة.

واصلت الرقص، تاركة نفسها للاهتزاز على وتيرة نغمات الطبلة، رؤية "فيليبى" يتابعها من بعيد. أصابت سيقانها بالارتعاش. تركت نفسها للإحساس بأنها مراقبة، كانت ترى "فيليبى" من بين الأضواء، والدخان، يخترقها بعينيه الرماديتين، يدغدغها، رقصت محاولة عدم رؤيته، واعية أنها ترقص لتثيره، مستمتعة بالاستعراض، وإثارة الرقص، وفرحتها بأنهما التقيا أخيرًا خارج المكتب. كانت ترتدى إحدى أكثر تنوراتها القصيرة إثارة، وكعبًا عاليًا، وقميصًا مكشوفًا على أحد الكتفين ـ صورة خالصة من الخطيئة، كانت قد فكرت فى نفسها قبل أن تخرج ـ دخنت قليلاً من الماريجوانا، كانت تحب أن تنعل ذلك

من وقت إلى آخر، وإن كانت قد عاشت فى إيطاليا متخلية عن الإقبال الشبقى، وهنا فى "فاجواس"، كان أصدقاؤها قد بدأوا فى الاكتشاف وكانت هى تسايرهم.

عندما تغير إيقاع الموسيقى، كانت قد قررت اتخاذ المبادأة، وألا تخاطر بأن يظل "فيليبى" إلى جوار البار فقط يراقبها من بعيد، متحصنا كعادته دائمًا. لم يفاجأ "إنطونيو" عندما قالت له إنها ستذهب لتحية رئيسها، عاد إلى طاولة مجموعة الأصدقاء بينما توجهت "لافينيا" نحو البار.

-حسنًا، حسنًا.

قالت "لافينيا" لـ"فيليبى" مداعبة، وجلست على الكرسى الخالى إلى جواره ـ كنت أعتقد أن حضرتك أرق من الظهور فى مراكز اللهو وتضييع الوقت.

قال "فيليبى":

ـ لم أستطع مقاومة حب الاستطلاع وأنت تمارسين الحياة فى هذا المناخ، أرى أنك كالسمكة فى الماء، ترقصين جيدًا جدًا.

أجابت هى، بدلال:

ـ لا أعتقد أننى أرقص جيدًا مثل حضرتك، فأنا لم أفز أبدًا فى أية مسابقة.

ـ لأن الفتيات مثل حضرتك لا يشاركن فى هذه الأشياء.

قال هو، منزلقًا من على الكرسى المرتفع باتجاه الأرض وماداً يده:

- هيا نرقص.

كانت الموسيقى قد غيرت إيقاعها، عامل "الدى جى"، اختار مقطوعة بطيئة، انسحب معظم الراقصين من حلبة الرقص، بقى فقط عدد محدود من الأجساد المتعانقة. قبلت مستمتعة، تحدثت بلا توقف، كانت تكره أن تبدو عصبية، احتضنها "فيليبى" بأمان فى صدره العريض، ضاما لها بقوة، يمكنها أن تشعر بزغب صدره الأسود والكثيف عبر القميص، بدءا فى الاهتزاز معًا. فتعانقت البشرتان، وساقا "لافينيا" ملتصقة ببنطلون "فيليبى".

ـ هل هذا خطيبك؟

سألها مشيرًا إلى "انطونيو"، عندما مرا بالقرب من الطاولة.

قالت "لافينيا":

ـ لا، فهؤلاء مضى عهدهم.

ـ عشيقك، إذًا.

قال هو. ضامًا لها بقوة أكثر نحوه.

قالت "لافينيا":

-إنه صديقى، ويحل لى مشكلاتى من وقت إلى آخر.

شعرت بذبذبات جسد "فيليبى" مستجيبًا لتطلعها نحو فضحه. كان يضمها بعنف يكاد يكون مؤلمًا.

تساءلت "لافينيا" ما الذى يحدث مع تلك المرأة المتزوجة، والمحاضرات الليلية بالجامعة، كانت تتنفس بصعوبة، بفمها يمكنها أن تلمس أزرار قميصه عند منتصف صدره، كان الرقص يتحول إلى حركة جدية، فكرت. كانت السدود تتساقط، أطلقا تحفظاتهما، تسارعت ضربات قلبيهما، أنفاس "فيليبى" ساخنة، فى عنقها، تحركهما الموسيقى فى الضوء الخافت، المناخ يكاد لا يضىء من حولهما تحت دائرة المرايا الواضحة بقوة الانعكاس. الدخان، الرائحة الذكية لمدخنين مختبئين فى الحمّامات.

ـ تحبين تدخين الماريجوانا؟ أليس كذلك.

سأل "فيليبى" من أعلى، بصوت خفيض، دون أن يتركها.

أكدت من تحت:

ـ من وقت إلى آخر، لكن تلك المرحلة مضى عهدها.

ضمها "فيليبى" بقوة أكثر، لم تفهم هى التغيير المفاجئ، يبدو أنها تركت فجأة كل توجه نحو اللامبالاة، وانطلقت بوضوح نحو الإثارة الأقرب إلى الحيوانية، كانت تشعر أنها مشتتة، أطلق "فيليبى" من حولها جاذبيته بقوة بدائية تولد من داخله، كان مختلفًا عن الآخرين من أصدقائها، تشعر بالقوة فى كل الجسد، فى العينين الرماديتين اللتين ينظر بهما نحوها الآن، يكاد لا يفصلهما عنها.

قال لها:

- لا يجب أن تدخنى الماريجوانا، أنت لست فى حاجة إلى هذه الأشياء الاصطناعية. لديك حيوية داخلك، لا يجب أن تبحثى عنها خارجك.

لم تكن "لافينيا" تعرف ماذا تقول، كانت تشعر بالدوار وهى تتحرك معلقة بعينيه، معلقة بتلك النظرة الدخانية الرمادية. قال شيئًا عن أن الماريجونا تزيد من تلك الأحاسيس.

قال هو:

-أنا لا أعتقد أنك فى حاجة إلى زيادة أى شىء.

انتهت الموسيقى الناعمة، تحولت إلى "الروك" الثقيل، لم يتركها "فيليبى"، ظل يرقص، متحركًا على إيقاع حاجة جسده، بعيداً عن الموسيقى، كما لو كان يستجيب لنغمة واحدة تعزف له وحده، رأت "لافينيا" أنه كان بعيداً عنها هى أيضًا، يضمها إليه بقوة كغريق يحتضن قشة إنقاذ فى منتصف المحيط. كانت عصبية، شاهدت "إنطونيو" يشير إليها من بعيد، أغلقت عينيها، فهى أيضا تحب "فيليبى"، كانت هى تود آن يحدث هذا، مرات عديدة كررت آنه كان يجب آن يحدث هذا فى يوم من الأيام، لم يكن ممكنًا آن يمضيا الحياة كلها فى النظرات بالمكتب. هل فى هذا شىء من الحاسة الحيوانية. اتباع شهوات الرغبة، الجاذبية الكهربائية، التى لا تخطئ، لم تفكر أكثر من هذا، كانت موجات بشرته تلفها، تنظر إلى التناقض فى الموسيقى، قفزات وتقلصات "انطونيو"، و"فلورنثيا"

والآخرين يرقصون، أما هما فقد كانا يتحركان على إيقاع خاص بهما، إنهما فى فقاعة مدهشة بعيدة عن كل شىء، بالون، سفينة فضائية ضائعة فى الفراغ. تشم "لافينيا"، تلمس، تشعر، الواقع الوحيد والمطلق لجسد "فيليبى" يحركها من جانب إلى آخر.

رأى "إنطونيو" أنه يجب إنقاذها، اقترب فى محاولة لفك السحر، بإحساس من الغيرة، نظر إليه "فيليبى"، اعتقدت "لافينيا" أن "إنطونيو" ضعيف جداً إلى جانب "فيليبى"، ومتبخر.

كانت هى مستمتعة منتشية وغائبة، وأنثوية على حافة حلبة الرقص، سمعت "فيليبى" يقول لـ"انطونيو" إنهما سيذهبان، وأن لديهما موعداً، وإنه على "انطونيو" ألا ينزعج من أجلها.

وبعدها قال لها آن تبحث عن حقيبتها، أطاعته هى، دون أن تقاوم الإعجاب بهذا التأثير المتسلط، تاركة من خلفها نظرة "إنطونيو" الذاهلة.

دخلا البيت فى الظلام، حدث كل شىء بسرعة كبيرة، كانت يدا "فيليبى" تصعد وتهبط على ظهرها، منزلقة نحو كل حدود جسدها، تتعدد بحيوية، تبحر فيها فاتحة طريقاً خلال مقاومة الملابس، استجابت هى لدغدغاته فى الضوء الخافت، لا تزال تعى آن هناك منطقة من عقلها تبحث، عن كيفية تفسير ما كان يحدث دون أن تتمكن من ذلك، غير قادرة عن الانفصال عن زلزال تيارات بشرته.

تحت ضوء القمر الفضى عثرا على الطريق إلى غرفة النوم، بينما كان هو ينزع عنها قميصها بالكامل، ويفتح "سوستة" التنورة القصيرة حتى يصل بها إلى أرض الحشية، السرير تحت النافذة، ومغالق العرى، مرة أخرى، "توقفت "لافينيا" عن التفكير، غاصت فى صدر "فيليبى"، تركت نفسها تذهب معه إلى مصدر الحرارة التى تجذب بطنها، تغرق فى أمواج تتوالى وتترك من خلفها أخريات، عضلات، أشجار، نخيل، ممرات تحت أرضية تتساقط، وحركة جسد "فيليبى"، وجسدها، تتعانقان، يتمددان وينكمشان، والفهود، وحتى الغابة، والقمة، والقوس الذى يطلق السهام، وينفتح مركز الزهرة وينغلق.

يكادا لا ينطقان قبل البدء من جديد، مرات ومرات، حاولت "لافينيا" أن تدخن سيجارة، الحديث تحت قبلات "فيليبى" لكنه لم يتركها تفعل، وشعرت من جديد كما لو كانت غائبة عن المكان.

قالت له:

ـ انظر إلىّ، هل ترانى؟

قال "فيليبى":

ـ بالطبع أراك، وأخيرًا أراك، أعتقد كان يمكن أن أسقط مريضًا لو لم يحدث هذا اليوم، كنت على وشك أن أصف لنفسى دشا باردًا لاحتمال المكتب.

وصعد على قهقهات "لافينيا" التى قررت أخيرًا أن تستمتع به، وأن تلقى بعيدًا عنها غرابة تلك

العاطفة الجياشة المتحررة بقوة فى ليلة واحدة مجهدة فقدت فيها حساباتها، وفكرت أن "لوكريثيا" ستعثر عليهما مع طلوع الصباح، ميتين معًا، ضحايا أزمة قلبية.

***

جاء اليوم رجل، دخل مع المرأة، تبدو عليهما علامات العشق، مارسا الحب كما لو كانا قد امتنعا عن بعضيهما لوقت طويل، كما لو كانت عودة إلى الحياة، أن يعيشا مرة أخرى محرقة "يارينثى" مخترقين الذكرى، الأفرع، الأوراق، اللحم الطرى للبرتقالات، تصارعا كمقاتلين قبل بدء المعركة، بعدها لم يكن يفصلهما شىء غير بشرتيهما، بشرتها هى كانت تنمو كأيد لتعانق جسد الرجل، تقلّص بطنها كما لو كانت تريد ابتلاعه، تريد أن تعيده إلى داخلها، وتجعله يسرى فى داخلها لتعيد ميلاده من جديد، تعاشقا كما كنا نتعاشق أنا و"يارينثى" عندما كان هو فى طريق عودته من رحلاته الاستكشافية الطويلة لأقمار كثيرة، وكرراه مرة أخرى وتالية حتى أصابهما الإرهاق، فتمددا، فى سكون، كان هو يصدر موجات جاذبية قوية، تحيط به أشياء خفية، إنه طويل وأبيض كالإسبان تمامًا، ومع ذلك أعرف الآن، إنه لا هى ولا هو كذلك، وأتساءل إلى أى جنس ينتميان، إنهما مزيج من الغزاة والأستيك.

ربما كانا من أبناء نساء قبيلتنا المنجذبات إلى العبودية؟ هل هما من أبناء إرهاب الاغتصاب والشبق

الذى لا ينفد للغزاة؟ ولمن تنتمى قلوبهما، وحرارة صدورهما؟

أعرف فقط أنهما يعشقان كحيوانات صحية، بلا رقابة، ولا رادع، هكذا كان أهلنا يعشقون قبل أن يأتى الإله الغريب للإسبان ويحّرم متعة الحب.

***

استيقظت فى الثامنة صباحًا، فتحت عينيها وشعرت بجسد "فيليبى". شاهدته متقاطعًا مع جسدها فى فوضى السرير، لم تتحرك خوفًا من إيقاظه، بقيت للحظات حتى تنبهت إلى الوقت، وأن تتذكر أن "لوكريثيا" لن تأتى، وأنه ليس عليهما أن يذهبا إلى العمل لأن اليوم سبت، تداخل الزمن فى الليلة السابقة بشكل كامل.

بعد أن هدأت، ابتسمت وهى تنظر إلى نوم "فيليبى" المطمئن، كان أمرًا مسليًا مراقبة النائمين، يبدو كطفل، تخيلته يلعب لعبة الساقية، وعادت إلى النوم إلى أن أيقظها "فيليبى". صرخ:

ـ الوقت متأخر جدًا، يجب أن أسرع فى الخروج.

قالت هى:

ـ لكن اليوم لا يوجد عمل، يمكننا تناول الإفطار معًا.

ـ لا أستطيع ـ قال هو، ودخل الحمّام ـ عندى اجتماع مع تلاميذى، وعدتهم أن أساعدهم قبل الامتحان.

خرج وارتدى ملابسه على عجل.

ـ حضرتك مشغول دائمًا.

قال هو، غامزًا:

- لا، ليس دائمًا.

ودعته عند الباب، شاهدته يبتعد سيرًا على الأقدام بخطوات سريعة، يصغر حجمه كلما ابتعد، عادت إلى الغرفة، والآن وحدها، نظرت إلى نفسها فى المرآة، وجهها كوجه امرأة عاشقة، تفوح منها رائحته، كانت تود ألا تستحم، أن تبقى على رائحته طوال اليوم، أحبت رائحة السائل الذكورى، الجنس، لكنها وضعت نفسها تحت الدش لتزيل عن نفسها الخمول، ورغبتها فى العودة إلى السرير، تنتظرها "سارا" الآن لتناول الإفطار.

- ٤ -

استقبلت الصباح مغنية، كانت تغنى بينما تستحم، يسعدنى أن أراها منتشية، وأنا أيضًا كنت كذلك، أمنح فاكهة، البرتقالات لا تزال صغيرة وخضراء، تحتاج إلى أيام قليلة لتنضج، وتستدير ويتحول لونها إلى الأصفر، يسعدنى أنى عثرت على هذه الشجرة. كانت من الأشياء القليلة الطيبة التى جاء بها الإسبان، كنا "يارنثى" وأنا نسرق البرتقالات عندما نمر بالقرب من حدائقهم، لم يكونوا يهتمون بالتقاطها من على الأرض، ويتركون البرتقالات تتعفن، فيما نحن كنا نلتهمها لأن عصيرها مرطب، وليست كالمانجو التى تجعل الواحد منا أكثر عطشًا، وإن لم يصيبنى أى إحساس بالرفض أن أسكن فى آية شجرة مثمرة أخرى، فيما لا أعرف ماذا كان يمكننى أن أفعل لو أننى دخلت شجرة كالصبّار القريب جدًا من هنا، أنا لا أحب الصبّار، فقط إنها تذكرنى بالخدوش التى كانت تسببها لى فى ساقى. البرتقالة داخلها مكتنز وشكلها رقيق، تحتاج إلى عمل الآلاف من اللفافات الصغيرة، وجلد رقيق ليغطى اللحم، وجلد آخر لفصل

الفصوص عن بعضها، وبعدها القشرة والبذور الكثيرة: مشاريع صغيرة لأشجار متروكة للحظ ولقدرة الحياة.

آمل أن تجد بذورى نهاية سعيدة.

يمكننى أن أرى داخل الثمرة عن قرب، أن أدخل فيها، فى جلدها القصى، فى تدويرتها، "الأرض مستديرة ومستقيمة كالبرتقالة" . إنه اكتشاف رائع، فالأرض مثلى تمامًا .

***

عندما وصلت "لافينيا"، كانت "سارا" تقوم بدورتها اليومية فى الحديقة. مضى عليها ستة أشهر منذ زواجها من "أدريان"، وتلعب "سارا" دور سيدة البيت بكل دقة.

يعيشان فى بيت قديم، به أربعة ممرات وغرف نوم واسعة ونوافذ قوطية. فى الحديقة الداخلية توجد شجرة متسلقة على السطح وتبسط ظلالها على الداخل.

علقت "سارا" حول الشجرة ـ تزهر زهرًا أحمر مشتعلاً مرة واحدة فى السنة ـ زرعت السرخس وزرعت شجيرات أذن الفيل بجميع أنواعها، وزهور متنوعة.

كانت الحديقة تستجيب للعناية وتزهر ورودًا جميلة.

وضعت الصديقتان عادة الإفطار معًا كل يوم سبت، كانت المائدة معدة: قهوة ساخنة، وخبز محمص، ومربى تلمع عبر الطبق الزجاجى، والزبد فى طبق من الفضة، وأدوات المائدة جديدة، والمفارش جديدة.

- سيدتى - هتفت "لافينيا" بنغمة هزلية، مقتربة من المائدة - أرى أنك أعددت كل شىء من أجل إفطارنا.

قالت "سارا":

- لم أقدم كيكا هذه المرة، وبما أنك تأتين فى موعدك تمامًا، فأنت لا تخونين استعداداتى. فلا تبرد منى القهوة ولا يجف الخبز المحمص كما يحدث لى مع "أدريان"، الذى يقرر، بالضبط لحظة الإفطار، إنه لا يستطيع ترك الكتاب أو يكون فى الحمّام يغسل يديه.

ضحكتا أثناء جلوسهما إلى المائدة وكانت "سارا" تهزل، تضم شعرها الأشقر بشريط، هى كلها ناعمة وخفيفة.

سألت "سارا":

- كيف حال العمل؟

أجابت "لافينيا":

- إنه جيد، أحاول الاعتياد على أن الأحلام، مجرد أحلام، وأن "فيليبى" كان محقًا بلعبة المركز

التجارى. عالم الأعمال صعب، لا يمكن عمل أى شىء من أجل المساكين من سكان العشوائيات، فالملاك ما كانوا ينوون ترك الأرض التى اشتروها قبل قليل، فهم أبعد عن أن يكونوا محسنين.

قالت "سارا":

ـ هكذا هى الحياة، لا تزعجى نفسك فهؤلاء الناس معتادون، والآن ما الذى تقومين برسمه؟

ـ أصمم بيتًا.

أجابت "لافينيا"، مرتشفة القهوة، وهى تفكر كيف أن كل شىء بالنسبة لـ"سارا" طبيعى جدًا.

أضافت دون أن تتمكن من إخفاء السر:

– وقد حدث موضوع "فيليبى".

أضاء وجه "سارا"، منذ أن سمعت ذكر اسم "فيليبى" وعرفت أنه أعزب، بدأت تمارس دور "الخاطبة" الذى رفضته "لافينيا" قائلة إنها يجب أن تنسى موضوع تزويجها، كما كان أبواها يريدان. لكن "سارا" لم تتوقف عن محاولاتها. وكانت دائمًا ما تسألها عن "فيليبى".

ـ وكيف كان الأمر؟

سألت، محاولة أن تخفى رغبتها فى المعرفة حتى لا تتسبب فى غيرة صديقتها.

ـ حسن جدًا، وإن كنت لا أريد أن أتحمس أكثر مما يجب، لقد حدث كل شىء بسرعة كبيرة، أخشى

من الوقوع فى الحب قبل الحصول على رؤية واضحة.

قالت "سارا":

- أنت تعقدين الحياة كثيرا، فالحب هو الشىء الأكثر طبيعية فى العالم، لا أرى هناك ما يمكن أن يخيفك.

ـ حسن، لأن "فيليبى" له تصرفات شاذة، كثيرًا ما يستقبل مكالمات تليفونية غريبة، ويخرج على عجل، مشغول دائمًا، ولدى إحساس بأن وراء ذلك امرأة متزوجة، لا أعرف، ربما يكون هذا مجرد تخيلاتى.

ـ أنت تخيلاتك دائما ما كانت واسعة جدًا.

ـ من الممكن أن يكون الأمر كذلك.

قالت "لافينيا"، مفكرة، منزعجة من نفسها، وتشعر بغيرة حقيقية مثل امرأة متزوجة، مفكرة فى "فيليبى" ودروسه أيام السبت صباحًا، وقالت:

- وأنت كيف الأمور مع "أدريان"؟

بتعبير عادى، بدأت "سارا" تقدم صورة غير محددة لعلاقتها مع "أدريان"، صورة شفاهية للزواج الكامل، فقط فى الخفاء، اعترفت "سارا"، ولكنهما لايزالان يعانيان من بعض المشكلات، لأن "آدريان" متعجل، لا يفهم أهمية الرقة.

بالنسبة إلىّ "لافينيا" دائما ما كانت غير قادرة على تصور "سارا" وهى تمارس الحب. لقد كانت

أثيرية جدًا، صوفية تقريبًا، وحتى أنها فى فترة من الفترات تحدثت عن رغبتها فى الرهبنة ـ وطبقًا لكلامها ـ تريد أن تتفرغ لحب الله.

ـ لا أعرف إن كان هذا لأنى رومانتيكية أكثر مما يجب، أم أننى واقعة تحت تأثير مشاهد الحب فى الأفلام.

قالت "سارا"، وحركت الكرسى، منحنية لتضع الزبد على الخبز.

ابتسمت "لافينيا"، قالت لها:

ـ حب الأفلام مجرد حلم، وفى الوقت نفسه يجب أن يكون سيئًا، هل تتصورى، إنه يتم تحت الأضواء والكاميرات وإمكانية سماع كلمة "كت" (قطع) فى أى لحظة، والخوف من ألا تقومى بلعب الدور بشكل مناسب، طبقًا لرؤية المخرج.

ضحكت الاثنتان معًا، أما مسألة الرقة فقد كانت مجرد تعليم، "قالت "لافينيا"، فقد كان حقيقة أن الرجال، بشكل عام، يقمعون النساء، ولذلك يجب تعليمهم، وفكرت أنه عليها أن تفعل الأمر نفسه مع نفسها، لكنها فضلت ألا تجادل "سارا" فى هذا، فالبدايات صعبة بشكل عام، قالت، مجرد تقليد مكشوف لما يفرضه تلاقى البشرتين وفض شفراتهما، وهكذا حدث معها، على الأقل مع "خيرومى"، رغم أن "سارا" و"أدريان" يعيشان معا منذ أكثر من ستة أشهر، فكرت، وتحدثت مع "سارا" عن أهمية التخلى عن

الحياء، وتعليم "أدريان" الخرائط الخبيئة، أن تقدم له البوصلة.

ظلتا حتى منتصف النهار تقريبًا، سرعان ما جاء "أدريان" وقالت "سارا" إنه يجب عليه أن يستحم. لاتحب أن تجد زوجها كما تركته.

انتهزت "لافينيا" الفرصة لتنصرف رغم دعوتها تناول الغداء. فهى لم تكن مستعدة نفسيًا لسماجة "أدريان" وسماع خطاباته، وكانت تريد أن تتعافى من السهر هذا المساء: النوم، والقراءة، والتفكير.

مر الأسبوع بسرعة مدهشة عما كان يمر بها الزمن عندما تتوالى عليه الأحداث.

كانت أيام المكتب، منذ بداية العلاقة مع "فيليبى"، تتلون حسب شكل العواطف، كانت "لافينيا" تعانى من عدم القدرة على التركيز فى العمل، لأنه كان يحدد قدراتها عبر الإشارات والتعليقات التى تكشف عن علاقتهما الحديثة، وإن كانا قد التقيا ليلة واحدة فقط للذهاب إلى السينما وشرب بعض كئوس البيرة بعد ذلك، تمامًا كما فى هذه المرة، كما فى ليلة الحب الوحيدة، تثير تخيلاتها، التى تعبر عنها من خلال الدغدغات السريعة والخفية التى يتبادلانها يوميًا خلال ساعات العمل.

كان "فيليبى" يتحدث عن ماضيه بلذة، وإن كان يبدو أنه يتجنب تقديم تفاصيل عن حاضره.

خلال أحاديثهما، تخيلته "لافينيا" خلال رحلته الطويلة عبر الأطلنطى، متجها نحو ألمانيا، مرتديًا

ملابس بحارة الصور القديمة، وبعدها متصعلكًا فى شوارع "هامبورج": البوابة الشهيرة حيث تعرض نساء الليل أجسادهن خلال واجهات العرض، فى "ريبراهان"، ليبعن أنفسن لمن يدفع أكثر، وتتوقف رؤيتها عند "اوتى"، المرأة التى طبقًا لكلامه لم تفهمها على الإطلاق، فقد علّمت "فيليبى"، من بين أشياء كثيرة، أنه عليه أن يعود إلى "فاجواس". تخيلتها طويلة وشقراء، وبشعر طويل، مجربة فيما يختص بالحياة وفنون الحب، أمكنها تخيلها من خلال نافذة بيت بمدخنة وقرميد أحمر، وتقوم "أوتى" بتعليم "فيليبى" فنون الحب.

من ستة عشر عامًا، كان "فيليبى" قد اتخذ سفينة من ميناء "بويرتو ألتو"، حيث كان أبوه يعمل كعامل شحن، كانت مغامرته كابوسًا، كان مقررًا ألا يتخذ طريق العودة تحت إمرة ذلك القبطان الذى يمتلك روح مهرب عبيد، وبقى فى ألمانيا، وكاد أن يموت بردًا وجوعًا، وأنقذته "أوتى"، "الأم والعشيقة فى امرأة واحدة"، كما قال هو، قدمت له السكن، وعلمته أسرار اللغة، وعلمته "أهمية الشوارع المضيئة للنساء الوحيدات"، دراسة الهندسة المعمارية والجسد، وما لم تتمكن "لافينيا" من فهمه هو النغمة المتلذذة التى كان يشير بها "فيليبى" إلى "اوليس" عند عودته إلى "ايتاكا"، لم تفهم كيف أن "أوتى"، التى لم تكن القديسة "بينيلوبى"، كانت تصر على أن يعود إلى بلده. إذا كانت تحبه، لماذا أقنعته بالعودة؟

كان ذلك أحد أسراره، تماما مثل المكالمات التليفونية والانشغالات الليلية التى كان يؤكد أنها مسئوليات جامعية، تنهدت "لافينيا"، بينما كانت ترصص كتبًا فى الأرفف التى اشترتها حديثًا. كان اليوم سبت، ولكنها لم تذهب ذلك الأسبوع للإفطار مع "سارا"، كانت قد استلمت راتبها فى اليوم السابق وقررت فى الصباح شراء أثاث واحتياجات زينة لبيتها، فى الليل، ستخرج للترويح عن نفسها مع جماعة الأصدقاء، وفى اليوم التالى الأحد، كان "فيليبى" قد وعدها بالحضور فى المساء لتناول القهوة.

نظرت من نافذة الحديقة، شاهدت ربيع شجرة البرتقال، والأوراق اللامعة تحت الشمس. كانت البرتقالات ناضجة تقريبًا، تبدو كل يوم أكبر حجمًا وأكثر اصفرارًا، كانت تميل إلى الشجرة، تشعر بها متعجلة، مثلها، شجرة تثير الإحساس بالسعادة، متمسكة بالحياة بوحشية، منتشية بقدرتها على الإزهار، لهذا غيرت "بولونيا"، ذات الأبراج الكنائسية والعقود، كانت تعشق الخضرة منذ طفولتها، وتعشق تمرد النبات الاستوائى، عناد الأشجار فى مقاومة الصيف الحارق، والشموس العالية التى تحرق الأرض. فقد كان الجليد شيئا آخر باردًا وأبيض، وموحشًا، فكرت، مستعيدة للحظات، لم تتصالح مطلقًا مع الشتاءات الأوروبية، فقط عندما يبدأ الربيع، كانت تشعر أن شخصيتها تعود إليها، فى الشتاء، كانت تتحصن بلحمها، تحافظ على صمتها، تنمو من حولها

عوالم متعددة وحزينة، على العكس تمامًا عن حياتها فى "فاجواس"، فلا يوجد أى جليد يبلل عظامها. والحرارة تدعوها إلى الخروج من نفسها، وتجد السعادة فى المشاهد الطبيعية وتحتفظ بها فى عينيها كما لو كانت تحفظها فى فازة من البورسلين، لهذا فإن استوائية، هذا البلد، وهذه الأشجار، كانت ملكها. فهم ينتمون إليها كما تنتمى هى إليهم.

ـ أيام السبت بطيئة ـ فكرت بإحساسها بالوحدة.

***

أبذل جهدًا، أعمل فى هذا المعمل لصناعة العصارة والخضرة، إنها رغبتى فى الانتهاء من عملى بسرعة، هناك حكمة تغذى تحقيق هدفى، تقول إنها وأنا على وشك أن نلتقى.

فى الصباح، جاءت الحشرات الطنانة والعصافير، تغلغلت بين أفرعى ودغدغتنى، فخففتُ من ثقل أعصابى، موقظة رغبة جسدى النباتية. من يمكنه أن يعرف إن كانت روح "يارنثى" تسكن أسرع منهم، تلك الروح التى تطير بحثًا عن اللقاح بالفم المفتوح، الكل يعرف أن المحاربين يعودون كالطنّانات التى تطير فى الهواء الدافئ.

آه، يا "يارنثى" كم أتذكر جسدك الخشن الملوح بالشمس عند عودتك بعد رحلة صيد كى ترضى رغبتك كفهد متعب يبحث عن راحته على ساقى. كنا

نجلس على حافة النار فى صمت، نراقب ألسنتها ترتفع وتنخفض، مركزها الأزرق، وألسنتها الحمراء تأكل الدخان، وتملأ الهواء بلفحات ساخنة. يا لها من طويلة تلك الليالى الصامتة الساكنة فى أحشاء الجبال الموحشة، التى تخفينا عن الباحثين عنا. فلا يجرؤ الإسبان على متابعتنا. كانوا يخشون أشجارنا وحيواناتنا، ولا يعرفون شيئًا عن سموم حيّاتنا، لايعرفون "الجاجوار" ولا حتى طيران الببغاوات الليلية التى تصيبهم بالرعب لأنهم كانوا يعتقدون أنها أرواح هائمة. ومع ذلك، كانوا يطلقون عليها النار من عصيهم، فيقلقون العصافير، ويفتحون الليل على موجات الطيور المرتعبة، ويدفعون القردة إلى الصراخ فتتقافز على رءوسنا فى جماعات، والقردات تحمل على ظهورها أطفالها، والتى منذ ذلك الوقت، ارتسمت علامات الرعب على وجوهها.

لكنك أنت كنت تعانقنى بين كل هذه الهجمات المرعبة، تضع يديك لتسد أذنى، وتدفعنى تحت ثقل الحشائش، كنت تهدئ من روعى بثقل جسدك وتجعلنى أنسى اقتراب الموت عندما أسمع همهمة الحياة قريبة جدا منى، جسدك يحمى جسدى إلى أن تصبح روح ضربات قلبينا الأكثر ارتفاعًا فى الجبل.

آه، يا "يارنثى" وربما مضى كل هذا هباء، وربما لم يبق من كل هذا ولا حتى مجرد ذكرى معاركنا.

***

بالأمس، فى وقت مبكر، كانت "لافينيا" تتقلب بين السُهاد ومغالبة النوم، عادتها فى الاستيقاظ المبكر أصبحت كالساعة الخفية المزروعة فى الصدر، ولكن معنى يوم الأحد كان يصرخ عبر الوسادة وجاذبية الاستمرار فى النوم، كانت الحادية عشرة تقريبًا عندما تغلّب الجوع على الكسل والسرير. نهضت عارية القدمين مرتدية "الكيمونو" الحريرى ذى اللون الأزرق البحرى، تشعر أيام الأحد أن وجودها لا أهمية له فى العالم، إنه يوم غير مريح بالنسبة إلى الأفراد الذين يعيشون بمفردهم، أيام الآحاد مصنوعة من أجل النزهة العائلية، والأطفال والكلب المنزلى يُطلِون من نافذة السيارة الخلفية، الأب والأم بالبيجامات المخططة يجلسان إلى المائدة، يقرآن الصحف والأطفال يلتهمون إفطارًا شهيًا، تذكرت هى أن ثلاجة بيت أبويها كانت تعج بالطعام وشعرت بالحنين، فمنذ وجبة الغداء التى أعلنت خلالها أنها سوف تغيّر منهج حياتها، وأنها سوف تنتقل إلى بيت العمة، لم تشاهد أبويها. لا تزال تذكر صدور الدجاج وأكواب الماء والمفارش النظيفة، وجه الأب والأم وهما يتوقعان لها الفشل، والفصام واللعنة. رعب العالم خارج الجدران الأربعة للبيت (رغم سنوات حياتها وحيدة فى أوروبا): خطر الغرباء، والرجال الذين سوف يحاولون اغتصابها، واستغلالها، والنظرة السيئة تجاه النساء الوحيدات.

لقد عمل الأبوان فى صنع القبعات وقدما الكثير من التضحيات لتتلقى هى تعليمًا جيدًا، ولتكون سعيدة

مثل أية فتاة جادة تحاول أن تحقق نفسها. وفى محاولة لتقديم أقصى ما لديهما حاولا مصالحتها، وإقناعها ألا ترحل، لأن الوقت كان قد حان ليتعرفوا على بعضهم وتعلم محبتها، لقد كان الوقت قد مضى كما رأت "لافينيا"، فالعمة "إينيس" والجد كانا أباها وأمها، وبالنسبة إلى الأبوين الطبيعيين كانت تحتفظ لهما فقط بإحساس رابطة الدم، فالمسافة الزمنية بعيدة عنهما كانت آثارها واضحة عندما فشلا فى إقناعها. فغيرا محاولات الإقناع بالتهديد، وأخيرًا أجبراها على "جمع كل متعلقاتها لتذهب على الفور إذا كانت مقتنعة بذلك"، بينما كان أبوها يحاول التخفيف من حدة الخلاف، مختفيًا فى غرفة نومه، كانت الأم واقفة إلى جوار الباب، حاملة سيف الملاك القاتل وتطردها من الجنة الأرضية بعينين غاضبتين.

وهكذا اختفت من حياتها الثلاجات المليئة بالأطعمة وجلسات إفطار أيام الأحد المفجعة، وبهذه الطريقة سرعان ما فقدت ميزتها كابنة وحيدة وإحساسها بدفء المحبة الأولى. غزتها ذكرى إحساسها باليتم. ولم تتوقف عن أن تحدث لها فى أيام مثل هذه، ولتتغلب عليها قررت أن تدلل نفسها، أن تطبخ طعام إفطار عائلى ليوم أحد لها بمفردها.

كان المطبخ يفوح برائحة الفراغ، وتحسّرت على أنها لم تجد من يعلمها فنون إعداد الطعام، لا أمها ولا عمتها "إينيس"، فكلتاهما لأسباب مختلفة، لم تكونا عاشقتين للمطبخ، وكانت هى تسير فى الطريق

نفسه. لكنها فكرت أن أية امرأة لن تفقد شيئًا إذا لم تتعلم الطبخ. وهى شخصيًا، كانت معجبة بمن هن ماهرات. وتعتقد أنهن كيميائيات قادرات على تحويل قطعة من اللحم الأحمر الطازج، تكاد تضج بالحياة، إلى طبق شهى لا يحتوى فقط على الطعم اللذيذ، بل يكون له شكل رائع: لون ذهبى متناسق مع خضرة البقدونس والطماطم الحمراء.

كانت خزانات المطبخ منسقة، معلبات مختلفة الأحجام والأشكال تنام بوتيرة الأشياء الساكنة، وصندوق "تونة جيميما" غير مفتوحة، ألقت نظرة على الثلاجة بحثًا عن البيض والحليب، والزبد. مزجت العناصر، وبدأت فى ضربها فى سلطانية المزج البيضاء، وبدأ المزيج يتخذ قوامه ببطء.

وضعت القهوة على السخان، وقطع الخبز فى المحمصة، وفرشت على الطاولة الخشبية الريفية مفرشًا إيطاليًا مرسومًا بالمربعات البيضاء والحمراء. وضعت موسيقى، وتحمست مع إيقاع حركتها الخاصة.

لم ينقص سوى عصير البرتقال، كان شيئًا مؤسفًا، "ولماذا لا أجرب تلك البرتقالات التى لا تزال خضراء؟" قالت لنفسها، عصير مر قليلا ليس سيئًا، يمكن تعويض الطعم بلون الكأس الأصفر، على الأقل، من الناحية الجمالية، وبذلك تكتمل المائدة.

بحثت عن مفاتيح الحديقة، رفعت المزاليج، وخرجت إلى الفناء، كانت شجرة البرتقال ساطعة،

فشمس الصباح فى الحادية عشرة، تكاد تكون عمودية، تمنح الأوراق الخضراء لونًا عميقًا وشمعيًا، نظرت إلى الشجرة، ربتت على جذعها، بدأت مؤخرًا فى معاملتها كما لو كانت قطة أو كلبًا منزليًا، كانوا يقولون إنه أمر طيب الحديث مع الأشجار، نظرت إلى القمة وشاهدت بعض البرتقالات التى بدأت فى النضج، بنقاط صفراء على الظهر الأخضر.

بمساعدة عصا طويلة أنزلت برتقالة، اثنتين، ثلاث، أربع برتقالات.

سقطت على الأرضية بصوت حاد.

دخلت البيت، وعادت إلى المطبخ.

أخرجت السكين المرهفة والحادة من درج أدوات الطعام.

وضعت إحدى البرتقالات على طاولة القطع متفحصة، ممسكة بها بيدها، حسبت أين يقع المنتصف تمامًا وغرست السكين فيها. انفجر لحم الثمرة، وانقسم إلى نصفين مستديرين، وجهان صفراوان، تمعنتهما، كانا ينزفان نقاطًا صغيرة من العصير، قطعت البرتقالات الثلاث الأخريات، منتعشة بالإحساس الرقيق، نكهة الثمرات الذهبية، والقهوة، والخبز المحمص. بعدها عصرت البرتقالات حتى الوصول إلى قشرتها المستديرة. وضعت العصير الساطع فى الكوب الزجاجى.

***

وقد حدث، شعرتُ أنهم يقطعون منى قطعًا صغيرة، أربع قطع محددة، مستديرة، إنه إحساس طرف الإصبع عندما يجرب مدى رهافة رءوس السهام، لا دم ولا عصارة، شعرتُ بالخوف عندما شاهدتها تخرج إلى الفناء والتصميم واضح فى عينيها وفى حركاتها، اقشعرت أوراقى قليلا، لم تنتبه هى، فى زمنها الهادئ فإن الأحداث لها تسلسل منطقى، لم تنبه إلىّ فقد سرت فىّ القشعريرة قبل أن تهز هى أوراقى بالعصا الطويلة. تساءلت إن كان جسدى كشجر يفقد بعض ثماره، لكن لا، وجدت نفسى أعيش على مستويين، من الأرض، حيث سقطتُ، رأيتُ جذعى وأوراقى، إلى أن لمستنى يداها ففهمت إنه، دون أن أترك كونى شجرة، إننى كنت أيضا فى البرتقالات، شعرتُ بموهبة الحضور الكلى، تماما كالآلهة! فاض منى الإحساس بالعظمة (لم يكن بمقدورى أن أشعر بها فى نفسى، إضافة إلى أننى تعددت). لم تكن واحدة فقط: كل جزء من شجرة البرتقال كان يحتوينى، امتدادات لا نهاية لها، تتفاعل وتتبخر، بدت لى طرق الحياة غريبة.

فتحتْ هى الثمرة بضربة واحدة، فتحت جرحًا ناعمًا، بلا اهتزازات تقريبا، ثم جاءت بعد ذلك أصابعها لتنزع القشرة، وانهمار العصير، بلذة، الانكماش الداخلى تداعى، تفكك، بما يشبه البكاء، انفتحت الفصوص، نشعت القشور دموعها الحريصة التى تحتويها فى هذا العالم المستدير، وضعتُ نفسى

سائلا على المائدة، كنت أرقيها من خلال الدورق الشفاف، انتظر أن تأخذنى إلى شفتيها، انتظر انتهاء الطقوس، اتحاد الدوائر.

***

حرارة الغذاء مشبعة: الفصوص الاسفنجية، والقهوة، والخبز المحمص. الموسيقى المريحة، الكوب بعصير البرتقال على المائدة. بعكس المعتاد، كانت تحب تناول العصير فى النهاية، أن تبقى على طعم عصير البرتقال بين أسنانها، بشكل عام هى تأكل بشكل سريع جدًا، لكن فى أيام الآحاد يجب اتباع إيقاع نسق اليوم: السعادة فى الاسترخاء.

هل سترى "فيليبى" اليوم؟ كان قد أخبرها أنه سوف يصل فى الخامسة مساء، وإن لم يستطع، سوف يهاتفها، فى الليلة السابقة، أخضعها "إنطونيو" لوابل من الأسئلة، وحذرها بأنه لن يقع فى حبها، لكن لم يكن هناك بد مما لا بد منه. فهو الآن مصاب بالغيرة، لقد كان رفيقها الأكثر ديمومة، لم تُشبع "لافينيا" حب استطلاعه، لم تخبره بسرها، سوى أنها خلال السهرة فى بيت "فلورنثيا"، شعرت بنفسها بعيدة عن الدخان والروك ولم يستطع "إنطونيو" إقناعها بالبقاء معه، كانت ستشعر بالتعاسة مع "إنطونيو" بعد "فيليبى"، ولم تكن تريد أن تشعر بالتناقض، أن تُخضع نفسها لإيقاع أقل مستوى.

فكرت، فى ذلك المساء من الأحد، لو كانت تملك سيارة، كان يمكنها أن تشارك "فيليبى" فى مكان ما،

أن تأخذه فى نزهة فى طرق خضراء بين أشجار القهوة، أن تتأمل معه المشهد الطبيعى من ذلك المكان بالقرب من القمة، أن تغذيه من السحاب القادم للاستراحة فى كفها، رؤية أسراب العصافير تغطى الأزرق المخضر، أن تتذكر طفولتها، ذلك المكان يذكّرها دائما برسم فى أحد كتب طفولتها المحببة إليها: طفلة ترتدى قبعة من القش وفستانًا من الزهور المتبخرة، وكوعاها مرتكزان على الأرض، ونظرتها معلقة بالأفق اللانهائى، والسفوح مرسومة بطرق وحقول قمح. وتحت الصورة مكتوب: "العالم كان لى وكل شىء فيه ملكى".

كانت معتادة على الصعود إلى السفح عندما كانت تمضى إجازاتها فى مزرعة الجد، كان الربط بين المشهد الطبيعى والرسم فجائيًا، ومنذ تلك اللحظة، حفرت الجملة فى ذاكرتها.

فى خلال تلك الفترة عندما بدأت تبحث عن عالم أكثر ملاءمة للأحلام، "الضباب" كان بيتًا بجدران عريضة من الطوب، وغرف ضخمة جدًا وأحواض فى الحمّامات، حديقة بها ألف زهرة وفى وسطها نافورة، كانوا يحتسون الشيكولاتة فى الأماسى لتحميهم من البرد، كانت "سارا" وأبناء أخوالها يقيمون سهرات، ويذهبون على الدراجات صعودًا ثم يهبطون منطلقين من البيت.

حينها ظهر جدّها بكتاب من تأليف "جول فيرن"(*).

(*) جول فيرن، كاتب فرنسى شهير ومؤلف لكتب الخيال منها العديد التى تحولت إلى أفلام سينمائية.

تلك الصفحات بنصوصها الساكنة فى عمودين تلتهما بالكامل، سحرتها ألف مرة أكثر من الدراجة، والألعاب ومعارك الهنود ورعاة البقر.

وتقول مقدمات الكتب إن "جول فيرن" لم يسافر خارج فرنسا على الإطلاق، ومع ذلك، استطاع بالخيال أن يسافر حتى إلى القمر، ويحكى عن مغامرات كثيرة واكتشافات عن الإنسانية، وهو ما كانت تريده هى، أن تتمكن من السفر إلى حيث يمكن لخيالها أن يأخذها، ولتقوم بذلك ـ منذ كانت طفلة ـ كثيرًا ما بحثت عن العزلة.

كانت تحب الهبوط من السفح الواقع خلف المزرعة لتشاهد البركان المدخن من بعيد، أن تذهب إلى الغابة أو تسير بمفردها باتجاه السد وعيون الماء، وكانت تظل هناك أوقاتًا طويلة ناظرة إلى الدائرة التى ينبع منها الماء بلا توقف. كانت تتكهن حول مصدر الماء النابع من العين: ماء صاف ينبع من حركات دائرية تشبه تنفس تيارات المد والجزر، كانت تتخيل أن تلك الحفرة الواضحة تكشف عن النزيف الدائم للمحيط تحت الأرضى الذى يسكن مركز الأرض.

بينما كانت تشرب عصير البرتقال ببطء، مسترخية، متلذذة بالطعم الحمضى المُسَكر، الذى يشبه ذكرياتها، بدا لها أنها شاهدت رجلاً نحيلاً، طويلاً، بأنف طويل وعينين صغيرتين، واضحتين ونفاذتين، تذكرت شفافية بشرته، الشرايين الرقيقة

والحمراء التى تبدو كتفريعات دلتا صغيرة لأنهار داخلية كبيرة.

كان الجد يستخدم بنطلونات كاكية واسعة وقمصانًا بيضاء بكم طويل مشمرة حتى كوعيه، وفى وسطه حزام يعلق فيه مطواة خطرة بها جميع أنواع الأدوات، كان يستخدمها لصنع أقواس منحوتة من الخشب يصطاد بها الفتيان الطيور أو يلعبون بها لعبة الحرب.

هى تفضل أن تراه عندما يكون ساكنًا، جالسًا على أصيص الزرع، ويحادثها، كانت معارفه واسعة وخاصة، كان يعرف أماكن الأبراج، والأشجار والكواكب، يقول "هناك يوجد المريخ"، أو "الجديان السبعة" أو "برج "اوريون" أو "الثور" أو "الميزان" أو "نجمة الصباح"... إضافة إلى معرفته بمنازل القمر، ومد وجزر البحار، كان يعرف أساطير قديمة لإقطاعيين وأميرات هنود، كان عاشقًا للكتب، وذاكرته المصورة تسمح له أن يلقى مقاطع كاملة.

منذ أن بقى أرملا فى الخامسة والثلاثين، عاش وحيدًا، لكن مغامراته فى عالم الحب كانت شهيرة. وإذا كانت أم "لافينيا" ابنته الشرعية الوحيدة، فعندما مات الجد، ظهر الأبناء والبنات ـ قدموا أنفسهم لها على أنهم أخوال وخالات ـ وتقدموا أمام التابوت الجنائزى، كانت ملامح الجد واضحة فى ملامح وجوههم، الإخوة والأخوات الذين لا يعرفون بعضهم البعض، اجتمعوا فى هذه المناسبة لأول وآخر مرة.

هى لا تزال تجهل الرقم المحدد لعددهم.

فى عيد ميلاده الأخير، قدم لها الجد شاهده، كان يحفظ ما كُتب عليه عن ظهر قلب، معلنًا أن هذا هو إرثه الأكثر أهمية" "فى البداية والنهاية ما يسميه الإغريق "ألفا" و"اوميجا"، والآن أنا وصلت إلى "اوميجا"، وأترك لك هذا الإرث: أن يأتى الكتاب، مقبرة الكلمة، فالكلمة هى الدخان والمعرفة وأن تتذكرى أنه كما قال "كاستيلار" لا جهد فى الثقافة العالمية يمكن أن يضيع".

مات فى الحادى والثلاثين من ديسمبر، ترافقه الألعاب النارية، والصواريخ، والاحتفالات التى ودعته مع العام المنصرم، مات نتيجة التهاب غريب فى الحجاب الحاجز جعله يعطس حتى الموت.

كانت جنازته الحاشدة لها طابع اللقاء السياسى، تذكرت "لافينيا" ذلك المساء الحار، وزهور المقابر وعدد العمال الذين رافقوه، حتى اختفى خلف الشاهد، فقد كان الجد مؤيدًا للأفكار الليبرالية والاشتراكية، ومعارضًا متحمسًا للنظام الوراثى للجنرالات الكبار، كان قد طبق فى شركاته تحديد ساعات العمل بثمانى ساعات قبل أن يصدر قانون العمل، وكذلك قدم لعمّاله الخدمات الاجتماعية والتأمين على العمل، كان أيضًا أثريًا امبراطوريًا، فقد اكتشف الآثار القديمة فى "تينوزتلى".

كان الجد بالنسبة إليها الطفولة والخيال، ولا تزال تعيش معه فى حلم لا ينتهى، كان الاثنان معًا فى

جبل مرتفع، عال جدًا، على قمته جليد وعلى سفحه الربيع، يُثبّت الجد على ظهرها جناحين كبيرين جدًا من الريش الأبيض ـ كالتى كانت تستخدمها فى طفولتها عندما كانت تتقنع فى شكل ملاك فى استعراض الأسبوع المقدس ـ وهبت ريح قوية، تدفعها للطيران. كانت هى تطير فى أحلامها، تشعر أنها سعيدة، طير، وتشعر أنها مطمئنة، لأن جدها كان ينتظرها فى أعلى الجبل، سعيدًا برؤيتها تطير. فقط بدأت تحلم مؤخرًا بكوابيس، أثناء الطيران، تتحول الأجنحة إلى معدن ثقيل وتهوى هى نحو الأرض.

توقفت الموسيقى، انتبهت إلى الأطباق القذرة، والكوب الفارغ من عصير البرتقال، نهضت لتنظف المائدة، وتأخذ دشًا يعيد إليها حيويتها من حنينها.

***

عبرتُ أغشية وردية، دخلتُ فى جسد "لافينيا" كشلال عنبر، شاهدتُ سقف اللسان يمر فوقى قبل أن أهبط فى نفق ضيق ومظلم نحو مدخل المعدة.

أسبح الآن فى دمها، أسير فى هذا الفضاء الواسع، يُسمع القلب كصدى داخل كهف تحت الأرض، كل شىء هنا يتحرك بإيقاع ثابت، شهقات وزفرات، حين تشهق، تتباعد الجدران، يمكننى أن أرى الشرايين الرقيقة كحزمة سهام منطلقة نحو الفضاء، حين تزفر، تنغلق الجدران وتظلم، جسدها فتى وصحى، القلب ينبض بانتظام، بلا راحة، شاهدت داخله القوى،

شعرت بقوة اندفاعى نحو كهوف داخلية من فضاء إلى آخر، هكذا كانت تنبض قلوب المحاربين عندما كان الكاهن ينزع قلوبهم من صدورهم، تنبض بعنف حتى تموت، كنت أشعر بالأسى عندما كنت أراها تُنزع من مكانها، كنت أعتقد أن الآلهة تُقدر هدية الحياة تلك، ماذا يمكن أن نقدم لهم أكثر من مركز عوالمنا، أفضل وأكثر قبضات قلوبنا؟

ومع ذلك، لم يحمونا من الوحوش والعصى النارية للإسبان، ربما كانت الآلهة أيضا تفضل ذهبنا، لا يبدو أن قلوبها رقت أمام تأوهاتنا، لقد هجرتنا وتركتنا لغضب القساة، لم يفد فى ذلك سقوط الكثير من القلوب الحمراء، يبدو أنها تراجعت أمام الإله حديث الوصول الذى يقول إنه يدخل إلى الروح من خلال الماء.

وافق "يارنثى" أن يعمدوه لمعرفة كلمة الإسبان، كان يريد أن يعرف أنه قادر أن يتعلم من إلههم أن يكون مفيدًا لشعبنا، لكن إله الإسبان لم يلمس روحه، انتبهنا إلى أنه حتى هذا الإله لم يكن يقبلنا، ربما كان يطلب من الإسبان أن يضحوا بنا.

تحافظ "لافينيا" على مساحات كبيرة من الصمت، يوجد فى عقلها مناطق كثيرة نائمة، لقد دخلتُ أنا حاضرها وأمكننى أن أشعر برؤى ماضيها، حقول القهوة، والبراكين التى تنفث الدخان، والينابيع، الغارقة فى ضباب الحنين الثقيل. كانت تحاول أن

تتفهم نفسها، إن هذه الأصداء والمشروعات معقدة. لاأستطيع أن أصل إلى نظام فى تتابع الصور التى تجذب هذا السطح الأبيض الرقيق. إنها تشوشنى وتخجلنى، إن روحى قلقة.

***

فى البعيد، دقت ساعة الكاتدرائية الخامسة، أطلت من النافذة، فى انتظار "فيليبى" وشاهدت الجيران العجزة جالسين يستمتعون برطوبة المساء فى سكونهم المعتاد.

كان البيت يلمع بالنظافة والاسترخاء، جهدها فى تنسيق الأثاث الجديد، ونفض التراب، ورى الأشجار، وتنسيق أوراق قديمة خلال نهاية الأسبوع لم يذهب هباء. تساءلتْ إن كانت تنبع من الحب رغبة فى إثبات الذات، لكنها شعرت برضائها عن الجهد المبذول. ارتدت الجينز، وقميصًا أبيض ونعلا، ابتسمت وهى تفكر فى صورتها المراهقة كفتاة بيت، وضمت شعرها على هيئة ذيل الحصان.

لم يصل "فيليبى"، فى السادسة، تغلب عليها القنوط، والتليفون لا يرن، وبدأ القلق يهدد بغزوها، لكنها حاولت ألا تفقد صبرها، فكرت فى مشكلات المواصلات، وأسباب تأخير محتملة، وإن كان يجب على الأقل أن يهاتفها، قالت لنفسها، أن يخبرها إنه سيصل متأخرًا، إن رفع سماعة تليفون والاتصال لايتطلب جهدًا، خاصة بالنسبة إليه هو المدمن

بالمكالمات الهاتفية، التقطت أى كتاب واستلقت فى "الهاماكا"، يمكن للقراءة أن تساعدها على احتمال مرور الوقت، لكنها لم تستطع التركيز. فى السابعة، نهضت بقلق، قطعت البيت جيئة وذهابًا، كانت تسير كفأرة محبوسة، دون أن تعرف ما يمكنها أن تفعله. ربما يجب أن تخرج، قالت لنفسها، وألا تنتظره أكثر من هذا. طلبت رقم "إنطونيو" فى التليفون، ولم يجبها أحد، ربما لم يعد بعد من النزهة التى دعاها إليها، ولم يكن "سارا" و"أدريان" فى البيت، تراكمت عزلة اليوم فى الصمت، وضعت موسيقى، إن كانت لم تضع الأسبوع الماضى افتراضات لمشاغل "فيليبى"، لم تتمكن من تجنبها الآن، خشيت أن تكون قد وقعت فى حبائل "دون خوان" اعتيادى، أو على الأقل الوقوع فى حب شخص لديه علاقة إشكالية وربما اختارها كبديل أو لمجرد قضاء الوقت. هذا يحدث فى الحياة الواقعية، هذا ليس بعيد الاحتمال، ومع ذلك فإن توجهات "فيليبى" نحوها كانت تبدو جادة، قدمت لنفسها كأسًا من شراب الروم، قالت لنفسها، عليها ألا تفقد صبرها أكثر من ذلك، ولا يجب أن تنتظر وصوله، عليها أن تحاول فى اليوم التالى أن تستوضح كل شىء، لن تواصل عدم الاهتمام بأسراره الغريبة، سوف تسأله بشكل مباشر. وإن كانت الحقيقة، إنه لايوجد بينهما التزام حقيقى بعد، لا شىء يعطيها الحق فى التثبت من بعض الأشياء. لكن التفكير على هذا النحو قد يكون مصيدة، قالت لنفسها، إنها

المصيدة التى دائمًا ما تسقط فيها النساء الخائفة من الاتهام بحب السيطرة أو الاستحواذ. لم تتمكن من الابتعاد عن الإطلال من النافذة. سمعها يسترق الخطوات.

دقت التاسعة، بدا واضحًا أن "فيليبى" لن يصل، كانت العمة "إينيس" تقول إن الرجال نزقون وغير قابلين للاختراق، ليال مظلمة بنجوم، النجوم هى النوافذ التى تطل منها النساء، الرجال هم الكهف، هم النيران المستعرضة على المرأة فى فعل الحب، كائنات تستمتع بقدرتها على عدم الخضوع لحدود الفضاء المغلق، إنهم المميزون دائمًا. رغم أنهم جميعًا يخرجون من رحم امرأة، والتى هم فى حاجة إليها لينموا ويتنفسوا، وللتغذية، للوصول إلى اللمسات الأولى مع العالم وتعلم معرفة الكلمات، بعدها يبدو أنهم يتمردون بغضب ضد هذا الارتباط بالخضوع للعلامة الأنثوية، من خلال إخضاعهن، عدم الاعتراف بقدرتهن على إخراجهم إلى العالم عبر آلام أفخاذهن المفتوحة، وتقديمهم للحياة.

فتحت التليفزيون، كانوا يعرضون فيلمًا سيئًا، فى القناة الأخرى، مسلسل ممل، لم يكن هناك سوى قناتين فى تليفزيون "فاجواس". أغلقته، أطفأت أضواء البيت، أغلقت باب الحديقة، خلعت ملابسها ودخلت السرير لتقرأ. دقت الساعة الحادية عشرة مساء. كانت تشعر بصداع وشعرت بحزن شديد، بالخيانة، وكانت غاضبة من نفسها، ومن سهولة بنائها قلاع من

الرمال، ورومانتيكيتها. وأخيرًا أدى بها إحساسها بالوحدة إلى النوم، انزلقت نحو نوم من سحابات ضخمة، بيضاء، لها وجوه أطفال متخمين ولعوبين، والجد طويل جدًا يُثبتُ لها جناحين كبيرين من الريش الأبيض، والطيران على زهور ضخمة: دوار الشمس، جلاديوس، سرخس ضخمة، قطرات ندى، كلها رائعة، قطرات ندى ضخمة تلمع تحت الشمس كدوائر مدهشة، ذقن وشارب الجد مغطيان بالندى، والجناحان الضخمان يطلقان ريحًا ضاربة، ويتبللان، يغرقان فى الندى، تمر الأجنحة المبتلة، والجهد يزداد للحفاظ على التوازن على حدود الزهور الضخمة، وفشلت المحاولات للعودة إلى الجد.

خلال المحاولات اليائسة، استيقظت فى الظلام، فقط كان ظل شجرة البرتقال يقطع ضوء القمر على النافذة.

***

تلف الليالى أفرعى وتغنى الجنادب غناءها الوتيرى بحثًا عن الحب، لم أكد أتمكن من متابعتها فى حلمها، كتبت اسمى: "ايتزا"، نقطة ندى، فى رؤاها للزهور والطيران، أنا أيضًا كنت أحلم بالطيران عندما كنت أرى الطيور تهب فى أسراب هربًا من الوحوش والرجال المطاردين لها، الطيور صغيرة جدًا ولكنها تملك إمكانات أكبر مما نملك.

أنا مشوشة مع الأحداث، وجودى فى دمها كان

يعنى وجودى فى نفسى ذاتها، وبالتالى فقد كانت هى جسدى، أشعر بحنين الشرايين، الأحشاء، الرئتين. بالمقابل، فإن أفكارها كانت مجموعة من الببغاوات التى تطير فى دوائر، تصنع ضجيجًا، تتراكم واحدة على الأخرى فى ضجة مرعبة، مع ذلك بالنسبة إليها، كان لها نظام، أنا متأكدة، كل صورة تؤدى إلى أخرى، كمرآة تنعكس على أخرى إلى ما لا نهاية، تذكرت هيامى بالمرايا، بها تمكن الإسبان من لفت انتباهنا، كنا نعتقد فى البداية إن تلك الصورة المتكررة لكل حركاتنا كانت للسخرية منا، إلى أن انتبهنا إلى أننا كنا نرى أنفسنا بوضوح لأول مرة، ليس كالانعكاس المتماوج والهارب الذى كنا نراه فى الأنهار، وهِمنا بها، ما الذى يمكن أن يصيب بالهيام والجنون أكثر من أن يرى الإنسان نفسه لأول مرة؟ من يعرف؟ كان "يارنثى" يغضب عندما كان يفاجئنى وأنا أنظر إلى نفسى فى المرآة، ولكن حتى ذلك الوقت لم أكن أعرف أننى كنت جميلة، وكنت أحب تأمل نفسى.

ـ ٥ ـ

كانت قد عادت إلى النوم مجددًا، عندما سمعت فجأة ضجيجًا. ظلت ساكنة فى الظلام، كانت الريح فى الخارج تهب ضارية فى الأشجار، اعتقدت فى البداية أن الريح ينقر على الباب، لكن النقرات كانت منتظمة، وقوية ومتعجلة، انتبهت فجأة بخوف، ارتدت "الكيمونو" الأزرق بسرعة وخرجت إلى الصالة، أضاءت المصابيح عندما سمعت صوت "فيليبى"، كان صوته خشنًا، صوت من يبذل جهدًا ألا يصرخ، كان يقول:

ـ افتحى بسرعة، افتحى.

سحبت المزاليج، مفكرة: ظهور "فيليبى" فى مثل هذه الساعة، السرعة، نغمة صوته المنطفأة... ماذا يمكن أن يكون؟ كان عليها أن تضغط على الباب؛ لأنه انفتح تحت ضغط ثقل جسد ما. دخل رجل يترنح، منحنيًا على نفسه ومعتمدًا على ذراع "فيليبى".

لم يكن لديها الوقت لتسأل عما حدث، لم تكد ترى التعبير الغريب على وجه "فيليبى" عندما مر إلى

جانبها، دافعًا الغريب نحو غرفة النوم دون أن ينطق، ودون أن ينظر خلفه. قال لها:

ـ أغلقى جيدًا. ضعى كل المزاليج، وأطفئى الأضواء.

أغلقت الباب، وأطفأت الأنوار، ما الذى حدث؟ كانت تتساءل، ما معنى هذا الدخول الفجائى فى منتصف الليل؟ كانت رائحتهما غريبة، تشى بالخطر، والقنوط.

ـ ألديك شراشف، شىء ما يمكننا أن نستخدمه كضمادة، شىء يمكننا أن نستخدمه كرباط ضاغط؟

سأل "فيليبى". وكانت البقعة الحمراء التى فى المنشفة التى يثبتها على ذراع الجريح تتسع بلا توقف.

دون أن تنطق بكلمة، دخلت "لافينيا" إلى الحمّام، تحتفظ هناك بمطهرات، وقطن، وأدوات للإسعافات الأولية. يداها ترتعشان، خرجت بالشراشف، والمناشف، ووضعتها على الطاولة.

كان الرجل يصدر صوت تنفس غريب، يثبت المنشفة على الذراع، ويضمه إلى وسطه، شاهدت "لافينيا" خيوط الدم تجرى على البنطلون، شعرت بأن العينين تبرقان فى محجريهما. قالت بكلمات متلجلجة:

-إنه جرح خطير، هل أصيب فى حادثة؟ يجب أن نأخذه إلى المستشفى، أو استدعاء طبيب.

-لا يمكن- أجاب "فيليبى" بحدة ـ ربما غداً. ساعدينى. علينا أن نوقف نزيفه.

اقتربت، رفع الرجل المنشفة حتى يتمكن "فيليبى" من ربط الجرح، شاهدت الجلد عند أعلى الكوع، وفتحة مستديرة، والبشرة لحمًا حيًا، والدم أحمر قان لا يتوقف. صور متباينة هجمت على ذهنها، أفلام للحرب، جروح طلقات رصاص. الجانب المظلم فى "فاجواس" يظهر فى بيتها، بشكل غير متوقع، على حين غرة. بأية طريقة أخرى يمكن فهم أنه لا يمكن أخذه إلى المستشفى؟ وأخيرا فهمت سر المكالمات الهاتفية الغريبة لـ"فيليبى"، وخروجه. لا يمكن أن تكون شيئًا آخر، فكرت، شعرت بالرعب يصعد فى جسدها، محاولة أن تهدئ من روعها أنه يجب ألا تتوصل إلى نتائج سريعة. إن لم يكن هذا، لكن لماذا، يأتى "فيليبى" بهذا الرجل إلى بيتها؟ غزاها الخوف بموجات كثيفة، بينما كانت تنظر إلى الجرح بسكون، الدم، واجتهادها لمقاومة الدوار، ورغبتها فى التقيؤ.

لف "فيليبى" الشراشف حول الذراع، وبدأ فى الضغط بقوة.

لم تكن ترغب "لافينيا" فى رؤية البقع الحمراء، الرطبة، وملامحه القوية، والجلد المزّرق، والشحوب، والشفاه المذمومة.

ترى من يكون؟ فكرت، كيف أصابوه بالجرح؟ كانت تفضل ألا تفكر، كانت تشعر بأنها محاصرة، لم

يكن فى مقدورها أن تفعل أكثر من النظر إليهما، ومساعدتهما. لم يكن أمامها من طريق آخر. كانت ضربات رأسها تنبض كقلب كبير، بطلاقة.

ـ أطلقوا عليه الرصاص ـ أكدت دون أن ترى "فيليبى". قالت هذه الجملة لحاجتها إلى قولها فقط، أو للتخلص من عبئها. كان "فيليبى" يحاول ربط الجرح بالضغط بقوة، تحول القماش الأبيض إلى أحمر، أحمر مخيف، حى.

يكاد الرجل ألا يتنفس، كان وجهه مستديرًا، ينظر بلا تعبير، نحو يد "فيليبى". كان يراقب العملية كما لو كانت لا تجرى فى ذراعه، كان شابًا، متوسط القامة، بعينين منحرفتين قليلا وشفتين ثقيلتين، شعره كستنائى، تسقط خصلة على الجبهة، كان تكوينه خشنًا، يمكن بسهولة رؤية شكل العضلات، والشرايين القوية والعريضة. عندما سمعها، استدار نحوها.

ـ لا تنزعجى، يا رفيقة ـ قال متحدثًا لأول مرة، ناظرًا إليها ـ لن أموت فى بيتك ـ وابتسم بحزن تقريبًا.

كان "فيليبى" ينز عرقًا، يضغط ويفرد الرباط.

وأخيرًا، قطع مزقة أخرى من الشرشف وربطها على الذراع بقوة. نظف الدم الباقى بمنشفة نظيفة، رفعها بعد ذلك إلى جبهته ليجفف العرق.

ـ حسنًا ـ رفع صوته متوجهًا إلى الغريب ـ أعتقد أنك سوف تخرج من هذه المرة سالمًا، كيف تشعر الآن؟

أجاب الآخر بتعبير ساخر:

ـ كما لو كانوا قد أطلقوا علىّ الرصاص الآن، أنا فى حال طيبة، لا تنزعج، انتبه إلى الرفيقة، يبدو أنها منزعجة جدًا.

قال "فيليبى":

ـ سأهتم بها حالاً، لكنى أعتقد أنك لا يجب أن تتحرك من هنا على الأقل الآن. الرفيقة "نظيفة". من الأفضل أن تبقى هنا، لأنه المكان أكثر أمنًا، والآن يجب أن تتناول شيئًا وأن تنام. لقد فقدت الكثير من الدم.

ـ حسن، سوف نرى. فنحن لا نعرف ماذا ستقول هى؟.

ونظر نحوها.

يبدو أن الجريح فقط الذى لاحظ وجودها، أنهى "فيليبى" تنظيف السرير. ولم يعد الآن لديها شك. فكرت "لافينيا"، بعد أن سمعت اهتمامات "فيليبى" عن أمن ذلك المجهول، كان يمكنه أن يبعدها عن هذا، ويتركها فى جهلها، فكرت، ولا يجبرها أن تواجه وضعًا مشابهًا بشكل غير مستعدة له من قبل.

ـ هل لديك شىء نقدمه له؟

سأل "فيليبى"، متوجهًا نحوها، بوجه لا تعبير فيه، بدا لها وجهه جامدًا، فريسة فكرة ثابتة.

ـ يمكننى أن أعد له عصير برتقال، وأيضًا لدىّ حليبًا.

أجابت، مستجيبة لطريقة "فيليبى" المتسلطة، شعرت بالبلاهة، وأنها خاضعة للسيطرة.

قال الجريح:

ـ الحليب جيد، البرتقال يصيبنى بالحموضة.

لحق بها "فيليبى" فى المطبخ. قال لها:

ـ أعتقد أنه من الأفضل تسخينه قليلاً.

قالت "لافينيا":

ـ أنا لا أعتقد ذلك، قرأت أن الساخن ليس طيبًا بالنسبة للنزيف، الأفضل أن نقدمه له باردًا ... قل لى ماذا حدث، من يكون هذا؟

ـ اسمه "سباستيان"- أجاب "فيليبى"- فلنقدم له الحليب وبعدها أشرح لك.

ابتعد عنها وتوجه نحو النافذة، كانت الريح تواصل هبوبها، يُسمع نباح كلاب ضالة، ومرور سيارة من وقت إلى آخر، رأته يتثبت من المزاليج، وسلسلة الباب.

تناول "سباستيان" الحليب، أعاد الكوب إلى "لافينيا" وأضجع على السرير، وأغلق عينيه. وقال:

ـ شكرًا شكرًا يا رفيقة.

شىء من جديته ذكّرها بالأشجار الساقطة.

خرجت مع "فيليبى" إلى الصالة فى الضوء الخافت. كانت أضواء الفناء تعكس ضوءًا أبيض ضعيفًا، وظِلُّ شجرة البرتقال ينعكس على طوب الجدار.

ترك "فيليبى" نفسه يسقط على الكنبة وألقى برأسه إلى الخلف. أغلق عينيه، فرك وجهه تعبيرًا عن التعب، وبرغبة فى التخلص مما حدث واستعادة توازنه.

-"لافينيا"؟

فتح "فيليبى" عينيه وأشار إليها أن تجلس إلى جانبه، استعاد تعبيره بعض الحلاوة، رغم التكشيرة والعينين الجامدتين الثابتتين.

جلست إلى جواره وانتظرت فى صمت، لم ترغب فى السؤال، كانت خائفة، فكرت أنه من الأفضل ألا تعرف أى شىء، فى "فاجواس" من الأفضل عدم معرفة أى شىء، لكن "فيليبى" حدثها:

ـ اكتشف الحرس الوطنى "سباستيان"، فتحوا النار على البيت الذى كان فيه، تمكن من الهرب بالقفز على الحوائط والأسوار، ثلاثة رفاق آخرون ماتوا.

صمت، ماذا يمكنها أن تقول؟ فكرت "لافينيا"، كان هناك حرص فى نظرة "فيليبى"، لم تبد رد فعل،

كانت تحب أن تخرج هاربة، فكرة أن الحرس كان يتبعهم أصابتها بالفزع، تعرف جيدا طرقهم فى التعامل، التعذيب، والبركان، وهى امرأة، تخيلت نفسها مغتصبة فى حبس الجنرال الأكبر، ضوضاء الليل كان ينذر بالشر، محملة بالغموض، والريح.

ما كان يجب أن يدخل "فيليبى" بيتها على هذا النحو، دون سابق إنذار، ربما لم يكن أمامه من طريق آخر، قالت لنفسها، لكن ليس لديه الحق فى إرغامها على التعرض للخطر، وفى ظلال "ثلاثة من الرفاق موتى"، والجريح نائم فى سريرها... ماذا يمكنها أن تفعل؟ فكرت، قانطة.

ـ يجب أن تعرفى الآن لماذا لم أستطع الحضور، وما هى انشغالاتى، والمكالمات التى أتلقاها.

قال "فيليبى"، ناظرا إليها بحنان، واضعًا يده على يدها:

ـ آسف أن تكونى قد عرفت بهذه الطريقة، ما كان يمكننى أن آتى إلى هنا على الإطلاق ما لم يكن ذلك أمرًا طارئًا، لم أستطع حمل "سباستيان" إلى بيتى، هناك يعيش أناس آخرون، وأى وشاية يمكن أن تكون شيئًا سيئًا للغاية، آسف ـ كرر ـ لم أجد طريقة أفضل من المجىء به، هنا سيكون آمنا.

شاهدت شحوب "فيليبى" فى الظلام، والعرق يلمع على وجهه، كان الوقت حارًا.

ـ وماذا سنفعل؟

سـألت "لافينيا"، متحدثة أيضًا همسًا كما كان يتحدث هو.

- لا أعرف، حتى الآن لا أعرف.

همس "فيليبى"، وملّس على شعرها بيده.

كانت "لافينيا" تشعر بتشوشه من خلال تنفسه المتوالى، والجسد الملقى على الوسائد، والسيقان الممتدة بطولها كما لو كانت تثقله، اعتدل "فيليبى" وبدأ فى تنظيف نظارته بشكل ميكانيكى متحدثًا دون أن يراها، محدثًا نفسه. قال:

ـ لا يستطيع أحد أبدًا أن يعتاد على الموت، لايعتاد أبدًا.

كان يعرف الرفاق الثلاثة الموتى، قال، إن أحدهم كان صديق طفولته، ورفيق المدرسة، "فرمين"، واعدوه على اجتماع فى المساء، لهذا تأخر عن الحضور فى موعده معها، أضاف، كما لو كان هذا لا تزال له أهمية، استمر الاجتماع حتى التاسعة مساء. كان "فرمين" يهزل عن هدوء الحى، كانوا يشعرون هناك بالأمان، فى البيت حديث الإيجار من خلال أموال التنظيم القليلة (كان يتحدث عن التنظيم كما لو كانت هى تعرف عن أى شىء يتحدث)، كان الحى فقيرًا، مهمشًا، بيوت من الألواح الخشبية، والمراحيض فى الأفنية، فلاحون مهاجرون إلى المدينة بحثًا عن حياة أفضل. من يشى بهم؟ سألها ناظرًا إليها دون أن

يراها، فى التاسعة، خرج هو للعودة إلى بيته. "ولم ألاحظ أى شىء، لم ألاحظ أى شىء"، كرر "فيليبى"، كما لو كان يدين نفسه بشىء خطير، أعاد ما شاهده، محاولا تذكر أى شىء غير عادى: رجال ونساء جالسون أمام أبواب بيوتهم، كلاب ضالة، الأتوبيسات تمر، محدثة جلبة بهياكلها القديمة، "لم ألاحظ أى شىء"، كان يقول مرة بعد أخرى، لقد كان "سباستيان"، قال، هو الذى أخبره كيف أن الحرس الوطنى ظهر فجأة. "سمعوا فرملة عربات الجيب وصرخة "انتم محاطون، استسلموا"، بشكل متواز تقريبًا، وكانت لديهم طلقات قليلة. بندقيتان قصيرتان، بينما كانوا يتخذون وضع الاستعداد لإطلاق النار، شحنوا المسدسات، وخلال الحركة السريعة قرروا أنه على "سباستيان" أن يبحث عن طريقة للهرب، محاولة الخروج، أن يعيش لمواصلة النضال، وصرخوا قبل القفز على السور.

فى التاسعة مساء كانوا على قيد الحياة، قال "فيليبى"، نازعًا نظارته، ضاغطًا على عينيه بإصبعه الكبير، والآن لا يمكن فعل أى شىء من أجلهم، أضاف، لا يستطيع أحد أن يستعيدهم، لكن أحلامهم لا تزال حية، لكن هم لا.

سكت "فيليبى"، مد ذراعه ليحتضنها، كما لو كان قد أفرغ ما لديه وفى حاجة إلى الاقتراب من كائن بشرى آخر حتى لا يسقط فى القاع المظلم، العميق، والقنوط.

متأثرة، ودون أن تستطيع النطق بكلمة واحدة، تكورت فى أحضان "فيليبى"، متلمسة ومحتضنة، دون أن تعرف كيف تخفف عنه، كما لو تود أن تمنحه الأمان، أن تحميه بجسدها جسد امرأة، أسندت رأسه، شعرت بأنفاسه المنتظمة، سخونة كينونته، وتكوينه المتماسك، وتضاريسه، ومع ذلك، سهل اختراقه، إن أية قطعة رصاص منطلقة بسرعة محددة، يسقط على إثرها "فيليبى" محطمًا، هذه البشرة التى تلمسها، هى كل ما يسكن داخلها من لحم، يخرج عن مجراه، الجسد المحبوس سيطير إلى ألف شظية، تجرى المياه، يسكت الهدير، التيارات الداخلية تصعد وتهبط بحلاوة، شعرت بالقشعريرة أمام تعبير الموت الدائر بالقرب منهما، فقط فى التاسعة مساء كان "فيليبى" قد خرج من البيت، وماذا لو بقى فى البيت؟ التصقت به بقوة أكبر، فكرت فى أصدقائه، هؤلاء الذين لن تعرفهم أبدًا.

ودت لو تبكى من أجل ما يشعر هو به، من الألم الصامت للموت، والعجز.

ويمكن أن يموتوا جميعًا، فكرت، هى نفسها يمكنها أن تموت، وغزاها الخوف متغلبًا على الحزن، ربما قال "فيليبى" لصديقه إنه يمكنه البقاء هنا، لن يذهبوا حتى اليوم التالى، أغمضت عينيها بقوة، كانت تود لو يذهبان فى اليوم التالى مباشرة، أن تراهما يخرجان من بيتها، أن تبقى وحيدة، مطمئنة، من جديد. أن تنسى أن هذا قد حدث، لكنها خشيت أن

ينتبه "فيليبى" إلى رغبتها فى أن يذهب مع صديقه الجريح، لم تكن تنظر إليهما، وظلت مستندة إلى صدره، بينما كان هو يتخلل شعرها الطويل بيديه وتشعر هى بأعصاب ذراعه المشدودة، وتقلصات عضلاته.

ترى هل يأتون بحثًا عنهما؟، تساءلت "لافينيا"، ماذا أفعل أنا لو جاءوا بحثًا عنهما؟

بدأ وضوح الفجر ينزلق من تحت عقب باب الحديقة، وقف "فيليبى"، اتجه نحو النافذة، فى الخارج كان هناك على البعد ديك يصيح.

ـ نحن ننتمى إلى حركة التحرير الوطنى ـ قال، مؤكدًا ما ذهبت إليه "لافينيا" من تكهنات ـ هل تعرفين ما يعنى هذا؟ أليس كذلك؟ ـ سأل.

قالت "لافينيا":

- نعم، نعم، الكفاح المسلح.

قال "فيليبى":

ـ نعم، بالضبط، الكفاح المسلح، لا يمكننا أن نظل فى الجبال فقط، نحن يزداد عددنا، وبدأنا فى العمل فى المدن، لا يستطيعون إيقافنا، القبول بالأمر الواقع ليس هو الطريق يا "لافينيا"، لا نستطيع آن نترك الحرس الوطنى يفرض سيطرته بالقوة، هل تذكرى المهمشين؟ لا يمكن أن نترك هذا يستمر، آمام القمع لايوجد غير العنف.

واقفًا، مستندًا إلى حافة باب الحديقة، وعينا "فيليبى" تنظران بتحد إلى نقطة ثابتة فى الفضاء، إنها الطريقة الوحيدة، كان هو يكرر، سائرًا من اتجاه إلى آخر، يفتح ويضم قبضتيه، فى محاولة لاستعادة القدرة على الإقناع، يكاد يكون ظاهرًا، كرؤية مريض محدد ينهض ليعيش بعد الإعلان الرهيب عن الموت.

كان يجب عليها هى أن تشتبه فيما كان يفعل، فكرت، رغم أنه باستعادة طريقته فى التعامل، لم تعثر على أى شىء يشى بمثل هذا الارتباط، الحقيقة ما كان يمكنها أن تتنبه إلى ذلك، وذلك رغم انشغالاته الغريبة والكثيرة، ربما ظلت تربط بينه وبين علاقات حب غير شرعية أو الخوف التقليدى للرجل من الالتزام تجاه المرأة، إنه أمر يدعو إلى الأسف، قالت، إن تراه غارقًا فى الخطر، نظرت فى وجهه المثقف، إلى نظارته دقيقة الإطار، والعينين الواسعتين، الرماديتين، إنه من الجنون أن يخاطر بنفسه على هذا النحو وهو ذو المستقبل الواعد، وهو الذى استطاع بعد الكثير من العناء أن ينهى دراسته للهندسة المعمارية، إنه جنون، فكرت، لو أنه أقنعها بأن المخرج الوحيد هو الكفاح المسلح.

قالت:

ـ لكن ليس لهم مستقبل يا "فيليبى"، سيقتلونهم جميعًا. هذا غير واقعى، وأنت شخص متزن، ما كان يمكننى أن أتخيل على الإطلاق أنك تعتقد فى مثل هذه الأشياء.

"زيوس" على وشك أن يقذفها بالصواعق، ربما شاهد الرعب فى عينيها لأنه توقف. قال لها:

ـ لنعد القهوة.

بينما كانا يستنشقان رائحة القهوة، ويتذوقانها ببطء، جالسين على الكرسيين الخشبيين التقليديين فى المطبخ، مد هو ذراعه على الطاولة وأمسك بيدها.

-"لافينيا"- قال، ناظرًا إليها بعمق ـ لا أريد أن ألزمك بشىء، لا أريد أن أضع هدوءك فى خطر، بالعكس، أنا أحب هذا الهدوء، هذا البيت السعيد، الهادئ، أنا أحبه، وبشكل أنانى أحبه ـ قالها كما لو كان يحدث نفسه ـ لا أريدك أن تفهمينا، أو أن تتفقى معنا، ربما يبدو لك نشاطنا جنونيًا، ولكنه بالنسبة إلينا هذه هى الطريقة الوحيدة، فقط أطلب منك أن تبقى على "سباستيان" هنا حتى نستطيع نقله إلى مكان آخر، بيتك آمن، لن يحاول أحد أن يبحث عنه هنا، "سباستيان" مهم جدا بالنسبة إلى الحركة، أقسم لك أننا لن نطلب منك أى شىء آخر.

تساءلت "لافينيا":

ـ أنت، ماذا ستفعل؟

ـ أريد أن ألتقى به غدا لأعرف أحواله، وبعدها سأنقله، المشكلة ليست فىّ أنا، أنا بعيد عن النشاط المباشر تقريبًا، المشكلة أننا لا نملك تمويلاً، ولا بيوتًا، ولا عربات، وكل هذه الأشياء، علىّ أن أفكر جيدًا إلى أين ننقله.

سألت "لافينيا":

- إذًا، الحركة ليست كبيرة جدًا؟

- إنها تنمو - أجاب"فيليبى"، بنظرة أخرى قاتلة- ماذا تقولين، هل اتفقنا؟

كان صعبًا عليها أن تطلب منه، أن ترجوه، فكرت وهى تنظر إليه.

كانت عيناه تلمعان، كان قد مد يده منتظرًا أن تقول شيئًا.

"أنا مجبرة ـ فكرت ـ لا أستطيع أن أقول له لا". ولكن لا تستطيع أن تكون رومانتيكية، العلاقة مع "فيليبى" لا تجبرها على الالتزام معهم، إنها ليست لعبة، وإنما دم وموت، لم تتخيل مطلقًا أن شيئًا مثل هذا سوف يحدث لها، فالمقاتلون فى حرب العصابات بالنسبة إليها كان أمرًا مستبعدًا، إنهم بشر ينتمون إلى فئة أخرى من البشر، أعجبت فى ايطاليا مثل كل الناس، بـ"التشى جيفارا"، وتذكرت إعجاب جدها بالثورة و"فيدل كاسترو" ولكنها هى لم تكن تنتمى إلى هذه الفئة، كان هذا واضحًا بالنسبة إليها، ألا تتفق مع حكم العائلة شىء وشىء آخر مختلف أن تمارس الكفاح المسلح، فى مواجهة جيش مدرب على القتل المجانى. هذا يتطلب نوعية أخرى من الشخصية، تكوين آخر، تمردها الشخصى ضد الوضع الحالى شىء، ومطالبتها بالاستقلالية، والخروج من البيت، الاجتهاد للحصول على مهنة محددة، وشىء آخر أن

تعرض نفسها لهذه المغامرة الجنونية، هذا الانتحار الجماعى، هذه المثالية غير المحسوبة. لا يمكنها أن تتنازل عن الاعتراف بأنهم شجعان، إنهم نوع من "دون كيخوتى" الاستوائى، لكنهم غير متعقلين. سيواصلون قتلهم وهى لا تريد أن تموت، ولا يمكنها أن تترك "فيليبى" وحده، ولا حتى صديقه، لا يمكنها أن تخرجهما من بيتها، حتى لو شعرت بضرورة خروجهما، وأن ينتهى كل شىء، وأن تنتزع هذه الليلة من ذكرياتها.

قال "فيليبى":

-أراكِ صامتة، لم تجيبى.

رنة صوته ذكرّتها بحزمه، بلا عاطفة، الليلة السابقة.

ـ تعرف أننى لا أستطيع أن أقول لك لا حتى لو أردت- قالت "لافينيا" أخيرًا ـ أتفهم أن لكم أسبابكم لتفعلوا ما تفعلون، فقط أريد أن يكون واضحًا أننى متفقة مع هذه الأفكار، لكنى لا أملك الشجاعة لفعل مثل هذه الأشياء. يمكن آن يبقى "سباستيان"، لكنى أطلب منك أن تنقله من هنا فى أسرع وقت ممكن، أعرف أن هذا قد يبدو لك مرعبًا، لكننى لا أشعر بالقدرة على فعل شىء آخر، يجب أن أكون واضحة معك.

قال "فيليبى":

ـ أنـا واضح، هـذا هـو كل مـا نـطـلب مـنك أن تفعليه، فى هذه اللحظة.

قالت "لافينيا":

ـ لا، من فضلك، لا شىء اسمه فى هذه اللحظة، إن هـنـاك شـيـئًا أنـنـى مـثل كـثـيـر من الـنـاس نُـعـجب بشـجـاعـتكم، لكن هذا لا يعنـى أننى متفقة معهم، أنا أعتقد أنهم مخطئون، إنه انتحار بطولى، أطلب منك، وأرجوك، ألا تضعنى فى مثل هذا الموقف مرة أخرى.

قال "فيليبى"، منظفا نظارته مرة أخرى:

ـ حسن، حسن.

تـركت "لافـيـنـيـا" رأسـهـا تـسـقـط بـين ذراعـيـهـا الممدودتين على الطاولة، أغلقت عينيها، كانت تشعر بأنها متعبة، منهكة، وشعور بالذنب يأتيها من خلال صـور غـريـبـة ومتـوالـيـة، قـرى تحـتـرق، رجـال سـمـر يقاتلون كلابًا متوحشة، تنهك عقلها.

ـ من الأفضل أن نستريح ـ قال "فيليبى" رافعًا رأسها ـ يخيل لى أننى أسمع أصواتًا.

- ٦ -

آه، كم كنت أرغب فى أن أهزها، أدفعها إلى أن تفهم، لقد كانت مثل أخريات كثيرات، كثيرات عرفتهن، يعتقدن أنهن بهذه الطريقة يحافظن على حياتهن، وينتهى بهن الحال كهياكل عظمية حزينة: خادمات فى المطابخ، مقطوعات الرءوس عندما يتوقفن عن السير، أجساد تصلح لتفريغ شهوات البحارة فى تلك السفن التى تمخر البحار إلى المدن البعيدة وتحمل رجالنا .

الخوف ناصح سيئ، كان يقول "يارنثى" ، عندما كانوا يناقشونه فى مدى صلاحية استراتيجيته، يجذب "فيليبى" سلطة الشجاعة، وهى تبحر فى بحر من التشوشات، وصورها باردة، والدم ينزف إلى الداخل عندما يجرح الواحد منا فى الماء، يتعلق بعالمه كما لو كان الماضى لا وجود له والمستقبل مجرد قماش من الألوان الزاهية، تمامًا كمن كانوا يقبلون التنصر معتقدين أن الماء سيغسل قلوبهم، كمن يفكرون أن مقاومة الجياد لا تفيد فى شىء، ولا فى مواجهة العصى النارية، ولا فى السيوف القاسية اللامعة ولا

يوجد شيء آخر سوى الاستسلام والانتظار، لأن ألهتهم تبدو أكثر قوة من آلهتنا . وما زلت أعتقد أننى أسمع صرخاتهم بعد المعركة التى كنا نسير إليها خمسة أيام كاملة من "مارييبوس" ، كانت قد وصلتنا أنباء أن مجموعة من القادة الإسبان قرروا غزو القرى القريبة من المكان الذى يريدون أن يبنوا فيه بيوتهم ومعابدهم، بناء مدينة ليقيموا فيها فى أراضينا! كانت لحظة من اليأس الكبير، فى ذلك الوقت لم ننقطع عن مهاجمتهم ليلاً ونهارًا، بشكل فجائى، مستغلين خبرتنا بالأرض ومخابئها، لكننا كنا نفقد الكثير من المقاتلين. كانوا هم يخرجون عصيهم ويطلقون علينا نيران من تلك العصى، كانوا يطاردوننا ويطلقون علينا النار.

فى ذلك الوقت فإن "تاكوتيدى" ، الكاهن الشيخ، طرأت على ذهنه استراتيجية، من المؤكد أنها ستدفع الإسبان إلى التراجع، ظللنا نناقشها ليومين بلياليهما ونحن نختبئ فى الجبال، حول النيران، أنا لم أكن موافقة، شيوخنا يستحقون مصيرًا أفضل، كنت أعتقد أنهاتضحية غير مجدية، وإن لم أكن أعرف الأثر الذى يمكن أن تتركه هذه الاستراتيجية، تشابك "يارنثى" و"كيافيت" و"استوتشيمال" بالزعيق، بعضهم مع هذه الاستراتيجية وآخرون ضدها .

وأخيرًا جاء "جويوفيت" ، الشيخ الذى نحترمه جميعًا ، صاحب الشعر الأبيض، وطلب أن نحتكم للزهر للتوصل إلى القرار السليم.

يبدو أننى ما أزال أرى، فى الليل، دائرة المقاتلين الضيقة حول الأساسيين، الألواح الخشبية معلقة على أفرع الأشجار، و"كويوفيت" و"تاكوتيدى" جالسان على الأرض، يدخنان دخانهما.

أطلقوا سهامهم فى الهواء، ارتعش الهواء فى قوسيهما، وسهما "يارنثى" و"كويوفيت" ذهبا بعيدًا، خسر "استوتشيمال"، طأطأ رأسه وأطلق عويلا طويلا.

فى تلك الليلة اختار المقاتلون من القبائل أربعين شيخًا وعجوزًا، وحملوهم إلى معسكرنا وكانت لا تزال عيونهم ناعسة، وملتفون فى عباءاتهم، وبدءوا فى مضغ الدخان وهم جالسون فى شكل دائرة، حدثهم "تاكوتيدى"، قال لهم إن سيد الشاطئ "تشيبى توتيك" كلمهم فى الحلم، قائلا لهم إنه لإخراج الغزاة من البحر، يجب التضحية برجال ونساء حكماء، ويجب أن يرتدى بعد ذلك المقاتلون جلود من تم التضحية بهم، وأن يقفوا فى الخط الأول من القتال، وبهذه الطريقة يخاف الإسبان ويهربون، ويتخلون عن بناء مدنهم فى "ماريبيوس"، وقال لهم، إنه جرى اختيارهم من أجل التضحية، وسيضحى بهم عند طلوع الفجر.

أنا كنت أشاهدهم، مختبئة خلف بعض الأعشاب، لأن النساء لم يكن يسمح لهن بالمشاركة فى عمل الكهنة، لكن، أنا كنت قد تحديت ما هو محرم على النساء وذهبت للقتال مع "يارنثى"، على أى حال

لقد اعتبروني ساحرة، سحرت "يارنثي" برائحة شهوتها الفوّاحة.

بهذه الطريقة شاهدت، في ضباب الفجر، الشيوخ ملتفين في سكونهم، ملتصقين بعضهم إلى بعض، ووجوههم ممزقة بالتجاعيد، يستمعون إلى "تاكوتيدي"، بقوا صامتين، بعدها واحدًا بعد الآخر أطلقوا عويلاً طويلاً، "ليكن، ليكن، ليكن"، كانوا يقولون، "ليكن، ليكن"، حتى أصبحت أصواتهم تشبه الغناء الجماعي.

شعرت أنا أن إناء فخاريًا تحطم في صدري وأنا أشاهد صور من سيموتون في اليوم التالي، شيوخنا، ومعهم تموت حكايات شعوبنا، وحكمتهم، سنوات من ماضينا، كثيرون كانوا آباء أو أقارب للمقاتلين الذين كانوا يشاهدون هذا كله بوجوه خاشعة. عانينا كثيرًا هذه التضحية! وفي فجر اليوم التالي، أخرج "تاكوتيدي" قلوبهم واحدًا بعد الآخر في مذبح "تشيبي توتاك" المعد على عجل، تحملنا جميعًا ثقل الغضب على سيوفنا والكراهية للإسبان تحرق وتشعل دماءنا.

نزع "تاكوتيدي" عنهم جلودهم، واحدًا بعد الآخر، وارتدى أربعون من مقاتلينا تلك العباءات المرعبة، بعضهم مطلقًا صرخات عميقة، وعندما أصبحوا مرتدين الجلود على هذا النحو أصبنا نحن أنفسنا بالرعب.

خفَّ ألمنا عندما تخيلنا كيف يكون حال الإسبان حين يرون ما نراه الآن، مؤكد أنهم لن يحتملوا المشهد، ومؤكد أن خيولهم ستصاب بالذعر، ويمكننا أن ننتصر عليهم، ولن تذهب التضحية بشيوخ أهلنا سدى.

لم نحسب جيدًا قسوتهم، لقد أصيبوا بالرعب حقيقة، وشاهدناهم يتراجعون وكثير منهم سقطوا على أسنان سهامهم المسمومة، ولكن بعد ذلك يبدو أن الغضب ملأهم، وهاجمونا صارخين "الملحدون" "الخواء" ، وأقاموا ضجة قاتلة بخيولهم وألسنتهم الحادة، وعصيهم النارية .

تلك الليلة، مختبئين فى الجبل من جديد، لم نكن نريد أن ننظر فى وجوه بعضنا، فى تلك الليلة قال كثيرون إن آلهتهم أكثر قوة من آلهتنا .

غرس "يارنثى" وجهه فى الأرض، لطخ وجهه بالطين ولم يسمح لأحد أن يقترب منه ولا حتى أنا، كان حيوانًا جريحًا، تمامًا كما يفكر "فيليبى" فى قتلاه، لكنه تغلب أيضًا على انهيار جسده.

أتعرفُ على دمى، دم المقاتلين فى "فيليبى" وفى الرجل الذى يرقد فى غرفة "لافينيا" ، مكتسى بالجدية وله عادات الإقطاعيين، فقط هى التى تترنح مثل شعلة من الزيت لم تستطع أن تحتفظ بى فى دمها، كان علىّ أن أنبهها، أن أختبئ فى متاهة سمعها وأوشوشها، وهى تشعر الآن أنها مذنبة.

***

قبل الساعة السابعة صباحًا بقليل، انتفضت "لافينيا" أمام ما انتبهت إلى ما يعنيه أن يكون اليوم يوم الإثنين، العمل، الاستمرار العادى فيما يتوقف الزمن فى البيت، "لوكريثيا" على وشك الوصول، ستتأخر عن تعطيلها، اختراع سبب لإبعادها، اعتدلت على المرتبة ذات الرائحة القديمة، كان "فيليبى" قد أرسلها لترتاح فى الغرفة التى فكرت فى يوم ما فى إعدادها كاستوديو؛ والتى كانت حينها لا تزيد عن مخزن للأشياء المهملة، لم تكن قد استطاعت النوم، لاحظته، من خلال الباب الموارب، يتمشى فى البيت جيئة وذهابا لحظة الفجر، يراقب الشارع والجريح.

بعدها بقليل سمعتْ همهمة صوت من الغرفة الأخرى، كان يتحدث مع "سباستيان"، اعتدلت هى، ثنت ركبتيها وأراحت رأسها على زاوية ساقيها، وضمت ركبتيها إلى صدرها، نهارًا، من الأمس، لن تكون هى نفسها، كانت ترغب فى أن تظل فى وضع جنينى، البحث عن مخبأ تشعر فيه بالأمان، بعيدًا عن خطر تلك الأصوات التى تنساب نحوها من خلال الجدران، وفتحات الأبواب، لكنها وقفت بسرعة، كانت رطوبة الندى تبرق على الحشائش، كان كل شىء فى الخارج يلمع بالهدوء.

كانت "لوكريثيا" تقترب فى موعدها تمامًا، جاءت مبكرة لتعد لها الإفطار، فتحت "لافينيا" لها الباب، متصنعة النظر إلى الحديقة، كانت تفكر وتتخلى عن بعض الأعذار، والأسباب، وأخيرًا أظهرت أنها فوجئت

بوجود "لوكريثيا"، وهى تقترب، حيتها محاولة أن تبدو هادئة، شرحت لها أن بعض الزملاء من المكتب سيأتون للعمل فى بيتها فى مشروع خاص، والتنظيف ليس مهما، قالت، لأنها يجب أن تفرش بعض الأوراق على الأرض، وتتسبب فى بعض القذارة، من الأفضل أن تعود الأربعاء، أصرت "لوكريثيا"، قائلة إنه يمكنها أن تعد لهم القهوة، وتنظيم المكان، كررت هى، الأمر لايستحق، سيصلون خلال نصف ساعة، نلتقى الأربعاء، ابتسمت "لافينيا"، يجب أن أستحم بسرعة، بتعبير عدم فهم ما يحدث، كان على "لوكريثيا" أن تتقبل أعذارها وتبتعد.

عادت "لافينيا" إلى البيت، لم تكن مقتنعة على الإطلاق، فكرت، لكن ما كان على "لوكريثيا" أن تفاجأ كثيرًا، قد تفكر أنه من شواذ أعمالها، انتبهت إلى أن "فيليبى" كان يختبئ ناظرًا من النافذة، مؤكد أنه ارتعب عند سماع صوت انفتاح الباب، عندما دخلت لم يكن فى الصالة.

والآن ماذا عليها أن تفعل؟ الذهاب إلى العمل؟ يجب عليها أن تتدبر الأمر معهما، دخلت الحمّام لتغسل وجهها، ألقت عليه بالماء ومزيدًا من الماء.

هل يجب عليها أن تذهب إلى العمل؟ تساءلت مرة أخرى، شعرت بالخوف مجددًا، كان من الصعب أن تتخيل أن كل شىء فى الخارج لا يزال كما هو، لاشىء قد تغير: الباصات والتاكسيات، والناس فى المصعد، وفى المكتب. وشعرت هى أنها عارية، ضعيفة،

تخشى النظرات، يبدو عليها ما حدث فى الليلة السابقة، السر، والدم.

كانت تُفضل البقاء فى البيت، قالت لنفسها، لقد تم معالجة أمر "لوكريثيا"، لكن شخصًا ما قد يدق الباب، ماذا يحدث لو أن "فيليبى" فتح؟ و"سباستيان"... الجريح، فى سريرها؟

شاهدت أذنيها فى المرآة، ووجهها، وجهها نفسه، فقط يبدو عليه التعب بعض الشيء، كما بعد قضاء ليلة ساهرة، فكرت، إن من يراها لن يعرف فى أى مصيدة دخلت.

خرجت وقررت أن تدق باب غرفة نومها.

ـ فضل ـ سمعت صوت "فيليبى"، لم تدق تمامًا، وسألها مع من كانت تتكلم، شرحت "لافينيا" الأمر.

كان الجريح جالسًا فى السرير، على ذراعه ضمادة نظيفة، النزيف كان قد توقف، لا يزال وجهه شاحبًا. قال:

ـ صباح الخير، يا رفيقة.

يصر على تسميتها رفيقة. أجابت هى:

– صباح الخير، كيف الحال؟

– أفضل، أفضل، شكرًا.

– أردت أن أسألكما إن كنتما تريان أنه من الأفضل أن أذهب إلى العمل أم أبقى فى البيت.

تقاطعت نظرات الرجلين متسائلة.

– من الأفضل أن تظل هنا، أليس كذلك؟

قال "فيليبى"، متوجهًا بالحديث إلى "سباستيان".

قال "سباستيان":

– لا، أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب، ليس مناسبا أن تتغيبا معًا عن المكتب.

قالت "لافينيا":

– لكن لو احتجتما شيئًا، لو حدث شىء...

– هل تنتظرين أحدًا اليوم؟

سأل "سباستيان".

– لا، لا أحد.

– إذًا لا تنزعجى، نحن هنا آمنان إلى حد ما، من الأفضل أن تذهبى حضرتك إلى المكتب، ولو بحثوا عنك، يمكنك أن تنبهينا – قال، مستديرًا نحو "فيليبى"– يمكنك أن تأتى لنا بالصحف ومعرفة مايُقال، لو ظل البيت مغلقًا سيبدو كما لو أنه لا يوجد أحد، كالمعتاد، من الأفضل أن تذهبى ـ وعاد للنظر إلى "لافينيا" وأضاف ـ ليس من المستحسن أن يربطوا بين غيابك وغياب "فيليبى".

كانت نغمة صوت "سباستيان" هادئة، يتحدث كما لو كان الأمر يتعلق بموضوعات عادية، كالذهاب إلى البلاج يوم الأحد، وليس عن مثل ما قيل: إحضار الصحف (صور الرفاق الموتى، فكرت "لافينيا") أن تنتبه ربما يأتى رجال الجنرال الأكبر بحثًا عن

"فيليبى" (لو جاءوا، ماذا عليها أن تفعل هى) أن تنتبه إلى الشائعات، والتعليقات.

كانت "لافينيا" تفضل أن تبقى، لأنها لا تعتبر نفسها قادرة على الاستطلاع، سيبدو هذا على وجهها، كان وجهها شفافًا، ستصاب بالعصبية، لكنها لم تقل شيئًا، شعرت بالخجل أمام نظرة "سباستيان"، وهدوءه.

قال "فيليبى":

- يمكنك أيضًا أن تمرى بإحدى الصيدليات وشراء مضاد حيوى، أى مضاد حيوى قوى، فالجرح يمكن أن يلتهب.

سألت "لافينيا":

-ألن تبحثوا عن طبيب اليوم أيضًا؟

لم تفهمها، قالت، إن جرح رصاصة فى الذراع يؤثر فى الحركة، لماذا لا يمكن ادعاء وقوع الإصابة نتيجة حادث غير مقصود؟

هدءوا من روعها، سيبحثون عن طبيب ولكن ليس أى طبيب، سيتحدثون عن هذا عند عودتها.

طلب منها "سباستيان" جهاز الراديو لسماع الأخبار.

أخرجت "لافينيا" ملابسها وخرجت من الغرفة.

كان الوقت حارًا فى الشارع، كانت تخرج من جميع الأنحاء لفحات رطبة وساخنة من الأرض، مزيج من الرياح والغبار. كل عام يأتى صيف أسوأ، كل عام

أكثر سوءًا من الذى سبقه، تبدو أشجار البلوط كالرماد، أسرعت "لافينيا" من خطواتها، مراقبة بيوت الجيران، فى البعيد، كان أحد العمال فى الحديقة يشذب شجرة الموز بسكينه. كل شىء لا يزال على حاله، فكرت، فقط هى التى كانت غريبة عن المناخ الهادئ فى أول يوم من الأسبوع، كانت هى تسير متأخرة إلى المكتب، تسرع الخطى، تشعر بأن ساقيها كما لو كانتا لشخص آخر.

كان الخوف يفتح عيونًا فى جسدها، تتذكر جملة "فيليبى" التى كررها مرات عدة بالأمس ككابوس، "لم ألاحظ شيئًا"، "لم ألاحظ شيئًا"، ولو كانوا هناك؟ ولو كان رجال الحرس يحيطون بالبيت فى انتظار اللحظة المناسبة؟

وصلت إلى المصعد، كان مدخل المبنى فى تلك الساعة خاليًا، شاهدت انعكاس صورتها على الحوائط المعدنية، لن يلاحظ أحد أى شىء عليها، كانت تؤكد، فهى نفسها كما فى كل الأيام، لكنها لم تكن مقتنعة جدًا، فى داخلها، يسرى الدم سريعًا بجرعة مضاعفة من الادرينالين.

ألقت تحية الصباح على "سيلفيا"، وواصلت سيرها حتى ركنها محيية الرسامين عند مرورها. الطبيعى، "أن تتعامل بطبيعية"، كان قد قال لها "فيليبى"، احتضنها قبل الخروج، كرر لها أسفه الكبير لإدخالها فى هذا الوضع، ومع ذلك لا يزال يضعها فيه، بطلبه استطلاع الإشاعات، والرؤية المرعبة

لرجال الحرس الذين قد يأتون بحثًا عن "فيليبى" (كان الأمر غير محتمل، أكد "سباستيان")، وأيضًا بطلبهما إحضار الصحف، وأن تشترى أدوية.

كانت تود هى ألا تعود إلى البيت، أن تبقى مع "سارا" أو "انطونيو" إلى أن يذهبا هما، أن تترك المسئولية والإنسانية، لا تشعر بتلك القوة التى تجبرها على القيام بما يطلبان منها، وذلك الصوت الداخلى الذى كان يقول لها: "لا يمكنك أن تتركيهما وحيدين"، "لا يمكنك أن تحتملى المخاطرة بأن يقتلوهما"، وقوة حبها لـ"فيليبى"، وإن كان هناك شىء آخر، فكرت، شىء أكثر من حبها لـ"فيليبى"، بعد كل هذا، فهى تكاد لا تعرف حتى إن كان هذا الحب موجود أم لا، وإن كان يمكن تسمية علاقة لا تزال فى بداياتها حبًا، وربما، بعد ما حدث، سيكون من الأفضل عدم الاستمرار.

هاتفت "مرثيدس"، طلبت الصحف، فوجئت بكذبها لها:

ـ لن يأتى "فيليبى" للعمل، هاتفنى ليطلب منى أن أخبركم أنه يعانى من ألم فى المعدة.

نظرت إليها "مرثيدس" بشىء من الخبث، خرجت لإحضار فنجان القهوة والصحف، كانت تتحرك بدلال كالعادة، تتطوح على الكعوب العالية، تخيلتها تقطع صالون الرسامين، مبتسمة أثناء مرورها، واعية بأنهم يراقبونها. ترى هل تعرف السر؟، فكرت "لافينيا"، ربما هناك أكثر من واحد يعرفون السر؟ ترى من مِنْ هؤلاء

الأشخاص، الذين يبدو عليهم المظهر العادى واليومى، يعيشون أيضا حياة مزدوجة؟

عادت الفتاة بالقهوة والصحف، ووضعتهم على الطاولة.

سألتها: ـ هل عرفت ما حدث؟

– لا- قالت "لافينيا"، دون أن تنظر إليها خوفًا من أن تكشف عن نفسها (أصابها السؤال بانقلاب فى القلب)، تظاهرت بتصفح الصحف.

قالت "مرثيدس":

– هذا لأن حضرتك تعيشين بعيدًا عن هنا، لكن من بيتى كانت تُسمع الطلقات، لقد شُوهدت طائرات ومدرعات... كما لو كانت حربًا، الحراس أصابهم الجنون! رغم أنهم كانوا ثلاثة فتيان فقط!، تصورى، ثلاثة فتيان.

واستدارت وأغلقت الباب من خلفها.

استندت إلى الكرسى، أغلقت عينيها، أصابها السهر بإحساس من يجلس تحت الماء، رشفت القهوة برشفات كبيرة.

ماذا ستفعل طوال اليوم هناك؟ الانتظار بالعمل؟ هذا لم يُخلق لها، كررت، لم تكن تحتمل الضغوط، معدتها تتقلص كقبضة فى منتصف الصدر، وخنقها القلق.

وأخيرا، انحنت ونظرت إلى صور الحرس الرابضين أمام البيت، والمانشيت "اكتشاف عش

إرهابى، الحرس الوطنى يقوم بعملية تمشيط ناجحة" وتحته، صورة المقاتلين الموتى الثلاثة. من منهم "فرمين"؟ تساءلت، ناظرة إلى الجثث، رجلان وامرأة، شباب، ممزقون، دم وخروق رصاص، صورة البيت مليئة بالخروق.

إنهم أصدقاء "فيليبى"، فكرت، وكان "سباستيان" بينهم وهو الآن فى بيتها، أحدهم، قرأت بتمعن لمعرفة ما يقولونه عنه، لا شىء، لا يقولون عنه شيئًا، ومع ذلك فلقد مر على أسطح البيوت المجاورة، والأفنية، لكن لم يشى به أحد.

المسافات تقصر، لم يعد يؤثر فيها الألم البعيد الذى كانت تصيبها به مثل هذه الصور لفتيان مضرجين بالدماء، هذا الموت قريب، قريب منها بشكل خطر، الوجوه المجهولة، المشوهة، والغريبة، دخلت حياتها، أشباحهم كانت واقعية، الليلة الماضية، معانقة "فيليبى" عانت من أجلهم، شعرت، مثل مرات عديدة، بالذنب، والصمت الذى يطالبها بالمخاطرة فى مواجهة جيش الحرس الوطنى بتلك الوجوه الفتية، والأسلحة متراصة إلى جوار الجثث، تتعارض مع الخوذات وأجهزة الراديو والأسلحة السريعة الطلقات والطائرات ودبابات الحرس.

والآن هى معهم غارقة فى الانتحار الشجاع.

السيدة "نيكو"، المرأة التى تتولى إحضار المشروبات الباردة والنظافة، دخلت حاملة عصير مزيج الجزر بالبرتقال الذى اعتادت "لافينيا" تناوله فى

منتصف الصباح، عند وضعها الكوب على الطاولة، نظرت بطرف عينيها إلى الصحف.

قالت بصوت خفيض جدًا، يكاد لا يُسمع:

– مساكين هؤلاء الفتيان، لقد حدث هذا فى الحى الذى أسكنه.

أضافت كمن يحاول تبرير الكلام.

– وكيف حدث؟ – سألت "لافينيا"، دون أن تعرف جيدًا كيف تتناول الحديث، كيف تقوم بمهمة التقاط الإشاعات تلك.

– لا أعرف – قالت المرأة، بشىء من العصبية، ومررت يديها على المريلة – لا أعرف كيف حدث، أنا كنت هادئة فى بيتى أغسل بعض الملابس عندما سمعت الطلقات، كانت رشقات مرعبة، استمرت حتى منتصف الليل تقريبًا. اعتقدنا أنه كان هناك عدد كبير من الناس فى البيت، لكنهم كانوا ثلاثة فقط، هذا كل ما سمعته.

سألت "لافينيا":

– وكنت تعرفينهم؟

– لا، لم أشاهدهم من قبل على الإطلاق.

– وكيف عرف الحرس أنهم كانوا هناك؟

– لا أعرف، ليست لدى أية فكرة.

قالت المرأة، متراجعة نحو الباب، وخرجت مسرعة.

هذه هى الدكتاتورية، فكرت "لافينيا"، الخوف، المرأة تقول إنها لا تعرف أى شىء، وهى تقول إنها لاتريد أن تنغمس فى هذا الأمر، عدم معرفة أى شىء هو الأفضل، والأكثر أمنًا، تجاهل الجانب المظلم من "فاجواس"، الخروج كما خرجت السيدة "نيكو"، مشيرة بوضوح إلى أنها لا تريد أن تتحدث فى الموضوع، إن مطالب القدرة على البقاء على الحياة أقوى من رعبها فى قولها "مساكين هؤلاء الشباب"، وتعلل ذلك بأن لديها أربعة أبناء وأنها وحيدة بمفردها.

لكن "سباستيان" هرب دون أن يشى به أحد، بعد قراءة الصحف، حاولت أن تعمل، أن تركز فى لوحات البيت الفخم الذى كانت تخططه: الحمّامات من الزليج، والحدائق الداخلية. لم تستطع أن تُبعد عن ذهنها صور القتلى. كانت تتقاطع مع خطوط الرسوم، يظهرون أمامها فى الغرف الواسعة، وبين أعمدة السقف البارزة، والواجهة، كانت تتخيل رد فعل "فيليبى" و"سباستيان" عندما يشاهدانها، عندما يتصفحان الصحف ويجدان صور أصدقائهم القتلى.

رغم كل شىء، كانت تشعر أنها أكثر هدوءًا، والمناخ هادئ ودون أحداث فى المكتب، سرعان ما غرقت فى مناخ من الاعتيادية، لم يأت أحد بحثًا عن "فيليبى"، كل شىء على ما يرام، لم يتغير أى شىء، لكن عقارب الساعة كانت تزحف على الساعات، وسريعًا ما تأتى الساعة الخامسة، والعودة إلى البيت، العودة إلى بيتها بالصحف.

أطل أحد المعماريين برأسه من الباب، وسأل إن كانت تعرف متى يأتى "فيليبى".

- هل حدث شىء؟ - سألت هى، مشدودة، محاولة إخفاء المفاجأة.

- لا شىء محدد، أنا فى حاجة إلى استشارته.

قالت "لافينيا"، مستعيدة الرصانة:

- هاتف ليخبر أنه مريض بألم فى المعدة.

أضافت بابتسامة:

- يبدو أنه أكل شيئًا تسبب له فى ألم.

كذبت فى الحال، تقريبا دون أن تفكر.

***

خوفها يصيبنى بالحزن، الآن بعد أن تمكنت من التفريق بين الماضى والحاضر فى كثبان عقلها البيضاء، فى البداية كان من الصعب معرفة التفريق بينهما، أى حدث، حتى يمكنها أن تعيه، عليه أن يتحرك بين مؤشرات الماضى، تلك المقارنات المتوالية كانت تشوشنى إلى أن انتبهتُ للون. عندما تجرب إحساسًا مباشرًا، يكون اللون حيًا، وضّاحًا، لا يهم إن كان قاتمًا أو فاتحًا، فأسود الحاضر هو زجاج أسود، والأحمر، دم، بالمقابل فإن لون الماضى فارغ، الأشياء والأشخاص تجذب صدى منطفئًا ومستديرًا، يحتوى على طبقات من الحنين المتراكمة والروائح المجوفة. فى الحاضر، تكون الصور والأصوات ملساء، مستوية

ولها الرائحة النفاذة لرءوس الحراب قبل المعركة، وهكذا تعلمت قراءة الآثار والاسترشاد فى شراكها بالأصوات والتصورات.

هناك الكثير من الموضوعات المنغلقة علىّ، بفضل الزمن الذى قطعت فيه العالم، لكن هناك كمًا من العلاقات التى لا تنقطع، البدائى لا يزال مبدئيًا مشابهًا، أفهم دون خوف من الخطأ، السلام والاضطراب، الحب والقلق، الضياع وعدم الفهم، والحيوية والهمود، الثقة والتشكك، العاطفة والتخمين، أفهم الحرارة والبرودة، الرطوبة والجفاف، السطحى والعميق، الحلم والسهاد، الجوع والعطش، الأمان والخوف.

إنه المشهد الثابت، فالإنسان يمكنه بأعماله تغيير الملامح، والمظاهر، زرع أو قطع الأشجار، تغيير مجارى الأنهار، صناعة تلك الطرق الكبرى السوداء التى ترسم رسومًا ملتوية، لكنه لا يستطيع أن يحرك البراكين، ورفع القاع إلى القمة، ولا التدخل فى قبة السماء، ولا التغلب على تشكيل السحاب، وموضع الشمس أو القمر، تمامًا فالمشهد غير القابل للتغيير يوجد فى تركيبة "لافينيا"، لهذا يمكننى أن أفهم تخوفها، وتلوينه بالقوة.

***

على الناصية، كانت الصيدلية تفوح برائحة القنانى القديمة، رائحة الفيتامين المسكرة، وقنانى

الكحول والماء الأكسجينى، وعلى الأرفف الخشبية تتراص صناديق صغيرة مكتوب عليها أسماء غريبة، والأوانى الزجاجية ذات الأغطية الصفيحية اللامعة تعرض ما بداخلها الملىء بالبسكويت والحلوى، والصيدلى ذو الشارب المدهون بالفازلين، يرتدى قميصًا مكسيكيًا وحذاء طويلا أبيض، كان يقرأ الصحيفة جالسًا على كرسى من القش، كان منتبها فى ظلال هبوط المساء.

طلبت "لافينيا" مضادًا حيويًا قويًا مدعية إصابة جارة لها بجرح مقص تشذيب الأشجار.

سأل الصيدلى، متلمسًا شاربه:

-هل هى مطعمة ضد التيتانوس؟

قالت نعم، فقط من أجل تجنب أى التهاب، فقط لأن الجرح عميق، والمضاد، فى رأيها هى، يجب أن يكون قويًا، وله آثار واسعة.

فى "فاجواس" عادة ما يلعب الصيدلى دور الطبيب، ويفضلهم السكان؛ لأنهم لا يتقاضون أجر الاستشارة، فقط يتلقون ثمن الدواء، ويمارسون عملية وصف الروشتة بأنفة كبيرة.

شاهدته يسير باتجاه الأدراج الداخلية ويملأ خرطوشًا من الورق بكمية كبيرة من الكابسولات ذات اللونين الأسود والأصفر، متحركًا بطريقة لا يتحركها سوى من يمارسون هذه المهنة.

قدمه لها وطلب منها أن تشرح لصديقتها أنه يجب عليها أن تتناولها كل ست ساعات، ولمدة لا تقل عن خمسة أيام، وأنه جهز لها الكمية كاملة.

خرجت والدواء فى حقيبتها، كان المساء يتحول إلى ليل ببطء شديد، كل أمسية من تلك الأمسيات الاستوائية مشهد من السحب المحمرة، ومقاطع غريبة فى السماء، تضىء باللون البرتقالى.

هبطت من التاكسى فى الشارع الرئيسى، بدأ جسدها يهيج عصبيًا مع كل خطوة تخطوها نحو بيتها: العضلات متماسكة والأعصاب مشدودة، وضربات قلبها تسرع. لو أنها تعرف أن كل هذا سينتهى، فكرت، أن تصل بالدواء فتجد "فيليبى" و"سباستيان" مستعدان للرحيل، لتودعهما على الباب، وعودة إلى هدوء لياليها المعتادة. لكن الأمر لن يكون على هذا النحو، حسبت أنهما قد يبقيان يومين على الأقل وهى عليها أن تعيش بشخصية مزدوجة ليومين آخرين، وربما ثلاثة.

ومع ذلك، قالت لنفسها، إنها تخطت حدودًا أخرى، فالعمة "إينيس" كانت معتادة على القول أن النمو فى الحياة لا يتم إلا بعبور حدود شخصية: اكتشاف قدرات يعتقد الواحد منا أنه لا يملكها. ما كان يمكنها أبدًا أن تفكر العيش يومًا مثل ذلك اليوم: فى المكتب، وفى الصيدلية، والكذب بلا شعور بالذنب، بهدوء مدهش، ودون حساب، كما لو كانت الكلمات مؤرشفة، ومعدة، وجاهزة فقط لتستخدمها.

كثيرًا ما واجهت هى مشاكل مع الكذب، منذ طفولتها، عندما كانت تعترف أمام الكاهن، كانت متهمة بالكذب دائمًا، وبذلت جهدا كبيرا لتترك هذه العادة، كانت تشعر بالسعادة فى الكذب، وكان على هذا النحو، دافعًا سريعًا، لم تكن تعرف حتى كيف تصنع الأكاذيب، كانت تخرج الأكاذيب من فمها كأسماك ملونة تعيش داخلها بحياة خاصة بها: أكاذيب غريبة، تُقال فقط بلذة الرغبة فى اللعب مع عالم الكبار، ولمجرد إثارتهم. فقط بعد ذلك، عندما تكون الكذبة تعيش خارجها وتنتقل من فمها إلى فم أمها أو المربية، تشعر أنها ارتكبت خطأ، "الكذب خطيئة" هكذا تقول إحدى الوصايا العشر. بسبب الخوف، تركت الكذب، خوفًا من كوابيسها التى تحلم فيها بجهنم التى كانت تصفها الراهبة "تريسا" بكل التفاصيل الدقيقة المرعبة: تجعلهم يشعلون ثقابًا وتقريب الإصبع من الشعلة، هذه كانت جهنم، ولكن فى كل الجسد: إنها نار فى كل الجسد، يحترق دون نهاية ويظل يتكرر ذلك إلى الأبد، وبعد الأكاذيب فقدت إحساسها بالخطيئة وتحولت بالنسبة إليها إلى قيمة مضادة ومطلوبة فى حياة الكبار، ولهذا فإن الشعور بالذنب كان يعذبها فى كل المرات التى كذبت فيها عندما كانت تعيش مع أبويها بعد العودة، كان يزعجها أن تخدعهما، أن تبدى لهما وجهًا أكثر قبولاً.

لكن هذا كان مختلفًا، فكرت، بينما كانت تضع المفتاح فى الباب وتدخل فى المناخ المظلم للبيت.

كانت تفوح رائحة صمت ثقيل، صمت الانتظار، كنمور متحفزة، فى الممر إلى جوار شجرة البرتقال، لاحظت "فيليبى" واقفًا ويده فى وسطه، متحفزًا أمام جلبة الباب عند انفتاحه، كان ضوء قمر باهت يلقى بظل الشجرة على أرضية الممر.

أضاءت الأنوار، تقدم "فيليبى" لاستقبالها.

سأل، بصوت خفيض جدًا:

- كيف كان اليوم؟

-أعتقد أنه سار بشكل حسن - أجابت فاردة ذراعًا بالصحف، وناظرة إليه، مفكرة فى تلك الوجوه، وجوه أصدقائه الذين لن يعود لرؤيتهم مطلقًا.

أخذ "فيليبى" الصحف بحركة فجائية، وهناك، إلى جوارها، قرأ العناوين، أخبار الصفحة الأولى، ناظرا إلى الصور دون أن ينطق بشىء.

هى، فى صمت، لا تدرى ماذا تفعل، وإن كان عليها أن تبقى إلى جانبه أم تنسحب بهدوء، كما يفعل الأصدقاء فى المآتم، عندما تحين ساعة النظر عبر نافذة التابوت للمرة الأخيرة.

- قتلة! أبناء القحبة! - قال أخيرًا "فيليبى" فى صرخة مكتومة منطلقة من داخل نفسه. تخيلت "لافينيا" الصرخة المنطلقة من رئتيه، منتشرة فى كل الصدر، والذراعين، والساقين.

احتضنته هى من الخلف، مفكرة فى مدى فقر اللغة فى مواجهة الموت.

ظهر "سباستيان" فى باب الغرفة، استدار نحو "فيليبى" بشكل فجائى، وقف إلى جانبه ناظرًا إلى صفحات الصحيفة المفتوحة، لم يحيه هذه المرة، كان يبدو أفضل مما كان، يضع ضمادة نظيفة ويرتدى قميصًا رجاليًا كانت تستخدمه هى.

- لا يذكرون أن شخصا هرب.

قال "فيليبى"، وهو يناوله الصحيفة كما لو كان يتخلص من شىء مسموم: الصفحات بصور الرفاق القتلى.

توجه إلى المطبخ فى صمت وعاد بكوب ماء شربه بجرعات كبيرة، بينما واصل "سباستيان" القراءة فى صمت.

ابتعدت "لافينيا" احترامًا للموقف، انسحبت فى صمت نحو باب الحديقة، مطلة لتلقى نظرة على الليل، والفناء، والمناخ الساكن الهادئ للشجيرات، وتنشر شجرة البرتقال رائحتها الحمضية. تذكرت، "يا لها من شجرة تكاد تشعر"، تود لو كانت فى تلك اللحظة نباتًا.

شعرت باقتراب "فيليبى" منها.

- هل حدث شىء غير عادى فى المكتب، ألم يسألوا عنى، ألم تسمعى شيئًا غريبًا؟

كان يتحدث بصوت خفيض، حتى لا يقلق "سباستيان".

قالت "لافينيا" هامسة:

- لا، لم يحدث أى شىء غير عادى، كلهم يعرفون ما حدث، لكنهم لم يتحدثوا كثيرًا، علقوا على الانتشار الذى قام به الحرس حول الأشخاص الثلاثة، وحكت لى السيدة "نيكو" إنه حدث فى حيها، ولكنها رفضت أن تذكر أى شىء آخر، قالت فقط "شباب مساكين"، عندما شاهدت الصور، يبدو أنها كانت تخاف من الكلام. أنا أبلغت "مرثيدس" إنك مريض بألم فى المعدة.

هو لم يجب بأى شىء، تركها وعاد إلى "سباستيان".

تحدثا فيما بينهما شيئًا، قال "سباستيان":

-بعد إذنك يا رفيقة.

ودخلا الاثنان إلى الغرفة وأغلقا الباب.

من المفترض أن الرجال لا يبكون، فكرت "لافينيا" معتمدة على الحافة ناظرة إلى جذع شجرة البرتقال بتركيز، كانت تشعر بالدموع تحرق العينين، هى التى لم تكن قد عرفت الرجال القتلى، لكنها على الأقل امرأة، قالت لنفسها ساخرة، الرجلان يمكنهما أن ينظرا إلى الصحيفة بعيون جافة ومركزة، وقراءتها بإمعان رغم وجود الصور.

يبدو أن "فيليبى" قد تعافى من آلام الليلة السابقة، لا يمكن لأحد أن يعتاد على الموت على الإطلاق، قالت ذلك تحت تأثير التعب، وتراهما الآن

يبتلعون الموت بلا مأساوية، دون تأثر مبالغ فيه. بالطبع، ما يهمه الآن هو كيفية العمل منذ الآن، الآن بعد أن عرفا أنه لم يذكر أحد شيئًا عن الآخر، الذى قفز على أسطح البيوت، جريحًا وهاربًا.

لم تتوقف عن القشعريرة وهى تراهما فى هذا الوضع، مدعمين كما لو كان الموت أو الحزن قد نبت فى بشرتيهما، دون أن يتمكن من اختراقها، تذكرت حوارا مع "نتاليا"، صديقة إسبانية، عن عدالة أعمال المقاومة التى يقوم بها الباسكيون ضد الفرانكوية: كلا الجانبين كان يقتل بلا رحمة. ما الفارق بينهما؟ كيف يمكن فى الحرب التفرقة بين الرجال؟ ما الفارق الجوهرى بين رجال يحملون البنادق وكل منهم مصمم على قتل الآخر دفاعًا عن معنى مختلف للعدالة؟

غضبت "نتاليا" فى مواجهة هذه الأسئلة، ووصمتها بأنها ميتافيزيقية، لكن لم تستطع هى أن تتوقف عن طرحها حتى بعد أن أصبحت واعية بالفارق بين المعتدين والمُعتدى عليهم، بين رجال المقاومة الفرنسية والنازيين ـ على سبيل المثال ـ بمعانيها الاجتماعية، كما على المستوى الفردى، يوجد دفاع عن النفس، العنف المبرر، نوعية إنسانية مختلفة: أناس يقتلون من أجل القتل وأناس يقتلون من أجل الحياة، دفاعًا وحفاظًا على ما هو إنسانى فى مواجهة وحشية القوة الغبية. لكنه على أى حال مرعب اللجوء إلى الرصاص والسلاح ليتقاتل به الطرفان. قرون

كثيرة مرت لم تفلح فى تغيير الطريقة الهمجية التى تتصارع بها الكائنات البشرية.

فى "فاجواس"، كان من الصعب تبرير ما يفعله الشباب، فالظلم، والخلاف الجوهرى، وما يدافع عنه هؤلاء وأولئك، وغياب البديل فى مواجهة الجنرال الأكبر، يكفى رؤية صحف اليوم - على سبيل المثال - يمكن للواحد منا أن يتخذ موقفًا بين القوة الهمجية والمثالية. أن يعلن موقفًا، حتى لو كان على المستوى التجريدى وإكرام الموتى.

لكنها لم تتمكن من إبعاد الشكوك، رؤية "سباستيان" و"فيليبى" جعلها تفكر فى الخطر من أن تدخل القسوة فى الروح، حتى لو انفجرا بالبكاء، ربما اعتبرا أنفسهما ضعفاء. لكن لا، قالت لنفسها، لماذا؟ لقد فكرت دائمًا أنه مرعب وعبثى اعتبار بكاء الرجال ضعفا، ولكن فى الممارسة لم تشاهد أى رجل يبكى، ربما لا تحتمله فى هذه الحالة، لأنه يزيد من الإحساس بالضعف، ربما لم يكن ضروريًا أن يبكوا، فقط أن يفعلوا شيئا، إشارة، أى شىء لتجنب هذه الاستحالة التى تنتج الانقباض، التعبير عن توازن دقيق، إذا انكسر يعيدهم إلى عالم الوحوش.

حينئذ سمعت، عبر النافذة المواربة لغرفتها، ذلك الصوت المرعب: الصوت الأجش لـ"سباستيان" متقطعًا، ومنطلقًا فى بكاء حاد، ثقيل، ناتج عن الألم الذى لم تعرفه فى حياتها على الإطلاق.

***

أراها تنظر إلىّ، أشعر بها تفكر، هناك فى منتصف الليل كبومة تائهة، تطفو بيننا دون أن تستطيع أن تعثر على المكان الذى تنتمى إليه، داخل البيت، كان الرجلان يتناقشان. أسمع همهمات أصواتهما كما سمعتها من قبل مرات عديدة، من أعماق الظلمة عندما كنت أسمع "يارنثى" والمقاتلين فى المجالس التى لم يكن مسموحًا لى المشاركة فيها حتى بعد أن ضمونى للقتال معهم.

بعد معركة "مارييبوس" - معركة المسلوخين - كما أسماهم الغزاة، كانت هناك لحظات شعرت فيها أن كونى أنثى كان لعنة، امضوا أيامًا فى نقاش حول كيف يضمونى إليهم، بينما كان علىّ أن أهيم فى المناطق المحيطة بهم، للقيام بأعمال الصيد وطبخ الطعام.

عندما كنت أهبط إلى نهر المياه الساكنة، كنت أنتظر بساقين منفرجتين، حتى يسكن سطح الماء تماما، ويبدو لامعًا، لأنظر إلى فرجى، تلك الحفرة التى تقبع بين ساقى تبدو غامضة، تشبه بعض الفاكهة: الشفرتان المكتنزتان وفى الوسط توجد بذرة رقيقة متوردة، من هنا كان يدخل "يارنثى" وعندما يكون داخلى، كنا نشكل رسمًا واحدًا، جسدًا واحدًا، معًا كنا واحدًا متكاملاً.

أنا كنت قوية وحدسى أنقذنا، أكثر من مرة، من الوقوع فى مصيدة، كان حلوًا وكثيرًا ما كان المقاتلون يسرون إلىّ بمشاعرهم، كان جسدى قادرًا على منح

الحياة لتسعة أقمار وتحمل ألم الولادة، كنت أعرف القتال، مدربة تمامًا مثل أى منهم على الرمى بالقوس والسهم، إضافة إلى، إنه يمكننى الطبخ والرقص لهم فى الليالى الهادئة، لكن يبدو أنهم لم يكونوا يقدّرون تلك الأشياء، كانوا يتركوننى جانبًا عندما يجب التفكير فى المستقبل أو اتخاذ قرار مصيرى. كل هذا بسبب تلك الحفرة، تلك الزهرة ذات النبض التى كانت بين فخذى.

***

ظلت "لافينيا" بعض الوقت تنظر إلى ظلال الحديقة التى تحركها الريح. كانت الشهقات قد تحولت إلى همهمات حوار مائى: صوت الرجلين يتحاوران، حوار بين سمكتين، فقاعات تصعد فى الماء.

تذكر هدير بكاء "سباستيان" خنق صدرها، ندمت على الشك فى مشاعر تلك الكائنات الملغزة، غزاة هدوء بيتها، الحالمون النشطون، الشجعان، كما كان يقول "أدريان".

ألمهم، ولمسه لها عن قرب، دفعها إلى الرغبة فى حمايتهما. ماذا يمكنها أن تفعل لهما؟ فكرت، يكاد يكون لا شىء، تذكرت أنهما لم يأكلا، يمكنها أن تعد لهما شيئًا، هى لم تكن تشعر بالجوع، كيف لم تفكر فى ذلك حتى هذه اللحظة، توجهت إلى المطبخ، مفكرة أن تطبخ للثلاثة، ورغم الألم، يجب على "سباستيان" و"فيليبى" أن يعيشا، وأن يتغذيا.

في حوض غسيل الأطباق، عثرت على علبة سردين فارغة، مساكين، فكرت، شعرت بالخجل من مطبخها الخالي من المؤن.

أعدت الشيء الوحيد الذي تعرفه بشكل مرضٍ: سباجتي بالصلصة.

كانت تعد الأطباق على المائدة، عندما ظهر "فيليبي" في مدخل المطبخ.

– كيف حال ذراع "سباستيان"؟

سألت "لافينيا"، متصنعة أنها لم تسمع شيئًا، وأنهت تصفية الماء المغلي للاسباجيتي على حوض غسيل الأطباق، لتلقي بعد ذلك بقطعة من الزبد وتحرك المحتويات.

قال "فيليبي":

– إنه متورم.

– يجب أن يراه طبيب.

قالت "لافينيا"، وهي توزع الصلصة على المكرونة.

– هذا ما كنا نود أن نطلبه منك.

قال "سباستيان" الذي ظهر من خلف "فيليبي"، وهو يراقبها خلال إعدادها الأطباق، كان هادئًا، وأنفه به قليل من الاحمرار.

ـ نريدك أن تذهبي بحثًا عن رفيقة تعمل ممرضة، ومعها سوف ندبر أيضا أمر انتقالي غدًا.

ـ لماذا لا تشرح لى ذلك خلال تناولنا شىء من الطعام ـ قالت "لافينيا"- حضرتكما يجب أن تأكلا.

سعدت برؤية "سباستيان" يبتسم بينما كان يجلس إلى المائدة.

"فلور"- هذا هو اسم "الرفيقة" ـ تملك سيارة، على "لافينيا" فقط أن تأخذ تاكسيًا وتعود معها إلى البيت، هذا هو كل شىء، وبعدها يمكنها أن تبقى متحررة منهما.

ـ على الأقل منى أنا - قال "سباستيان"، مطلقًا ضحكته الماكرة.

أكلوا فى صمت، "سباستيان" و"فيليبى" لم تكن لديهما رغبة فى الطعام.

نظرت "لافينيا" إلى "سباستيان" بطرف عينها، دون أن تتمكن من الرفض، صوته الناعم والحازم، ومظهره كشجرة، تمكن من إقناعها عمل أشياء ما كانت تفكر فى فعلها على الإطلاق. كان يتحدث كما لو كان مقتنعًا من أنها سوف تقبل ما يريده منها، ثقته كانت ملزمة أكثر منها أمرًا.

فى اليوم التالى سوف تعود حياتها إلى اطمئنانها الاعتيادى، قالت لنفسها، سوف تنسى الخوف، والقلق، وتلك المشاعر المشوشة.

أن تقطع المدينة فى تاكسى، وليلا، لم تكن فكرة مقبولة لها، لكنها كانت مستعدة للقيام به، تفعل أى شىء لتستعيد هدوء بيتها.

سأل "سباستيان":

ـ هل زال الخوف؟

أجابت هى:

ـ تقريبًا.

قال هو:

ـ شىء عادى كلنا شعرنا بالخوف، ما يهم ليس الإحساس به، بل التغلب عليه. وأنت تغلبت عليه جيدا، كنت شجاعة.

قالت "لافينيا"، راسمة بابتسامة:

ـ لم يكن أمامى من طريق آخر.

قال "سباستيان" بتعبير حزين:

ـ هذا ما يحدث معنا، ليس لدينا بديل آخر.

ـ الأمر مختلف ـ قالت هى، بشىء من القلق من المقارنة ـ حضراتكم تعرفون ما تفعلون، هذا شىء مختلف، آسفة جدًا لما حدث لرفاقكما.

قال "سباستيان"، ناظرًا إليها بخشونة ورقة معًا:

– هم ماتوا كأبطال، لكنهم كانوا أشخاصًا مثلك ومثلى.

– أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب "لافينيا" بحثًا عن "فلور"ـ قاطعهما "فيليبى" ـ الوقت متأخر.

- ٧ -

كانت التاسعة مساء، تُبرز سماء مارس الخالية قمرها الأصفر، سار التاكسى بسرعة فى لحظة قليلة المرور، وكانت الشوارع أكثر خلوًا من المعتاد فى مثل تلك الساعة، كان ذلك الأثر الوحيد المرئى من الأحداث التى وقعت.

أراحت ظهرها إلى جانب باب السيارة، نظرت "لافينيا" نحو الخلف، كما نصحها "سباستيان"، لتتأكد أنه لا تتبعها سيارة غير مرغوب فيها، اتخذوا الطريق نحو الأحياء الشرقية. الأحياء فقيرة الإضاءة تبدو من خلال النافذة توالٍ من البيوت الوردية والخضراء والصفراء، بيوت متواضعة ومتشابهة، مزينة فقط باللون اللامع لجدرانها وبعض الحدائق المتناثرة.

داخل السيارة، كان السائق يدخن، يستمع بانتباه لبرنامج رياضى.

كانت "لافينيا" حذرة، لم تتعرف على تلك المرأة الحذرة التى تسكنها، بشىء من حسن الحظ، فإن الكابوس قد ينتهى بعد مرور ساعات، السفر فى تاكسى ليلا كان دائما ما يصيبها بالقلق، الإحساس

بالخطر، فقط فى هذه المرة لم تكن خائفة من سائق التاكسى، بل خائفة من الظلام الذى يحيط بها فى الشوارع سيئة الإضاءة، احتمالية أن يتبعوها ... صلّت فى سرها حتى لا يحدث لها شىء، لتعثر على "فلور" تلك وتعود إلى بيتها سالمة.

بعد المرور على أحد الجسور، إلى اليسار، دخلا شارعا غير مسفلت، توجد على جانبيه بيوت من الألواح الخشبية غير المنتظمة، متراصة واحدًا إلى جوار الآخر، متباعدة هنا وهناك لتشكل أبوابًا ونوافذ، تطل على الشارع، شاهدت بعض البيوت المحددة، وكان بيت "فلور" أحد تلك البيوت الأخيرة، لاحظت من التاكسى شكل السقف القرميدى، شكل بناء بيت صغير على النسق القديم والدور البدائى الذى وصفه لها "فيليبى".

عند دخول الشارع، نظرت على الجانبين بانتباه، كان "سباستيان" و"فيليبى" قد حذراها من عابرين أبرياء وسكارى ينامون على الأرصفة، وعربات متوقفة بها أزواج يتعانقون، لأن أى من تلك العلامات يمكن أن تعنى خطرًا، مراقبة من رجال الأمن، لم تشاهد شيئًا، (ولا حتى "فيليبى" شاهد شيئا، فكرت، متوسلة ألا يحدث أى شىء غير طبيعى).

قالت لسائق التاكسى:

- إنه هنا.

دفعت الأجر وهبطت من التاكسى.

أصدر الجرس رنينًا مزعجا. سُمعت بعدها بقليل بعض الخطوات، صوت شبشب يقترب.

نظرت المرأة التى توجد على الجانب الآخر من الباب الحديدى، شاهدتها "لافينيا" تتابع التاكسى بعينيها، الذى كان يثير من خلفه غبارا، ويخرج من الشارع باتجاه الطريق الإسفلتى.

سألت المرأة التى كانت تقترب منها:

- نعم، عمن تبحثين؟

قالت "لافينيا":

- عن "فلور".

قالت المرأة:

- إنها أنا، ماذا يمكن أن أقدم لك.

مدت "لافينيا" ورقة كان "فيليبى" قد كتبها على مائدة غرفة الطعام وطواها بشكل غريب.

كان قد قال إنه فقط برؤية شكل الطية، فإن "فلور" ستفهم. مع ذلك، فإن المرأة قرأتها قبل أن تفتح لها الباب. الضوء خافت فى مدخل البيت سمح لـ"لافينيا" أن تلاحظها، لها شعر داكن متموج ينسدل حتى كتفيها، ملامحها سمراء ودقيقة، ربما تكون قريبة من الثلاثين عامًا، ملامحها لممرضة جهمة.

لا تزال ترتدى ملابس الممرضات البيضاء، فقط غيرّت الجوارب والحذاء بشبشب بلاستيكى.

قالت، بادئة ابتسامة خففت من ملامحها بشكل يبدو سحريا تقريبًا:

- ادخلى.

انفتح الباب الحديدى مصدرًا صريرًا حادًا، ومفصلات فى حاجة إلى التزييت.

قالت "فلور":

- آسفة إن تركتك تنتظرين، فى هذه الأيام يجب مضاعفة الاحتياطيات.

عبرتا ممرا مليئا بأصص الزهور، شجيرات ذات أوراق ضخمة، فيوليت، زهور أذن الفيل التى تمنح البيت القديم لونا وجاذبية، تركتها "فلور" تدخل صالة لطيفة وشبابية، دفعت "لافينيا" إلى أن تفكر أن انطباعها الأول كان خاطئًا، كانت هناك أسطوانات وكتب وأصص ومزيد من الشجيرات، لوحات فنية وأفيش "بوب ديلون" على الحائط. وعلى النافذة المؤدية إلى الممر تمتد شجرة فواحة الليل.

فقط بعض كتب الطب الثقيلة على الأرفف ونموذج تشريحى لامرأة، تشير إلى مهنة صاحبة البيت. قالت "فلور":

- انتظرينى لحظة، فقط أغير حذائى وأجمع حاجياتى ونذهب.

أشارت إلى "لافينيا" أن تجلس واختفت خلف ستارة ملونة بالزهور، هى انتظرت هازة جسدها، تتطوح على ذراع الكرسى، كانت مصابة بصداع.

خرجت "فلور" بعد لحظات قصيرة، مرتدية فستانًا أزرق أنيقًا وبسيطا وحقيبة يد طبية، كانت تبدو منزعجة، أطفأت الأضواء وأغلقت النوافذ. تبعتها "لافينيا" إلى الجراج حيث توجد سيارة فولكس فاجن قديمة.

قالت "فلور" وهى تفتح باب السيارة:

- هل تأكدت وأنت قادمة إلى هنا؟

سألت "لافينيا" دون أن تفهم:

- ماذا؟

أوضحت "فلور":

- هل تأكدت أنه لم يتبعك أحد؟

- نعم، نعم، لم أر أحدًا.

كانت تستجيب ببطء، محملة بضغط أحاسيس الساعات الأخيرة، تتعرف على هذا العالم البعيد والخطر، لم تكن تشبههم فى شىء، الخبراء فى التآمر، فكرت، دققت فى "فلور" وهى تخرج سيارتها، وإغلاق أبواب الجراج، هى، تماما مثل "سباستيان" لها جاذبية شجرة جادة.

يبدو أنه غير واقعى أن تتشابه فجأة مع هذه الكائنات، دائمًا ما تخيلتهم بوجوه جامدة، وعيون براقة بالرؤى الكيميائية، متعصبين وذوى أحكام مسبقة. إنها الصورة السينمائية الغبية، عنّفت نفسها بخجل، لم تشك على الإطلاق أنهم كائنات عادية،

أشخاص عاديون، حتى "فيليبى" واحد منهم، ربما كان هذا من وحى رومانتيكيتها التى تمنح "سباستيان" و"فلور" هذه الطبيعة الهادئة، والحزم، والتوازن، والتى تمنحهما نظرة تشبه من يعرف كل شىء، وإن عليها أن تعترف بسهولة تلون "فلور": الآن، بينما تدخل السيارة وتدير الموتور، فإنها لا تشبه الممرضة التى فتحت لها الباب فى شىء.

تركا الشوارع المظلمة للأحياء الشرقية وخرجا إلى الشارع الرئيسى المؤدى إلى حى "لافينيا" القديم.

قالت "فلور":

-إنه من حسن الحظ أن "سباستيان" على ما يرام، كنت منزعجة، لم نكن نعرف عنه أى شىء.

سألت "لافينيا":

- هل تعرفينه منذ زمن بعيد؟

قالت "فلور" متهربة:

- تقريبًا، وأنت، حقيقة أنت صديقة "فيليبى"؟

- نعم، نعمل معا.

- لكنك لا تعرفين شيئًا عن هذا...

- لا.

- لا يجب أن تخافى...

- لم أتخيله مطلقًا.

قالت "فلور":

- إنه على هذا النحو، عندما لا يتخيله أحد...

فكرت "لافينيا"، نعم، فى الوقت الذى لا يمكن تخيله يمكننا أن نعبر المرآة، وندخل إلى مساحة عالم موجود متخفيا خلف الحياة اليومية، يمكن أن يحدث هذا خلال الذهاب فى أوتومبيل وخلال حديث مع امرأة مجهولة، لقد عبرت خط التمرد لتقف على خط النار، بالنسبة لـ"فلور"، لا شك، إن تمردها، تمرد ضد مصير الزواج، والآباء، والقناعات الاجتماعية، التى تعتبر فصولا لا أهمية لها فى حكايات الحوريات، والتى كانت تكتبها "فلور" بحرف "ح" الكبير، وهى، على العكس من ذلك، لا تقدم سوى حكاية وحيدة التى تمثل شبابًا متمردًا بلا قضية، نظرت إليها بينما كانت تقود السيارة، كانت "فلور" تتحدث، تعلق على المرور، والسيمافورات، والتحزبات، لم يكن يبدو عليها أنها عصبية، شعرت "لافينيا" نوعًا من الإعجاب نحوها، فكرت، كيف تشعر؟ كيف تعيش إلى جوار حياة بطولية؟ تذكرت إعجابها القديم بمغامرات الفروسية، الناتجة عن كتب "جوليو فيرنى"، الإعجاب المراهق، فى العالم الواقعى والحديث، لم يكن سهلا العثور على أشخاص يمكن الإعجاب بهم. لهذا كان سهلا تحولهم هم إلى أفراد أسطوريين. الأمر نفسه كان يفعله "أدريان"، الذى كانت معجبة بشجاعته، فكرت، إن عليها أن تحترس، خاصة مع "فيليبى" القريب منها جدا، وألا يخطر على بالها فكرة أن تكون مثلهم، لاشىء يجمعها مع "الشجعان" الذين يعرفون، مثل

"فلور"، الذهاب فى أوتومبيل بهدوء ليلاً فى منتصف مدينة بشوارع مظلمة، حيث تسير دوريات الجيب (سيارات قوات مكافحة الإرهاب) فى طريقها لعلاج مقاتل فى حرب العصابات جريح، وترافقها شخصية غريبة عنها تماما قدمت لها ورقة مطوية.

كانت "فلور" تطرح عليها أسئلة، وقبلت "لافينيا" إغراء الحديث عن نفسها مع شخص يستمع إليها بانتباه كبير. امرأة، كائن مرتبط مثلها ببرمجة قديمة، ومع ذلك، تعيش فى شكل من الواقع الغريب، ومندمجة فى تآمر كما لو كان منطقة حياة طبيعية، بعيدا عن المسيرات المختلفة للأنوثة. فكرت أنه يمكنها أن تسألها كيف كانت نوعية تلك الحياة، لكن الطريق لم يكن طويلا بشكل كاف ليسمح بذلك.

قالت مشيرة لها:

- ذلك هو البيت.

مرت "فلور" أمام البيت دون أن تتوقف، وركنت السيارة على بعد عدة نواصى بعد ذلك، وشرحت لها أنه ليس مناسبًا وضع السيارة فى المكان نفسه، لايمكنهم المخاطرة باعتقالهم. ساروا على الأقدام، رنّت خطواتهم على الأرصفة الخالية. تختفى الأشباح المرفهة داخل المساكن النائمة، كانت هناك بعض الكلاب تلغ فى أكوام القمامة.

كانت "لافينيا" تنظر إلى المرأة فى صمت، مفكرة، تسير إلى جوارها والحقيبة الطبية السوداء فى يدها،

لم تكن تعرف عن "فلور" أى شىء، تجنبت بمهارة الحديث عن نفسها، فكرت، إنه على هذا النحو تعمل هى، عندما دخلتا إلى صالة البيت، حيث كان ينتظر الرجلان، سألت "لافينيا" "فلور" إن كانت قد عرفت الرجال الثلاثة، القتلى، الذين كانوا يطفون فى مناخ بيتها. كانت الصحيفة مطوية بقوة على طاولة غرفة الطعام. تعانقوا، أولا عانقت "سباستيان" ثم بعد ذلك "فيليبى"، عناق الغرقى، عناق الناجين من الموت، و"فلور" بعينين مغلقتين.

بعدها قام الثلاثة بفض الدائرة الرقيقة من الانفعال والصمت وانشغلوا بذراع "سباستيان"، قالت "فلور" إن اليد تبدو متورمة قليلا. توجهوا إلى غرفة النوم، المرأة بحقيبتها الطبية. ودخلت "لافينيا" معهم. لم تكن ترغب فى البقاء فى الخارج، وحيدة، وبررت ذلك لنفسها بأنهم ربما يحتاجونها للقطن، والماء الاوكسيجينى، لا يبدو أنهم اهتموا لحضورها، ظلت واقفة، كان "سباستيان" جالسا فى السرير وترك "فلور" تكشف الضمادة.

قالت:

– إنه متورم جدًا، هل قدمتم له أى مضاد حيوى.

سألت وهى تستدير نحو "فيليبى".

هذا قال:

– نعم، امبليثينا.

وشرح لها الجرعة.

بدقة مهنية، فتحت "فلور" الحقيبة السوداء وأخرجت القطن والضمادات، لم تستطع "لافينيا" أن تتجنب الصدمة الفجائية فى صدرها عندما شاهدت، بين زجاجات الأدوية والمحاقن، مسدسين، وهى التى عبرت كل المدينة فى السيارة مع تلك المرأة، فكرت، مع المسدسين المختبئين فقط تحت الشاش والضمادات...

قال "سباستيان" دون أن يبدى تعليقًا فقد شاهد هو المسدسين أيضًا:

- آه، حسنًا جدًا، لقد أحضرتيهما.

قفزت الشكوك والتبريرات إلى عقل "لافينيا" من جديد، كانت لديها الرغبة فى أن تقول لهم هم من وضعوها فى كل هذا. فكرت فى الشكل البرىء والجاد لـ"فلور" عندما جاءت معها فى السيارة، عندما سألتها عن إيطاليا، وعادات الفاشية السيئة، وما كان يتناقش فيه الطلاب، وهى، تجهل ما تحتويه الحقيبة، التى كانت تحملها على ساقيها طوال الطريق، وإنها عرضت عليها أن تحملها أثناء سيرهما نحو البيت.

الظل الأسود للمسدسين لفها فى الخوف، الخوف السارى فى رغبتها فى تأملهما.

***

بذلت جهدا للإبقاء على خوفها ساكنًا وعدم السماح له بالانسكاب بحرية فى دمها، الخوف أسود وبرّاق فى الوقت نفسه، يحيط بتفكيرها كالشباك التى تضغط عليها وتحكم عليها حركتها، تمامًا كعضة

الحية، كالرؤية الأولى للإسبان على ظهور خيولهم: اعتقدنا فى البداية أنهم كانوا كائنًا واحدًا، اعتقدنا أنهم آلهة العالم التحتى، لكنهم كانوا يموتون. كانوا يموتون هم وخيولهم، كلنا كنا فانين، وأخيرًا عندما اكتشفنا الأمر بعد فوات الأوان، كان الخوف قد لعب معنا لعبته.

***

أنهت "فلور" تنظيف الجرح، الفوهة المفتوحة فى الجلد يبين منها الداخل أحمر ومتكامل، كانت الرصاصة قد دخلت فى الجزء الخلفى من الذراع، حيث كان الجرح أقل، وخرجت من الأعلى قليلاً من الكوع تاركة جرحًا غير منتظم، وكل المنطقة المحيطة، بما فيها اليد، تبدو كما لو صُبغت بالأزرق والأخضر القاتم، وبعد أن طلبت من "سباستيان" أن يجرى مجموعة من الحركات بالذراع ـ وهو شىء قام به مُخفيًا الألم الذى تسببه له- اقتنعت "فلور" بأن الرصاصة لم تؤثر على حركته وقالت إنه يجب تخييط الجرح لتأكيد التئام الجرح ومنع خطر التهاب قد تكون له نتائج خطيرة.

طلبت:

– "لافينيا"، هل يمكنك أن تغلى قليلا من الماء، من فضلك؟

كانت تطهر ابر الخياطة الملتوية فى الماء المغلى. وأخرجتها "فلور" بحرص.

وسألت "لافينيا":

- أيمكنك أن تساعديني؟ في مثل هذه الأشياء أتفاهم مع النساء أفضل، الرجال يرتجفون.

أمنت هي على كلامها بهزة من رأسها، عندما كانت تقرر مستقبلها، كان الطب إحدى المهن التي وضعتها في الاعتبار، في مراهقتها كانت تلتهم الروايات المكتوبة عن الأطباء، والمستشفيات. ولكن اختيار الأب كان حاسمًا، سنوات طويلة من الدراسة، سوف تبقى عزباء أو فى أفضل الحالات، يهجرها الزوج بسبب خروجها استجابة لحالات الطوارئ في منتصف الليل.

ساعدت "فلور" في وضع ما تحتاجه على السرير، رصتها على منشفة نظيفة، كانت الأيدي الناعمة والخبيرة للممرضة تعمل بمهارة ممررة الخيط الأسود من جانب إلى آخر من الجرح، ضامة الجلد، لا بد من الشعور بالألم، فكرت "لافينيا"، لكن "سباستيان" يكاد لا يحرك وجهه. فقط رقبته كانت تشير إلى الضغط، والعروق نابضة كما لو كانت حبالا. كان "فيليبي" يراقب الوضع في صمت. يقوم من وقت لآخر بحركات مضحكة للتخفيف عن "سباستيان"، ويمسك بالمنشفة التي عليها الأدوات الجراحية، كانت "لافينيا" تشعر كما لو تعيش حياة لا تنتمي إليها. ليست واقعية، ما كانت تتخيل أن تحدث في غرفتها الخاصة: الاسطوانات والحشية على الأرض، والأغطية الملونة

مكومة فى الركن، وأن ترى يدى "فلور" تخترق وتعود
إلى المرور عبر جلد "سباستيان" بخيط الحياكة، عدا
"فيليبى"، كان كل هؤلاء الأشخاص بعيدين عنها، كان
يمكنها أن تلتقى بهم فى الشارع دون أن يثيروا
انتباهها. فقط ربما شاركوها لحظة عابرة، تلك
اللحظة التى تلتقى فيها عيونها بكائن بشرى آخر فى
الزحام وتتلاقى النظرات كسفن بعيدة فى الضباب،
وتختفى الوجوه دون أن تترك أثرا، لتختفى إلى الأبد
عندما يصل الواحد إلى الناصية يحاول أن ينسى
بشراء حلوى ملونة من تلك التى تتكوم عند ساقى
المرأة بائعة الصناديق، لم تتخيل مطلقًا هذه الليلة
معهم. حر مارس الثقيل، الرفقة الضمنية، والانزعاج
بسبب ذراع "سباستيان"، ومعاناة "سباستيان"، والخلوة
الحميمة، كما لو كانت تعرفهم منذ زمن بعيد. خيوط
الخطر، الموت الذى يدور حولهم فى الخارج متنمراً
فى الشبابيك الساكنة والمظلمة، تجعل منهم عائلة
واحدة، مجموعة بشرية تحتاج لبعضها البعض لتواجه
الحياة: رجال ونساء من الكهوف يتلمسون وجودهم
فى الظلام، ويشعرون بتنفس النمور فى الخارج.
رفعت رأسها، متنبهة للضوضاء القادمة من الشارع.
كانت سيارة مارة فقط، نظر الأربعة فيما بينهم
وواصلوا مراقبة "فلور" فى صمت. لم يكونوا فى
حاجة إلى معرفة الكثير عن بعضهم، فكرت "لافينيا"،
فالانزعاج المشترك الواضح فى الحوارات الاجتماعية.
والعيون تتخذ التوجه نفسه، والضعف والقوة يتعايشان

جنبًا إلى جنب بالتبادل فى سريان وتوقف، تيارات بحر يسيرون فيها معا، غرق تلك اللحظة، فى هذه الفقاعة من الصابون.

أنهت "فلور" عملها، ونظر "سباستيان" إلى ذراعه، الرسم الأسود لتقاطعات الخيوط، أخذ "فيليبى" "لافينيا" برفق من كتفيها وأدار جسدها إلى خارج الغرفة.

قال "فيليبى":

- يجب أن تنامى فى الغرفة الأخرى، والآن لاتنزعجى أكثر من ذلك، نحن علينا أن نتحدث عن الانتقال فى الغد، سيكون فى المساء، يجب أن تنامى قليلا.

قالت "لافينيا":

-"فيليبى"، لو احتاج الأمر، يمكن أن يبقى "سباستيان"، لا أريد أن يحدث له أى مكروه بسبب خروجه من هنا.

ابتسم "فيليبى":

- شكرًا، لكن لا أعتقد أن هذا مناسبًا، الانتقالات مهمة فى حالات مثل هذه. لا نعرف إن كان حقيقة لم يش أحد بـ"سباستيان"، لا نعرف إن كانوا يبحثون عنه أم لا، ربما لم يقولوا أى شىء حتى نخفف من حرصنا ونسقط... لا تنزعجى.

قبلها قبلة أبوية فى جبينها واختفى خلف باب غرفة النوم.

تمددت هى على الحشية ذات الرائحة التى تشبه النوم القديم للغرفة المجاورة بالبيت، تمددت على ظهرها، بكامل ملابسها، والضوء مطفأ، تحيط بها ظلال الأشياء المحفوظة فى الغرفة كأيقونات بارزة. والأصوات القادمة من أعماق الماء بالغرفة الأخرى تنساب إليها غير واضحة عبر الضوء المار تحت عقب باب الحمّام.

قالت لنفسها أنه يجب عليها أن تنام، ولا تفكر فيهم أكثر من ذلك، ولا تفكر فى احتمال أن يقبل "سباستيان" البقاء. لا تعرف لماذا قدمت هذا العرض، وكيف خرجت تلك الكلمات من فمها. ربما لمجرد البقاء معا كما لو كانوا يعرفون بعضهم منذ زمن مضى، لهذا قالته، بررت لنفسها، وإن لم يكن هذا مقبولا، غدا ستشك، وتندم، وسيتملكها الخوف من جديد. لكنها لن تفكر فى أى شىء، قالت لنفسها، ستنام، لم تكن قد نامت تقريبا.

شعرت أنها وحيدة، لقد كان "فيليبى" معهم، ينتمى إليهم، الثلاثة ينتمون لبـ ضهم، فقط هى كانت فى الغرفة الفارغة الضخمة فى ضباب ثقيل من الظلال والأفكار التى لا تتركها تنزلق إلى النوم. حاولت أن تمحوهم بالتفكير فى البحر، عندما لاتستطيع النوم كانت تفكر فى البحر.

فى اليوم التالى، عندما فتحت عينيها، كان الوضوح يدخل من أعلى النافذة. إلى جانبها، معتمداً على الجدار، كان "فيليبى" يدخن سيجارة. قال:

- لقد ذهبا.

جلست "لافينيا" على الحشية، فركت عينيها، لقد ذهبا، فكرت، لقد مضى الخوف، شعرت برغبة فى البكاء.

- والآن علينا أن نغتسل وأن نذهب للعمل ـ أضاف "فيليبى"- لقد حملّونى شكرهم لك، قالا إنك كنت شجاعة جدًا.

هى لم تقل أى شىء، وقفت ورفعت الشراشف، طوتها بحرص دون أن تعرف لماذا. سيعودان إلى العمل، و"سباستيان" و"فلور" ذهبا معًا، سوف تعود إلى الاعتيادية. لم يحدث أى شىء، جميعنا بخير، تنفست بعمق حتى تسيطر على رغبتها فى البكاء.

كان "فيليبى" ينظر إليها بانتباه، افترض أنه الآن انتهى كل شىء بيننا، فكر، دخلت وحدها إلى حمّام غرفة نومها، أغلقت عينيها تحت الدش تاركة الماء يسقط فى دفقات قوية على رأسها، كان لديها إحساس بأنها تتعافى م ن مرض طويل.

عندما خرجت، كان "فيليبى" قد انتهى من تنظيم الغرفة، والشراشف الملطخة بالدماء كانت مكدسة على السرير بشكل ظاهر.

- من الأفضل التخلص منها.

اقترحت "لافينيا" بينما كانت ترتدى ملابسها، ويدخن "فيليبى" سيجارة، واقفا، إلى جانب النافذة.

قال "فيليبى":

- إنه أمر خطر، يمكنهم أن يعثروا عليها ويستخدموها كدليل. من الأفضل تركها مخبأة فى أى مكان وغسلها عندما تكونين وحدك. أنا يمكننى أن أساعدك.

وضعاها فى أعلى الدولاب، خلف حقائب قديمة.

قبل الخروج، مرت على البيت كله مغلقة النوافذ والأبواب.

- أرجو ألا يواجه "سباستيان" مشاكل بعد ذلك.

قالت قبل الخروج، منتفضة فجأة تحت وطأة وخز الضمير، والرغبة فى أن يخرجوا لتستعيد هدوء بيتها، تستعيد الأيام العادية والروتين المبارك.

- نرجو ألا يحدث.

وعانقها.

واحتضنته هى بقوة، كانت تشعر بالحسرة لرؤيته منزعجًا، وهو يراقبها، ربما كان يخاف رفضها.

- أحبك.

همست، وفكرت أنه، رغم كل شىء، لا يمكنها تركه.

أمضت "لافينيا" اليوم فى سعادة هادئة وغريبة. روتين الرسومات، والرسامون منحنون على طاولاتهم يرسمون، و"مرثيدس" تتجول بين المكاتب، والقهوة على

المكتب يتصاعد منها البخار، وتجرى من حولها أحداث لا تُنسى. كانت تجرب الإحساس بأنها عادت من سفر طويل. تذكرت "فلور" خلال اليوم عدة مرات. بدت لها ذكريات بعيدة جدا فكانت الذكرى مجرد حنين، فكرت فى خطاب الثعلب فى كتاب "الأمير الصغير"، حول الروابط. فى وقت قصير جدًا، شعرت بالعاطفة تجاههم. لا تريد أن يحدث لهم أى شىء سيئ، لو حدث لهم شىء سوف تشعر بألم عظيم ليس مثل ما يمكن أن تشعر به تجاه شخصين غير معروفين لها. لقد كانت كيمياء أخرى التى حدثت بينهم وخلقت تفاهما حقيقيا بمجرد النظرات، الشعور بالحميمية: التضامن فى مواجهة الخطر.

لكن من الأفضل أن يكون الزمن قد مضى عبر المنحنى، وإمكانية تذكر تلك اللحظات مع العلم أنه يشكل جزءا من الماضى. لن تشعر أنها قادرة على العودة إلى أن تحيا أى شىء مشابه.

عندما عادت إلى بيتها وجدته نظيفًا، كان اليوم أربعاء، لقد وصلت "لوكريثيا" وأضاءت أنوار الفناء، تفحصت شجرة البرتقال المحمّلة بالثمار، أعدت لنفسها كوبا وتركت نفسها تستلقى فى "الهاماكا".

ظلت هكذا لفترة طويلة، مستمعة إلى الموسيقى، شاعرة ببرودة الليل، مكتنزة الهدوء، فقط عندما نهضت لتهاتف "سارا"، و"انطونيو"، شعرت بلحظة من عدم الراحة، لقد كان هناك اعتيادها المرغوب، ومع

ذلك، شعرت كما لو كان بيتها وحياتها قد فرغا فجأة، السماعة فى يدها، مدخنة سيجارة ببطء، تخيلت أن الحوار الحاسم على وشك البدء، وتساءلت ما الذى كانت تحبه حقيقة فى هذا الهدوء، هل كانت تحبه حقيقة أم أنه كان تعبيرًا عن الاستقلالية، لامرأة وحيدة لديها عمل وغرفة مستقلة، هل كانت خيارات ناقصة، تمرد محسوب، أشكال بلا محتوى.

والآن لن يحدث شىء، فكرت، يمكنها أن تتوقع أيامها يومًا بعد الآخر، إن فضاءها هذا مجرد جزيرة، كهف، سجن جيد لتمثال أعمى فى حديقة رومانية، إن سيطرتها على العزلة كان غزوها الأروع، يمكنها أن تبقى هنا بينما العالم يغرق فى الأمطار، و"سباستيان" و"فلور" و"فيليبى" وبعض الآخرين لا يعرفون كيف يتقاتلون مع طواحين الهواء، هناك فى الخارجُ الذى يسيطر عليه مناخ الأشجار الهادئة.

***

هى متوقفة على مدخل الأسئلة، لا تجيب، فقط أنا التى توجد هنا، خبيثة، يمكننى أن أتخيل، استكشف تأويلات، طرقا تتطهر، فقط أنا من يشعر بمطالب الإرث، بينما هى تتنبأ بانقلابات فى قلبها لاتزال لم تتمكن من تسميتها.

قال الإسبان إنهم اكتشفوا عالمًا جديدًا، لكن ذلك العالم لم يكن جديدًا بالنسبة لنا، كانت أجيال كثيرة قد أزهرت فى تلك الأراضى منذ أن أقام بها أجدادنا،

من عبدة "تاماجاستاد" و"سيباتوفال" . كنا من "الناهواتس" لكنا كنا نتكلم أيضا بلغة "تشوروتيجا" ولغة "النيكيرانا" . كنا نعرف قياس حركة الكواكب، والكتابة على رقع من جلد الحيوانات البرية، كنا نزرع الأرض، ونعيش فى تجمعات سكانية كبرى على حافة البحيرات، نصطاد، وننسج، وكانت لدينا مدارس ونقيم الاحتفالات المقدسة.

لا يمكن لأحد أن يقول ما هو تاريخنا لو لم يتم إبادة قبائل بأكملها. كان الإسبان يقولون إنهم يرغبون فى نقلنا إلى التحضر، وإجبارنا على التخلى عن الهمجية، لكنهم هم، بالهمجية، سيطروا علينا، أفنوا شعوبنا، فى سنوات قليلة قدموا تضحيات بشرية منا أكثر مما فعلنا طوال زمن مضى منذ الاحتفالات البدائية الأولى التى أقمناها.

هذه البلاد كانت الأكثر عددًا وازدحاما بالسكان، ومع ذلك، خلال السنوات الخمس والعشرين التى عشتها، انتهت إلى البقاء بلا رجال، أرسلوا بهم فى سفن كبيرة لبناء مدينة بعيدة أسموها "ليما"، وقتلوهم، ومزقتهم الكلاب، وعلقوهم فى الأشجار، وقطعوا رءوسهم، وأعدموهم بالرصاص، وعمّدوهم بالمسيحية، وأجبروا نساءنا على ممارسة الدعارة.

جاءوا إلينا بإله غريب لا يعرف تاريخنا، ولا جذورنا وأرادوا لنا أن نعبده كما لو كنا لا نعرف العبادة.

ومن كل هذا، ما هو الشيء الطيب الذى بقى؟
أتساءل.

الرجال لا يزالون يهربون، يوجد حكام دمويون،
واللحم لا يزال يُمزق، والحرب لا تزال قائمة.

إرثنا من الطبول المقاتلة يجب أن يستمر ضاربًا
فى دماء هذه الأجيال.

الشىء الوحيد الباقى منا، "يارنشى" الذى ظل: إنه
المقاومة.

- ٨ -

رفعت "لافينيا" عينيها عن الرسم ونظرت إلى مشهد الغروب، وإلى السماء المحمرة بحرائق أبريل.

تؤلمها بطنها وكانت متعبة، تكون على هذا الوضع عندما تحين الدورة الشهرية، تصبح حساسة، وهزيلة، كانت تود أن تكون فى مكان آخر، فى زمن آخر، أن تكون سيدة من القرن التاسع عشر، صديقة أو عشيقة لأى شاعر رومانتيكى، مستلقية وخفيفة إلى جانب مدفأة فى شهر أبريل الشتوى، ولكن ما يحدث لها مؤخرًا ليس به أى شىء من الرومانتيكية، كانت فى حالة من الكآبة، منذ لحظات كان "فيليبى" قد دخل ليشرح لها الأسباب التى منعته من الحضور فى موعده فى الليلة السابقة: اجتماع عاجل، لم يتمكن من إخبارها، لم يكن هناك تليفون فى ذلك المكان.

كانت قد انتظرته هى طوال الليل، مرتدية ملابسها ومستعدة بالشعر ممشط جيدًا، كانت تقرأ القلق فى أى كتاب. وبعدها مستلقية، وساهرة حتى الفجر، تخاف أن تنام ولا تسمع الطرقات على الباب.

منذ أيام "سباستيان" و"فيليبى" يتجنب الحديث عن الحركة، تحول هذا الموضوع إلى موضوع محرم بينهما، وأسئلة "لافينيا" ورغبتها فى أن تفهم، ومحاولة ضعيفة فى التقارب بينهما، كان يجيب متهربا، وبشكل أبوى، كان ذلك مريحًا لها فى البداية، لا تعرف ماذا كان يحدث لو أن "فيليبى" حاول أن يضمها إلى الحركة بعد ما حدث، احتاجت إلى أسابيع للتعافى من الصدمة، أن تتغلب على شكوكها فى استمرار علاقتهما أم لا، أن تعود إلى الإحساس الكامل بفضاء بيتها، أن تنتج عزلتها، والرضاء بالصداقات المعتادة، أن تعود إلى هضم علاقتها مع "فيليبى" من جديد، التى كانت قد تغلغلت داخلها، مع ذلك، لم تتمكن من فهم تصرفاته، كان يدفعها إلى الابتعاد، كان "فيليبى" يقبل خوفها بكثير من الهدوء، وتبريره بالحفاظ على كل شىء فى مكانه، وعدم تلويث العلاقة بجدال أو أفعال هى أقرب إلى تصرفات فردية، ظل صامتًا فى مواجهة الأسباب التى كانت تستخدمها، عندما تخاف من أن يشعر بضعف شكوكها، شعرت بذلك فى الليلة التالية لانتقال "سباستيان"، فى الممر إلى جوار شجرة البرتقال، لتبرر له الأسباب العديدة التى تجعلها تتخلى عن محاولاته التى لم يحاول أن يقوم بها، تذكرت الطريقة التى استمع إليها بها "فيليبى"، صامتًا ويبدى قبولاً، بقوله إنه يوافقها فى كل النقاط المطروحة للنقاش.

وأخيرًا كان قد قال:

ـ أعرف أننا لا نستطيع أن نسير معا، لأنك ضفة نهرى، لو سرنا معا ترى أى ضفة يمكن أن تستقبلنا؟

قَبِل ـ مفاجئا "لافينيا" ـ إنه يحتاج واحة بيتها، وابتسامتها، وحقيقة أيامها الهادئة، وموضوع "سباستيان" كان حالة طارئة.

قال لها:

ـ أنا لم أفعل ذلك لتوريطك، صدقينى.

إقناعها كان أمرًا سهلاً جدًا، فكرت "لافينيا"، كان واضحًا أن "فيليبى" لم يرغب على الإطلاق فى توريطها. لم يكن منطقيًا، فكرت "لافينيا". المنطقى أن يحاول مشاركتها فى ما يمنح حياتها معنى وهدفًا، وأن يحاول ذلك، حتى وهى تحاول رفض ذلك.

فى أعماقها، ألقت اللوم على "فيليبى" بالتسبب فى خوفها. وأنه لا يساعدها فى مقاومة الرعب الحاد من إمكانية تورطها وما ينتج عنه (رغم أن "سباستيان" كان قد قال إنها كانت شجاعة، وهى كانت تحب أن تصدقه) وإن كان ذلك يرعبها بقصص مخيفة عن التعذيب والمطاردة. أم أنها روحها المتناقضة، فكرت، لأنها لم تكن متأكدة أن أية محاولة من جانب "فيليبى" لتجنيدها ما كانت لتبعدها، وأن يدفعها إلى الحرص، وإبعادها، ليس فقط من الحركة، بل عنه شخصيًا.

لم تكن "لافينيا" تفهم نفسها مؤخرًا، لا تعرف لماذا يتسبب فى إزعاجها أن "فيليبى" لا يحدثها عن الحركة، هى لا تريد أن تنتمى إلى الحركة، تكرر على

نفسها. ومع ذلك، الحديث، والسؤال عن هذا، حوّله إلى نوع من الجاذبية غير المبررة، غواية دائمة، دافع غير مفهوم. ولم تتخيل مطلقًا أن يقوم "فيليبى" بمفاتحتها، والإبقاء عليها، وأن يرفض معرفتها بذلك.

الشىء الحقيقى الوحيد الذى كان مختلطًا، إنها تشعر بعزلتها حتى وهى فى رفقته، وحيدة فى عزلة وجودية، غرفة خالية.

أن تكون مع رجل ينتمى إلى أهداف لا تشبه أهدافها فى شىء، رجل تعتبره فقط مجرد حدث لطيف فى حياتها، رجل يمكنه أن يختفى فى أى يوم، تبتلعه المؤامرة. يجب أن تتركه، فكرت، لكنها لم تستطع، إذا كانت منجذبة إليه من قبل، فإن الجاذبية الآن مزدوجة، هالة الغموض والخطر تغويها رغم أنفها، لا تريد أن تبقى مهمشة ولكنها فى الوقت نفسه لا تجرؤ على اتخاذ القرار الخطير، ربما لو حاول هو يمكنها آن تفكر فى الأمر، وربما لهذا كانت ترغب أن يفعل ذلك، وتتساءل إن كانت تدين للحياة بغير الاستقلالية الشخصية وغرفة خاصة بها، لكن "فيليبى" يتجنب أية إشارة وتكاد لا تراه مؤخرًا.

كانت المدينة تموج بالاحتجاجات، وكان الجنرال الأكبر قد أمر برفع أسعار وسائل النقل الجماعى والحليب، والجماهير، مدفوعة بتحريض مجموعات من الطلاب والعمال، خرجت للتظاهر، وعقد اللقاءات الليلية فى الأحياء، وإضافة إلى الاحتجاج على

الأسعار الجديدة، كانت الناس تطالب بإطلاق سراح الأستاذ المتهم بالتعاون مع الحركة، الذى بدأ إضرابًا عن الطعام فى السجن.

كانوا يحرقون الباصات بالجامعة، وينظمون حرائق فى الليل، وأصدر الجنرال الأكبر قرارًا بفرض الرقابة على الصحافة، وكان المناخ فى الشارع حربيًا ومشتعلا.

شارك "فيليبى" فى تلك المظاهرات، كانت متأكدة، بينما هى فى هذه الأيام، لم تفعل شيئًا سوى انتظاره، مناضلة فى داخلها، تحاول ألا يتحول الحب إلى حزن وكآبة.

لا تريد أن تصنع من "فيليبى" مركز حياتها، أن تتحول إلى "بينيلوبى" تنسج خيوط الليل، لكن، رغم أنفها، تعترف بأنها أسيرة تراث قديم: المرأة فى الكهف فى انتظار عودة رجلها من الصيد والمعركة، تتخيله محاط بالوحوش العظيمة، أو جريح بالبرق، والسهم، المرأة التى لا راحة لها، تقفز منزعجة عندما تسمع الفحيح يناديها فى ظلام الليل، تفح هى أيضًا، شاعرة بالراحة فى قلبها عند رؤيته يعود سالمًا، راضية حين تعرف أنها فى النهاية ستأكل وتنام دافئة حتى اليوم التالى، حتى يخرج الرجل للصيد من جديد، حتى الرعب التالى، الخوف، الصورة فى الصحيفة، تنفس الوحوش.

لم تتعاطف مع "بينيلوبى" أبدا، ربما لأن كل النساء، فى إحدى المرات فى حياتهن، يمكنهن أن

يقارن أنفسهن مع "بينيلوبى". فى حالتها، لم تكن القضية فى الخوف من أن "اوليسيس" لن يغلق سمعه عن غناء عرائس البحر، كما حدث مع معظم "اوليسيس" المعاصرين، والمشكلة أن "فيليبى" لم يكن عرائس البحر، كان المسوخ ذات العين الواحدة. "فيليبى" كان "اوليسيس" يقاوم المسوخ ذات العين الواحدة، وحوش الدكتاتورية.

ومشكلتها، إنها "بينيلوبى" المعاصرة رغم أنفها، شعورها أنها محبوسة فى خانة العشيقة المحدودة، دون حق فى معرفة حياة جسدها نفسه: الشهوانية المتدفقة الملتزمة، وبتلات الخجل التى نزعها "فيليبى" كلما تعمق أكثر وأكثر وبعمق فى مداخلها، راكعًا حتى تفتح له ساقيها والنظر فى جنسها الندى، وشرب كوب من اللقاح، كنحلة متوقفة على مركز الزهرة، تمتص الرحيق العصارى حتى تزهر رغباتها الخارجية، وتقدم له الممرات الداخلية، وينابيع القلعة التى تحيط ببرج اللذة الذى هو فمه الذى يحاصرها بجيش حرابه، فتستسلم له كل البشرات، وتدخله فى رحمها حتى آخر الموجات الشاهقة، منهزمان معًا، فى فحيح الاستسلام.

لكنها هى لم تستطع اختراقه، ولا حتى عتابه على ممارساته، ورغبته فى تشوشها، والاحتفاظ بها حتى تختلق واحة بنخيلها، لم تستطع مطالبته باستخدامها لإشباع الرغبة العامة والعادية للحاجة الذكورية فى الإمساك بفضاء عادى من حياته: امرأة

فى انتظاره. مطالبته تعنى أن تتركه أو تتخذ قرارًا لم تكن مستعدة له ولا مقتنعة به، ولم ينضج بعد، هباء، فكرت، فالقرون التى مرت أنهت الخوف البدائى للكهوف؛ و"بينيلوبى" كن محكوم عليهن بالحياة الأبدية بعيدا حبيسات شباكهن، ضحايا لقصورهن الذاتى، منسحبات، مثلها، فى خدرهن الخاص.

شعرت بالغضب من نفسها، فقد شعرت مؤخرًا أنها تخضع لسيطرة الأحاسيس، فلم تكن لديها رغبة ولا حتى لرؤية "انطونيو"، ولا "فلورينيثا" ولا الآخرين، الذين لم يتوقفوا على مهاتفتها، فقد صغر عالمهم، وتضبب بالصراعات التى لم تتمكن هى من إنهائها.

كان الليل قد هبط من حولها، ولف المكتب الصمت والظلام. وصوت القلق تداخل فيها، انزعجت من وجودها هناك، وحيدة، فى وقت متأخر.

خرجت مسرعة، التقطت حقيبتها، عبرت الممر مرتعبة حتى وصلت إلى المصعد، والى الشارع، حيث نزعت عنها أخيرًا الحزن وإحساسها بالسقوط فى الشراك.

لم تكد تبلغ السابعة ليلا، فكرت، ناظرة إلى ساعتها بينما تسير باتجاه الجراح بحثا عن سيارتها التى اشترتها حديثًا. لم تكن لديها رغبة فى الذهاب إلى بيتها وفى الوقت نفسه لم تشعر برغبة فى زيارة "سارا" أو مجموعة الأصدقاء، استحالة مشاركة شكوكها معهم كانت تزيد الإحساس بالعزلة، تذكرت

الحالة التى أمضت عليها يوم الأحد الماضى فى ممر مزرعة والد "فلورينثيا"، قلقها من الوجود فى مواجهة الفلاحين الذين كانوا يتأملون شباب المدينة الأثرياء. لم تتمكن من إبعاد وجوه "سباستيان" و"فلور" عن ذهنها، لم تستطع التوقف عن طرح الأسئلة حول ماذا يفكرون لو شاهدوها بين هذه المجموعات من الأولاد المدللين.

كان يحدث هذا لها كثيرًا، كانت ترى "سباستيان" و"فلور" كوجوه تحطم نظام عالمها المنغلق ظاهريًا، لماذا يقلقها هذا إلى هذا الحد؟ تساءلت، حتى أحلامها تغزوها الحروب الآن، ورجال ونساء من الزمن القديم متواجهون مع جيوش تحمل الأقواس والسهام، كان يتسلط على عقلها، وتقاوم جاذبيته.

***

تتخبط بين التناقضات، كنت أشعر بها يومًا بعد يوم تتخبط دون أن أتمكن من تجاهلها، كنت أتطلع إلى شكوكها كمن يتأمل حافة الهاوية، لا أعرف إن كنت أتفهمها، فالعلاقات لم تكن واضحة تمامًا لى، أعرف بعض الصور من ماضىّ دخلت فى أحلامها، وإنها يمكن أن تبعد خوفها وإضعاف مقاومتها، أعرف أنى أسكن دمها كما أسكن عصارة الشجرة، وإن كان ذلك لا يجعلنى أغير أصلها، ولا أنتحل حياتها. هى يجب أن تعيش حياتها، وأنا لست سوى صدى دم ينتمى إليها أيضًا.

***

الأسوأ أنه لا يمكن الحديث عن هذا كله مع أى شخص، ولا يمكن الجدال حول مشاعرها، وشكوكها، وحواراتها مع "سارا" كانت نوعيتها تقل فى كل مرة، وتتضمن أنصاف حقائق، لا تستطيع "لافينيا"، دون أن توضح أسبابها، أن تذكر حتى مجرد تفاصيل علاقتها مع "فيليبى"، ومن ناحية أخرى، لا يمكنها الإجابة على أسئلة "سارا" عن مستقبل عادى لعلاقة أى زوجين، وإن كان تبرير غياب خطط على المدى البعيد كان أسهل بالتعلل برؤى المعاصرة، كانت "لافينيا" تفكر، إنه من المدهش أنها هى تفكر الآن فى الأمان والاستقرار، الاعتيادى، فيما أن علاقتها لا تسمح بمستقبل أكثر مما هو لحظى. كان "فيليبى" قد حذرها من إمكانية أنه يمكن أن يتحول إلى "العمل السرى" فى أية لحظة، وإجابته هى ذاكرة سوناتا "فينيثوس دى مورايس"، الشاعر والموسيقى البرازيلى، عن الحب: "ألا يكون خالدا لأنه شعلة، بل يكون أبديا خلال وجوده"، مدافعة عن جمال اللحظة، وأن تعيش الحاضر. ولكن يجب الاعتراف بصعوبة الحياة بمستقبل غارق فى الشك، دون أن تكون جزءا من الهدف، ودون أن تتمكن من مشاركة القلق مع أى شخص.

لم يعد أمامها من طرق أخرى سوى أن تحتفظ بشكوكها، فكرت، فيما كانت تدخل إلى رائحة الجدة فى سيارتها حديثة الشراء.

أدارت المحرك دون أن تعرف الوجهة التى ستتخذها، فكرت أن تدور عدة دورات، أن تصعد عبر

الطريق الرئيسى، التخفيف من الإحساس بالجحيم، وعدم التواصل، والبقاء فى الأرض الحرام دون أدنى أمل.

سارت فى شوارع وطرق، يدفعها الشوق إلى التفكير فى عمتها "إينيس"، الشوق إلى كائن بشرى يمكنه أن يفهمها، لمن تستطيع أن تتحدث معه.

صورة "فلور"، الشعر المتموج، التقاطيع السمراء، والتقارب من امرأة إلى امرأة فى تلك الليلة التى كانتا فيها معا، جاء إلى ذهنها بسطوع البرق فى الظلام.

لكن... يجب أن أذهب؟ تساءلت، لم تودع أى منهما الأخرى، و"فلور" لم تكن شخصًا بلا تعقيدات، تلك التى لا يمكن معرفتها أو زيارتها بلا موعد، أو حتى دون الاتصال بها تليفونيًا. إنها تنتمى إلى عالم آخر، لكن، لم لا؟، قالت لنفسها، إذا كانت هى لا ترى أنه من المناسب زيارتها، بلا شك ستقول ذلك لى.

قررت فجأة، أدارت "لافينيا" عجلة قيادتها إلى اليمين، مبتعدة عن الطريق العام الذى كانت على وشك أن تتخذه، مُركزة اهتمامها فى تذكر عنوان البيت.

اتخذت اتجاه الطرق الشرقية، والباصات القديمة تجمع الناس من على المواقف، رجال ونساء بوجوه مختلطة بالليل، يتجمعون فى مناخ من التعب تحت المقصورات المرتعشة بالألوان وتحت إعلانات الصابون والقهوة والروم ومعجون الأسنان.

كان يمكنها أن تكون أى واحد منهم، فكرت، من كرسى سيارتها الوثير، ولكن لو أنها ولدت فى مكان آخر ولأبوين آخرين، كان يمكنها أن تكون هناك، تقف فى طابور باص الليل، الولادة كانت نوعًا من الحظ الرهيب، يتحدثون عن الخوف من الموت، ولكنهم لايتحدثون أبدًا عن الخوف من الحياة. تتخذ البويضة الجاهلة شكلا فى الرحم الأمومى، دون أن تعرف ما ينتظرها عند الخروج من النفق. تخلق الحياة، لا أكثر، ثم الولادة. لحسن الحظ أننا لا نكون واعين لحظتها، فكرت، لأن الواحد منا يمكن أن يولد من الحب أو اللا حب. فى الفقر أو الرخاء، وإن كانت الحياة نفسها غير مسئولة: تقوم البداية الحيوية بعملها بالاتحاد بين البويضة والحيوان المنوى، والبشر هم من يخلقون المناخ المحيط الذى تسير الحياة فيه بعد الولادة، ويبدو أن البشر مكتوب عليهم مصائرهم وأن يلتقى كل منهم بالآخر، وضع العراقيل أمام حياتهم أو قتال بعضهم البعض.

لماذا نكون على هذا النحو؟ فكرت، عندما وصلت إلى الناصية القريبة من الجسر، ناصية المركز التجارى، نوع من البناء الشعبى يحمل لافتة "مخزن العناية الإلهية"، كيف لن تتذكره؟ ابتسمت.

دارت حول الناصية وعثرت على الجسر، مدخل شارع "فلور".

عادت إليها شكوكها من جديد عن الاستقبال الذى قد تستقبلها به "فلور". لكنها كانت قد اقتربت،

وقالت لنفسها، لم تسمح أن تسيطر عليها الشكوك وتقرر كل أفعالها. لن تسمح بفقدان الثقة فى نفسها والتى كانت تتفاخر بها منذ مراهقتها.

دخلت العجلات إلى الطريق غير المسفلت، تعرفت على المساكن الخشبية، بعضها أبوابه مفتوحة الآن، ومن خلالها يمكن رؤية البيت كله: الغرفة الوحيدة، والفرن فى العمق، والعائلة جالسة فى الخارج على كراس من الخشب، يستمتعون برطوبة الليل، وأطفال يلعبون حفاة.

أوقفت السيارة إلى جوار سور بيت "فلور"، رأت سيارتها متوقفة فى الجراج وبالبيت ضوء، بعد أن توقف صوت أزيز الجرس سمعت "لافينيا" صوت الشبشب يقترب. عقليًا، تضرعت أن يكون فى إمكانها استقبالها. اقتربت "فلور" من الباب وبدت على وجهها علامات مفاجأة لطيفة عندما رأتها.

قالت لها وهى قفل البوابة الحديدية:

– أهلا، يا لها من مفاجأة.

قالت "لافينيا":

ـ أهلا، قبل أن أدخل أريد أن أسألك إن كان يطيب لك أن أزورك.. لم أكن أعرف إن كان هذا ممكنا أم لا ...

قالت "فلور":

– بما أنك هنا، لا تكونى رسمية، ادخلى، إلى الأمام.

وابتسمت لها بحرارة.

دخلتا إلى الصالة، وكان أفيش "بوب ديلون" على الحائط. سألت "فلور":

ـ هل تريدين قهوة، إنها جاهزة.

قالت "لافينيا":

ـ حسن، شكرًا.

اختفت "فلور" خلف الستارة الملونة بالأزهار، وجلست "لافينيا" على الكرسى الهزاز، تطوحت بدفع نفسها بالقدم وأشعلت سيجارة لتمنح "فلور" وقتًا لتعود بالقهوة. نظرت إلى أرفف الكتب: "مدام بوفارى"، "المعذبون فى الأرض"، "الحجلة"، "عين الجمل"، "المرأة والحياة الجنسية"،... عناوين معروفة وغير معروفة... قراءات غير متناسقة مع ممرضة، من تكون تلك المرأة؟ تساءلت، تلك التى تعود بفنجانين من الخزف ووضعتهما على الطاولة.

ـ وكيف خطر لك أن تزورينى؟

قالت "فلور"، محركة السكر فى القهوة، ناظرة بنظرتها التى تشبه الشجرة.

أجابت "لافينيا"، خجلة بعض الشىء:

ـ لا أعرف كيف خطر لى ذلك، كنت فى حاجة إلى الحديث مع أى شخص... وفكرت أنه ربما يكون الأفضل آن أظهر هنا دون سابق إنذار، وفكرت أيضًا أنك ستقولين لى...

قالت "فلور":

ـ حسن، من المعتاد أن يكون الأفضل ألا تأتى هكذا، دون تنبيه، ولكن ليس لديك طريقة لتنبيهى، على أية حال، أنا سعيدة لرؤيتك مرة أخرى.

وماذا أقول الآن؟ فكرت "لافينيا"، كيف البدء فى الكلام، ما الذى كنت فى حاجة إلى الكلام عنه؟

سألت لمجرد أن تقول شيئًا:

-كيف حال "سباستيان"؟

قالت "فلور" إنه بحال طيبة، وأنه تعافى بأفضل مما كانت تأمل هى، يمكنه أن يحرك ذراعه جيدًا، ولم يحدث تلوث للجرح.

قالت "لافينيا":

ـ الحقيقة، أنا لا أعرف لم جئت، شعرت بالوحدة، وفكرت فيك، وانك ستفهميننى.

كانت "فلور" تنظر إليها بحلاوة، كانت تشجعها على الكلام بنظرتها، ولكن لم تساعدها كثيرًا فى الحوار.

قالت "لافينيا":

ـ أشعر بأنى فى أرض جرداء، أنا مشوشة.

ـ ولماذا لا تتكلمى مع "فيليبى"؟

ـ مؤخرًا أراه قليلا، فى الليالى، لا أفعل أكثر من انتظاره، ولكن حين يظهر، أشعر أنى مثل "بينيلوبى".

ضحكت "فلور"، وقالت:

ـ ربما كان مشغولا، أليس كذلك؟

قالت "لافينيا":

ـ أو، مع أى رجل نرتبط به، سواء كان مقاتلا أو بائع أجهزة تبريد، فإن دور المرأة هو انتظاره؟

قالت "فلور"، ضاحكة من جديد:

ـ ليس بالضرورة. هذا يرجع لما تقرره المرأة لحياتها.

سألت "لافينيا":

-وأنت، كيف وصلت إلى تقرير أن تكونى ما أنت عليه الآن؟

بين رشفات القهوة، وإشارات معبرة وصمت الحنين، حكت "فلور" حكايتها، هى أيضا كان لها عم حازم، قالت لها، ولكن ليس بالمعنى الإيجابى لعمتها "إينيس" وحكايتها، أخذها عمها من المزرعة البعيدة فى الجبال، حيث كانت تعيش مع أمها، وشقيقات لها أميات، بهدف تعليمها فى المدينة. كان رجلاً ثريًا جمع ثروته خلال موجة ارتفاع أسعار البن، أعزب وعديم الضمير، أخذها فى رحلات إلى الخارج لزيارة المتاحف وبشر قلقين ومتمردين، "تبنانى تقريبًا"، قالت "فلور"، "ولكن ليس لأهداف نبيلة"، فقد لاحظتْ كيف كان ينظر إليها عندما بدأت تدخل سن المراهقة، كان يتأملها عند استحمامها فى النهر. "انتظر أن أكبر ليحولنى إلى عشيقته، وهنا حيث ترينى، فقدت

عذريتى فى سان فرانشيسكو"، قالت "فلور"، وهى تدخن وترتشف القهوة بتعبير صارم.

"كنت أكرهه"، واصلت قولها، ولإشباع شهوانيتها دخلت الجامعة ووجهت همها فى المغازلة والنوم مع من يكون على استعداد لذلك، ("لم يخل الوقت منهم أبدا"، أضافت، ناظرة إلى "لافينيا" بنظرة متحدية تقريبًا)، والوحيد الذى لم يكن على استعداد لذلك كان "سباستيان"، تذكرت "فلور" كيف واجهها، واستطاع أن يهزها لتنتبه إلى عملية التدمير الذاتى الذى تسير فيه، بخلطها بين الغضب ضد عمها والكراهية التى تحملها لنفسها.

"قاومتُ"، قالت "لكنى بدأت أفكر، وأبكى"، وبين عراك وبكاء مع "سباستيان"، واصلت "فلور"، حدث أنه فى أحد الأيام دخل الحرس إلى الجامعة، وتذكرت أن "سباستيان" قال لها: "لقد خبأت هذا المسدس فى حقيبة يدك"، كانت لحظة مرعبة سمعوا خلالها صفارات الإنذار تقترب من الاجتماع، وعندما بدأ الحوار يتحول إلى عراك بين مجموعة طلابية ضد أخرى، قال لها: "اخرجى بسرعة، إلى بيتك وانتظرى حلول الليل"، خرجت متعثرة، كانت تحكى "فلور"، مندهشة من ثقته فيها، وإنه لم يفكر فى أنه يمكنها أن تبلغ عنه لو أمسكوا بها والمسدس فى حقيبة يدها، "لقد وثق فىّ وجعلنى أمر بأسوأ لحظة فى وجودى"، أضافت، بعدها بساعات، ظهر "سباستيان" فى بيتها كما لو أن شيئًا لم يحدث، مطالبًا بمسدسه الذى

احتفظت به بين طيات ملابسها الداخلية. ودون مقدمات أقنعها بترك بيت العم، وأن تشترى بأموال وفرتها هذا البيت الذى تعيش فيه الآن وأن تتعاون بشكل كامل مع الحركة.

قالت "فلور": "أقنعتنى ثقته، إما أن أقبلها أو أبقى الشىء الردىء الذى كنته، والذى افترضت أنه الانتقام من عمى".

وبعدها كان يجب علىّ عبور محن لا عدد لها، الاقتناع بأن الحركة لم تكن ـ كما كان يقول "سباستيان"– مجرد مجموعة للاستشفاء النفسى، بل أن يكون لى هدف يدفعنى إلى مواصلة الحياة، وفى النهاية تمكن ليس فقط فى أن أتصالح مع نفسى، بل أن أتحمل مسئولية جماعية. قالت، حتى لو كان فقط من أجل ألا تهدى أى أم فلاحة أبناءها لأقارب أثرياء، اعتقادًا أنها بهذه الطريقة تخلق منهم بشرًا.

أراحت "فلور" رأسها على مسند الكرسى، وكانت "لافينيا" قد استمعت حكايتها فى صمت، مندهشة من ثقة "فلور" فيها.

وأضافت "فلور":

ـ لم يكن سهلا، هذه القرارات ليست سهلة على الإطلاق. فقط إنها تحدث أحيانا وتأتى الواحدة منا فى اللحظة المناسبة... ولكن لا أحد يقرر لغيره. مشكلتك ليست "فيليبى".

قالت "لافينيا" مدافعة:

ـ أنا أعرف، لكنى أعتقد أنه يتحمل بعض المسئولية، بموقعه، فهو الشخص الأقرب إلىّ.

ابتسمت "فلور":

ـ بالطبع، إن ما يريده هو "استراحة المحارب"، المرأة التى تنتظره ويدفئ لها السرير، سعيدة برجلها الذى يناضل من أجل قضايا عادلة، وتدعمه فى صمت، وحتى "التشى جيفارا" كان يقول ـ فى البداية ـ إن النساء طباخات رائعات وحملة رسائل المقاتلين، وإن هذا دورها...

"إنه نضال طويل".

قالت "لافينيا":

ـ لكنى أنا لا أريد فقط ضفة النهر...

ـ إذًا، إن أردت، يمكننى أن أعطيك بعض المواد لتعرفى أفضل ما الحركة وما تهدف إليه. وبهذه الطريقة ليس عليك أن تحتاجينه، إذا كان هذا هو الذى يقلقك، وبهذه الطريقة يمكنك أن تتخذى قراراتك الخاصة، وبهذه الطريقة يمكنك أن تنتظريه على "ضفة نهره هو"، بقوس وسهم.

ضحكت "لافينيا" وضحكت. حتى دمعت عيناها من الضحك، ولا حتى هى كانت تعرف تلك القهقهة الفجائية التى ولدت من أعماقها، والتى لا يمكن كتمها، وتنبت ضحكات: رؤى امرأة تشد القوس، لعوب، فى انتظار أن تظهر رأس رجل من الماء.

بذلت مجهودًا لتتوقف عن الضحك.

لم تكن تعرف إن كانت ستعثر على الإجابات فى تلك المواد، قالت "لافينيا"، لكنها كانت جيدة، وإنها ستقرأها، ويستحق "فيليبى" سهمًا.

قالت "فلور":

ـ احترسى، هذا أمر يخصك أنت، ولا يخص "فيليبى".

هل كان هذا هو ما تبحث عنه؟ تساءلت، كانت على وشك أن تقول لـ"فلور" لا، وأن تعطيها لها، فهى لم تُخلق لهذا، لا تشعر أنها قادرة، والخوف، لكنها لم تستطع الرفض، فقد ذهبت إلى أبعد مما كانت تهدف إليه، ودون أن تعرف لماذا، منذ أيام سابقة، كانت تداعبها فكرة، تطاردها كقط يتبع ذيله، فى النهاية، عليها أن تستوضح هذا مع نفسها، أن تعرف إن كان قلقها شرعيا أم فقط طريقة لمداراة غضبها من عدم ضم "فيليبى" لها لما كان يعتبره شيئًا أساسيًا فى حياته.

عليها أن تحرص على المواد، لأنهم لو اكتشفوها معها يمكن أن تُسجن، كانت قد قالت لها "فلور". وقدمت لها عدة كتيبات مطبوعة على ماكينة تصوير: تاريخ الحركة، برنامجها ولوائحها، وطرق التأمين (ليس سيئا أن تعرفها ـ أشارت عليها ـ وبشكل خاص بسبب تجربتها الأخيرة مع "سباستيان"). وبعد أن تقرآها، على "لافينيا" إعادتها.

ضغطت على حقيبة يدها عند دخولها السيارة، قربتها منها، ووضعتها إلى جانب فرملة الطوارئ،

ودعتها "فلور" من الباب برفع يدها، فكرت "لافينيا" فى الأشجار مرة أخرى، وحتى صوت "فلور" فى النهاية، عندما كانت تصدر لها تعليماتها عن المواد، كان متحشرجًا بعض الشىء، كشخص يسير على أوراق جافة.

أدارت المحرك وخرجت باتجاه الطريق العام، تقدمت خلال الليل باتجاه بيتها، وعندما شاهدت دورية البوليس على الناصية، قفز قلبها إلى حلقها، والاندفاع المفاجئ لدمها أشعل وجهها بالأحمر، ضغطت على عجلة القيادة، خففت من سرعتها وتضرعت إلى كل القديسين ألا يوقفوها. ماذا فعلت أنا؟ فكرت، شاهقة، ولو شاهد البوليس، عندما يطلب منها تصاريح السير، الأوراق فى حقيبة يدها؟ أو لاحظوا عصبيتها؟

مرت إلى جانب رجال البوليس، ببطء، دون أن تنظر إليهم، لم يوقفوها، تابعت طريقها، وتكاد لاتسيطر على ارتعاش سيقانها ورغبتها فى البكاء.

هذه ليست لعبة، فكرت بينما كانت تلمس وتعود إلى لمس حقيبة يدها التى تحتوى على الأوراق، بينما كانت تتأكد أنه لم يقع لها شىء لا يمكن تجنبه، ما تعمله ليس دمية، قالت لنفسها، مواصلة العودة إلى الطفولة التى دفعها إليها الخوف، وتذكرت الدمى التى كانت تخرجها من الدولاب الذى نظمته عمتها "إينيس"، كانت تختبئ معها خلف الأبواب حيث تختبئ ماكينة الخياطة وتمزقها بحثا عن القلب، كانت أمها

تقول إنها فتاة مدمرة لأنها كانت تحممها حتى تتمحى ألوانها وتبقى بشفاه شاحبة وبعين زرقاء وأخرى بلون القهوة، وتمشطها حتى يسقط شعرها، وتفتش فيها من أعلى لأسفل بحثا عن ملمح بشرى فيها، شىء يمكنها أن تمنحه حبها كطفلة وحيدة، طفلة بلا أشقاء، فى محاولة للعثور على رفقة فى سنها.

تذكرت إحباطها عندما كشفت أمام عينها صدور الدمى، واحدة بعد الأخرى، فوجدتها خالية، وأن تدليلها ومداعباتها ذهبت سدى، وأغنيات المهد، لأن أى من تلك الدمى لم يكن لها قلب.

ماذا تقول أمها لو شاهدتها؟ فكرت "لافينيا"، مسرعة عندما عبرت السيمافور المضىء باللون الأخضر، متشوقة للوصول إلى بيتها، شاعرة أن كل المدينة كانت تعرف بحمولتها من الأوراق السرية.

عندما وصلت، وجدت "فيليبى" نائمًا أمام التليفزيون، لم تكن تنتظر رؤيته، كانت قد قدمت له مؤخرا نسخة من مفتاح البيت حتى تجنبه انتظارا ليليا لا فائدة منه، والخوف من ألا تسمع طرقاته على الباب، لكنها كانت المرة الأولى التى يستخدمه فيها، تحركت بهدوء حتى لا توقظه ودخلت غرفة النوم مفكرة فى مكان آمن تخبئ فيه الأوراق.

نظرت حولها، وعثرت عيناها على دمية قديمة مغبرة أعلى الدولاب، ربطت بينها وبين أفكارها مؤخرًا، أنزلتها، خلعت رأسها، ووضعت الأوراق فى صدر الدمية الفارغ وأعادت تركيب الرأس فى مكانه،

لقد أصبح الآن لها قلب، فكرت، عادت إلى الصالة المضاءة بضوء التليفزيون المبيض، كان الممثلون يواصلون أداءهم، دون اهتمام بالمتفرج النائم.

نظرت إلى "فيليبى"، كان يبدو كتمثال منهار، لاحول له، كانت تحب رؤيته نائمًا، كانت حالة غريبة من أوضاع النوم، كمنطفئ، خارج الهواء، الدخول فى موت صغير، طبقًا للمعتقدات الشرقية، فالنوم تنفصل فيه الروح عن الجسد وتهيم فى رحلات كونية إلى مستويات أخرى من الوجود. ترى أين يكون "فيليبى" الآن؟ تساءلت. استندت إلى المساند، وغرقت فى تأمله، مرر التليفزيون نشرة أخبار منتصف الليل. افتتح الجنرال الأكبر برنامج الإصلاح الزراعى للفلاحين، وتحدث عن الثورة فى الحقل، حاول توضيح معنى الكلمة، واستعادتها، وتنظيفها. كان رجلا حماسيا متوسط القامة، بكرش، أبيض البشرة، وشعره أسود، بابتسامة مصطنعة وأسنانه منتظمة بحرص، ومن حوله حاشيته من الوزراء يبتسمون بخضوع.

لا شىء يُذكر عن الاجتماعات السياسية فى الأحياء، والباصات المحترقة فى الشوارع.

فكرت "لافينيا" فى الأوراق داخل الدمية، نظرت إلى "فيليبى".

لن تقول له أى شىء، ستبعده عن منطقة قراراتها، ستحكم عليه بالبقاء على هامش الصفحة، والجهل البرىء، وهو الأمر العادى فى النوع النسائى، تمامًا كما يفعل هو، هى أيضا ستتركه غائبًا عن

تعقيدات حياتها، وإن كانت تعرف أنه لولا إحضار "فيليبى" "سباستيان" إلى بيتها، ما كان لها أن تتشكك، وكان واضحًا أن ما حدث بالنسبة لـ"فيليبى" كان خطوة غير محسوبة، وتحول مفاجئ فى الاعتيادية، لايجب أن تكون له نتائج مهمة. مؤكد دون أن يفترضه، أخذها إلى أقصى حد من الواقع الآخر، ليبحث بعد ذلك عن طريقة لإبعادها، "مشكلتك ليست "فيليبى"" كانت قد قالت لها "فلور"، وبالضبط لهذا السبب يجب عليها أن تتخذ قراراتها بنفسها، ولا يقرر لها هو أى شىء، إبعاده عن انضمامها.

فى أى شىء افكر؟ تساءلت فجأة، مرتعبة من نفسها، أى انضمام؟ هى فقط تريد أن تحصل على معلومات أفضل، قالت لنفسها، دون أن تتمكن من خداع نفسها بالكامل.

واصل "فيليبى" نومه، و"لافينيا" التى غابت فى افكارها كانت تنظر إلى شجرة البرتقال التى يهزها الريح، ويواصل الليل طريقه. وفى قلب الدمية، تجذب الأوراق حضورها. وتطفو على مناخ البيت.

***

نظرت إلىّ، شعرت فى عينيها بقوة المعركة الدائرة فى رئتيها وأحشائها، ويهزنى الريح من اتجاه إلى آخر، ستمطر قريبًا، وبدأت الأرض تطلق ذكرى رائحة المطر: تنادى "كيوتى ـ تلالوك" بالماء الذى تحتفظ به.

أفكر أنه ربما كان أجدادى القدماء الذين هربوا من "تيكوميجا" و"ماجواتيجا" تمكنوا من إسكان هذه الوديان، ظلوا فى الأرض، فى ثمارها وأشجارها طوال زمن حياتى، ربما كان بعضهم منْ زرع فى دمى الصدى، ربما بعضهم عاش فىّ، ودفعنى إلى ترك بيتى، وحملنى إلى الجبال للقتال إلى جانب "يارنثى" .

إن الحياة لها طرقها فى تجديد نفسها .

- ٩ -

فى اليوم التالى، استيقظت "لافينيا" على حرارة يوم السبت، سرعان ما ستمطر، مشتاقة إلى برودة الفصل الممطر، والصباحات الرقيقة، وسكينة الأيام الضبابية، لم تجد "فيليبى"، وجدت مذكرة صغيرة على طاولة المساء: "لم أرغب فى إيقاظك، لدى عمل، سأحاول العودة فى المساء، قبلاتى، "فيليبى"". تكاد لاتتذكر إنها قد أخذته إلى السرير. فهو لم يستيقظ سوى لخلع حذائه. نام إلى جوارها كزوجين أصابهما الملل.

تمطت ممدة ساقيها فى الجانب البارد من الشراشف، وقعت عيناها على الدمية فى أعلى الدولاب: عينان زرقاوان مستديرتان، وأنف أجعد، وضفائر داكنة، الدمية الوحيدة، التى نجت من التدمير الذاتى خلال ممارسة الطفولة للحب الأمومى، تعكس عيناها الزجاجيتان النافذة التى تمد عليها شجرة البرتقال أفرعها، منحنية باتجاهها، وتلمع باستهتار.

يجب عليها آن تقرأ الأوراق، فكرت "لافينيا"، هذا الصباح لن يكون هناك إفطار مع "سارا"، ستبقى فى بيتها للقراءة.

هاتفت صديقتها لتقول لها إن عليها أن تقوم بعمل عاجل، كذبت مرة أخرى برباطة جأش، قبلت "سارا" اعتذارها.

دون أن تستحم، وبرفقة كوب من عصير البرتقال، والقهوة، وقطعة خبز، اضطجعت فى السرير، خلعت رأس الدمية وأخرجت الأوراق.

كانت الساعة تشير إلى الثانية وخمس عشرة مساء، عندما كانت تنهى آخر الأوراق، على السرير، كانت الأوراق مفروشة كحشرات بيضاء وسوداء، مطبوعات سرية مطبوعة على طابعة غير متناسقة، برسوم بدائية من الاستنسل.

أغلقت عينيها وأسندت رأسها إلى الحائط.

هل من الشرعى الحلم بهذه الطريقة؟ تساءلت، إعادة خلق العالم، وإقامته من لا شىء؟ الأسوأ، فكرت، الأسوأ هو البدء من لا شىء، إعادة بنائه بداية من الصندوق الذى تُلقى فيه القمامة، والأرض المبتذلة، والحزينة التى لا تُقبل فيها البقايا والزوائد؟ سيكون مقبولاً، ومبررًا، أن يوجد فى العالم أشخاص لديهم القدرة على الخلق من جديد بكل حزم، ويمزقون الحزن إلى مقاطع صغيرة، ويرسمون الأمل نقطة بعد أخرى، كما فى برنامج الحركة، الذى يتحدث بكل ثقة عن كل الأشياء المستحيلة التى يجب تحقيقها: الأمية، والصحة المجانية الكريمة للجميع، والمساكن والإصلاح الزراعى (الواقعى وليس مثل برنامج الجنرال الأكبر

التليفزيونى)، وتحرير المرأة (و"فيليبى"؟، فكرت، والرجال الذين يفكرون مثله، ثوار ولكنهم يفكرون بشكل ذكورى؟)، والقضاء على الفساد، والقضاء على الدكتاتورية... القضاء على كل شىء، كما فى حالة إضاءة أنوار الصالة لنصل إلى نهاية فيلم ردىء. هل هذا ما يريدون، إضاءة الأنوار، فكرت، ويقولون إنه "القضاء على الظلام، والخروج من ليل الدكتاتورية الطويل"، إضاءة الأنوار وليس هذا فقط، بل أنهار اللبن والعسل ـ أعجبتها اللغة الإنجيلية ـ ويوتوبيا عالم أفضل، "دون كيخوتى" يتجول من جديد محاربًا الطواحين، وقواعد "دون كيخوتى" الجديدة هى اللوائح، والواجبات التى لا حصر لها، والحقوق القليلة... ومن مزايا الرجل الجديد أن يكون كريمًا وأبويا، وانتقاديًا ومسئولاً، مدافعًا عن الحب، وقادرًا على التماهى مع من يعانون. فكرت "لافينيا"، إنه المسيح المعاصر، على استعداد للصلب لنشر الخير الجديد... لكنهم غير مستعدين لقبول الخطأ فيما بينهم: هناك عقاب كامل ضد الخونة، يصل إلى حد الإعدام رميًا بالرصاص (تُرى هل ينفذون هذا البرنامج حقيقة؟، تساءلت، وهى جالسة فى السرير، تشاهد دون أن ترى رأس الدمية، والعينين الزرقاوين المستديرتين المفتوحتين برموش سوداء جدًا).

لكن يمكننا أن ننسى الشعور بحزن وأمل المجموع، فكرت، هنا فى بيتها، بالوسائد والشجيرات والموسيقى، فى المرقص مع الأصدقاء، وفى السرير مع

"فيليبى"، وغدًا فى المكتب ذى الهواء المكيف. كثيرون يفعلون ذلك، كل أصدقائها يفعلون ذلك، فالفقر الجماعى لا يقلل من لمعان الأضواء الزجاجية للنادى والحياة المرفهة والرقيقة التى تعيشها "سارا"، والحياة الاجتماعية التى لا تتوقف لأبويها.

يمكنها هى أن تختار الحياة فى عالم مواز كالذى وُلدت فيه، ولا ترى العالم الآخر إلا من خلال المرور عليه، من خلال السيارة، ويحمّر وجهها خجلاً من الأحياء الخشبية والأرضية الطينية ومشاهدة سحب الأفق الجميلة، وسفوح البركان على ضفة البحيرة. كثير من الناس يتخيلونها ليتجاهلوا الفقر بقبولهم الظلم كقانون للحياة.

وقد كانت الأشياء دائمًا على هذا النحو، من يجرؤ على الحلم بتغيير كل هذا؟ لماذا التفكير فى أن هذه التطلعات المكتوبة بعناية (الطابعة تعمل فى منتصف الليل تحت خطر الاعتقال) يمكنها أن تغير واقع الحال ـ الطبيعى كما تقول "سارا"ـ للأشياء.

والى متى ستظل تجادل نفسها؟ تساءلت "لافينيا"، من الأفضل القبول بأنها لا تستطيع أن تترك الرومانتيكية تتغلب عليها، وحقيقة أنها هى أيضًا تحب الحلم، كانت تفعل ذلك منذ طفولتها، منذ أن قرأت "جوليو فيرنيت"، ومنْ لم يفعل ذلك؟ ومنْ لم يحلم بعالم أفضل؟ كان من المنطقى أن تتخيل نفسها "رفيقة"، أن ترى نفسها محاطة بتلك الكائنات ذات الرؤية الشفافة والعميقة، ثبات الأشجار، لكن لا شىء

من كل هذا له علاقة بالواقع، مع واقعها كطفلة مرفهة، معمارية فاخرة بأهداف لتحقيق الاستقلالية وغرفة مستقلة مثل "فيرجينيا وولف"، يجب أن توقف هذه التساؤلات المستمرة، قالت لنفسها، هذا الذهاب والإياب من "أناها" المنطقى إلى "أناها" المتورم بشوق راعى العدالة، بقايا معارف طفولة غارقة فى القراءة البطولية، أحلام مستحيلة وأجداد دفعوها إلى التحليق.

***

آه، كالشك، فإن وضعها يسمح لها بذلك ـ تفكر أكثر من اللازم، فالعصابة التى على عينيها ثقيلة، فى زمننا، عندما جاءت الحرب، كان على كثير من النساء أن ينتبهن، وأن يعترفن بقصورهن ومر زمن طويل وهن يعملن فى الترفية والرقة.

كنت محظوظة، وإن كانت أمى تغضب، فأنا دائمًا كانت لدى ميول إلى ألعاب الصبيان، القوس والسهام.

هى لم تفهم أن النساء يمكنهن القتال، ومرافقة الرجال.

فى ذلك المساء عندما جاء "يارنثى" برجاله إلى "تاكوثجالبا"، وهو اليوم الذى التقت فيه عيوننا إلى الأبد، عَرفِت هى، عرفت أنه مع طلوع الفجر سأذهب أنا معه للقتال ضد الغزاة.

انتظرتنى إلى جوار الفرن، وعند اقترابى منها، نظرت إلىّ، نظرة حزينة كانت قد ارتسمت على

وجهها منذ أن بدأت أخبار القتال مع الإسبان تقترب منا كثيرًا .

كانت يداها القويتين تطرقان عجينة الذرة، وتمنحها الشكل الدائرى. وقالت لى: "لقد كنت مع المحاربين" .

وكان صوتها يقول: لقد ارتكبت خطأ، هذا ليس مكان المرأة، لقد أثاروا دمك.

قلت:

- لقد ورثته، من الكاريبى. يقولون إنه يجب علينا أن نثور، ونناضل، وإلا سينتهى كل شىء، فالأجانب سيقتلوننا ويستعمرون أرضنا، والبحيرات، والذهب. سيدمرون ماضينا، وآلهتنا، سيذهب الكثير من رجالنا للقتال. لقد نحينا عداواتنا القديمة جانبًا . علينا أن نتحد فى مواجهة الرجال الشقر، وأنا أيضًا أريد أن أذهب.

ـ قلت لك لا مكان للنساء فى الحرب، لقد كان العالم مبنيًا بحكمة، إن حبلك السرى مدفون هنا تحت رماد الفرن. هذا هو مكانك، وهنا سلطانك.

ـ "يارنثى" ، الزعيم، قال إنه سيأخذنى معه.

قالت أمى:

ـ نعم، شاهدت كيف ينظر إليك فى الساحة، وشاهدتك تنظرين إليه.

غضضت بصرى، لم يعد خافيًا على أمى أى شىء.

قالت:

- مصير المرأة أن تتبع الرجل، هذه ليست لعنة، لو كنت تحبينه، لا بد من إعلان الارتباط مع أبيك، وتقديم النذور. والحصول على مباركة القبيلة.

قلت، راكعة فى الأرض:

- نحن فى حالة حرب، هذا ليس ممكنًا الآن، علينا أن نذهب غدًا مع طلوع الفجر، لا تلعنينى، امنحينى مباركتك.

ـ أنت لا تتبعين غير مشاعرك، يا "إيتشا"، ربما تمنحينى مزيدًا من الأسباب لألعن الإسبان؟

قلت، واقفة:

- ليس أمامنا سوى طريق من اثنين، يا أمى، لعنهم أو قتالهم. يجب أن أذهب، ليس فقط من أجل "يارنشى"، أنا أعرف كيف أستخدم القوس والسهم. لا أحتمل هدوء الأيام الطويلة، انتظار من قد لا يأتى، أشعر فى أعماقى أن مصيرى هو الرحيل.

أذكر أنها مدت يديها، الكفوف البيضاء من عجن الذرة وتدوير الأرغفة. رفعتهما وعادت لتخفضهما، أمالت رأسها رافضة الكلام أكثر من ذلك، أمرتنى أن أركع وأن أطلب المغفرة من "تاماجاستاد" و"ثيبالتومتال"، الآلهة التى خلقتنا، و"كيوتى- تالالوك"، إله المطر، التى كنت منذورة له.

وما زلت أعتقد أننى أراها، قوية كبركان لحظة شروق الفجر، بخطوطها الرقيقة تقف بالباب عكس

الضوء، الفجر الأخير لرحيلى، تودعنى بيد ممدودة: يد كفرع شجرة جاف وقانط.

أن أتركها كان شكى الوحيد، أن أتركها وهى، التى علمتنى كيف أحب.

***

رن جرس التليفون.

قالت "لافينيا" :

ـ أهلا، نعم؟ من المتصل؟

ـ "لافينيتا"؟

ـ نعم، أنا هى.

قالت ذلك، ولكنها لم تتعرف على صوت المتحدث من الطرف الآخر، وإن كان يبدو مألوفًا بشكل غريب.

-"لافينيا"، أنا "سباستيان" .

أعادها الاسم فجأة إلى فوضى السرير، ترى ماذا يريد "سباستيان"؟ وتساءلت، ما الذى حدث؟

-أليس "فيليبى" معك؟

توقف تنفسها، لا، "فيليبى" لم يكن معها، لقد خرج للعمل، وترك لها ورقة يخبرها فيها بذلك.

ـ ذهب إلى العمل؟ اليوم سبت؟ كنت قد تواعدت معه الجمعة لنتناول معًا كأسًا من البيرة منذ ساعة.

أجابها "سباستيان".

هل يمكن أن يترك "فيليبى" "سباستيان" دون أن يفى بموعده معه، فكرت "لافينيا"، فيما كان الخوف يشوشها.

ـ لقد قال لى إنه ذاهب للعمل.

كررت "لافينيا"، دون أن تنتبه إلى محاولات الطرف الآخر فى إخفاء نوعية المكالمة، وبدأ عقلها يتخيل تخمينات رهيبة.

لم تتمكن من فهم ضحكات "سباستيان" عبر التليفون، عن "فيليبى" هذا الذى لا ينصلح حاله، ومن يخطر على باله أن يذهب اليوم للعمل، ألا يكفيه العمل خلال أيام الأسبوع.

بدأت "لافينيا" تفهم أنه يجب عليها أن تسيطر على المحادثة. لكنها لم تتمكن، لم تخرج منها الكلمات بسهولة.

وأخيرًا يبدو أن "سباستيان" انتبه. قال لها:

ـ لا تنزعجى، هيا نقوم بعمل شىء، أنا فى كابينة تليفون عامة بالقرب من المستشفى المركزى. تعالى لتأخذينى وبعدها نتحدث، سأنتظرك هناك خلال عشر دقائق، تذكرى أننى لا أستطيع الانتظار كثيرًا.

كانت ساقا "لافينيا" ترتعشان" عندما وضعت سماعة التليفون، كانت الصور المتتابعة تصيبها بالدوار وتصعد إلى عينيها كالضباب.

لا يجب أن أفكر، قالت "لافينيا" لنفسها، دون أن تستطيع تجنب رؤية الصحيفة وصور الجثث المضرّجة

بالدماء. وقفت سريعًا، ارتدت ملابس اليوم السابق، يجب أن أهدأ، كانت تقول لنفسها، بينما كانت تمرر المشط خلال شعرها، أخذت حقيبة يدها، والمفاتيح وخرجت إلى السيارة.

أدارت المحرك وعندما توقفت محاولاتها لتبدو هادئة، وأسباب التأخير ومدى معوقات المرور، حاولت أن تخفف من التشوش فى عقلها، تذكرت المقطع الخاص بالالتزام بالمواعيد فى اللقاءات السرية. لقد قرأته فى الاحتياطيات الأمنية: هامش الانتظار لايمكن أن يزيد على خمس عشرة دقيقة. و"سباستيان" انتظر ساعة كاملة.

أسرعت فى الشوارع الخالية كالعادة فى مساء السبت، وصوت صدرها المنتظم كان الشيء الوحيد الذى يقطع صمت الخوف.

شاهدت "سباستيان"، وقفا، على الناصية، وتحت إبطه صحيفة ويرتدى قبعة سائق شاحنة، يتحدث بهدوء مع بائعة فاكهة، سمينة، ترتدى مريلة أمامية بيضاء. والرصيف ملىء بمشاة يحملون أشياء محزمة، زيارات للمرضى.

قرّبت السيارة من الرصيف وهتفت: "سباستيان". كان ممنوعًا استخدام آلة التنبيه.

رفع هو رأسه، ودع المرأة ودخل السيارة بتعبير جاد، وحدث تغير فى تعبيرات وجهه.

قال، وهو يستريح فى الكرسى:

ـ لا تفعلى هذا معى مرة أخرى مطلقًا.

ـ ماذا؟

سألت "لافينيا"، مندهشة، نسيت للحظات خوفها على "فيليبى".

ـ أن تناديني بهذا الاسم فى الشارع، وأمام المارة، أنت لا تعرفين إن كان هذا اسمى حقيقة أم لا.

تذكرت الأوراق، الأسماء الحركية، وقتها "سباستيان"، لم يكن اسمه "سباستيان"، ربما كان اسما حركيًا، وربما "فلور" لم يكن اسمها "فلور"، و"فيليبى" لم يكن "فيليبى"... وربما غدًا فى الصحيفة ـ الصورة ـ تكتشف أن "فيليبى" كان اسمه "ارنستو" أو "خوسيه"، كم كان كل هذا غريبًا عليها، إنها لا تصلح لهذا، فكرت، زاد ثقل الأشياء عليها. قالت، راضخة:

ـ آسفة، ولا حتى "فيليبى" اسمه "فيليبى"؟

قال "سباستيان":

ـ نعم "فيليبى" هو "فيليبى"، إنه اسمه الحقيقى.

لأن هناك من هم "غير المكتشف نشاطهم" وهناك من هم "سريون" كما تعلمت "لافينيا" حديثًا.

سألت "سباستيان" إن كانت تأخذه إلى بيتها، وافق هو، كان يبدو منزعجًا.

سألت "لافينيا":

ـ ترى ماذا تعتقد قد حدث له؟

أجاب "سباستيان":

ـ لا أعرف، لا أعرف، أمر غريب، إن "فيليبى" دائمًا ما يأتى فى موعده. حسن، إنها قاعدة خاصة بنا، دقة المواعيد. ولهذا السبب لا أعرف ماذا يمكن أن يكون قد حدث له، هيا بنا إلى بيتك والانتظار لساعة أخرى، إذا لم يظهر، حينها سأقول لك ما يجب عمله، حاولى أن تحافظى على هدوئك.

بينما كانت "لافينيا" تركز فى القيادة بحرص (يجب التأكد من عدم ارتكاب خطأ حتى لا يوقفنا البوليس بمخالفة سير، فى الحديث بصوت هادئ. كان قد قال لها "سباستيان") وتحاول ألا تشعر بالانزعاج منه، متجمدة، بدأ "سباستيان" يتحدث بصوت هادئ.

كان ضروريًا السيطرة على الخوف، قال، ولا نتركه يسيطر علينا، فهو استطاع أن يعيش بهذه الطريقة طوال سنوات العمل السرى فى الحركة، يجب أن نكون متفائلين، وأن تكون لدينا ثقة، قال لها، وآمل، فهم يعيشون على هذا، مضيفًا، لأنه فهم أنها قد تكون منزعجة. فهو عرف الانتظار المخيف، وأحيانًا، يكون مختبئًا، قال، دون حركة، كان عليه انتظار من ينقله من مكان إلى آخر متنكرًا فى شكل هيبى، أو مرتديًا ملابس طبيب. "كان عليك أن ترينى كيف أبدو ببعض ملابس التنكر"، كان يقول ذلك لإضحاكها. وأضاف، إنه لا يريد أن يقول لها ألا تنزعج، فقط يطلب منها أن تحافظ على الهدوء. فالواحد منا لا يستطيع أن

يتجنب ما يشعر به من أحاسيس، وأكثر من ذلك، كان مهما، خاصة بالنسبة إليهم، ألا يسمحوا لأدوات الدفاع عن النفس بأن تفقدهم أحاسيسهم، وألا تحولهم إلى كائنات آلية وباردة، وألا تسيطر عليهم. إن الخطر والموت لا يجب أن يحولهم إلى كائنات ضعيفة. حتى لو دفعوا ثمنًا غاليًا للحفاظ على المشاعر. لكن من الضرورى عدم الابتعاد من الأحاسيس اليومية، لأن هذا يعنى الابتعاد عن الناس، وعن الشعب.

كانت "لافينيا" تستمع إليه فى صمت، تحدث "سباستيان" كما لو كانت هى واحدة من "الرفيقات". هى لم تكن رفيقة، لا تريد أن تعانى، لا تريد أن يقتلوا "فيليبى"، إذا حدث شىء لـ"فيليبى" ستكرههم، فكرت، تكرهه هو و"فلور" والحركة كلها، لعدم قدرتهم على الحلم، وتقديم حياتهم مجانًا، والتضحية بها كما لو كانت لا تعنى شيئًا بالنسبة إليهم.

كانا يقتربان من البيت، أشار إليها "سباستيان" أن تدور عدة دورات قبل أن تترك السيارة فى الجراج، يجب أن يكونا متأكدين بأنه لم يتبعهما أحد. اتبعت هى تعليماته، كانت تبادل بين التمرد الغاضب ضد التضحية وبين الرغبة فى شعورها واحدة منهم، تمامًا مثلما مر عليها وقت كان "سباستيان" جريحًا فى بيتها. الانتماء.

طوال الطريق، بين السريان والتوقف للتناقضات، كانت تتضرع إلى كل قديسى عمتها "إينيس" أن تعثر على "فيليبى" عند فتحها الباب. والآن، بينما كانت

تضع المفتاح فى المزلاج، أغلقت عينيها، مفكرة أنها عندما تفتحهما سترى "فيليبى" جالسًا فى ممر الحديقة، فى ظلال شجرة البرتقال. لكن باب الحديقة لا يزال مغلقًا، كان البيت غارقًا فى الصمت، تمامًا كما كان عندما خرجت هى، الأشياء الساكنة، لاأحد ينتظر فى الظل.

دخلا، وطلبت من "سباستيان" أن يجلس بينما ذهبت هى إلى الحمّام، لم تكن تريده أن يرى عينيها مغرورقتين بالدموع، كانت تريد أن تهدئ البكاء المحتبس فى صدرها، كانت تشعر بالغضب، لديها رغبة فى الخروج بحثا عن "فيليبى". لولا وجود "سباستيان"، فكرت، ستذهب جريًا فى الطرق العامة، ستذهب إلى كل مكان بحثًا عن "فيليبى".

خرجت من الحمّام بعد أن ألقت بالماء على وجهها، دون أن تسمح لنفسها بالبكاء، فكرت أنها لو بدأت فى البكاء فلن تستطيع التوقف، ستبكى دون توقف، وهذا كان يخجلها، رغم ما قاله "سباستيان" فى العربة.

كانت تخشى أن ترافق الدموع بشتائم، الحكم على رغبتهم فى الانتحار، مرت إلى المطبخ متعللة بالعطش، بحثًا عن كوب ماء.

سمعت صوت "سباستيان" من الصالة:

ـ كوب ماء لى أنا أيضًا، من فضلك.

عادت "لافينيا" بكوبى ماء، ووضعتهما على الطاولة. قال هو:

ـ اجلسى، يجب أن تبذلى جهدًا وأن تهدئى، ربما وقعت مشكلة مع "فيليبى"، هذا التأخير لا يعنى أنه قد مات أو أُعتقل.

وافقت هى على كلامه بهزة من رأسها، وجلست، فكرت أنه إن لم يكن يوجد ما يمكن فعله، ولا أحد يمكنهما أن يهاتفاه، لا أحد لديه علاقات يمكنه أن يقدم أية معلومات عن "فيليبى". قال "سباستيان":

ـ يجب أن تأتى بالراديو، ربما يكون هناك أى خبر.

كان هو عصبيًا أيضًا، فكرت "لافينيا".

وضعت الراديو على طاولة فى الوسط، الإذاعة الوطنية ـ الموجة الرسمية، التى تذيع البيانات الرسمية عن أعمال القمع ـ كانت تذيع برنامجًا عن "موسيقى الجاز"، و"لويس أرمستورنج" ينفخ آلته بأستاذية.

فى الخارج، كانت السيارات تمر من وقت إلى آخر، تقطع الصمت الذى سيطر على كليهما، كانا متكئين على الوسائد التى كانت تستخدمها هى كأريكة.

فكرت "لافينيا" فى أصدقاء لهم علاقات، فتذكرت واحدًا منهم، صديق لأبويها، كان فى كل أعياد الميلاد يرسل إليهم بهدايا ثمينة ومُبالغ فيها: أجهزة راديو مصغرة، وأقلام بساعات. هذا الرجل يمكنه أن يفعل شيئًا، فكرت، له علاقات عمل مع الحكومة، وصديق للجنرال الأكبر، لكن، كيف تفعل ذلك؟ تساءلت، هذا يعنى أن تهاتف أبويها، وأن تشرح

لهما المشكلة. تخلت عن الفكرة، لا تستطيع أن تشرح لهما أى شىء، ستقول أمها: "إنها يجب ألا تفعل أى شىء مع هؤلاء الناس".

و"خوليان"؟، فكرت "لافينيا"، دون أن تتخلى عن اعتقادها، ربما يعرف "خوليان" من يمكنه مساعدتهم، لقد كان "فيليبى" و"خوليان" يحب كل منهما الآخر، كانت هى تشك أيضًا فى أن "خوليان" يعرف السر، عندما زادت مرات خروج "فيليبى" الغريبة، كان يطلبه فى مكتبه.

قال لها "فيليبى"، متحدثًا عن "خوليان" الذى كان يعرفه منذ أيام المراهقة: "إنه يزعجنى أحيانًا". لقد اشتركا معًا فى مغامرة التعرف على أول امرأة فى حياتهما، دخلا، واحدًا بعد الآخر، إلى الغرفة المضاءة فى "المولين رودج"، محل دعارة بأضواء حمراء وأسوار عالية غريبة، تتذكر "لافينيا" أنها نظرت إليه من الطريق العام بحب استطلاع. حكى لها "فيليبى" بحرارة رائحة السجن التى تفوح منه، وكانت المرأة نصف عارية عندما دخل هو، بعد خروج "خوليان". كانت فتاة شابة وجذابة، كما رآها "فيليبى"، ويبدو أنها ابتهجت لرؤيته يخلع بنطلونه، فقد كان عصبيًا، كما لو كانت هى تمتلك قوة مسيطرة قديمة، وتأملته بوجه من يتأمل طفلاً يرسم أول حروفه فى كراسة مليئة بالشخابيط. كان هو يتخيل دائمًا أنه توجد فى حانات الدعارة نساء حزينات، لكن "تيرينثيا" كانت ترسم على وجهها ابتسامة رائعة وكانت تقول إنه فى هذه التجارة

لا بد من أن يكون لديها ميل للفكاهة. فقط عندما كان منبطحًا فوقها، اندفعت شهوته على الفور تقريبًا، فقط نتيجة فكرة وجوده بين فخذى امرأة، وشعوره بالنفق المبلل والساخن الذى يحيط بجنسها كخيوط العنكبوت، وفجأة برزت يد غريبة من رحم "تيرينثيا"، يتذكر "فيليبى" أنه شعر بتقلصاتها، وتحولها إلى الهجوم، كانت تفح بغضب خفى. حكى لها أنها دفعته عنها قائلة: "بما أنك تعرف ما أنت، يجب عليك أن تشعر برجولتك" ويعترف "فيليبى" أنه رغم كونها طريقة محزنة للشعور بالرجولة، فإنه هو "خوليان" خرجا من ذلك المكان معتدين بنفسيهما.

قالت مستديرة نحو "سباستيان"، الذى كان مشغولاً بالبحث عن أخبار فى نشرة الإذاعة.

ـ لدى "فيليبى" صديق بالمكتب وهو "خوليان"، ربما يعرف شيئًا.

قال وهو يعيد المؤشر إلى عزف "لويس ارمسترونج" والإذاعة الوطنية:

ـ ليس من المستحسن أن نثير شكوكًا، إثارة اللغط مبكرًا... لا توجد أى أخبار.

ثم سأل مستديرًا ناحية "لافينيا":

ـ يعزف جيدًا هذا الزنجى، آلته جيدة، هل تحبين الموسيقى؟

كان يحاول التخفيف عنى، فكرت "لافينيا"، فقالت له نعم، إنها تحب الموسيقى.

سأل "سباستيان":

ـ هل شاهدت فى السينما ذلك الفيلم "وودستوك؟

قالت هى:

ـ نعم، شاهدته مع "فيليبى".

ـ آه، إذن كنت أنت... لقد حكى لى "فيليبى" أنه شاهد فتاة وأُعجب بها، كان ذلك منذ نحو الشهرين، أليس كذلك؟ كان يجب أن أتصور ذلك. كم مر من الزمن وأنتما معًا؟

قالت "لافينيا":

ـ قبل الرصاصة بقليل.

ـ هكذا تفيدك رصاصتى لاستخدامها كذكرى؟

ابتسم "سباستيان"، ممسكًا بذراعه الذى أصبح فى صحة جيدة الآن. (كان يرتدى قميصًا بكم طويل يخفى أثر الجرح).

قالت "لافينيا":

-نعم، الأمر كذلك، وأكثر من ذلك، يمكننى القول إن حياتى تتقسم إلى ما قبل وما بعد رصاصتك.

قال "سباستيان":

-إنه لشرف، لكنى كنت مجرد رعب عابر.

قالت "لافينيا" مؤكدة:

ـ لا، لم يكن فقط هذا، منذ تلك اللحظة وأنا أتفحص حياتى، أتشكك...

ـ فى ماذا؟

سأل "سباستيان".

ـ لا أعرف... أنا مشوشة، أكرهكم أحيانًا لشجاعتكم، وأحيانًا أخرى أود أن أكون مثلكم، ما كنت أعتقد أن تمردى يبدو تافهًا. يبدو أن لديكم إصرارًا، وأنكم تبدون واثقين من أنفسكم، والى أين أنتم ذاهبون... ولكن يصيبنى الخوف من الانضمام إليكم، أنا لست كذلك.

ـ كل واحد منا ليس له شكل محدد، كل واحد منا يصنع نفسه، أنا أرى أنك من أكثر الناس قربًا منا ـ قال "سباستيان" بابتسامة اعتبرتها هى ساخرة بعض الشىء ـ لا يهم إن كنت قد تمردت أولا على طريقة حياتك، بالنسبة إلى الكثيرين هذه أول خطوة، فى "فاجواس" لا يمكن أن نغمض أعيننا. مهما حاولنا أن نبذل الكثير من الجهد حتى لا نرى العنف، لأن العنف سيبحث عنك. لكل منا هنا جرعته المؤكدة بحق الانتماء الوطنى. البعض يشكل نفسه أو يتشكل، أو، على أى حال، إذا لم يحدث لنا أى شىء، فإن العنف واقع على آخرين... وهنا يتدخل الوعى. لأن الواحد منا إذا قبل أن يمارسوه على آخرين، سيتحول بشكل واع أم لا إلى شريك.

كان "لويس أرمسترونج" قد أدى عزفًا منفردًا، والعزف الطويل كان قد تمدد بطول الصالة كلها، إنه محق، فكرت "لافينيا"، إنه يتشكك فى مواجهة فعل

واقع بالفعل، وحتى وهى تعتقد أنها تريد أن تواصل التفكير فى انضمامها إليهم أم لا، فإن العنف كان قد وصل إلى بيتها، خدمة منزلية، هدية من الجنرال الأكبر ومن "فيليبى".

***

فى زمن الحرب، لا أحد يعيش فى منطقته منفصلا، فالغزاة ربما يتأخرون فى الوصول، لكنهم فى النهاية سيصلون، كان "يارنثى" يقول هذا، وهذا كنا نقوله نحن فى كل مكان نمر به، كنا نقوله لمن كانوا يعتقدون أنهم لن يصابوا على الإطلاق، آه! ولكن كثيرين لم يكونوا يستمعون إلينا، إن "سباستيان" يتحدث بحكمة. لقد اخترقت كلماته المقاومة المشرعة، أضعفت الجدران التى أقامتها من حولها.

***

قالت "لافينيا":

- لقد زرت "فلور" بالأمس، سلمتنى بعض المواد الإعلامية عن الحركة لأقرأها. لقد قرأتها اليوم.

بدت الدهشة على وجه "سباستيان"، وتساءلت هى إن كان هذا سيتسبب فى مشكلات لـ"فلور". وعنفها "سباستيان":

- هل هذه المرة الأولى التى تقرأين فيها معلومات عن الحركة؟

أجابت "لافينيا":

– نعم.

جرهم الحوار بلا محالة إلى "فيليبى"، والدائرة تنغلق عند "فيليبى"، لم يفهم "سباستيان" كيف أنه لم يضعها على الأقل على علم بأدبيات الحركة، ثم كانت العودة إلى ضفة النهر أمرًا محتومًا.

لم يكن يهمنى فى تلك اللحظة، فكرت "لافينيا"، أن أكون دائمًا ضفة النهر، أن أكون ضفة لقرون وقرون على أن يظهر "فيليبى"، وحتى بررت هذا لنفسها. قالت وهى تنظر إلى الساعة:

– أنا أتفهم حاجته إلى فضاء طبيعى فى حياته.

كانت قد مرت خمس وأربعون دقيقة. كانت تجد صعوبة فى التركيز كلما مر الوقت، لا تركز فى غير عقارب الساعة الحادة.

بدأ "سباستيان" فى الحديث عن شىء من مشكلات الرفاق، لكنه توقف فجأة، رفع رأسه كحيوان يرفع أذنيه، وهى سمعت أيضًا خطوات تقترب، الخطوات التى كانت تعرفها جيدًا وتنتظرها بالليل، لم يتحركا حتى دخل المفتاح فى المزلاج وظهر "فيليبى" فى الصالة سليمًا معافى، كان يرمش، لتعتاد عيناه على الضوء.

نظر إلى "سباستيان" و"لافينيا" دون أن يفهم. وجه سؤاله إلى "سباستيان":

– ماذا تفعل هنا؟

كان لا يرى "لافينيا" كما لو لم تكن موجودة، لم تصدر هى أى صوت، كانت غير قادرة على استعادة نفسها من حضوره المفاجئ.

- أتسألنى ماذا أفعل هنا؟ - قال "سباستيان"، كان بالطبع منزعجًا من نغمة صوت "فيليبى"- عندما لم تظهر فى الموعد المحدد انتظرتك لساعة كاملة، اتصلت بك معتقدًا أنك كنت مع "لافينيا" فلم أعثر عليك فى أى مكان، اعتقدنا أنه قد حدث لك مكروه!.

قال "فيليبى":

- لقد ذهبت أنا فى الموعد المحدد تمامًا، وانتظرتك أيضا، وكنت منزعجًا أيضًا، درت عدة دورات لأعود إلى هنا لأننى فكرت أنه قد حدث لك مكروه.

تناقض كلام الرجلين، كل واحد يشير إلى الاختلاط فى المكان الذى كان عليهما أن يلتقيا فيه. حدد "فيليبى" ناصية الحديقة العامة، فيما حدد "سباستيان" مدخل المستشفى. كانت هى غائبة، غير مرئية، انمحت فى مزيج مشوش من الرغبة فى الضحك والبكاء.

مجرد خلط ويتحول العالم بشكل كامل، هكذا كانت حياتها على حافة الهاوية. شخص ما يختلط عليه الأمر، يؤخر كثيرًا الحال القائم وتبدأ رائحة الموت فى التسلل عبر كل شهقة هواء، لكن "فيليبى" كان حيًا، لن تكون هناك صورة فى الصحيفة. فقط كان الأمر مجرد خلط فى الكلام.

كانا يتحاوران فى أمر الورقة التى أرسلها "سباستيان" من خلال زميل لعب دور الساعى. قال "فيليبى":

– أنا متأكد أنك كتبت ناصية الحديقة العامة، لسوء الحظ أحرقت الورقة.

شيئًا فشيئًا، بدأ الاثنان فى الهدوء، وأخيرًا ضحكا، وتعانقا، قائلين إنه لحسن الحظ أنهما مرا بلحظة خوف وانظر إلى "لافينيا"، كيف يكون حالها المسكينة، احتضنها.

بعد مرور ساعات، بين أركان ذراعى "فيليبى"– النائم بهناء– لم تكن "لافينيا" قادرة على النوم.

بعد الانتظار، وبعد توضيح الخلط الذى وقع إلى حد ما (لأنه لم يتضح تمامًا منْ من الاثنين كان السبب فى فقدان العالم اتزانه)، كان لدى "فيليبى" الوقت لاصطحاب "سباستيان" عند خروجه، وظلت هى وحدها فى البيت. وعندما وجدت نفسها وحيدة فكرت فى أنها تخيلت عدم عودة "فيليبى" فأصابها الرعب من جديد حتى عاد.

مارسا حبًا رقيقًا وبطيئًا بكت هى خلاله من احتمالية موته، هذا المخلوق الذى يحيطها بقبلاته، ومداعباته. وبكت من أجلها هى، من أجل الفتاة المرفهة التى كانتها حتى أشهر قليلة وقد اختفت الآن، بعد أن تركتها مشوشة خاضعة لامرأة لا تزال تبحث عن هويتها، وهدفها، وأمانها. بكت ضعفها فى

مواجهة الحب، أمام عدم تفريق العنف بين الناس، والمسئولية التى لم تعد قادرة عن إبعادها من أن تكون مجرد مواطنة عادية، وبلا مقدمات، بينما تحول جسدها المتعرق إلى الجفاف بفعل هواء الفراق، فى اللحظة الأكثر عمقًا من المواجهة، تضاعف حجم رحمها بالرغبة فى الحصول على ابن، لقد رغبت فيه لأول مرة فى حياتها بقوة نفاد الصبر. رغبت أن تحمل "فيليبى" فى داخلها هى كبذرة تنمو، وتتعدد فى دمها.

ساكنة ولكن دون قدرة على النوم، استحضرت الشعور الحيوانى الذى سيطر عليها، مخضعها لأسبابه، متخيلة صورة ذلك الطفل - أشاهده بوضوح - الذى ظهر فجأة فى مخيلتها، لماذا؟ تساءلت، فالأمومة بالنسبة إليها كان إحساسًا مؤجلاً لمستقبل غير محدد. ومع الاتجاه الذى تتخذه حياتها الآن، والذى يبدو أقل تحديدًا، فإن وجودها يتقدم يومًا بعد يوم، بقفزات، فى الوقت الضائع، فقد كانت صباحًا ومساء مكانًا غير محدد، فالاختفاء والموت احتمالية يومية. فى هذا الوضع، لم يعد هناك بديل عن التخلى عن رغبتها فى الاستمرار. فالطفل لا مكان له فى عدم أمان كهذا، لقد كان تفكيرًا كامنًا واستيقظ داخلها، بينما تحب "فيليبى" لن يكون ممكنًا. لا يجب ولا حتى مجرد التفكير فيه. عليها أن تتخلى عنه، كما تخلت من قبل عن أشياء كثيرة، ومن المؤكد، أنها ستتخلى عنه بينما يكون "فيليبى" تلك الصورة التى تظهر وتختفى، ذلك الضوء الأبدى.

آلمها بطنها، تحول الألم شيئًا فشيئًا إلى غضب، غضب مجهول ينبت فى شكل صورة طفل لن يكون له وجود على الإطلاق.

كم طفل يوجد فى الأثير، فكرت، مرفوضون من الحياة لهذه الأسباب؟ كم منهم فى أمريكا اللاتينية؟ كم منهم فى العالم؟

نظرت حولها محاولة تذكر بداية الواقع. كان "فيليبى" نائمًا بعمق. والضوء القمرى ينفذ عبر النافذة ويرسم ظلالا فى الغرفة المظلمة. فى الخارج، كانت أفرع شجرة البرتقال تتحرك فى الهواء. كانت قد قرأت فى مكان ما أن الرغبة فى الإنجاب تكون أكثر قوة فى زمن الكوارث الطبيعية، عندما يفعل الموت فعله.

هذا يحدث لها، فكرت، لم يكن مبررًا أن تخطر لها الفكرة فى مثل هذه الأوضاع ومع ذلك كانت قد شاهدت صورة الطفل ضاحكًا، وتشعر فى داخلها بالغضب والإحساس ينطلقان فى الهدوء الليلى.

قالت لنفسها، كان "سباستيان" محقًا، لقد أصبحت منغمسة معهم، لمَ نخدع أنفسنا فى صراع داخلى طويل عما كان يجب أو لا يجب، أو عدم التحدث مع "فلور" أو ببساطة إعادة الأوراق إليها كمن يعيد كتابًا إلى صاحبه بعد قراءته؟ لم تعد قادرة على الإحساس بالرغبة فى خداع نفسها بسبب تشوشها، وخوفها، والخداع فى الاعتقاد بأنها لا تزال غير قادرة على الاختيار. الحقيقة أن صوت الموت يشق لياليها،

وعنف الجنرالات الكبار هجم على محيطها كظل خبيث وضخم، ولم يعد ممكنًا الابتعاد عنه: لقد أصبحت الآن تمتلك جرعتها من الغضب، من نصيبها فى العنف، "حقها فى المواطنة"، كما قال "سباستيان".

لقد بدأت الرحلة، قالت لنفسها، وضفة النهر ترتسم فى ضباب الحلم، ونامت إلى جوار "فيليبى".

***

نرفض الإنجاب.

بعد أشهر من القتال الشديد، كان المقاتلون يموتون واحدًا بعد الآخر، وشاهدنا قرانا تنمحى، وتُمنح أراضينا لملاك جدد، وأهلنا يُجبرون على العمل كعبيد لدى المستعمرين. وشاهدنا الشباب المساكين يُفصلون عن أمهاتهم، ويُرسلون للعمل الإجبارى، أو إلى السفن التى لا يعودون منها أبدًا. والمقاتلون الذين يؤسرون كانوا يخضعونهم لتعذيب قاس: تقطعهم الكلاب، ويموتون ممزقين بالخيول.

كان الرجال يهربون من معسكراتنا، ويهربون تحت جنح الظلام، ويخضعون لمصير العبيد الأبدى.

لقد أحرق الإسبان معابدنا، أقاموا نيرانًا كبرى احترقت فيها الرموز المقدسة لتاريخنا: لقد كان إرثنا كشباك من الخروق.

اجبرونا على الانسحاب إلى الأراضى العميقة، المرتفعة والعشبية للشمال، وإلى الكهوف على سفوح

البراكين. وكنا نجرى هناك بحثًا عن رجال يرغبون فى النضال، ونعد الحراب. ونصنع الأقواس والسهام، ونستعيد قوتنا لننطلق إلى المعركة من جديد.

وصلتنى أنا أنباء عن نساء "تاجوثجالبا". لقد قررن عدم مضاجعة رجالهن. لا يرغبن فى إنجاب عبيد للإسبان.

كانت تلك ليلة اكتمال القمر، ليلة الحمل، لقد شعرت به فى اشتعال رحمى، ورقة بشرتى، والرغبة العميقة فى الالتقاء مع "يارنثى".

عاد من الصيد بسحلية كبيرة، بلون أوراق الأشجار الجافة، كانت النار مشتعلة والكهف مضاء بضوء أحمر مشع، اقترب منى بعد تناول العشاء، دغدغ حافة وسطى. رأيت عينيه تشتعلان وينعكس فيهما لهب النار.

أبعدت يده عن وسطى وانزلقت بعيدًا، باتجاه أعماق الكهف. جاء "يارنثى" نحوى معتقدًا أننى أحاول اللعب لإثارة رغبته، قبّلنى وهو يعرف أن قبلاته كانت اللعاب الذى يبلل شفتى، ويسكرنى.

قبلته، وشعت داخلى بصور، مياه البحيرة، ومشاهد رقيقة، وأحلام أكثر من ليلة: طفل مقاتل، متمرد، لا يقبل الخضوع يمتد وجودنا فيه، يشبهنا نحن ـ الاثنين ـ أن يكون بذرتنا التى نترك فيها أجمل نظرات لنا الاثنين.

ابتعدت عنه قبل أن تهزمنى شفتاه.

قلت: "لا، "يارنثى" لا"، وقلت بعدها "لا"، من جديد، وأخبرته بما قررته نساء "تاجوثجاليا"، من قبيلتى: لا يردن أطفالا للمستعمرين، أبناء للعمل فى البناء، والسفن، أبناء للموت ممزقين بالكلاب لو كانوا شجعان ومقاتلين.

نظر إلىّ بعينى من أصابه الجنون، تراجع إلى الخلف، نظر إلىّ وبدأ فى الخروج من الكهف، كان ينظر إلىّ كمن رأى رؤية مرعبة. بعدها خرج هاربًا وحل الصمت. فقط كانت تُسمع أصوات احتراق الأوراق فى النار، التى كانت تموت محترقة.

وبعدها سمعت نباح ذئب، نباح رجلى.

وبعدها عاد مخدوشا بالشوك.

بكينا فى تلك الليلة متعانقين، وقمعنا رغبة جسدينا ملتفين فى حزن شديد.

كنا نرفض الحياة، ونرفض الامتداد، وزرع البذرة.

كم تؤلمنى أرض الجذور فقط بتذكرى له.

لا أعرف إن كانت ستمطر أم أبكى أنا.

- ١٠ -

أمطرت فى "فاجواس"، لقد بدأ الموسم الممطر، شتاء استوائى، يقترب الأسبوع من نهايته. منذ يوم الأحد، كانت "لافينيا" تؤجل قرارها بالذهاب إلى "فلور".

جالسة أمام المكتب، تراقب النافذة الكبيرة الغارقة بالماء. تنزلق قطرات الماء مشكلة أنهارًا صغيرة، تدفع بعضها بعضًا، مشكلة شلالات على الزجاج، فى الشتاء تتلبد السماء فى المساء بالغيوم وتطلق الأمطار الغاضبة. وتستسلم الأرض للذة العواصف. تنبع من الأرض رائحة نفاذة، إعلان عن مواليد مقبلة، تطلق المشاهد الطبيعية تنويعات خضراء، وتهز الأشجار قممها الثقيلة، وشعورها المبتلة، إنه زمن تزاوج الطيور، إنه الزمن الذى تفقد فيه المدينة ملامحها المعتادة وتتعايش مع الطمى، والنمل المجنح، والتسريبات المائية. يهمهم الشيوخ برومانتيكية عظامهم المبتلة وتصبح الأسرة بالشراشف الباردة، فالشراشف باردة وساخنة بعلامات الأجساد.

يمكن التفكير بأننا نعود إلى بداية العالم وأنه سرعان ما تظهر الديناصورات، فكرت "لافينيا"، منشغلة فى تأمل الخضرة الممتدة عبر المشهد.

بداية العالم، الديناصورات، العالم يدور، والمدارات، أجيال تتعاقب، والرجل والمرأة يكتبون التواريخ.

لم تستطع أن تؤجل القضية، فكرت، لقد كانت أكثر إزعاجًا، يؤثر فى عملها، يقلل من قدرتها على التركيز، ليس هناك أسوأ من التردد. كان الخميس، كانت "فلور" قد أعطتها رقم تليفونها فى المستشفى. هاتفتها، اتفقتا على اللقاء بعد العمل. فى المساء، عندما أعلنت ساعة الكاتدرائية البعيدة عن حلول الخامسة، أخذت حقيبة يدها وخرجت لأداء الطقس الأخير.

وقفت فى ربوة طفولتها، محاطة بالضباب والمطر الخفيف، نظرت من أعلى الملمح الأبيض للمدينة، وبحيراتها وبراكينها، كانت هناك وحيدة، واقفة، أبعدت أى تفكير فى العودة إلى الماضى، تنفست ملء رئتيها هواء الجبل الرطب والبارد، وهدوء المشهد المخضر. شاهدت ذلك الخميس الهادئ يغادر وأخيرًا بعد أن هدأت برؤية السماء الملبدة بالسحب، وبنكهة رحم العالم، عبرت الجسر الذى أوصلها إلى الكرسى الهزاز حيث تتأرجح الآن مستمعة إلى الأوراق الرطبة فى صوت "فلور"، كانت تتحدث برقة، وإن كانت تبدو متعبة، بعلامات عميقة حول العينين. العمل فى المستشفى مرهق، قالت، من يحتاجون إلى الرعاية كثيرون والعاملون قليلون جدًا.

كانت "فلور" تُشعرها بالاحترام، يعتبرها "فيليبى" قاسية، يقول إن "سباستيان" يحكى تجربته معها بمقارنتها بالصياد الذى يدفع سكينه داخل المحارة لإخراج اللؤلؤة التى تحتفظ بها داخلها. ناظرة نحوها، تخيلت "لافينيا" داخل المحارة الصدفية. لم يكن سهلاً عليها، فكرت، ذلك العم العاشق لها بعاطفة من نوع عاطفة "لويس كارول" فى حكاية "إليس". لقد ترك فيها جراحًا، وغيرة، بالنسبة لها لم تعتقد أن "فلور" قاسية. وإن كانت محاطة بمناخ مغلق بالقوة الخاصة للأشخاص الذين عانوا ويعرفون أنهم ضعفاء. لكن "لافينيا" كان يمكنها الإحساس برقتها من خلال طريقة كلامها محاولة ألا تخيفها، وهى تقول لها إنهم سيسيرون ببطء. أولا، على "لافينيا" أن تقرأ أكثر، والجدال لا يمكن أن يكون أعمى أو ضعيفًا، قالت لها، تريد منها هى أن تفهم، وأن تكون واعية بأسباب إمكاناتها ـ تلك التى كانت تسميها "لافينيا" أحلام البرنامج ـ كان مطلوبًا أن تتمكن من تحريك الأدوات، تقول "فلور"، لإدراك العالم بطريقة أخرى، وأن تفكك الحقائق التى كانت محيطة بها طوال حياتها، فَهْم خداع بعض الحقائق الكونية وكيف تتكشف بإيجابية أو سلبية طبقًا للمصالح المختلفة.

بعدها انتقلوا إلى التفاصيل العملية، وأشارت إليها "فلور" أن تحتفظ بالأوراق الخاصة بوسائل الأمان. وأضافت:

ـ والآن عليك أن تحفظيها عن ظهر قلب، كدرس مدرسى، قد تشعرين فى البداية أنه مبالغ فيها، وأنها

احتياطات متطرفة وشاذة، لكنها أساسية، ليس فقط من أجل أمنك، بل من أجل أمن الجميع. واليوم يبدأ وقتك فى إحلال "الأنا" مكان "النحن". يجب أن تحافظى على أمن الرفاق الذين يعملون سرًا، مثل "سباستيان" ـ على سبيل المثال ـ ولا تتحدثين مع أى شخص عن أنشطتك. مع أى شخص على الإطلاق لايكون مرتبطًا معك بالعمل فى أنشطة الحركة.

سألت "لافينيا":

ـ ومع "فيليبى"؟

قالت "فلور":

ـ ولا حتى مع "فيليبى".

قالت "لافينيا":

ـ هذا أفضل، أنا لا أريده أن يعلم شيئًا عن قرارى.

قالت "فلور":

ـ أن يعرف بارتباطك أم لا هذا أمر يخصك، ولكن ما يجب أن يعرفه، إن أردت، يمكنك أن تقوليه له.

قالت "لافينيا":

ـ لا أريد.

ابتسمت "فلور".

ـ والآن يجب أن نطلق عليك اسمًا حركيًا. ماذا تحبين أن نناديك؟

قالت "لافينيا" دون تفكير:

- "إينيس".

قالت "فلور":

ـ أحيانًا، لأداء أعمال معينة، نطلق على أنفسنا اسمًا حركيًا آخر، أنت تعرفين أنه يكون بيننا نحن فقط، أو بالنسبة إلى من نريده أن يعرف. لا تنطقيه علنا على الإطلاق.

حكت "لافينيا" لـ"فلور" نادرة نداء "سباستيان" فى الشارع بصوت مرتفع. قالت:

ـ لقد شعرت بأنى غبية جدًا.

قالت "فلور":

ـ ستعتادين، إنها طريقة فى التعلم. وكلما مر الوقت، تتغير الحواس، فالادريالين يعمل لدينا أفضل من أى هرمونات أخرى، وأنت ترين، رغم كل شىء، نرتكب أحيانًا بعض الأخطاء مثل ما حدث يوم السبت مع "سباستيان" و"فيليبى"، وهذا رغم أن الاثنين لديهما خبرة.

واصلت "فلور" الكلام، شارحة، كان يُسمع صوت الريح يلمس أوراق "فواحة الليل"، التى لا تظهر من نافذة الصالة. وكان يراقبهما "بوب ديلون"، مفكرًا، ويسرى هواء ممطر، تشتعل السماء ببرق بعيد، شعرت "لافينيا" بتعب "فلور" التى بقيت صامتة. قالت "لافينيا":

ـ أنت متعبة.

ـ نعم.

قالت "فلور" وهى تبعد خصلة شعر عن وجهها. وقبل أن تودعها على الباب، استدارت "فلور" وعانقتها.

ـ أهلا بك فى النادى، يا "إينيس".

قالت لها، ضاحكة، وأضاء وجهها بالضوء الوضّاح البعيد للبرق.

***

اشعر بدم "لافينيا" ويغزونى اكتمال عصائر شتوية، بطريقة غريبة، إنها من صنعى. لست أنا، هى لست أنا عائدة إلى الحياة، لم أتلبسها كتلك الأرواح التى كانت تخيف أجدادى، لا، لكننا تعايشنا فى الدم ولغة حكايتى، التى هى حكايتها أيضًا، والتى بدأت تغنى فى شرايينها.

لا يزال يسيطر عليها الخوف، ما أزال أسمع فى الليل ألوان خوفها، صور الموت التى تسحرها، ولكنها تنتمى الآن، وتبذل جهدا قويا، وتحاول أن تتغلب على الجذور الخاصة بها. لا تتقلب الآن كشعلة الزيت، ومن الصعب فصل الرماد عن الفرن، فالأيدى تحرس الفرن، وعجن الذرة، وشد أزر المقاتلين.

فى البداية، كان "يارنشى" يريدنى أن أبقى فى المعسكر فى انتظارهم، أمكننى أن أتجنبه باستخدام استراتيجية ضعفى الخاص، فقلت: وإذا جاء الإسبان

إلى هنا؟ ماذا سيكون مصيرى؟ وما الذى سيحدث لى وحيدة فى أوقات الانتظار الطويلة؟

أفضل أن أموت فى المعركة عن أن يغتصبنى رجال الحديد أو الموت ممزقة بالفهود؟

أقنعته، تمكنت من أن يخصصوا لى مكانًا محصنًا فى التشكيل يمكننى من خلاله إطلاق السهام المسمومة.

كنت أصيب الرمى، وفى النهاية، خصصوا لى عملا فى المعركة، وإن كان علىّ بعد ذلك أيضًا أن أطبخ وأمرض الجرحى. وعندما ننسحب إلى كهوف الشمال لاستعادة قوتنا ومواصلة القتال ـ عدة إقطاعيين كانوا ينتشرون إلى جوار الغزاة منحنين كجذوع أشجار فى مجرى نهر جار ـ أرسلنى "يارنثى" إلى المناطق المحيطة لأدخل بيوتها وأتحدث مع الرجال، وأطالبهم بالانضمام إلى الكفاح، قال لى: "لا تأتى بنساء" . أمرنى بذلك رغم أننى غضبت. كان يقول إنه من الصعب على الرجال القتال وهم يفكرون فى النساء والصدور عارية أمام عصى النيران. أنا لم افكر فى هذا الأمر، فهو لم يقل لى أبدًا إنه كان يخاف علىّ فى المعركة. أحزننى معرفة انزعاجه، وأنا كنت أصر أكثر.

مع ذلك فإن مهمتى كانت فشلاً ذريعًا، فالرجال لم يكونوا يثقون فىّ، أكاد لا أنجح سوى فى الحصول على الذرة للطعام حتى نأكل بعض الأرغفة الساخنة فى بعض الأوقات.

كانت النساء تتجمعن من حولى. تسمعن حكاياتى، لديهن رغبة فى معرفة شىء عن الحرب ضد الإسبان. لم تسأل أى منهن إن كان يمكنها الانضمام إلينا. أعتقد أنه لم يخطر لهن أن هذا كان ممكنا. بالنسبة إليهن فأنا كنت حالة شاذة، أنا الساحرة.

حدثتهن عن قرار نساء كثيرات من القبائل برغبتهن فى عدم الإنجاب حتى لا يمنحن الإسبان مزيدًا من الرقيق. كانت عيونهن تتجه نحو الأرض، الفتيات الأكثر شبابًا يضحكن من التفكير فى اعتقادهن أننى كنت أهذى.

كانت أوقاتًا صعبة، كنت أعود إلى الكهوف حزينة، حتى أننى اعتقدت أننى مصنوعة من مادة غريبة لا علاقة لها بالذرة. أو كنت أقول لنفسى ربما كانت أمى تعانى من سحرى وأنا فى رحمها. أو ربما كنت أنا رجلا فى جسد امرأة. ربما كنت نصف رجل ونصف امرأة.

***

انطلقت العاصفة فيما كانت "لافينيا" تقود سيارتها أثناء العودة إلى البيت.عاصفة رعدية تطلق ألسنة بيضاء تمزق السماء. كانت الريح تهز الأشجار وتغطى الليل بالتراب والأوراق المتطايرة، شاهدت بعض الأشخاص يبحثون عن مأوى من المطر. عكسها هى، بعد تطبيق قرارها بالحدث مع "فلور"، كانت تقود

سيارتها بهدوء غريب، غير مبالية بالعاصفة الرعدية، كان المطر يسقط على الاوتومبيل: قطرات متفرقة، ثقيلة وكانت قليلة فى البداية وبعدها ألقى بثقله بشكل فجائى كحجارة تسقط على السطح المعدنى.

منعزلة داخل السيارة، فكرت فى هدوئها، والطمأنينة بعد العاصفة، نقطة النهاية لما كان يشككها، وإحساسها بقرارها الخاص، والنتيجة التى توصلت إليها، أخيرًا، بعد أسابيع من القلق. لم تكن تشعر بقدراتها، وإن لم تعترف بذلك، ستقول إنها أخطأت. كل الأشخاص لهم الحق فى ارتكاب أخطاء.

كيف ستتغير حياتها الآن؟، تساءلت، ما الذى سيحدث، كان سهلاً تخيله، لا يوجد أى من معارفها لتتبادل معه التكهنات المقبلة. كانت وحيدة، ما كان لها أن تقلق "فلور" بتساؤلاتها، ولا حتى أن تفعل ذلك مع "سباستيان"، لا تستطيع أن تواصل إقلاقهم، أو تشعرهم بأنها ساذجة وشجاعة، كان ذلك نوعًا من الألغاز التى يجب أن تحلها دون مساعدة أحد، ترى هل تستطيع مقاومة إغراء أن تقول ذلك لـ"فيليبى"؟، تساءلت، كانت تحب أن يعرف ذلك، أن تشعره بمدى تقصيره؛ لأنه لم يكن هو الذى كان وراء انضمامها، لأنه لم يفكر أنها قادرة على ذلك، كانت قد قالت لها "فلور": "لا تحاولى أن تحولى ذلك إلى نوع من الانتقام"، ونفت هى أن يكون ذلك سببًا لعدم قولها أى شىء لـ"فيليبى". لكن شيئًا من هذا كان وراء ذلك. ما كان يمكنها أن تخدع نفسها. حتى فى أعماقها كانت

تود أن تقول "فلور" و"سباستيان" له ذلك، وأن يدفعاه إلى الإحساس بالخجل.

فى رأيها، إن الرجال المشغولين فى ممارسة الثورة ما يجب أن يكونوا كذلك، ترى هل كان "التشى جيفارا" أن يفعل ذلك؟ ترى هل كان يمكن أن يحبها "التشى؟، تساءلت، بينما كانت تستدير حول الناصية تحت وابل مطر العاصفة الفجائية المثيرة للطين، كان عليها أن تسير ببطء حتى لا تتسبب فى إثارة المياه المتراكمة وتبلل المحرك وتغرز السيارة.

ترى من تهمه حياة "التشى" العاطفية؟ إن التاريخ لا يتوقف أمام هذه الأشياء الصغيرة، لا تهمه الحياة الخاصة للأبطال، ترى هل من النسوية فى شىء الحديث دائمًا عن الحب. ترى لماذا يصبح من الصعب على الرجال الاعتراف بالضرورة والأهمية التاريخية للحب؟، فكرت، بينما كانت ترى عربتى تاكسى تحاولان عدم البقاء فى منتصف الشارع، ويحاول السائقان دفعهما، وإخراج السيارتين من الطين. كانت المدينة قد غرقت فى الماء.

هل يعترف "فيليبى" بعد زمن أنه أخطأ معها، وأنه تصرف بطريقة أنانية، كانت هى معجبة بذكائه، وشرفه، ولا تستطيع ألا تعترف بتخطى مقاومته الذكورية لمنح الحب مكانًا فى حياته، حتى ولو كان ذلك يعنى أنه سيضعه فى ركن التقليدية. كان لديه ملمح موهبة الإغواء والسعادة، جانبه اللطيف، المضىء، والذى كانت تحبه هى. كان محزنًا رؤيته

مسجونًا فى أنسقة وممارسات غير مقبولة تتناقض مع التطور الذى حصل عليه فى جوانب أخرى من حياته، شىء لم يتمكن هو من الدخول فيه ما لم تسمح له هى به.

لكنها لم تكن تريد أن تفكر فيه أكثر من ذلك، لم تفعل ذلك من أجل "فيليبى"، كررت لنفسها، وهى تشاهد أشجار البلوط فى حيها تحت المطر، لم تفعل ذلك من أجل "فيليبى". فهذا الوطن أيضًا وطنها، وحلمت به مختلفًا، كانت تحب ازدهاره وسحبه البيضاء البارزة، وأمطاره الخفيفة، تستحق "فاجواس" حظا أفضل.

لا، لم يكن هذا من أجل "فيليبى". عادت إلى تكراره لنفسها، بينما كانت تصل، وتترك السيارة فى الجراج وتجرى تحت المطر بالشمسية ذات اللون البنفسجى، متجهة نحو الباب.

ـ لماذا أنت صامتة جدا؟

قال لها "فيليب" فى ممر الفناء، كان قد وصل بعد قليل من عودتها، فوجدها مستلقية على "الهاماكا" صامتة وتفكر. هو الآن جالس فى مواجهتها على كرسى القش الأبيض، يراقبها، يداعب بلا اهتمام الأوراق القريبة منه من شجرة البرتقال الممتدة من الفرع الأبيض الفضى المثقل بالمطر.

ـ لا أعرف، أعتقد أننى متعبة.

أجابت هى، كانت منهكة، ولا تزال مشدودة، كانت ترى "فيليبى" من خلف فقاعة زجاجية، بعيدة. قال هو:

- منذ فترة وأنا ألاحظ أنك منشغلة، يبدو أنك لست هنا، عقلك يذهب بعيدًا، يجب أن تقولى لى على الأقل ما الذى يحدث. ربما أستطيع مساعدتك.

- لا أعتقد أن الأمر متعلق بمساعدتى.

قالت هى، كانت تشعر أنها تفضل أن تكون وحيدة، أن تبقى وحيدة للاعتياد على أن اسمها "إينيس" وتفكر إن كانت قد أصابت بقرارها.

قال هو:

- إنه أمر طيب أن نتواصل مع أى إنسان عندما نمر بأزمة.

- لماذا تفكر أننى أمر بأزمة.

سألت هى فى وضع الدفاع، مستديرة فى "الهاماكا"، أزعجها تصرف "فيليبى" الواثق والأبوى.

قال لها هو:

- تبدين كنمرة، أنا لا أتهمك بأى شىء، الأزمة لدينا جميعًا.

- من الصعب أن أفكر أنك مررت بأية أزمة، يبدو أنك تعرف كل شىء منذ ميلادك؟

قالت هى، مادة يدها لتلتقط ورقة من شجرة البرتقال، وتمضغها حتى تشعر بمرارة الورقة، والطعم الحمضى، والرائحة التى تنبعث منها.

ـ لا تكونى ظالمة، لقد كنت معى فى عدة أزمات... أزمة "سباستيان"، وعندما اغتالوا الزملاء.

قالت هى:

ـ هذا هو بالضبط ما أشرت إليه، أنت تمر بأزمة عندما تمر بك أشياء من خارجك لكن فيما يتعلق بمشاعرك يبدو أنك تسيطر على كل شىء.

قال هو ناظرًا إليها بإمعان:

ـ ما يحدث هو أننى أجيد إخفاء مشاعرى، لكنى أستطيع أن أؤكد لك أن لدى صراعاتى الداخلية، وكثيرًا ما كنت أود أن أكون أكثر تواصلا، وأن أشارك الآخرين مواطن ضعفى.

قالت "لافينيا":

– السيئ أن ما يطفو من حولنا هو ذلك الإحساس بالقناعة، ويصبح من الصعب التواصل مع بشر لا يخطئون... أو يتصنعون إيحاء بأنهم كذلك.

اقترب "فيليبى" منحيًا نحوها، ضاحكًا، ودغدغ يدها.

ـ لكنك تعرفين أننى لست كاملا، أليس كذلك؟

ـ لا أحد كذلك، ولهذا السبب أنا يضايقنى هذا، يضايقنى ادعاؤك هذا بأنك واثق دائمًا من كل شىء، يبدو أنك لا تشك أبدًا، دائمًا ما تقدم النصائح، ولا تطلبها أبدًا من أحد.

قالت، متجهمة، كانت تشعر بالحاجة إلى لفت نظره، وإثارته، أن تخرج مشاعرها بأى شكل، وغضبها من عدم القدرة على مشاركته قرارها الخطر.

قال "فيليبى":

ـ قد يكون كذلك، ربما يكون هذا لأننى دائمًا كنت معتمدًا على نفسى، وربما كان هذا نتيجة اعتيادى على الحفاظ على أشياء كثيرة فى السر.

ـ لا أحد يستطيع أن يعتمد على نفسه فقط فى حياته، "فيليبى"، أنت مؤكد تعرف هذا أكثر منى، الآخرون يلعبون دورًا مهمًا جدًا، ويؤثرون فينا، وهناك نماذج نقلدها.

ـ حسن، حقيقة أن لكل منا مرجعيته، بعد كل هذا، كما أشرت بشكل جيد، نحن كائنات اجتماعية، وأنا أشير هنا إلى أن أزمة حياتى كانت دائما نتيجة أحداث، ولكن لم تتح لى الفرص كثيرًا للتأمل فى الوجود. وكنت أتوصل إلى حلول للمشكلات التى كانت تواجهنى بطريقتى... وهى فى معظمها مشكلات عملية.

ـ لكنك لم تتساءل أبدا أو تقلق حول وجودك، ماذا تريد أو من تكون، ماذا تفعل فى الدنيا؟

بقى "فيليبى" صامتًا. كانت تراه "لافينيا" يبذل جهدا ليتذكر، والبحث عن الأسئلة فى ذاكرته. وأخيرًا قال هو:

ـ الحقيقة لا، فالواقع فرض إجاباته تدريجيًا دون طرح أية أسئلة، كنت أعرف من أكون، كنت أعرف

ما أريد دراسته وبعدها، تحت تأثير "اوتى"، وعيت أنه يجب أن أعود وأناضل من أجل تحسين أوضاع الوطن... وهذا هو ما أريد أن أفعله فى هذا العالم. لم يكن الأمر معقدا بالنسبة إلىّ.

فكرت "لافينيا"، من الممكن أن يحدث معى شىء ما، لأن أمامى خيارات، ويمكننى أن أختار. قالت له:

ـ لكن كان يمكنك أن تبقى فى ألمانيا، لم يكن لديك شك فى إن كانت عودتك تستحق التضحية أم لا، وعما إذا كانت هناك إمكانية النضال لتحسين أوضاع الوطن؟ الا تعتقد أنها كانت فكرة رومانتيكية ومثالية؟

ـ كانت الحياة فى ألمانيا سيئة للغاية بالنسبة إلىّ، رغم دراستى للهندسة المعمارية وكل شىء فى حياتى، كان علىّ أن أعمل بستانيًا، فى تلك البلاد لأن التزاحم على العمل صعب. الشىء الوحيد الذى كان يمكنه أن يبقينى فى ألمانيا هو علاقتى بـ"أوتى"، لكنها كانت مقتنعة بعودتى إلى بلادى لعمل شىء أهم من علاقتى بها، وعرفت هناك بعض رفاقى فى الحركة، كانوا يحضرون إلى هناك طلبًا للدعم، والمال والاتصالات السياسية للتعريف بنضالهم. كنت متفقًا مع وجهة نظرهم. لم يكن من الصعب إقناعى، كنت أعرف أوضاع الوطن السيئة من خلال تجربتى الخاصة، لا أعرف إن كان يبدو لك هذا رومانتيكيًا لكن أحد أسباب قناعتي بالنضال نوع من الإيمان يسكن الواحد منا، عندما نقرأ تاريخ نضال "فاجواس"

يشعر الواحد منا بطاقة متراكمة فيه، والقدرة على المقاومة. أن يقنع الواحد منا أنها موجودة فيه، فقط تحتاج لمن يوقظها، وتوجيهها بشكل مناسب.

ـ ألا ترى أن النضال مستحيل تقريبًا؟

ـ لا، بل أراه صعبا فقط، ولكن ليس مستحيلاً، أنا مؤمن تمامًا بأن ما نفعله هو الصحيح وليست هناك من طريقة أخرى.

ـ بالنسبة إلىّ فإن طبيعة الكائن البشرى ليست كريمة. كيف يمكنك أن تقدم حياتك من أجل النضال مجانا؟ ألم تفكر فى حياتك الخاصة أبدًا؟

-لا، لأنه يجب القبول بأن الواحد منا مدفوع بوعيه بأن هذا النضال عادل، وإن كان لدى كل واحد منا احتياجاته الشخصية ـ على سبيل المثال ـ حول ما أشرت إليه بأنه ماذا يفعل الواحد منا بهذا العالم، نعرف أننا لا نضع كل طاقتنا ليأتى يوم ونجلس فيه فى بيت، ونمتلك سيارة، وعمل جيد، وزوجة جميلة ونفكر "والآن ماذا بعد؟". أعتقد أن الوجود ـ فى حد ذاته ـ يفرض علينا مسئولية ما عن المستقبل، لمن يأتون من بعدنا، إن كنا قادرين على تصنيع طائرات وغواصات ومركبات فضائية، يجب أن نكون قادرين على تحويل العالم المحيط بنا بطريقة تمكننا جميعًا من حياة كريمة على الأقل. لا يمكن القبول بأنه فى عصر التكنولوجيا هذا يوجد بشر يموتون جوعًا، وإنهم لم يشاهدوا طبيبًا فى حياتهم.

قالت "لافينيا" مبادرة:

ـ لكن تحب أن تكون لديك حياة طبيعية، أليس كذلك؟ ألم تقل لى قبل أيام أنك تحسد الناس متوسطى الذكاء الذين لا هم لهم فى حياتهم سوى الوصول إلى بيوتهم والجلوس أمام التليفزيون؟

ـ نعم، أشعر أحيانًا أنه ليس طبيعيًا تلك الطريقة فى الحياة التى يحيط بها الموت، والتآمر، والحقيقة أنه لا يجب أن تكون الحياة على هذا النحو، لا يجب أن يُحكم علينا بالموت أو نخاطر بموتنا حتى نقضى على الفقر، ولا تكون هناك دكتاتورية، وما هو غير طبيعى أن تكون هذه الأشياء موجودة، ولكن بما أنها موجودة، فليس هناك من طريقة سوى التحول إلى العنف، لكن الحياة مغتصبة بشكل متواصل. لانتخذ هذه القرارات؛ لأننا نحب الموت فقط أو الموت قبل أن يحين زمنه.

ـ وبالتالى ستقول لى إن فكرة "الحياة العادية" لاتستميلك؟

ـ أنا لا أقول هذا، أحيانًا، بالتناقض مع ما كنت أقوله لك، أحب أن أحلم بألا يزعجنى أى شىء، فأنا إنسان عادى، لدى عمل وحياة مؤمنة، وأريد أن أصل إلى سن الشيخوخة محاطًا بالأحفاد... ولكن ما أن نخرج إلى الشارع، وننظر من حولنا ونعرف أن هذا الحلم يمكن أن يكون ممكنًا فقط لو لم نكن نملك مشاعر، لا أعتقد أن أحدًا يمتلك الحد الأدنى من الإنسانية يمكنه أن يستمتع برؤيته لمئات الأطفال

الجوعى، الذين يمدون أيديهم من حوله، والناس التى تفعل ذلك مقتنعة بأنهم لا يستطيعون فعل أى شىء، وأنه من "الطبيعى" أن يكون هناك أطفال جوعى. ويقبلون هذا النوع من العنف ولا يستطيعون فهم أننا نحن نجد أنفسنا مجبرين على اللجوء إلى السلاح، لأننا لا نقبل هذا، وإننا لا نعتبره أمرًا طبيعيًا.

قالت "لافينيا":

- لكن، بالعودة إلى الحياة الطبيعية، ألا تعتقد أنك بحثت عن طريقة لتستمتع بكلا العالمين؟ تعيش معى حياة طبيعية ومع رفاقك يمكن الإحساس بإشباع رغبتك فى فعل شىء خاص.

قال "فيليبى"، مفاجأ بهذا السؤال:

- لا أرى لماذا يكون هذا غير مقبول، إن كان من حسن حظى أنى تعرفت عليك وأن أقيم علاقة معك، لا أرى سببًا فى رفضى لهذا. ولكن هذا لا يعنى أن لدى ميولا مازوكية. فنحن جميعًا كائنات طبيعية نحب الحياة، ولنا الحق فى أن نمارس الحب، وأن نكون محبوبين... فى النهاية، أنا لا أفهم جيدًا إلى أى شىء تشيرين.

قالت "لافينيا":

ـ ربما يجب أن أعيد طرح السؤال بشكل مغاير، وإنه من الأفضل أن أسألك إذا لم يكن هذا يزعجك، أن أقارن أنا التى تشاركك حياتك، أن أكون أنا إحدى هؤلاء الأشخاص العاديين الذى يستمتعون بوجود الأطفال الجوعى.

ـ لـكن أنـا لا أفـكـر أنك من ذلك الـنـوع من الأشخاص.

قال، مبينا تعبيرًا عن التشوش الذى يرغب فى الفهم دون السير وراء كلمات "لافينيا".

ـ أنا أعتقد أنك كرفيقة تشاركينى مشاعرى... ونحن تحدثنا عن ذلك مرات عديدة منذ أن تعرفنا...

قالت هى:

ـ ربما تشارك مشاعرك بطريقة ما، لكنها مشاركة سلبية تماما، ألا يزعجك هذا؟

إن لم أتذكر جيدًا، فى المرة التى جئت بها بـ"سباستيان" جريحًا، قلت لى إنك تفهمينا ولكنك لاتشاركينا الرأى، وإنك لا تشعرين أنك قادرة، وإنك خائفة، وإنك لست على اتفاق معنا فى "الانتحار البطولى". هذا ما قلته لنا، إن لم أتذكر جيدًا. ولو كنت أنت تريد أن تغير الواقع، ألم تفكر أن تحاول أن تغيرنى، أليس كذلك؟ بل إنك وجهت اهتمامك بأنك توافقنى، بل وأن تقوى من شعورى بالخوف عندما سمعت آرائى وقلقى حول مفهومى، وعن سلبيتى... ألا تعتقد أن هذا، بشكل غير واع، له علاقة برغبتك فى أن تكون لك منطقة عادية فى حياتك؟

قال ساخرًا:

-أنا أعتقد، يا "لافينيا" أنه كما قال "خواريث"، إن "احترام رغبتى الآخر سلام". أنت إنسانة ذكية ولك الحق فى التفكير كما تفكرين. أنا لا أستطيع أن

أجبرك على الانضمام إلى الحركة، لأنه لن يكون صحيحًا من جانبى، لا أستطيع أن أقول لك ألا تخافى، لأن ما نفعله خطر ومثير للخوف بشكل ما، لاأستطيع أن أخدعك لتنضمى إلينا بدعوتك كما لو كنت أدعوك إلى حفل. فالحركة ليست لعبة... لاأعتقد أن مجرد احترام طريقتنا فى التفكير لها علاقة بهذه الفرضية فى الاعتيادية التى ترينها فىّ.

ـ لكنك تحب أن أنضم إلى الحركة أم لا؟

ـ أى سؤال هذا الذى تطرحينه!.

ـ أنت تنسى أنك قلت لى إننى ضفة نهرك، وإننا لو سبحنا معًا فى النهر، لن تكون هناك ضفة لاستقبالك؟

ـ لكن هذه طريقة للحديث معك حتى لا تشعرى بالإحباط من قرارك... لكى تشعرى، بأنك بشكل من الأشكال يمكنك فعل شىء مفيد.

ـ لا، يا "فيليبى"، لا تقل لى هذا، أنت تعرف أن الأمر ليس على هذا النحو، فى كل مرة كانت تذكر فيها ولو إمكانية بسيطة، وحقيقة أننى قلت إن لدى شكوكًا كثيرة، لانضمامى، فتقوم بكل إعزاز بذكر مسألة ضفة النهر.

ـ لكن هذه مجرد مزحة، يا امرأة، حتى لاتشعرى بالإحباط، لأننى أعرف مدى صعوبة أن تفكرى فى الانضمام.

ـ أنت محق، إنه صعب.

قالت هى، والتزمت صمتًا تأمليًا، وانتظرت أن يحاول "فيليبى" إقناعها للانضمام إلى الحركة، وبتلك الطريقة يمكنه أن يعرف قرارها الأخير، إن كان قد فكر فى أى وقت أن يفعل، وقدمت هى له الفرصة على طبق من الفضة لتحقيق هدفه، وإنها لن تكشف له قرارها حتى يتغلب هو على المقاومة التى تمنعه من عرضه.

لكن "فيليبى" لم ينطق بأى شىء، اقترب منها، واحتضنها، ودغدغ شعرها، وقال إن الوقت متأخر، وإن ساعة الأزواج العاديين لممارسة الحب قد حانت.

احتفظت "لافينيا" بإحباطها. والتناقض الظاهر الآن بين خطابه الجميل وتجنب دعوتها لتغيير العالم. وإنها لن تلجأ بعد الآن إلى هذه الاستراتيجية، فكرت، وشعرت بالإجهاد، وسقطت فى النوم بعد أن رفضت "فيليبى" بقولها له إنها متعبة.

قالت لنفسها، إنها ستكشف له عن قرارها فى اللحظة المناسبة، ستكون سعيدة برؤية الدهشة على وجهه من معرفته لقرارها.

فى أحلامها، طارت "لافينيا" بعيدًا عن "فيليبى".

***

فى صمت، تغزل الحياة اللوحة، أشعر بهمهمة الخيوط تنمو بألوان غريبة، وأن أحداثًا تقترب لاأستطيع أن أتنبأ بها أكثر من ذلك.

- ١١ -

اليوم الإثنين، كانت "لافينيا" تخطط غرفة نوم فاخرة، يتطلب العمل حواشى روتينية، كانت جالسة باسترخاء على المقعد ترسم المسافات، وتبدع ألوانًا وملمسًا، كانت تعتقد أنه غير واقعى أن نعرف أجزاء من الحياة السرية لمدينة ذات وجهين وتتعايش فيها كائنات مرئية فقط لبعض العيون المفتوحة.

التناقضات، والمشاعر اللاواقعية، تصيبها أحيانًا بالسأم.

كانت قد أمضت نهاية الأسبوع مع أصدقائها القدامى، تناولت إفطار السبت مع "سارا" وبالليل مع "أنطونيو" و"المجموعة، ثم ذهبت إلى حفل. شعرت فى بعض الأحيان أنها ليست فى مكانها. انفصلت عن المجموعة متعللة بالذهاب إلى الحمّام، وكانت تشتاق إلى العودة إلى بيتها، غسلت يديها فى الحمّام عدة مرات متأملة الزليج الأبيض ذى الرسوم المعقدة، وأصص الجرونيا على حافة البانيو المحفور فى الأرضية، ومرايا الحوائط. فكرت، بينما كانت تعزف الموسيقى فى الخارج بشكل مزعج، فإن ذلك الواقع

كان يطفو على العالم الواقعى، وأيضًا تشككت إن كانت هى المسجونة فى الحمّام، التى تسافر فى بالون بلا اتجاه بحثًا عن مسوخ ووحوش مرعبة.

كانت "فلورينثيا" قد قالت:

ـ منذ أن اتبعتِ "فيليبى" هذا، وأنت شخصية أخرى.

تساءلت إن كانت تتحول فعلا إلى شخصية أخرى، وإن كانت تتخلى شيئا فشيئا عما كانت، لا شك فى أنها تتغير، المشكلة أن تتنبأ بما ستنتهى إليه، وإن كانت ستعتاد، وفجأة، لتكون ثلاث شخصيات فى وقت واحد، واحدة بالنسبة إلى أصدقائها والعمل، والأخرى للحركة، وثالثة مع "فيليبى"، المشكلة هى معرفة أى من تلك الشخصيات حقيقة تكون هى، على الأقل فى المكتب لا تزال تحصد نجاحات مهنية. وروتين عملها كثيرًا ما كان ينقطع بظهور زوجات الزبائن اللائى يغريها "خوليان" بمحاولة إقناعهن بعدم استيراد الأقمشة والسجاد ذات الذوق السيئ من "ميامى" أو ليتخلين عن النماذج التى تصلح للشاليهات السويسرية ولا تصلح للمناخ الاستوائى.

بالنسبة إلى "لافينيا" فإن تلك السيدات تعنى عملا وصداعًا، لكنها لا تستطيع أن تنكر أن شطحاتهن مسلية وتراكم من الحكايات الشاذة لديها تصلح للمزاح وحكى الحكايات، ويمثلن نماذج تعكس واقع تلك الفترة.

في ذلك اليوم من مايو جاءت إلى المكتب بعض تلك النساء لكسر روتين "لافينيا" إلى الأبد.

أعلنت "مرثيدس" وصولهن، وفتحت الباب، ووقفت أمام المكتب بوجه يعكس الضيق وقالت:

ـ يريدك الرئيس، وأحذرك من أن برفقته مومياتين.

وخرجت دون أى تعليق آخر.

حقيقة كانتا سيدتين هزيلتين، بوجنات حمراء ووجوه مسرحية بأصباغ ثقيلة. وترن الأساور فى أذرعتهن الضامرة التى تنم عن إنهن يبذلن جهدًا لإبداء الإشارات، لترفعان أذرعتهن المثقلة بالذهب، واحدة تتحدث بلا توقف والأخرى توافقها بهز رأسها.

عندما دخلت "لافينيا" نظرتا إليها بتعبير عدم الاهتمام الذى يوجد لدى بعض النسوة فى وجود كائنات من النوع نفسه واللاتى يعتبرنها أقل مكانة منهن. قالت "لافينيا" لنفسها ـ يعتقدن أننى السكرتيرة، فمثل هذا النوع من النساء عدوات، لمن تسرقن أزواجهن، قالت لهن:

ـ صباح الخير.

أجبن على التحية.

استدار "خوليان" نحو الزائرتين وقدمها لهن:

ـ "لافينيا" إنها واحدة من أفضل مهندساتنا المعماريات.

قال معددًا خبراتها، فتغيرت تعبيرات وجوههن بالكامل، ورسمتا على شفاههن ابتسامة واسعة.

وأضاف "خوليان":

-اسمحى لى أن أقدم لك السيدة "فيلا" وشقيقتها الآنسة "مونتيس".

صافحتاها مع الجملة التقليدية "تشرفنا" كانت أيديهن نحيلة وهشة، كن يمددن أيديهن بعاطفية، ولم تستطيعا إخفاء الأساور.

بالنسبة إلى "لافينيا" فإن لقب "فيلا" بدا لها كأنها تعرفه لكنها لم تتمكن من العثور على مكانه فى ذاكرتها.

شرح "خوليان" أن عائلة "فيلا" ترغب فى بناء بيت فى أرض اشترتها حديثًا، تقع على إحدى هضاب جنوب المدينة.

قال، عارضًا تخطيطًا للأرض:

- الأرض هناك غير مستوية، ومع ذلك، بها إمكانات جذابة جدًا.

قالت السيدة "فيلا":

- تطل على منظر جميل، لم أتمكن من تخيل وجود بيت هناك، لكن زوجى يرى مثل رأى حضرتك. كنت أحب أن يأتى معى، ولكنه مشغول جدًا طلب منى أن أرى الإمكانات.

وتنهدت المرأة بخنوع.

ـ يجب أن تشعرى بالسعادة بأن زوجك يترك لك الحرية، أليس كذلك؟

ابتسمت الآنسة "مونتيس"، وهى تنظر إلى "لافينيا" و"خوليان"، محاولة إخفاء ما يمكن تسميته طلب شقيقتها.

راقبتهما "لافينيا" باستمتاع، والسيدة "فيلا" الأكثر شبابًا من شقيقتها، ويبدو عليها شكل العانس اللعوب ـ من هاتيك اللائى يطرحن آرائهن دائمًا ويتدخلن فى كل شىء ـ ومن المؤكد أنها التى تتولى تربية الأطفال.

سألت "لافينيا":

ـ كم عدد الأشخاص الذين سيعيشون فى البيت؟

ـ زوجى وأنا، وابنينا وشقيقتى... والخدم بالطبع، لكننا نريد بيتًا كبيرًا، بمساحات كافية.

قالت الملونة الآنسة "مونتيس":

ـ الجنرال "فيلا" يحب الحياة الاجتماعية.

الجنرال "فيلا"؟ قالت "لافينيا" لنفسها، لهذا السبب كان هذا الاسم معروفًا لديها، إنه رئيس هيئة الأركان حديث الترقية، كانت الصحيفة قد أبرزت وفاءه اللامحدود للجنرال الأكبر، قبل أن تتم ترقيته كان رئيسًا للبوليس، وأبدى للجنرال الأكبر أنه من أكبر الأوفياء له قبل ترقيته فى السلم العسكرى، ليسمح له بالحصول على مكاسب كبرى من تجارة لوحات السيارات، ومخالفات المرور وتصاريح القيادة.

والآن عليها أن تصمم بيته! والآن فقط!

قالت السيدة "فيلا":

ـ رأينا الحاجة إلى وجود عدة صالات، وعدة غرف طعام والغرف الملحقة بها، ونريد حمّام سباحة أيضا للأطفال، ومنطقة للألعاب... إضافة إلى أن زوجى يريد مساحة للعب البلياردو.

واصلت "لافينيا" طرح الأسئلة، وتتأملهما الآن بشىء من حب الاستطلاع، وتتناقض الشقيقتان فى تعديد ما يجب أن يكون عليه البيت. ولم تتأخرا كثيرًا فى فتح حقائب اليد وإخراج مقتطعات من مجلات، وإبداء رغبتهن فى البناء بمواد مستوردة؛ لأنه لا توجد فى "فاجواس" تلك المواد التى ترضى مطالبهن، مالت "لافينيا" على الطاولة لترى مقتطفات الشقيقتين، التى لم تكن سوى بيت "راكيل ولش" الصيفى، وليست كوخ "ارسولا اندريوز".

يظهر الفنان معتمدًا على أثاث ناصع البياض فى غرفة النوم؛ حيث يوجد سرير مستدير مغطى بقماش أملس. وذكرت السيدة "فيلا" حلمها فى أن يكون لها بانيو بيضاوى وتيارات مياه جاكوزى، وشرحت الآنسة "مونتيس" هواية الابن المراهق للجنرال "فيلا" فى اقتناء الطائرات، والطيور وكل شىء يطير. وقالت إن الجنرال "فيلا" يريد توجيه الفتى، وتوجيه هوايته لكى يصبح طيارًا".

قالت السيدة "فيلا":

ـ زوجى منزعج من الطفل المشتت، نحن نعتقد أن غرفته يمكن أن تكون مرسومة بموتيفات طائرات حربية.

بعدها ذكرتا نافورات الحديقة، ومرتفعات صخرية تجرى بينها المياه، وجدران مغطاة بالمرايا فى الحمّام...

كانت "لافينيا" و"خوليان" يتبادلان النظرات من وقت إلى آخر فى محاولة لمتابعة تكاثر طلبات الشقيقتين.

كانا يعرفان أنه مكلف، أوضحت السيدة "فيلا"، لكن التكاليف لا أهمية لها، لأن الجنرال عمل بجهد طوال حياته، ويستحق ذلك، إضافة إلى أن البيت سيكون إرثًا لأبنائهما.

وأخيرًا وعدهما "خوليان" بترحيب وابتسامة، باللقاء الأسبوع التالى. ليتناقشا حول تخطيط أولى ويواصلون النقاش.

ذهبت المرأتان مخلفتين رنين أساورهن.

ألقت "لافينيا" بنفسها على أريكة مكتب "خوليان". وحديث المرأتين وملابسهما كحديثى الثراء، تركتها فى حال اندهاش، فى زمن آخر ما كان يمكنها أن تحصل على مشاعر لا تكون مهنية مجردة، لكن الآن بعد انضمامها إلى الحركة، تساءلت أليست هذه الفرصة للقيام بما يمليه عليها وعيها حديث الاكتشاف.

قال "خوليان"، مغلقًا الباب:

- الجنرال "فيلا" لا أكثر ولا أقل.

قالت "لافينيا" من على الأريكة:

- مدهش.

قال "خوليان":

- إنهم لا يعرفون ماذا يمكنهم أن يفعلوا بالمال.

قالت "لافينيا" مستكشفة:

- وهل سنعمل من أجلهم؟ هل سنقبل هذا المال سيئ المصدر؟

- لا تكونى رومانتيكية - أجاب "خوليان"، بينما كان يلف تخطيطات الأرض - أكثر هذا المال الذى نحصل عليه مصدره مشبوه، والفارق الوحيد فى هذا أنه يبدو أكثر وضوحًا، إضافة إلى أن الجنرال الأكبر قرر أن يكسب المقربون منه أموالا أكثر حتى يشبعوا ويدافعوا عنه، أنا أفكر على هذا النحو، مواجهة رفض وتمرد الناس بشكل أفضل، من المحتمل أنه بعد هذا العمل، تأتينا مشروعات أخرى.

سألت "لافينيا" وهى لا تزال لم تقرر موقفها بعد:

- إذا أنت على استعداد لانتهاز الفرصة؟

قال "خوليان":

- لا تتحولى الآن إلى مدافعة عن الأخلاق الحميدة، إذا كانوا يريدون تبديد أموالهم، فلنساعدهم على ذلك، على الأقل علينا أن نحصل عليها نحن،

نحن الأكثر شرفًا، فى هذه الحالة لن أطلب منك أن تقنعيهم بالتخلى عن مطالبهم ولا إصلاح فساد الذوق. لا تنزعجى.

قالت "لافينيا" معتدلة فى مكانها:

ـ ليس هذا ما يزعجنى، أنا لا أعرف إن كانت لدىّ الرغبة فى مساعدتهم بطرق أخرى لتبديد الأموال.

ـ الأموال سيجرى تبديدها على أية حال، وإن لم نفعلها نحن هناك من هم على استعداد للقيام بذلك، لن نمنعهم من التبديد، إضافة إلى أن المبادئ لا مكان لها فى مجال الأعمال.

ـ الفكرة لا تريحنى، أليس من الأفضل أن توكل هذه العملية لمهندس آخر؟

سألت "لافينيا" وهى تقف للخروج، وفكرت أن المبادئ بدأت تشغلها.

قال "خوليان" ناظرًا إليها بحدة:

ـ لا، يا "لافينيا"، لا أستطيع أن أكلف مهندسًا آخر، ليس هناك من هو أفضل منك لهذا العمل، لو أننا اتبعنا المبادئ، يصبح من الأفضل أن نظل فى بيوتنا.

قالت "لافينيا"، لاجئة إلى طريقة أخف وطأة:

ـ ألم تفكر فى أنهم قد لا يرغبون فى أن أقوم أنا بهذا العمل، وإنهم يجب أن يعرفوا أن اسمى

معروف فى الجانب الأخضر المعارض... ولا يمكن أن يكونوا فى حاجة أكثر معارضة من الآن...

ـ قال "خوليان":

ـ بالعكس، سيكونون ممنونين، هؤلاء الناس يسعدون بالتعامل مع الأسماء الأرستقراطية. ولا يهمهم إن كانت معارضة أم لا، إن حلمهم أن يصبحوا مثلكم، والحقيقة، وإن كنت لا أريد أن أزعجك، فالمعارضة الوحيدة المحترمة بالنسبة إليهم هم رجال العصابات...

فتح "خوليان" ملفًا على مكتبه وبدأ فى تمرير بعض الأوراق معلنًا بذلك نهاية الحوار، أخذت "لافينيا" دفتر مذكراتها واستعدت للمغادرة.

كانت تمسك مقبض الباب عندما رفع "خوليان" رأسه.

ـ أنا شخصيًا سوف أشرف على هذا المشروع، سنعمل معا أنت وأنا، لأن "فيليبى" لديه الكثير من المشروعات تحت إشرافه.

يعرف "خوليان" موضوع "فيليبى"، فكرت هى، ولا يريد أن يجبره على الدخول فى علاقة مع الجنرال "فيلا"، ربما يعرف أنه سيرفض الدخول فيه، وعندما دخلت إلى مربعها، رفعت "لافينيا" سماعة التليفون وطلبت رقم "فيليبى"، لم تكن تريد أن تخاطر بأن يراها "خوليان"، وهى تدخل إلى مكتبه ويعتقد أنها ليست محل ثقة.

ـ "فيليبى".

ـ نعم.

ـ أنا "لافينيا".

قال هو بلهجة غير حميمية، ومنشغلة:

ـ أعرف صوتك.

ـ لقد انتهيت حالا من اجتماع مع زوجة الجنرال "فيلا"، إنهم يكلفوننا بتصميم بيتهم، ويريد "خوليان" أن أقوم أنا بهذه المهمة.

صمت.

ـ اسمع يا "فيليبى"، أنا أعتقد أنه لا يجب أن أقوم أنا بهذا العمل.

صمت.

قال الصوت من الجانب الآخر:

ـ أنا أفكر، يجب أن تقومى بذلك، ورأيى النهائى هو نعم.

احتدت النغمة مع الجملة الأخيرة.

ـ لكن...

قال:

ـ لماذا لا نتحدث عن هذا فيما بعد.

وضعت "لافينيا" سماعة التليفون وتأملت المشهد البعيد. كانت لديها رغبة فى أن تدخل إلى مكتب

"خوليان" وتخبره أنها غير مستعدة لتصميم البيت، وتخيلت رد فعل المهندسين المعماريين الآخرين، والرسامين، وما يمكن أن يُقال فى المكتب، الشباب ينتقدون الحكومة علنا، دون أن يجرءوا على مواجهة الفساد أو المطالب غير الواقعية، وسينتبهون إلى أن الطريق إلى التمرد أصبح مفتوحًا. كانت متأكدة من أن "فيليبى" سوف يفهمها عندما تشرح له الأمر فيما بعد. ولم تكن تشك فى أن "سباستيان" سوف يدعمها. وقفت وهى تشعر بالرضاء عن نفسها، وجلست على كرسى طاولة الرسم وواصلت عملها، مترنمة بصوت خفيض.

سألت "لافينيا" "فيليبى":

ـ لكن لماذا أنت متأكد أنه يجب علىّ أن أقبل. أنا أكاد أكون واثقة من أن "سباستيان" سيقف إلى جانبى.

أجاب "فيليبى":

ـ لا تكونى بلهاء، إن تمردك سينتهى سريعًا، ببساطة سوف يتم تكليف مهندس آخر بالعمل أو تفصلين من العمل، يكفى أنه غريب أن يكلفك "خوليان" بهذا العمل، إنه يعرف ما بيننا.

قالت "لافينيا" ناظرة إليه:

ـ لا أفهم.

كان "فيليبى" قد وصل عندما كانت هى فى السرير. خلع ملابسه ودخل بين الشراشف. واعتذر

عن وصوله متأخرًا. وطلب منها أن تحكى له كل ما يتعلق بالتكليف بتصميم بيت السيدة "فيلا"، وشقيقتها.

فعلت هى ذلك، وشرحت له فكرتها بالاحتجاج برفض القيام بالعمل. وأكد هو إصراره على أهمية قبولها له. وكرر:

ـ ألم تنتبهى إلى أنه رئيس هيئة أركان الجيش.

قالت "لافينيا":

ـ بالطبع انتبهت، ولهذا السبب.

وصرخ أخيرا "فيليبى":

ـ لم تنتبهى إلى أنه يمكنك أن تصلى إلى أكبر قدر من المعلومات عن طريقة حياته، وعاداته، وأسرته؟ ألم تنتبهى إلى أنك سوف تصممين بيته وغرفة نومه وحمّامه...؟

ظلت "لافينيا" صامتة، وبدأت تفهم.

طرأت على ذهنها صور كومضات، عمليات اغتيال، "الدو مورو"، قتلى فى غرف نومهم، شعرت بإعياء.

سألت دون أن تعرف كيف تصوغ السؤال بشكل آخر:

ـ هل ستقتلونهم؟

قال "فيليبى":

ـ ليس على هذا النحو، لكن مهم جدا الحصول على معلومات عن هؤلاء الناس، كسب ثقتهم، ألا تفهمين؟

لقد فهمت، لكنه فهم محزن، متداخل مع صور رهيبة. فكرت فى العانس، الأخت المتصالحة.

تخيلت القنبلة تمزقها قطعًا.

قالت "لافينيا":

ـ لقد بدأت أفهم، لقد بدأت أفهم أن تلك المعلومات مفيدة فى التخلص منهم.

ـ "لافينيا"، نحن لا نعتقد أنه موضوع اغتيالات أشخاص، لو كان الأمر على هذا النحو كنا تخلصنا من الجنرال الأكبر، ما نريده نحن هو تغييرات جذرية وليس فقط مجرد تغيير أشخاص.

ـ لكن، حينئذ، فيما تفيد كل هذه المعلومات؟

ـ لأن إحدى القواعد الذهبية للحرب معرفة العدو، كيف يعيش، وكيف يفكر. ما يمكن أن تستخدم فيه هذه المعلومات ليس مهمتك، ما يمكن أن تفعليه لنا هو أن تحصلى على ثقة الأسرة، التمكن من دخول بيتها... الحصول على وثائق.

قالت هى، مستطلعة:

ـ لكن هذا سيكون خطرًا.

قال هو:

– من الممكن، هذا حقيقى، لكنه مهم، سنحميك.

قالت "لافينيا" مركزة نظرها عليه:

ـ عليّ أن أنضم إلى الحركة.

ـ أو تقدمى لى أنا كل المعلومات. لن تقع على عاتقك مسئوليات أكثر من أن تعطينى أنا المعلومات.

ـ لو قلت لك إننى انضممت إلى الحركة؟

ـ لن أصدقك.

ـ من المؤسف أن أخبرك أن هذا قد حدث.

انتظرت "لافينيا" رد فعل "فيليبى"، نظرت إليه، وجدت أنه غير مصدق، صمتا. لم تبعد عنه عينيها.

وأخيرًا، قال "فيليبى":

ـ يؤلمنى أنك أخفيته عنى.

ـ كنت على وشك أن أخبرك به، لم أكن متأكدة عندما.

سأل "فيليبى":

ـ لكن متى تم هذا، متى قررت، وكيف؟

أخبرته "لافينيا" عن تفكيرها، وحواراتها مع "سباستيان" و"فلور".

صرخ "فيليبى":

ـ ولماذا لم تخبرينى بأى شىء؟

قالت "لافينيا":

ـ حاولت، لكنك لم تساعدنى. كان لدى إحساس أنك لا تريدنى أن أشارك، وإنك دائمًا ما تقول لى إننى غير معدة.

وكان على هذا النحو، كما قال هو، الذى بدا عليه الاضطراب، اعتبر أنها لم تنضج بعد للدخول إلى الحركة رسميا، كانت لديها شكوك كثيرة، لم تكن تعرف جيدًا ما تريد.

قبلت "لافينيا" الشكوك، لكن هل فقط الذين ليست لديهم شكوك يمكنهم أن يصبحوا أعضاء فى الحركة؟ سألت، ويبدو أن "فيليبى" هو الوحيد الذى يرى هذا. موقفه يتناقض مع موقف "سباستيان" و"فلور".

قال "فيليبى" رافعًا صوته:

– لأننى أعرفك أكثر من أى شخص آخر!. ألم تقولى لى إنك تعتبريننا انتحاريين، وإنك الآن لم تكونى مرتعبة أمام فكرة تمرير المعلومات عن الجنرال لأن هذا قد يعرض حياته للخطر. كيف ترين أن حياته أهم من حياة الكثير من الرفاق! كيف وهم لا يهتمون بحياتنا!.

قالت "لافينيا":

– هذا هو الذى يفرقنا عنهم، أليس كذلك؟ لأن حياة الناس بالنسبة إلينا ليست رخيصة.

قال "فيليبى":

ـ بالطبع، ولكننا لن نحمى حياة أناس مثل "فيلا".

قالت "لافينيا" محافظة على هدوئها، واللهجة الناعمة:

ـ أعتقد أنك لا تفهم أسباب انزعاجى، ولا حتى فهمتنى أنا. وأتساءل إن كنت قد فكرت فى يوم ما إن كنت أنا "ناضجة" للانضمام إلى الحركة، هذا لايناسبك، تريد الحفاظ على عشك الاعتيادى، ضفة النهر القائمة منذ قرون وقرون، المرأة التى تعمل وفق إرشاداتك دون أن تنمى نفسها. من حسن الحظ، أن "سباستيان" و"فلور" لا يفكران مثلك.

كانت "لافينيا" تفقد هدوءها كلما استمر حديثها، ومن خلال صوتها تبرز الأحاسيس المتراكمة: الليالى التى سهرتها فى انتظاره، ومواقفه الأبوية، والإحساس بالتفوق عليها.

قال هو غاضبًا:

ـ لا يهمنى تفكيرهم فى شىء! يستطيعون التفكير كما يريدون. هم لا يعيشون معك، ليس عليهم أن يحتملوا هوسك كطفلة مدللة! هذا هو أنت: طفلة مدللة تعتقد أنه يمكنها أن تفعل أى شىء، أنت لا ترين ولا حتى حدود إمكانياتك.

قالت "لافينيا" غاضبة:

لم يسألنى أحد أين يمكننى أن أولد؟ هذا ليس ذنبى، ألا تسمعنى؟

ـ هل تريدين أن يسمعنا كل الجيران؟

ـ أنت بدأت الزعيق.

كانت قد انزلقت نحو جانب من السرير، عارية، بسيقانها ممددة على الشراشف، بقيت صامتة، ناظرة إلى قدميها، كانت دائما ما تنظر إلى قدميها بتركيز عندما تكون فى حيرة، كما لو كانت تشاهد نفسها عن بعد، رؤية جزء غريب وبعيد من نفسها، فالأصابع الطويلة تنحف تدريجيًا وتنتهى فى الإصبع الصغير، أقدامها تشبه أقدام أمها... ما الذنب الذى حملته هى عن أمها، عن تلك الأقدام الأرستقراطية... حتى هوسها كطفلة مدللة، قالت لنفسها، الشىء الوحيد الذى لم تكن تحتمله هو ركوب الباص أو التاكسى. كانت تحب أن تكون لها سيارتها الخاصة. لكن من لايحب هذا؟

بعيدًا عن هذا، لم تستطع أن تفكر فى هوس آخر، لا تأكل تقريبًا ولا يهمها أن آكل أى شىء... لم تكن تحب حفلات النادى.

حركت قدميها، مددت الأصابع. تمدد الصمت الحاد فى كليهما كحضور فيزيائى، النمور المتحفزة، عراة على الشراشف، فى انتظار من يطلق الزئير التالى. لم تكن ترغب فى رفع عينيها. لم تكن ترغب فى أن تراه، لن تقول أى شىء آخر، ستنتظر.

قال "فيليبى" خافضا نبرة صوته:

- هل خرست؟

واصلت النظر إلى أصابع قدميها، مفكرة.

- ومَنْ الذى ضمك إلى الحركة، "سباستيان"؟

قالت دون أن ترفع رأسها:

-"فلور".

قال هو:

- بالطبع، كان يجب عليّ أن أتخيله.

الألوان على بعض الأظافر كانت متآكلة بعض الشيء، كان يجب إعادة طلائها.

عاد الصمت من جديد، وفي الخارج، بدأت الريح تهب قوية محركة أفرع شجرة البرتقال التي كانت تجري ظلالها على النافذة وتصنع رسومًا سوداء مرتعشة على الحوائط.

رفعت بصرها قليلا لتنظر إلى أعلى إصبعها الكبير بقليل، كان "فيليبي" ممددًا على السرير، وذراعاه خلف رأسه، ناظرًا إلى السقف بتركيز.

كم من الوقت سيمر عليهما على هذا النحو؟ تساءلت "لافينيا"، كم من الوقت يحتاجه "فيليبي" للاعتراف بخطئه؟ هي لن تفعل أي شيء، فكرت، ليست مجبرة على بدء الحوار.

قال هو، كما لو كان يحدث نفسه:

- هكذا الأمر لقد تم وانتهى؟

قالت هي:

- نعم، ولست على استعداد للعودة فيه. وعلى الأقل الآن.

قال هو:

– أعتقد أنك محقة، لا يجب أن أزعج نفسى، بل على العكس، لكنى لا أستطيع أن أتجنب الانزعاج.

استدار إلى جانب السرير ونظر إليها، مد يده ولمس يدها بحياء. قالت هى:

– كان يجب عليك أن تكون سعيدًا، ألا ترى أنه من الغريب أن تنزعج؟

قال هو:

– كنت أفكر فى هذا، ما يزعجنى ليس قرارك بالانضمام، بل إنك فعلت ذلك دون أن تخبرينى.

– لكنى أخبرتك الآن...

قاطعها هو:

– نعم، نعم، ربما كنت محقة، ربما لم تكن لدى رغبة فى انضمامك، وقد سيطر علىّ الإحساس بالحماية، وعدم الرغبة فى تعريضك للخطر... لكن أليس هذا ما كنت ترددينه كثيرًا، وإننى أحن إلى الحياة الاعتيادية.

نظرت إليه هى دون أن تنطق بشىء.

قال هو:

ـ حسن، أنتِ تكسبين، سأحاول أن أعتاد وأساعدك.

قالت هى، بهدف إثارته:

ـ إذا أنا لدى هوس طفلة مدللة؟

ـ كثير جدًا.

قال هو، رافعًا رأسه قليلا، وجسده ممدد إلى جوار جسدها، ونظرة لعوب فى عينيه التى تتطلع إليها.

خفت حدة الانفعالات. ودغدغ كل منهما الآخر، ولكن التوتر لم يتلاش تمامًا ولكن تم إخفاؤه بالقبلات وكلمات الحب والغيرة.

عضها "فيليبى" فى كتفها، فكرت "لافينيا" بين القبلات واليد بين الساقين، كيف أن "فيليبى" يخرج دائمًا منتصرًا، وكيف أنه سرعان ما يتغير، لقد قال إنه سيساعدها وهى تفضل أن تصدقه، تفضل أن تعلن الهزيمة، وأن تقبل التصالح، وذلك الطريق من التنهدات والحلمات المنتصبة، والأجنحة الطنانة فى أذنيها.

اتفقا على أنها سوف تستطلع رأى "فلور" و"سباستيان" إن كانت تقبل تصميم بيت الجنرال "فيلا"، وإن كانت "مسئولتها" موافقة على ذلك.

- ١٢ -

الأربعاء، لم يكن "سباستيان" و"فلور" متفقين فقط، بل ووجّهاها إلى إبداء اهتمامها بالمشروع، والدخول إلى ذلك المحيط بقدر ما تستطيع، والتعرف على عائلة "فيلا" وكتابة كل ما تستطيع عنها.

قالا: "كل شيء"، لا يجب أن تترك أية تفصيلة مهما تبدو غير ذات أهمية، كانا يفكران تمامًا مثل "فيليبى"، وفى النهاية استطاعا إقناعها ولم تجرؤ هى على الاستمرار فى الرفض.

إضافة إلى أنهما أكدا على ضرورة أن تتواصل مع أصدقائهم، وأعضاء النادى وأن تحضر حفل الرقص المقبل، ولا يجب أن تعزل نفسها، كان أساسيًا أن تكون ظاهرة أمام الجميع، لأنه عندما يستعلم الجنرال "فيلا" عنها لا يجب أن يكون هناك مجال للشك بأنها "اجتماعية" وتمارس هذه الطقوس، وإنها معتادة على الرفقة التى تربت فيها منذ ميلادها.

عجيب، فكرت "لافينيا"، بعد الاجتماع، اعتقدت أن عملها فى الحركة سوف يغير وجودها، لكنها اكتشفت أن عليها لعب دورها الأصلى فى الحياة.

عند عودتها إلى بيتها وجدته قذرًا، كانت رائحته ظاهرة وكذلك الفوضى فيه. لم تصل "لوكريثيا" للقيام بالنظافة، فناجين قهوة الصباح لا تزال على الطاولة والسرير دون ترتيب، وكان المطر قد دخل من النوافذ المشرعة. وعندما أضاءت أنوار الغرفة كانت هناك بقع صغيرة من الماء تلمع على الأرضية. وشجرة البرتقال تتمايل من جانب إلى آخر خادشة النوافذ.

قالت لنفسها:

ـ الله، لقد تبللتِ الآن.

كانت معتادة على الحديث إلى الشجرة. كانت مقتنعة، برؤيتها لها خضراء وعامرة بثمار البرتقال، وإن من قال إنه من الأمور الطيبة الحديث إلى الشجيرات لم يخطئ. على الأقل يبدو أن هذه الشجرة تستجيب لتحيتها.

خلعت حذاءها ووضعت شبشب البيت، ورفعت الفناجين الفارغة، وكوب الماء من جانب السرير وبدأت فى غسل الأطباق فى المطبخ.

ماذا ستفعل مع آل "فيلا"؟ تساءلت، بينما كانت تغسل وتضع الأسفنجة داخل وخارج الأكواب والفناجين، وترى ما الذى حدث مع "لوكريثيا"، فهى لم تتأخر أبدًا، ترى هل يمكن أن تكون مريضة؟

عملت حتى رتبت البيت. فهى لم تكن فى حالة تسمح لها بقبول الفوضى، وترجو ألا تتخلف "لوكريثيا"

فى اليوم التالى، فكرت، ربما كان لديها ما منعها من الحضور.

ولم تأت "لوكريثيا" فى اليوم التالى، ولا الذى بعده.

قال "فيليبى" فى الصباح بالمكتب:

– يجب أن تذهبى لمعرفة ما حدث.

قالت "لافينيا":

– لقد فكرت فى ذلك، سأذهب بعد خروجى من العمل.

كانت تحتفظ فى حقيبة يدها بقطعة الورق التى سجلت فيها "لوكريثيا" العنوان الذى تعيش فيه. كان من الصعب فك طلاسم تلك الحروف البدائية (لم تكد تدرس سوى سنتين فى المدرسة الابتدائية)، لكن "لافينيا" تمكنت من فك شفرة اسم الحى والشارع. فكرت أنها كافية، فالجيران يعرفونها.

عندما اقتربت من الشارع الرئيسى شاهدت من بعيد أكواخ الشوارع غير المتناسقة، والبيوت المبنية بالألواح الخشبية، وظل الكنيسة البعيد مع هبوط المساء.

خرجت من الطريق العام ودخلت فى شوارع غير مسفلتة. أعمدة الإنارة تنتهى مع بداية البيوت، البيوت الفقيرة المتراكمة على بعضها أبوابها مفتوحة ولا تضيئها سوى ما يدخلها من إضاءة الشوارع الضيقة، وتوجد فى الأفنية أشجار الفستق وشجيرات الموز.

دخلت إلى ساحة الكنيسة، المبنى الوحيد محدد المعالم عما حوله، ودخلت عبر الشوارع الخلفية. عند مرورها، كان الأطفال يدققون فيها، كانت العربة تصعد وتهبط على الأرض غير المستوية، وتحيط بها الخنازير والدجاج، من خلال الأبواب يمكن رؤية ما بداخلها من غرف صغيرة وحيدة غير صحية. فى تلك المبانى الصغيرة يعيش حتى عشرة أشخاص من العائلة الواحدة مكدسين. وكثيرًا ما يغتصب الآباء بناتهم المراهقات، ماذا يفعلون ليعيشوا على هذا النحو؟ فكرت، شاعرة بالذنب.

تكاد تكون على بعد كيلومترات قليلة من الأحياء السكنية الراقية المشجرة والمضيئة، يمكن الدخول إلى هذا العالم الريفى، البائس والحزين، تخيلت "لوكريثيا" تسير فى هذه الحوارى دون اهتمام، وتخرج إلى الطريق الرئيسى فجرًا لتستقل الباص: باصات صدئة، مزدحمة بمن يدسون أيديهم بين النسوة ولصوص الحقائب، فكرت من جديد فى ظلم الميلاد، فالموت أكثر ديمقراطية. فى الموت يتساوى الجميع، قبو أو تراب وكل الأشخاص ستتحلل أجسادهم، لكن ماذا تفيد الديمقراطية حينها؟

توقفت أمام مجموعة من الفتيان يتحاورون على الناصية، سألت عن الحارة التى تعيش فيها "لوكريثيا"، كانوا يعرفونها، ، قالوا لها، يجب أن تواصل السير إلى الأمام، إنها فى البيت المجاور للبقالة، فى نهاية الحارة.

لقد اختفى ضوء الشمس تمامًا، كانت هناك امرأة بلون الزيتون وحافية القدمين تصعد منحدرات الحارة بصعوبة دافعة عربة يد محملة بالأخشاب، وعدة أطفال مكومون على الحمولة.

مرت إلى جوارها بالسيارة. نظر الأطفال إليها بدهشة، فكرت "لافينيا" إنه فى تلك الساعة كانت السيارات التى تمر بهذه الحارة قليلة جدًا.

وصلت إلى بيت "لوكريثيا". شاهدت من بعيد المرأة التى تدفع العربة تنظر إليها عندما هبطت من السيارة، شعرت هى بالمرارة، فقد كانت خارج نطاق المكان ببذلتها ذات البنطلون التيلى والحذاء بالكعب العالى، نقرت على الباب.

فتحت لها الباب جزئيًا طفلة فى الثانية عشرة من عمرها تقريبًا. وسألت "لافينيا":

ـ هل تسكن هنا "لوكريثيا فلوريس"؟

قالت الصبية وهى تختبئ وراء الباب، وتنظر باتجاه داخل البيت كمن يبحث عن حماية:

ـ نعم، نعم، تسكن هنا، إنها خالتى.

سألت هى:

ـ هل هى موجودة؟

زعقت الصبية مستديرة نحو الداخل:

ـ خالتى، يبحثون عنك.

انفتح الباب أكثر، وتمكنت "لافينيا" من أن ترى السقف المفتوح على السماء، والأسلاك الكهربائية تتقاطع على الزنك ولمبة واحدة تتطوح مربوطة بعارضة خشبية، وحشيات معلقة، وملقاة على عارضة أخرى. ينزلونها من مكانها ساعة النوم، ويوجد فى الركن كرسى قديم. قال صوت "لوكريثيا":

ـ من يبحث عنى؟

قالت هى عبر الباب:

ـ أنا، "لافينيا" يا "لوكريثيا".

وسمعت:

ـ دعيها تدخل، دعيها تدخل.

انصاعت الصبية وتنحت جانبًا، دخلت "لافينيا" إلى الغرفة الصغيرة التى بدا أنها تستخدم كصالة وغرفة نوم معًا، وخلف ساتر من الخشب وستارة قذرة وممزقة، سمعت "لوكريثيا" تقول لها أن تدخل، تفوح من المكان رائحة خرق قذرة ومنغلقة.

فتحت "لافينيا" الستارة وعثرت على "لوكريثيا" ممددة على سرير من القماش، وتغطى رأسها بمنشفة تنطلق منها رائحة كافور قوية.

قالت المرأة:

ـ آى، يا طفلتى "لافينيا"، يؤلمنى كثيرًا أن تأتى بحثًا عنى، لم أتمكن من الحضور لأنى مريضة...

مرت "لافينيا" ورأت عينيها محمرتين، كانت "لوكريثيا" تبدو شاحبة، وشفتاها زرقاوان بشكل غريب.

سألت:

ـ لكن ماذا بك، يا "لوكريثيا"؟ يبدو عليك أنك فى حالة سيئة للغاية، هل فحصك طبيب؟

قالت باكية:

ـ لا، لم يفحصنى أحد، لا أريد أن يرانى أحد.

قالت للصبية وهى تواصل البكاء:

ـ يا "روسا" هاتى كرسى، هيا.

جلست "لافينيا" فى الكرسى إلى جانبها، الكرسى نفسه الذى شاهدته عند الدخول، وهو الوحيد الموجود فى كل البيت.

قالت، فيما واصلت "لوكريثيا" النشيج:

ـ لكن كيف لا تريدين ألا يراك أحد؟ هيا، دعى البكاء، منذ متى وأنت على هذه الحال؟

المرأة شابة ولكنها شاخت من الفقر، كانت تغطى نفسها بالشراشف فيما كانت تأمر الصبية أن تذهب بحثًا عن أمها.

كررت "لافينيا":

ـ "لوكريثيا"، قولى لى ماذا بك حتى آخذك إلى الدكتور. توقفى عن البكاء، الدكتور يمكنه أن يعالجك، يمكننا أن نذهب إن كنت تريدين...

قالت "لوكريشيا":

ـ آى، يا طفلتى "لافينيا"، حضرتك طيبة جدًا، لكن لا أريد أن يرانى أحد.

قال صوت من خلف "لافينيا":

ـ لا تريد أن يراها أحد وستموت نتيجة هذه الحمى.

استدارت هى وشاهدت إلى جانب الستارة امرأة سمينة ترتدى مريلة: إنها شقيقة "لوكريشيا" وأم الصبية. واصلت المرأة:

ـ قولى لها هى، قولى لها إنه لا يمكن أن تبقى هكذا تبكى فى السرير ومشتعلة بالحمى حتى الموت. إن لم تقولى لها حضرتك، سأقول لها أنا.

ارتفع نشيج "لوكريشيا". وقالت الأخت:

ـ أنا قلت لها ألا تفعل ذلك، ولكن لم تكن هناك طريقة لإقناعها.

وأخيرًا، توقفت "لوكريشيا" عن البكاء للحظات، وحكت لها تفاصيل عملية الإجهاض، لأنه لم يكن يريد طفلاً ـ قالت ـ فقد قال لها الرجل ألا تعتمد عليه وهى لا تريد أن تتوقف عن العمل، وليس لديها من يعتنى به، إضافة إلى أنها تريد أن تدرس. لا تستطيع أن تعتنى بطفل، لا تريد طفلا تتركه وحيدًا، غير معتن به، وإنها فكرت جيدًا، ولم يكن سهلا أن تقرر، ولكن فى النهاية، أشارت إليها صديقة بممرضة تقوم بذلك

مقابل مبلغ زهيد، وآجرت العملية، المشكلة أن النزيف لم يتوقف، لقد أصبحت تفوح برائحة سيئة، تعفن، قالت، وكانت بهذه الحمى... إنه عقاب إلهى، كانت تقول "لوكريثيا"، والآن عليها أن تموت، ولا تريد أن يراها أحد، لو فحصها طبيب سيسألها عمن أجرى لها عملية الإجهاض، وكانت الممرضة قد هددتها بألا تبلغ عنها. لأن الأطباء يعرفون أنه ممنوع، وسيعرفون، وقالت إنه يمكنها أن تسجن لو ذهبت إلى المستشفى.

حاولت "لافينيا" ألا تسقط فريسة رؤية المرأتين بوجوههن المتشنجة، وبكاء "لوكريثيا" يبلل الشراشف، إنه الجهل والخوف، والغرفة سيئة التهوية، ورائحة الكافور، وتطل الصبية من الستارة بوجهها المرتعب. قالت لها الأم، بنفاد صبر، ودافعة الصبية مهددة برفع يدها مما جعلها تخرج جريا:

ـ هيا إلعبى، يا "روسا"، قلت لك أن تخرجى للعب.

يجب أن تفكر ما يمكنها أن تفعله، قالت "لافينيا" لنفسها، لا تريد أن تشعر بالغثيان، والرغبة فى مشاركة "لوكريثيا" البكاء، التى صمتت أخيرًا وبالكاد يصدر عنها نشيج خافت. قالت "لافينيا":

ـ لدى صديقة ممرضة، سأذهب بحثًا عنها.

فكرت، أحضر "فلور"، على الأقل يمكن "فلور" أن تقول لها ماذا تفعل.

وقفت، تغلبت على رائحة الكافور، والحمى، بتوجيه غضبها ضد ما ألهمها الفقر به. قالت "لوكريثيا" وبدأت تبكى من جديد:

ـ شكرًا، يا طفلتى "لافينيا" شكرًا.

عند خروجها إلى الشارع المظلم، أخذت "لافينيا" شهيقًا كبيرًا من الهواء، كان الليل ينام على الألواح الخشبية للبيوت المجاورة، وكانت السماء قد غسلت وجهها بالمطر وبدأت تلمع بالنجوم، ولا يوجد أى ضوء ينافس لمعانها، فيما كانت شقيقة "لوكريثيا" تتكئ على الباب وتملس على شعرها بيدها. قالت للمرأة:

- الآن أعود، سأعود حالاً.

ودخلت السيارة ذات الرائحة الجديدة.

فى الطريق، توقفت "لافينيا" لأنها كانت تبكى، وكانت الدموع فى عينيها تشكل خطوطًا تمحو أضواء السيارات التى تقابلها فى الطريق.

بعد ساعتين، اختفت "فلور" مع "لوكريثيا" خلف باب طوارئ المستشفى، وشاهدتهما من خلف الزجاج تختفيان فى الداخل، سارت "لافينيا" باتجاه صالة الانتظار مجرجرة قدميها.

كان السقف عاليًا، وأضواء النيون متفرقة فى السماء المستوية، لولا رائحة الأدوية والخوف، كان يمكن أن تختلط عليها صالة الانتظار بصالة الكنيسة البروتستانتية، صفوف من المقاعد الخشبية التقليدية

تحتل وسط وجوانب المكان، نساء بأطفال قذرين ومرضى، وأخريات وحيدات، وبضعة رجال، ينتظرون فى صمت، اعتمدت بذراعها على زاوية المقعد وفركت عينيها . كانت تشعر بصداع، وتشنج فى الرقبة.

من حسن الحظ، أن "فلور" سيطرت على الوضع بجديتها المعتادة، لديها أصدقاء بالمستشفى، أطباء معتادون على حالات مثل "لوكريثيا" . كانت "فلور" قد قالت: "هناك مئات من الحالات المشابهة" .

بقيت للحظات مغلقة العينين، آملة أن تتمكن من النعاس لتقليل زمن الانتظار، لكن النوم لم يأت، فتحت عينيها ونظرت عبر الصالون. لاحظت أن الموجودين الآخرين بالصالة يتأملونها . أبعدوا عيونهم عنها عندما رفعت هى عينيها، لكنهم كانوا ينظرون إليها، كانوا يتأملونها كما لو كانت فى مسرح وضوء مركزى مسلط عليها هى.

شعرت بعدم الراحة، وحتى تتلهى نظرت إلى الأرض، مرت بعينيها إلى صفوف الأقدام المواجهة لها، تتراكم القذارة تحت المقاعد، قدما سيدة عجوز تتحركان: كانت سمينة، والأوردة تظهر على الجلد الأسود الخشن. ومقدمة الحذاء مقطوع لاحتواء الأصابع التى لم يكن يكفيها حجم الحذاء . وأظافر الأقدام غير مقلمة وخشنة، ونظرت "لافينيا" إلى قدمى المرأة التى بجانبها، امرأة شابة، تبلغ نحو الثلاثين تقريبا، وترتدى شبشبًا كان فى يوم من الأيام مدهونًا باللون الأبيض، أقدام سمراء، جافة، وعلى

الأظافر طلاء يكاد لونه يكون ترابيًا قديمًا، وإلى جانبها حذاء رجالى كعبه متآكل. والجوارب قصيرة، ومطاطها رقيق. ويظهر قطع من أعلى الجورب، مررت عينيها على صفوف الأقدام التعسة. ورفعت عينيها، كانوا ينظرون إليها، فخفضتهما من جديد، ودخلت أقدام تحت المراقبة من جديد، أقدامها هى ناعمة، بيضاء، تبرز من تحت الحذاء المفتوح ذى الكعوب العالية، حذاء له لون بنى خفيف، جلد إيطالى، والأظافر حمراء. كانت أقدامها جميلة. أرستقراطية. أغلقت عينيها من جديد.

فكرت، هى ألزمت نفسها بالدفاع عن أصحاب الأقدام الخشنة، وأن تكون واحدة منهم، أن تشعر بنفسها بالظلم الواقع عليهم، هؤلاء الناس هم "الشعب" الذى يتحدث عنه برنامج الحركة، ومع ذلك، هناك، إلى جوارهم فى صالة طوارئ المستشفى القذرة والرديئة الإضاءة، كان يفصلها عنهم جحيم، إن صورة الأقدام لا يمكن أن تكون أكثر تعبيرًا عن ذلك، نظراتهم المريبة، لن يقبلوها أبدًا، فكرت "لافينيا"، كيف يمكنهم أن يقبلوا وجودها بينهم فى يوم ما؟ والاعتقاد بأنها تتماهى معهم، ولا يستريبون من بشرتها الرقيقة، الشعر اللامع، والأيدى الرقيقة، وأظافر أقدامها الحمراء؟

أخرجتها "فلور" من تأملاتها، ظهرت مع الطبيب. رجل متوسط العمر، ممتلئ، بوجه طيب الملامح، قالوا لها، إن "لوكريثيا" فى حالة طيبة، كان عليهم أن ينقلوا

لها دمًا، وهذه معجزة، لقد كانت محظوظة بانتقالها إلى المستشفى فى هذا اليوم، لو بعد ذلك بيوم ما كان أى جهد ينقذ حياتها.

دخلت مع "فلور" إلى عنبر أمراض النساء، عنبر "خ" طويل ومقبض، الأسرة متراصة على جانبيه، نساء بوجوه كئيبة تبعنها بأعينهن بينما كانت تسير فى المنتصف باتجاه السرير الذى تنام فيه "لوكريشيا"، قاسوا ملابسها، حقيبة يدها، تأملوها من قمة رأسها إلى قدميها. سارت هى على أطراف أصابعها متمنية أن تبتلعها الأرض، كانت تشعر بالخجل، ومذنبة من تدخلها فى أحوال غيرها.

فقط كانت "فلور" تبتسم بينما تشجعها على الاقتراب، وأن تنحنى على "لوكريشيا" وتمرر يدها على جبهتها، أشارت إليها بأن تسجل رقم السرير لتخبر به شقيقتها، ستكون غدًا أفضل كثيرًا، قالت "فلور"، يمكنهم زيارتها من الثالثة إلى الخامسة مساء.

بعدها بأيام فى المكتب، كانت "لافينيا" تناضل ضد الاكتئاب، والخمود، وترسم الإمكانات المطلوبة لبيت "فيلا"..

كانت تشعر أن الحياة تتعقد بشكل ملحوظ، وجودها المزدوج المتوازى يتناقضان بشكل ملحوظ، ويهددانها بالقضاء على أى أثر لهويتها.

ليلة صالة الطوارئ لم تنمح من ذكرياتها، كانت تطاردها تمامًا كزيارات المستشفى فى المساء من الثالثة إلى الخامسة فى الأيام الثلاثة التالية، عندما كانت تجلس إلى جوار "لوكريشيا"، مع شقيقتها وابنتها،

فى الصالة الكبيرة ذات النوافذ العالية لعنبر أمراض النساء. لم تتمكن من نسيان وجوه النساء المؤطرة بالشراشف البيضاء، وهن ينظرن إليها باستغراب، وقلقات من رؤيتها تظهر هناك بينهن.

كان مرعبًا أن تضع نفسها فى هذا العالم المنفصل عنها تنفيذًا لرغبات طيبة، التمتع بامتيازات فى مواجهة الظلم، الشعور بأنها مؤطرة بالثراء كطابع يفصلها عن أصحاب الأيدى والأقدام الخشنة، عن تلك النسوة اللائى يرقدن على الأسرة بأحشاء ممزقة من جرّاء عمليات إجهاض سيئة التنفيذ، أو ميلاد أطفال لم يختاروا مكان ولادتهم مثلها، ويتوزعون على الطبقات الاجتماعية بمجرد الميلاد صدفة، ينامون فى غرف معتمة، تفوح بروائح الخرق القذرة، مكومون إلى جوار الأشقاء والأعمام والخالات والآباء والأمهات.

توقف قلم "لافينيا" عن رسم الأقواس والأبواب. وانزلق راسما أيد وأقدامًا. رفعت رأسها وسمعت أزيز لمبات الرسم، وحوارات المتدربين، واحتكاك فناجين القهوة، وهدير مكيفات الهواء. فى تلك الساعات، تكون "لوكريثيا" فى طريق عودتها إلى البيت. سعيدة بأنها استطاعت أن تعيش، ستكون جالسة تحتسى طبقا من حساء الكبد، وتغسل الكافور من على الشراشف، وفى انتظار عودة شقيقتها من موقعها فى السوق لتعجن الفطائر التى تقوم "روسا" الطفلة ببيعها فى الحى فى المساء، تزعق بصوتها الحاد: "فطائر، الفطائر".

طوال حياتها، تذكرت "لافينيا" لحظات خاطفة من ذلك الواقع الآخر، خجلة: صور ساكنة ينطلق منها ألم الرؤية، لحظات ممحوة، مصفرّة، محفوظة فى الصمت حتى الساعة التى تطفو إلى وعيها كزجاجات ملقاة فى البحر، رسائل فى شواطئ عقلها، تهزها بعنف.

تقول لنفسها، لو كنت واحدة منهم، لن أصدق أى شىء من شخص مثلى، شخص له شكل مظهرى، لأنه لا يشى بشىء طيب.

- ١٣ -

كانت تنظر إلى حديقتها المزروعة بالسرخس، و"سارا" تتحدث دون أن تنتبه إلى مرور الوقت المشغولة فيه بشراء الخضراوات وتنظيف الغرف والأثاث الذى يحتاج إلى إصلاح وخياطة... قالت ـ "أنا زوجة طيبة، وأحب أن أكون كذلك، إنها سعادة مثلها مثل أية سعادة أخرى: ترتيب البيت، استقبال الزوج"، المثير، كما تقول، إنها تشعر بأنها محبوسة فى سنة النوم، فى مساحة من الزمن الخاص بها الذى يكاد لا يتدخل فيه "أدريان" أبدًا، عندما كان يأتى فى الليل، بأخباره عن العمل والأحداث العالمية، يصبح من الصعب عليها أن تغير دورها، وأن تلتقى معه فى حوار "مهم"، ويصعب عليها أكثر أن تذهب إلى السرير لتمارس ألاعيب الإغواء التى يحبها، وتحطيم الزجاج كل ليلة، إن الملجأ الهادئ لكل الأعمال المنزلية، والطيران كفراشة، أن تكون امرأة مثيرة.

"أكاد أشعر أنه علىّ أن أتصنع، علىّ أن أبذل جهدًا للتغلب على النعاس، وزيادة الرتابة، وأن أستمع إلى ما يقول باهتمام"، من الأسهل ـ كما تقول ـ

عندما يخرج هو فيما تبقى هى فى عالمها الساكن، فى الحديقة، والأعمال المنزلية، ورتابة المهام اليومية للحياة من خلال التصوير البطىء والبسيط: إمبراطورية الحياة المنزلية.

تضيف، بأن أهم ما يثير اهتمامها، هو إحساس يبدو أنه عام بين النساء اللائى يعشن حالتها. يقضين اليوم مبديات اهتمامًا ظاهريًا بسعادة الزوج، ولكن أولئك الرجال يظهرون ليلا ويخرجون فى الصباح كغرباء فى هذا العالم المحيط بهن.

تتساءل "سارا" ناظرة إلى "لافينيا"، ربات البيوت، لا يوجد الرجال منذ قرون فى عالمهن الشخصى، إنهم يتظاهرون فى مواجهة حضور الليل فقط ليعودوا مجددًا إلى عالمهم فى الصباح؟

كانت "سارا" تقول:

ـ لا أعرف إن كنت واضحة، بالنسبة إلى أناس مثلك فإن الحياة المنزلية مجرد صحراء، وهكذا يراها الرجال أيضًا، المسألة أن كل منا يبدع واحته، كل منا يستمتع بما يفعل، أنا أحب الحديث مع الجزار، وأستمتع بالحديث حول الأسعار فى السوق، ترتيب الحديقة، رؤية نمو الزهور، أنا أستمتع بالحياة اليومية. ما بدأت أشعر به غريبًا هو المشاركة فى السرير، والحمّام، والدش، مع كائن يأتى فى الليل ويذهب فى الصباح، ويعيش حياة مختلفة تمامًا.

قالت "لافينيا":

ـ حسن، هذا هو المهم فعلا، فالنساء يخصصون لهن الحياة اليومية فيما الرجال يحتفظون لأنفسهم بالأحداث الكبرى.

ـ ما أحاول أن أقوله لك يا "لافينيا"، وإن كان يبدو غريبًا لك، فإن الزوجات يجذبن أزواجهن بطريقتهن، فيتحول الرجال إلى دخلاء فى عالمهن اليومى.

قالت "لافينيا":

ـ لا تخدعى نفسك، يا "سارا"، لو لم يكن الزوج موجودًا، فإن ربات البيوت لن يكون لهن وجود، وذلك العالم الذى تتحدثين عنه سيكون مختلفًا.

- أنا لا أريد أن أقول إنه على الأزواج أن يختفوا، افهمينى، إن مسالة وجودهم، ما أريد قوله هو، بما أن للأزواج حياة مشبعة لهم فى العمل، فإننا ربات البيوت لدينا طريقتنا فى العمل.

قالت "لافينيا":

- لا أشك فى هذا، ومجانًا، وبلا اعتراف اجتماعى.

قالت "سارا":

ـ أنا يحبوننى جميع من فى الحى، يعرفوننى ويحترموننى. ولدى اعتراف اجتماعى بين أصدقائى...

قالت "لافينيا":

ـ مثل أية ربة بيت.

قالت "سارا":

ـ هذا لا يزعجنى، أن أكون ربة بيت فهذا وضع محترم، لا أحاول أن أقول لك إن هذا لا يعجبنى ولكنى أحاول أن أكتشف.

قاطعتها "لافينيا"، بعصبية:

ـ الشىء الوحيد الذى اكتشفته هو تقسيم العمل.

- لا، "لافينيا"، سيدهشك الاستماع إلى ربات البيوت وهن يتحدثن فيما بينهن عن أزواجهن، إنهن يتعاملن معهم ككائنات غريبة، كما لو لم تكن لهم علاقة بنا: النقاش حول البقع على المفارش، والوقت الذى يحتاجه اللحم فى الطبخ، وتشذيب الحدائق... الغريب أن الرجال يعتقدون أن العالم موجود من أجلهم، وبكل صدق، أعتقد أنه لا يوجد مكان أقل أهمية ولو ظاهريًا يبدو أنه يتحرك من حولهم، وعالم ربة البيت فضاء مناقض لكل ما نفترضه، ويعود إلى طبيعته فقط عندما يغادر الرجال إلى العمل فى الصباح. هم من يوقفون زمن عالمنا.

قالت "لافينيا":

ـ سبب وجود هذه المساحة هى أن أى شخص ذو ميول نسوية يسمعك يثور غضبًا.

ـ ألا ترين أن هذه طريقة لمحاولة النساء تحديد مناطق خاصة بهن...؟

قالت "لافينيا" بحزم:

- لا، بالنسبة إلىّ فإننى أعتقد أن هذا الجهل الذى حدثتنى عنه من قبل ورؤية الرجل كدخيل عبارة عن انعكاس لتمرد غير واع.

- لكن ألا تعتقدين أننا نحن النساء لدينا أولوية على منطقة أهم ولدينا سلطة واعية تفوق الخيال... وهو ما يسمونه "السلطة التى تكمن خلف العرش"؟

- هذا من صنع الرجال.

- المشكلة أننا لم نستخدم هذه السلطة أبدًا كسلطة بل كخضوع. إن ما أذهلنى هو انتباهى إلى أنها مجرد أحاسيس، إمبراطورية البيت تقوم على دعائم قوية، وأقول لك إن الرجال ليسوا سوى مرجعية لا غنى عنها.

قالت "لافينيا":

ـ من الممكن أن يكون الأمر كذلك، وإن ما أعتقده هو أنك تدخلين فى علاقة مع الواقع النسوى لربات البيوت، ووسائل دفاعهن، وهذا كان دائمًا على هذا النحو، والحقيقة أنهن لم يغيرن شيئًا من أجل تحسين وضعهن فى العالم.

قالت "سارا":

ـ أنت لك أفكارك، وأنا لى أفكارى.

فضلت "لافينيا" عدم الجدال مع "سارا" أكثر من ذلك، لأن ذهنها كان مشغولاً بقضايا أخرى، وإنه من

الممكن العودة إلى تلك القضية فى وقت آخر، وربما بدأت "سارا" تشعر بالتعاسة مع "أدريان" وتخشى الاعتراف بذلك.

هبط المساء، وبدأ ضوء الغسق يلقى بألوانه على الحديقة وأفرع الشجرة السفلية بالفناء، وبقيت الصديقتان فى صمت، كل منهن غارقة فى تأملاتها، ويرتشفن الشاى المثلج فى الأكواب الزجاجية العالية.

وأخيرًا سألت "لافينيا":

ـ ترى ما هو وضع الحياة الاجتماعية؟

قالت "سارا":

ـ كثرت حفلات وداع العزوبية، يبدو أن كل صديقاتنا سيتزوجن قريبًا... وخلال أسبوعين يحل موعد الحفل السنوى للنادى الاجتماعى. ترى هل قررت الذهاب أم لا تزالين على موقفك بعدم دخول تلك الصالونات والابتعاد عن عالم الضوضاء؟

أجابت "لافينيا":

ـ من المحتمل أن أذهب، بدأت أشعر مؤخرًا بالوحدة، وأعتقد أن قليلاً من الحياة الاجتماعية مرة أخرى لن يكون سيئًا.

قالت "سارا":

ـ بالطبع لن يكون سيئًا، ويقولون إنه فى هذا العام سيقيم النادى حفلاً رائعًا، وسيشارك فيه أكثر من عشرين مبتدئًا، ستقضين وقتًا مسليًا. إنه مختلف

عن حفلات صالات الرقص وإن كانت تلك مسلية أيضًا.

قالت "لافينيا":

ـ إنه استعراض كبير، وهذا هو الذى لم أعجب به مطلقًا، الإحساس بوجودك وكأنك فى فترينة عرض، ومعروضة لمن يقدم أفضل ما لديه.

قالت "سارا":

ـ أنا لم أشعر بذلك على الإطلاق، إنها طريقة للاعتياد، طبيعية، وأن يتعارف الشباب وكل منهم يعثر على رفيقته، وربما لن تشعرى الإنسان بذلك، سوف تستمتعين، والناس يسألون عنك.

فكرت "لافينيا"، إنهم لو علموا، سيموتون.

بعد تجربتها مع "لوكريثيا": الغرفة الكئيبة، والأقدام فى المستشفى، سيكون من الصعب الاستمتاع بالرقص، ولكن لن تكون هناك أهمية لقول ذلك لـ"سارا"، لم يكن مناسبًا حتى بالنسبة إلى صورتها التى يجب أن تحافظ عليها كما قال "سباستيان". فقد ألح هو على أهمية حضور دوائر الأنشطة بالنادى، لأنها ليست مهمة فقط كغطاء لنشاطها بل لأن تلك الأنشطة يمكن من خلالها الحصول على معلومات قيمة للحركة، "من المهم أن نعرف ماذا يفكرون، وما هى خطط هؤلاء الناس"، هذا ما قاله.

قالت لـ"سارا" محاولة أن تبدو مقنعة:

ـ ربما أشعر الآن بالأفضل، لأننى أستطيع أن أتعامل معه عن بعد وألا أكون عرض السنة.

قالت "سارا":

ـ يمكننا أن نذهب إلى حفل الرقص معًا إن أردت، أنا متأكدة من أن "أدريان" سيكون سعيدًا أن يرافقنا نحن الاثنتين... و"فيليبى"، ألن يزعجه ذلك؟ لاأعتقد إنه يمكنه مرافقتك.

فكرت "لافينيا"، لا بالطبع لا، لن يكون "فيليبى" مقبولاً، أن يُقبل فى النادى هذا معناه مسيرة طويلة، ليس فقط سيكون فى حاجة إلى المال لدفع مقابل العضوية الباهظ، وإنما سيكون فى حاجة إلى الحصول على موافقة مجلس إدارة النادى، سوف يجتمعون ويتجادلون طويلاً حول قائمة المتقدمين، ويصوتون بأوراق سوداء وأخرى بيضاء، وإذا كان كبار رجال إدارة الجنرال الأكبر لا يُقبلون، فالجانب الأكبر من الأرستقراطيين ينتمون إلى الحزب الأخضر، ويعتبرون أن الحزب الأزرق والجنرال مجرد "شرذمة" و"حرس بلا علم" و"حديثى نعمة". على الأقل فى الحياة الاجتماعية، والخضر يحتفظون بالسلطة الحقيقية، ويبدو أنهم يكتفون بذلك فقط، ابتسمت وهى تتذكر المقاييس العبثية للاختيار. قالت "لافينيا":

ـ ولا حتى مجرد التفكير فى ذلك، لأن "فيليبى" لن يحصل سوى على الأوراق السوداء إذا تقدم بطلب الانضمام، لكن، بالطبع هو لا يفكر فى ذلك أبدًا، فأنا لا أعتقد أنه مهتم بذلك على الإطلاق.

وابتسمت وهى تتخيل ما يمكن أن يُقال عن "فيليبى".

قالت "سارا":

ـ لا أحد يعرف، فالأشخاص ذوو الأصول المتواضعة مثل "فيليبى" الذين يصلون مهنيًا إلى مكانة على استعداد لدفع أى شىء من أجل الحصول على العضوية، بالطبع هو يعرف أنه لن يكون مقبولاً، ولكن الوضع يختلف فى حال زواجه منك...

قالت "لافينيا" دون أن تتمكن من إخفاء امتعاضها من كلام صديقتها:

ـ أنت تعتقدين أن كل الشعب يرغب فى الانتماء إلى النادى الاجتماعى، أليس كذلك يا "سارا"؟

قالت "سارا":

ـ لا أعرف السبب فى عدم قبولهم ذلك، فى حالة "فيليبى"، باعتباره مهنيًا شابًا، يكون الأمر دافعًا له فى مسيرته المهنية، ولا أحد يتجاهل أن النادى يجمع كل الأشخاص المهمين فى البلد.

قالت "لافينيا" ساخرة:

ـ ربما، أجعله يفهم أن زواجه منى يجعله مقبولاً فى النادى، فيعرض علىّ الزواج.

قالت "سارا":

ـ لا يمكنك أن ترفضى أنه مناسب له أكثر منك.

فكرت "لافينيا"، لا شىء يمكنه أن يقنع "سارا" بخطأ تفكيرها، لكنها لم تكن راغبة فى الاستمرار فى الجدال ولا تريد لها أن تراها وهى تقلل من قيمتها. قالت وهى تستعد للوقوف:

ـ يجب أن أذهب، تكاد الساعة تقترب من السادسة ولا يزال أمامى الذهاب إلى السوبر ماركت، لا يوجد لدى ما يؤكل فى البيت.

سألت "سارا":

ـ اتفقنا على أنك ستذهبين إلى حفل الرقص معنا؟

قالت "لافينيا" ساخرة:

ـ لا أعرف إن كان لدى فستان مناسب، فكل ما لدى يعرفه...

رافقتها "سارا" حتى الباب، وقالت لها ألا تهتم بشأن الفستان، دون أن تنتبه إلى سخرية "لافينيا"، لأن أمر الفستان غير مهم، يمكنهم أن يتسامحوا معها، لأنهم سوف يشعرون بالسعادة برؤيتها ولن ينظروا إلى فستانها.

فكرت "لافينيا" بكآبة، نعم، ودخلت إلى السوبر ماركت، يمكنهم أن يتسامحوا معها، فكرت فى "سارا" و"فلور"، حياتان مختلفتان جدًا.

نظرت بداخل السوبر ماركت المضىء، لقد كان افتتاحه حديثًا حدثًا اجتماعيًا مهمًا، فقد أكدت

الصحف أنه "الأكثر تنوعًا فى العاصمة"، و"لا يقل أهمية عن أى سوبر ماركت أمريكى"، جذبت عربة الشراء البراقة والجديدة ودفعتها داخل الممرات أمام موجات جاذبية الأشياء: معلبات مدموغة بالإنجليزية والفرنسية، وأنواع ملونة معلبة فى أوان زجاجية، والمحار الطازج، والكالامار بدمه، والكافيار الأحمر والكافيار الأسود.

اشترت خبزًا، ولحمًا مقددًا وجبنا، كان الناس قلة فى تلك الساعة.

هناك بعض السيدات يتجادلن حول أغذية الأطفال فى ممر الأطفال.

إنهن نساء "سارا"، فكرت، متذكرة نظريات صديقتها.

أنهت فتاة الخزينة عملها بسرعة، مبتسمة، معلقة على الأشياء القليلة التى اشترتها، ولم تقل شيئا، وتساءلت "لافينيا" مع نفسها، كان يجب أن تخبرها أنها متعبة، ومكتئبة لابتعادها بسرعة عن "سارا"، مما كانت تعتبره طبيعيًا دون أن تعرف أين سوف تتوقف، شاعرة بأن الناس لن تقبل ما تريد أن تناضل الآن من أجله؟ بالطبع لا، نظرت إليها المرأة بقلق دون أن تقول شيئًا، كانت تعتبر وجودها فى غير مكانه.

خرجت، جاء صبى عارى القدمين مسرعًا حيث تقف سيارتها وقال: "حرست عربتك"، ومد يده،

أخرجت "لافينيا" بعض القطع المعدنية وأعطتها له. كانت للطفل عينان سوداوان تبرقان بالحياة. ربما تحين له الفرصة ليكون طبيبًا أو محاميًا، فكرت "لافينيا"، مؤرشفة هذه الصورة إلى جوار صور أخرى. لم تفهم بوضوح ما كان يحدث لها. فالشارع بطوله يدور، ويتحول المشهد، كل هذا، فقد كان وضع الأشياء على حاله هناك منذ أن كانت طفلة، وكانت قد شاهدتها دائمًا، تذكرت حتى العمة "إينيس"، وهى تشير إلى تناقض الرحمة المسيحية، وهى التى تنزهت فى شوارع مختلفة بين ضجيج صديقاتها، ذاهبة وعائدة من الاحتفالات والنزهات. لقد كرهت النوادى والصالونات من منطلق "عاشت الفضائح"، ولكن إحساسها الآن مختلف، حاد، ونفاذ، كما لو كانت فى مسرح عظيم انتقلت فيه من كراسى المشاهدين المريحة إلى خشبة الممثلين، وتحت حرارة الأضواء، والإحساس بالمسئولية بأن تنتهى المسرحية بنجاح، وتصفيق.

كان الظلام يهبط على أشجار البلوط بالشارع، ودخلت فى ظلال البيت تفكر فى الأحاسيس الجديدة التى بدأت تجربها منذ أن أصبحت جزءًا من النسيج السرى وغير المرئى لرجال ونساء بلا وجوه، كائنات متحفزة.

فكرت فى اختلاف ذهابها إلى حفل الرقص الآن، وتناقض إرغامها على الحضور، والاندساس بين أهلها.

وضعت كيس مشتريات السوبر ماركت على الطاولة بالمطبخ، قبل أن ترتب ما اشترته فى الثلاجة، وأخرجت خبزًا ولحمًا مقددًا وجبنًا وأعدت ساندويتشًا. خرجت إلى ممر الفناء لتأكل وتقرأ الصحيفة.

لن يأتى "فيليبى" اليوم، شعرت بذلك من خلال الأوراق والهواء، كانت تؤمن بأحاسيسها، وبقدرتها على قراءة ما يمكن أن يحدث من خلال ثقل الهواء، ومن طريقة حركة الزهور، واتجاه الريح.

لن يأتى "فيليبى" اليوم وكان هذا أفضل لها، فكرت، إنها متعبة.

كانت النجوم تلمع وتغرب عن بعد، كعيون ترمش، فتحات فى الكون، فكرت، أنا وحيدة، نظرت باتجاه الجحيم الممتد فى الظلام، أنا وحيدة ولا أحد يمكنه أن يقول لى حقيقة إن كانت أفعالى خطأ أم توجهًا صحيحًا، إن قيادة حياة الإنسان بنفسه أمر مرعب، فكرت، إن تلك المادة الغامضة والواضحة تسرى فى زمن وجهته كانت صدفة مثل كل شىء.

***

الآن لن تذهب من الأرض مثل الزهور التى ماتت دون أن تترك أثرًا، مختفية فى الليلة التى تنظر فيها إلىّ وهى تتقدم متغلبة فى النهاية على سموم الخضوع، والبلوط، لم يبق إلا القليل من تلك المرأة النائمة فى نكهة زهورى واستيقظت من الحلم الثقيل

للدعة، ببطء، لقد وصلت "لافينيا" إلى أعماق نفسها حتى وصلت إلى المكان الذى تنام فيه الأحاسيس النبيلة التى تمنحها الآلهة للبشر قبل أن تلقى بنا لنعيش فى الأرض ونبذر الذرة، لقد كان حضورى سكينا لتمزيق إهمالها، ولكن كانت داخلها خفية تلك الأحاسيس التى طفت الآن والتى سوف تعثر فى يوم من الأيام على جمالها والتى تجعلها تبقى خالدة فى الحياة لا تموت.

- ١٤ -

فى اليوم التالى وصلت سيدتنا "آل فيلا" إلى المكتب.

عطست "لافينيا"، كانت تعطس كثيرًا فى الأيام المطرة. سألت الشقيقة العانس:

- هل أنت مصابة بالبرد؟

- إنها الحساسية.

أجابت، وهى تضع كراسة الملاحظات على المكتب.

قالت السيدة "فيلا":

- زوجى مصاب بالحساسية أيضًا، وعلى الأشخاص المصابين بالحساسية أن يحترسوا فى هذا الفصل من السنة، المناخ ملىء بذرات غبار اللقاح.

- كيف حال الأفكار؟

سألت العانس، التى كانت تدعى "أثوثينا".

أخرجت "لافينيا" التخطيطات المبدئية.

- عملت قليلاً انطلاقًا من حوار اليوم السابق، وهذه تخطيطات عامة للشكل الأساسى، إنها مجرد

أفكار للبدء، سيكون للبيت ثلاثة مستويات لاستغلال الانحدار فى الأرض وللتخفيف من حركة التربة. فى المستوى الأعلى ستكون منطقة الحركة الاجتماعية، وبعدها تأتى المنطقة المعيشية ثم منطقة الخدمة.

كانت تشير إلى المدخل الرئيسى على الرسومات، ونظام السلالم للانتقال من مستوى إلى آخر. كل مستوى له إطلالة جيدة على المنظر الطبيعى حتى منطقة الخدمة.

كانت السيدة "فيلا" قد وضعت عوينات ذات إطار غليظ تلمع عليه أحجار صغيرة جدًا. كانت تحرك حواجبها لتمر بإصبعها على خطوط الرسومات كما لو كانت تتخيل نفسها تتجول فى البيت.

كانت الآنسة "اثوثينا" تنظر إلى الرسومات باهتمام والى شقيقتها بالتبادل. ترفع رأسها من وقت لأخر وتضحك، كانت من أولئك الأشخاص الذين يجتهدون ليكونوا لطفاء دائمًا. لا يبدو أن لديها اهتمامات خاصة بها، فهى تعيش لتساعد الآخرين على الحياة وتتجنب الضوضاء والخلافات.

كان انطباع "لافينيا" عنها مزيجًا من التأسى والعطف.

قالت السيدة:

ـ نعم، حتى يكون هناك منظر جميل...

ـ لكن من الأفضل أن تكون هناك حجرة الموسيقى التى وضعتيها فى الداخل، زوجى لا يقرأ

كثيرًا، لكنه يحب سماع الموسيقى، وإذا قرأ كتابًا، يقرأه فى السرير أو فى الصالة.

قالت الآنسة "اثوثينا" موضحة:

ـ إنه ليس قارئًا كبيرًا.

سألت السيدة "فيلا":

ـ والبلياردو ألا يمكن أن يكون جوار المنظر أيضا...؟

أجابت "لافينيا":

ـ حسنًا إنه تكاد لا توجد مساحة إلى جانب المنظر.

قالت السيدة "فيلا":

ـ لكن انظرى إلى منطقة الخدمة، إنها إهدار للمساحة، لماذا يحتاج الخدم إلى المنظر الطبيعى...

شرحت "لافينيا" حتى لا تبدو متعاطفة مع الخدم:

ـ لو وضعنا منطقة الخدمة إلى الداخل ستكون لدينا مشكلة مع التهوية، فالملابس لن تجف فى الشتاء.

قالت السيدة "فيلا":

ـ لا أعتقد، لأنه توجد نوافذ على الجانبين.

ألحت "لافينيا":

ـ لكن الهواء لن يجرى بشكل كاف.

ـ قليلاً من الحر لن يكون مشكلة كبيرة... يمكنهم نشر الملابس فى المنشر ورفعها عندما تمطر.

سألت "اثوثينا":

ـ ولو حركنا منطقة الخدمة إلى داخل المستوى الثانى؟

قبلت "لافينيا":

ـ سوف نحاول، كما قلت لكما، إن هذا مجرد تخطيط أولى.

قالت السيدة "فيلا":

ـ لنحاول.

المنطقة المعيشية تكاد لا تبين، شرحت "لافينيا"، لأنها فى حاجة إلى معرفة أكثر عن عادات الأسرة.

دخل "خوليان" فى تلك اللحظة.

اعتدلت النسوة فى مقاعدهن مبتسمات، ورنت أساور السيدة "فيلا" مرافقة حركة يدها لتعديل خصلة شعر.

كانت "لافينيا" تحاول إرضاءهن، لكن "خوليان" كان رجلا. سأل هو، بتركيز:

ـ كيف الحال؟

قالت "اثوثينا":

ـ نحن فى البداية، لكن يبدو أن كل شىء سيسير على ما يرام، فالآنسة "الاركون" لديها أفكار مهمة.

ابتسم "خوليان"، وهو يقترب من الرسومات:

ـ لا أشك فى ذلك.

قالت "لافينيا":

ـ كنت أشرح لهن فكرة المستويات، وهن يرين أن أبحث عن طريقة لوضع حجرة البلياردو بطريقة تكون فيها أمام نافذة المنظر الطبيعى، والمشكلة تكمن فى تهوية منطقة الخدمة.

نظر"خوليان" إلى الرسومات بانتباه بينما كانت تشير "لافينيا" إلى إمكانية وضع حجرة الغسيل وحجرة الكى وغرفة الخدم، كانت المرأتان تبديان انتباهًا لتعبيرات "خوليان" كما لو كان إلها على وشك إصدار حكم نهائى. تذكرت "لافينيا" حوارها مع "سارا"، كيف لها أن تؤمن هى أن الرجال لا أهمية لهم عند ربات البيوت؟

قالت "اثوثينا":

ـ الجنرال "فيلا" يعشق البلياردو كثيرًا منذ آن كان طفلا.

وتطابق تعليق السيدة "فيلا" معها:

ـ إنها طريقته فى الاسترخاء، ما أن يصل إلى البيت حتى يلعب مباراة بلياردو.

تخيلته "لافينيا" فى قميص داخلى، والرجل السمين ينشن على الكرات المستديرة، ناسيا "أعمال" اليوم: الحملات، والقوات التى تطارد رجال العصابات

فى الجبال، والقرى المحترقة بالنابالم، ترى فى أى شىء يفكر خلال لعب البلياردو؟

قال "خوليان":

ـ أتفهم أنه لا بد من وجود نافذة واسعة تطل على المنظر الطبيعى، ولا أعتقد أنه أمر صعب. منطقة الخدمة يمكن أن تُوضع فى المستوى الأول "لافينيا"، فهذه تخطيطات أولية. ما يهمنا فى هذه المرحلة هو معرفة رأيكما فى النسق المعمارى، وفكرة البناء على عدة مستويات.

قالت السيدة "فيلا":

ـ بالنسبة إلىّ أعتقد أنها فكرة حسنة، وأنا متأكدة أن زوجى سيحبها.

سألت "لافينيا" وهى تتوجه نحو الباب:

ـ ألا ترغبن فى شرب القهوة؟

قالت "اثوثينا":

ـ لا، لا شكرًا، نحن لا نشرب القهوة سوى فى الصباح، لأننا ننام مبكرًا، لو شربنا قهوة فى مثل هذه الساعة لن ننام، شكرًا جزيلا.

قال "خوليان":

– أنا، نعم، من فضلك.

عادت "لافينيا" بعد أن طلبت القهوة من "سيلفيا"، كانت قد أعدت قائمة مفصلة من الأسئلة حول الأسرة لتحديد أماكن وحجم غرف النوم. سألت:

ـ كنت قد ذكرت لى أن الابن الأكبر يبلغ الثالثة عشرة، أليس كذلك؟ والطفلة فى التاسعة؟

قالت السيدة "فيلا":

ـ نعم، تمامًا، هل تذكرين ما قلته لك عن غرفة الصغير، عن تزيينها بموتيفات الطائرات؟ إنه أمر مهم.

قالت الآنسة "اثوثينا":

ـ نعم، إنه طفل قلق، بحبه للطيور يصيب زوج أختى بالعصبية، يقول إنه يهتم بكل ما يطير، وعليه أن يفكر فى الطائرات.

قالت السيدة "فيلا" مؤكد على النعم، وهى تنظر بغضب نحو شقيقتها:

ـ إنه يحب الطائرات، ولكن طائرات الهليوكوبتر تصيبه بالخوف.

صححت لها الآنسة "اثوثينا":

ـ نعم، نعم، هذا حقيقى، سيحب تزيين غرفته بأشكال الطائرات.

قالت السيدة "فيلا" منهية حوار الطيور والطائرات الغريب:

ـ لا نريد أن يبقى الصغير والصغيرة معًا، نظرًا لفارق السن، إضافة إلى أنه غير مناسب فى المستقبل، عندما تكبر الطفلة وتصبح صبية.

تدخلت "اثوثينا":

ـ وأيضًا يجب أن يكون لكل واحد منهما حمّامه الخاص.

سألت "لافينيا":

ـ وبالنسبة إلى غرفة الصغيرة، هل لديك فكرة معينة؟

ابتسمت السيدة "فيلا" بخبث:

ـ أعتقد أن غرفتها يجب أن تكون أكبر قليلاً، حضرتك تعرفين أننا نحن النساء نستخدم مساحة أكبر، والديكورات الدالة تكون أفضل.

سألت "لافينيا" مبتسمة، وبدت موافقة:

ـ وزوجك، ألا يريد أن يرى المخطط العام للبيت.

قالت السيدة "فيلا":

ـ المخطط، لا، هو يريد أن يشاهد المشروع النهائى مكتملا.

وأضافت "اثوثينا":

ـ إنه يريد أن نتولى نحن التفاصيل، فهو رجل مشغول جدًا، يسافر كثيرًا عبر البلاد، ومن الأفضل أن نوفر عليه الجهد.

استمرت "لافينيا" فى ضحكها بلا نهاية بعد أن ودعت الشقيقتين إثر خروجهما من المكتب، حقيقة أن كل ما يمكن معرفته عن هؤلاء الأشخاص وعما يريدون تزيين بيوتهم به يثير العجب.

يجب عليها أن تأخذ "سباستيان" من ناصية قريبة من سينما الحى، كانت "فلور" قد قالت لها "فى السادسة تمامًا، لا دقيقة قبل ولا دقيقة بعد".

كانت تضع راديو العربة على محطة إذاعة، دقيقة بدقيقة، التى تشير دائمًا إلى الساعة التى يستخدمونها هم كساعة رسمية للحركة. يمكن سماع الدقات المتوالية فى خلفية الموسيقى. وكان هناك صوت ميكانيكى يعلن عن الساعة كل دقيقة.

تنفيذًا للتعليمات، دارت "لافينيا" لبعض الوقت دون اتجاه محدد حتى تتأكد من أنه لا يتبعها أحد، كان مزعجًا أن تعتاد على النظر فى المرآة العاكسة بشكل مستمر، كانت تشعر أنه أمر غير ضرورى. من يشتبه فيها؟ ولكن "فلور" كانت دائمًا ما تلح على الحاجة لتطبيق التعليمات الأمنية بحذافيرها. ويجب عدم الاطمئنان على الإطلاق، وهى لا تريد أن تخطئ، كانت تجتهد ألا يفوتها أى شىء، لترى إن كانت العربة الحمراء سوف تستدير حول الملف ولا تظل تتابعها.

حسبت الوقت بشكل خاطئ، ووصلت إلى المكان قبل خمس دقائق من الموعد المقرر، لم تشاهد "سباستيان"، فقط شاهدت بعض المارة الواقفين أمام مكان بيع بالشارع.

فى الإذاعة، وصوت الدقات ظاهر فى الخلفية الموسيقية، كان "جانيس جوبلن" يغنى "أنا وبوبى ماك جى". كانت الدقات تمنح الموسيقى إحساسًا بالسرعة، عبرت الناصية والشوارع عدة مرات. وبدأ الظلام

يهبط على المدينة: السيدات جالسات على المقاعد بجانب الشارع يستنشقن الهواء البارد: كلابهن وقططهن، وأطفالهن يتقافزون فى لعبة الحجلة على الرصيف ـ ويسايرن حياتهن اليومية نهارًا وليلاً، وتلك الدقائق الخمس لا تريد أن تنتهى.

وأخيرًا، أعلن صوت المذيعة: "الساعة الآن السادسة مساء تمامًا"، انعطفت باتجاه الناصية مارقة من مدخل شارع السينما. كان "سباستيان" يرتدى قبعة سائق شاحنة، ويقف فى المكان المتفق عليه.

اقتربت بالسيارة حتى توقفت إلى جانبه، أخرجت رأسها من النافذة كمن تحاول التعرف على صديق وتحيته، اقترب "سباستيان" متظاهرًا أيضًا بأن اللقاء كان صدفة. سألت هى:

- إلى أين أنت ذاهب؟

ذكر هو مكانًا خطر على باله:

- إن أردت يمكننى أن أوصلك؟

دخل "سباستيان" السيارة وانطلقا. سألها:

- هل انتبهت خلفك جيدًا.

- أكثر من اللازم، أمضيت خمس عشرة دقيقة وأنا أدور، لقد وصلت مبكرًا أكثر من اللازم.

قال هو:

ـ إنه أفضل من أن تصلى متأخرة، سوف تعتادين على حساب الزمن جيدًا. ليس مفضلا الوصول قبل

الموعد، فى حالة الوصول المبكر يجب أن تقومى بدورة كبيرة خارج المكان، لأن الدوران فى المكان يلفت الأنظار، يجب أن تفهمى الإحساس الحقيقى للكيلومترات فى الساعة ومعرفة المدينة بشكل جيد. سوف تتعلمين كل هذا مرحليًا، ما حدث لك أمر طبيعى فى البداية، والآن اتجهى نحو طريق الجنوب ولا تنسى النظر عبر المرآة العاكسة. ما موقف مخطط بيت "فيلا"؟

ـ سلمناهم التخطيط الأولى، وعرضت على الزوجة أن أذهب إلى بيتها لأشرح المخطط للجنرال، لكنها قالت إنه من الأفضل الانتظار حتى يكتمل المشروع، ظاهريًا، يبدو أن "فيلا" يتحرك فى مناطق وسط البلاد.

قال "سباستيان":

- إنه يقود عمليات مواجهة المقاومة بنفسه، كم من الوقت يحتاج بناء أى بيت؟

أجابت "لافينيا":

ـ هذا يتوقف على كل حالة، منذ اللحظة التى يتم الموافقة فيها على الرسومات، يمكن أن يمر ستة أو سبعة أشهر، هذا مرتبط بمدى فاعلية المقاول.

ـ بمجرد أن تتم الموافقة على الرسومات فى الشهر المقبل، يمكن أن يكون البيت مكتملا فى ديسمبر؟

ـ نعم.

لزم "سباستيان" الصمت للحظات. وقالت "لافينيا" مستمتعة بما قدمته من معلومات:

ـ لدى الجنرال "فيلا" حساسية ربيعية، ويلعب البلياردو بعد العمل، ولا يحب القراءة، ويفضل الاستماع للموسيقى، ويبدو أن ابنه المراهق يحب الطيور وهذا يصيبه بالعصبية، ويريد أن يحول هواية الصبى باتجاه الطائرات، ولكن الصغير يخاف من طائرات الهليوكوبتر... وتنام الأسرة مبكرًا.

قال "سباستيان" ضاحكًا:

ـ حسن جدًا... حسن جدا، لا تقتربى كثيرًا من السيارة التى أمامك، يجب الاحتفاظ دائمًا بمسافة جيدة للمناورة فى حالات الضرورة، خاصة عندما يرافقك مسافر غير شرعى.

أطاعت "لافينيا"، وشعرت بموجة من الخوف، وكان إحساسها بالرعب يزداد ويقل. كان من السهل نسيان أن "سباستيان" مشتبه به، والتفكير بالسفر مع شخص مثلها دون أية مشكلة. نظرت فى المرآة مستعيدة إحساس الانتباه مندهشة من أن تكون هى التى تنقل مشتبه به فى عربتها. قال "سباستيان" مستعيدا الحوار:

ـ من الآن فصاعدًا، سوف تكتبين تقريرًا لكل لقاء. هناك تفاصيل مهمة يمكن نسيانها لو مر بعض الوقت، يكون التقرير من نسخة واحدة، بدون تصوير، ودون ذكر أى اسم، عليك أن تسلميه لى أسبوعيًا، كما

قالت "فلور"، إن كل تفصيلة مهمة، وعندما يكون المشروع أكثر نضجا، ابذلى جهدًا للاجتماع بالجنرال "فيلا" فى بيته، وأيضًا حاولى التقرب إلى شقيقة الزوجة، العانس، وأن تطورى علاقتك بها... وأن تكتسبى ثقتها... هل آنت مستعدة لحفل الرقص؟

ـ نعم، لكنى لا أعرف جيدًا ما الذى يجب أن أفعله هناك.

– أن تكونى لطيفة.

– أى، "سباستيان"، لا تهزل.

– أنا لا أهزل، أقول لك بجدية، يجب أن تتركى انطباعًا بأنك سعيدة بحضور حفل الرقص، وبعودتك إلى أنشطتهم، من المهم أن يشعر معارفك أن مرحلة تمردك قد مرت، هذا هو المهم، والأشياء الأخرى، يجب أن تكونى منتبهة لسماع جدل الناس، وأى شىء ترين أنه نافع. هذا يجب أن تحتسبيه عندما تكونين هناك، عليك أن تُنمى حاستك التآمرية، والحصول على معلومات.

كان المناخ يتغير كلما هبطوا على الطريق الجبلى، تدخل من النافذة ريح باردة وتهز الأشجار المائلة على الطريق المظلم. سألها مُغيّرا لهجته وخلع قبعة سائق الشاحنة:

– كيف تشعرين؟

فاجأها "سباستيان"، كان يمتزج فى داخله مزيج دائم من القسوة والرقة، فى الأمور التى لها علاقة

بالحركة، كانت لهجته آمرة، ومحددة ومضبوطة، ويمكن الإحساس برقته عندما يتحرك حواره باتجاه الموضوعات الشخصية. أجابت:

- أنا فى حال جيدة.

قال:

- أنا أعرف أنك فى حال جيدة، وهذا ظاهر، لكن كيف تشعرين؟ إلى أين تتجه شكوكك؟

- تقريبًا.

قالت ذلك وهى تتذكر "سارا"، والرقص وحوارات الأصدقاء، والأقدام فى المستشفى، و"لوكريثيا"، وأشياء تبدو له هو تفاصيل لا أهمية لها، وتصيبه بالملل.

- وما كان رد فعل "فيليبى" عندما علم بارتباطك؟

- كان سيئًا فى البداية، قال إننى لم أكن ناضجة، وإنه يجب علىّ أن أواصل التعاون من خلاله، ولكن كان عليه فى النهاية أن يقبل هذا الوضع.

- سيكون من الأفضل اختراع "جهاز قياس نضج"، وربما يخرجنا هذا جميعًا من الحركة...

- والآن يجب أن تحترسى من السقوط فى غواية استطلاع رأيه حول مهامك، بشكل عام، يفضل أن يكون على اطلاع، فيما يتعلق بموضوع بيت "فيلا"، ولكن يجب أن تحتفظا بالمشاركة، وبهذه الطريقة سوف يتعلم هو كيف يحترمك وأن ينتبه إن كنت ناضجة أم لا، فنحن الرجال بشكل عام يصعب علينا قبول مشاركة بعض الأشياء مع النساء، تؤثر فينا

المنافسة، وهناك درجة من الإحساس بالمتعة لشعورنا بالأهمية أمام المرأة التى نحبها. إنه الإحساس الذكورى، وأنت تعرفين.

ابتسمت "لافينيا" وهى تنظر إليه:

– لا يبدو أن لك رؤية ذكورية.

– بالطبع لدى رؤية ذكورية، ما يحدث هو أننى أخفيها أفضل من "فيليبى، وأنا أيضًا أحب أن تكون لى امرأتى التى تنتظرنى.

قال ذلك بنغمة فيها بعض السخرية.

تساءلت "لافينيا" إن كانت له امرأة، فهى لا تعرف ولن تعرف عنه شيئًا، فقط يمكن الإحساس بأصوله المتواضعة من خلال بعض التفصيلات: بعض الأفكار التى تعتبر من عادات أهل الريف، وأشياء يقولها وإن كان لا يجيب أبدًا على أسئلة شخصية.

– لا يبدو عليك هذا الملمح، كانت "فلور" قد حكت لى كيف قمت بضمها...

– كلنا لنا رؤية ذكورية، يا "لافينيا"، حتى أنتن النساء، الأمر هو الانتباه إلى أنه يجب أن نكون كذلك أم لا، ولكن بين القول والعمل هناك مسافة طويلة، وأنا أحاول.

قاطعته "لافينيا":

–أنا لا أوافقك أننا نحن النساء لنا رؤية ذكورية، الأمر أن حضراتكم، الرجال، عودتمونا على نوع معين من الممارسة.

- إنها القضية الأبدية البيضة أم الفرخة، ما الذى وُجد أولا البيضة أم الفرخة؟ الحقيقة أن النساء يعلمن أبناءهن أن يكونوا ذكوريين. أنا أقول لك هذا من خلال التجربة الشخصية.

- أنا لا أنكر ذلك، ولكن هذا لا يعنى أننا نحن النساء لدينا رؤية ذكورية، ولكن الرجال وضعوا قواعد العالم بهذه الطريقة... ولا يزالون يلقون باللوم علينا... هل يمكنك أن تغلق النافذة قليلا؟ أشعر بالبرد.

قال "سباستيان" بينما كان يغلق النافذة:

- لا أعرف، لا أعرف، لو كنت أنا امرأة ربما كنت قد حاولت أن أعلم أبنائى طرقًا أخرى فى التعامل، حتى لو كان هذا انطلاقًا من رغبة خاصة.

- أنا أعتقد أنك كنت ستفعل تمامًا ما فعلته أمك.

- محتمل، هذه الأشياء تحتاج إلى جدال لاينتهى، الشىء الوحيد الواضح لى أنه يجب بذل جهد لتغيير هذا الوضع، فالحركة، فى برنامجها، تضم تحرير المرأة، وأنا أحاول تجنب التمييز مع الرفيقات، لكنه أمر صعب، فالأمر لا يصلح فى حال وجود نساء ورجال داخل بيت آمن، تقوم النساء بالمهام المنزلية دون أن يأمرهن أحد بذلك، كما لو كان شيئًا طبيعيًا. وترينهن يطلبن من الرفاق تسليم ملابسهم المتسخة... عليك بالدخول فى ذلك الطريق الذى يتجه نحو اليمين.

كانت تسير فى طريق موحش غير مسفلت يتلوى عبر مزارع البن والأشجار المرتفعة. تغطى الرطوبة زجاج السيارة بالبخار. إلى أين نتجه؟ كانت تفكر "لافينيا"، وهى تتفحص منطقة مزارع البن القريبة من مزارع جدها.

– اتركينى هنا.

فرملت سريعًا، فتعرجت السيارة، لم يكن هناك بيوت قريبة، لا شىء على الإطلاق. فسألت:

– هل ستبقى هنا؟

– لا تنزعجى، سأذهب إلى مكان قريب من هنا، يمكننى إكمال الطريق سيرًا على الأقدام.

– ألا تحتاج أن أرجع لإعادتك؟

– لا، سيتركونى هنا.

"هنا" إنه مكان موحش، ربما كان هناك بيت بعد ذلك، فكرت "لافينيا"، كانت قلقة لتركه فى ذلك الطريق المنعزل الموحش والبارد.

أشار "سباستيان" إلى منطقة متسعة:

– يمكنك أن تستديرى من هناك، سأهبط لأساعدك على الدوران.

هبط وبدأ يشير عليها بالعودة إلى الخلف فى منطقة ضيقة.

عندما أصبحت السيارة تتخذ الاتجاه العكسى، اقترب من النافذة، وقال وهو يربت على رأسها:

ـ سنلتقى، شكرًا جزيلا، لا تنسى التقرير، سأبعث لك عن طريق "فلور" لتحديد موعد اللقاء.

قالت "لافينيا":

– احترس، هذا المكان منعزل جدًا.

ابتسم "سباستيان" مشيرا بيده بإشارة الوداع وطالبا منها أن تذهب. استطاعت أن تسمع ما كان يقوله لها:

– ارقصى كثيرًا فى الحفل.

فى طريق العودة، زادت "لافينيا" من السرعة، والمنحنيات تتوالى، كانت تحب القيادة على الطرقات ليلا، لأنها تمنحها إحساسًا بالحرية، كانت سعيدة، راضية عن نفسها، أخيرًا أصبحت مفيدة، مفيدة فى ماذا؟ فجأة فكرت، عندها تذكرت وجه "اثوثينا"، وعينيها النابضتين بالحياة، الراضيتين، منشغلة بتخفيف أحلام شقيقتها، إفساح الطريق بين "فيلا" والعالم.

لأى هدف تخدم المعلومات عنهم الحركة؟ تساءلت، وهى تشعر ببعض الضيق، وهى تتذكر السهولة التى كانت تقدم بها الشقيقتان تفاصيل مشهد حياة الأسرة، وعاداتها، وهوسها، ولحظات سعادتها، وخلافاتهم مع الابن المراهق ـ فكرت أنها تحب التعرف عليه ـ كانت تسجل كل هذا فى ذهنها، مستعلمة.

كان يأخذ عليها "فيليبى" اهتمامها بحياة الجنرال وأسرته أكثر من اللازم، لكنها فكرت أنه أمر لا يمكن تجنبه، فالعنف لم يكن شيئًا طبيعيًا، فهى تعجز عن تخيل "سباستيان" و"فلور" و"فيليبى" يطلقون النار، ويصيبون الأهداف بهدوء، لا تتمكن من تخيل ذلك واقعيًا، مؤكد أنها ستغير رأيها عندما تتعرف جيدًا على أسرة الجنرال "فيلا"، فإن الموت فى لغة الحرس تعبير طبيعى، ويدربونهم ليروا الشعب كشىء واحد، بلا وجه، ترى ماذا يفعلون لينسونهم إنهم نابعون من هذا الجمع؟ لأن معظم هذا الحرس من أصول متواضعة، فلاحون، وحتى الجنرال "فيلا" نفسه لم يكن أرستقراطيًا، والزوجة والشقيقة ربما كانتا بنات أى معلم بمدرسة، أو موظف عمومى.

ربما كانت حالة التحول التى تمر بها جعلتها ترى الوجه العكسى لأناس مثل أسرة "فيلا"، وأنهم يكرهون أصولهم، وكل شىء يذكّرهم بأماكن طفولتهم، وأوضاعهم القاسية، وما أن دخلوا حالة من الرفاهية يكرهون كل ما يذكرهم بماضيهم، ويشعرون بالحاجة إلى الإحساس بالمسافة التى تفصلهم عنهم.

عندما وصلتْ إلى المنحنى الذى يوصلها إلى الحر مرة أخرى كانت أضواء المدينة تتلألأ، شعرت بموجة من الانقباض. كانت تود لو تعود لتطمئن إلى أن "سباستيان" فى حالة طيبة فى الطريق الذى تركته

فيه، لا تريد أن تفكر فى أن أى جنرال "فيلا" سيطفئ ابتسامته ويتركه فاقدا للحركة إلى الأبد.

***

إننى أتخيل ذلك الرجل الذى تخشاه هى، سيكون مثل أولئك الضباط الغزاة، يريد تعميد ونشر المسيحية على الآلهة الأخرى.

حكت لى أمى كيف أنه فى البداية، كان كهنتنا وإقطاعيونا ينظمون حملات للذهاب من أجل التعرف على الإسبان، وكانوا يحملون إليهم الهدايا من الأحجار الكريمة والذهب الذى كان يثير إعجابهم، لقد رافقت أبى فى واحدة من تلك الرحلات، قالت إنه كان مشهدًا استعراضيًا، كانوا نحو خمسين شخصًا يحملون طيورًا ونذورًا فى أيديهم، ويحملون عشر حمولات من ريش الطيور البيضاء. والنساء نحو السبع عشرة كن مزينات بالأحجار والأحجبة.

كانت أمى تتذكر القائد، كان يقف فى الخيمة التى كانوا يكومون فيها الهدايا، كان طويلا، ذو شعر أجعد وذهبى، تحدث مع كاهننا الأكبر، وطلب منه مزيدًا من الذهب، وقال له إنهم يجب أن يتعمدوا، وعليهم التخلى عن الآلهة الوثنية. ووعد أهلنا بالعودة بعد ثلاثة أيام.

كاهننا الأكبر لفت نظر الرجال بأنه الأفضل عدم الابتعاد عن معسكرات الإسبان. كان الغزاة يبدون قلة ويبدو عليهم الضعف عندما لا يمتطون وحوشهم من ذوات الأربع.

عاد الكهنة بعد ثلاثة أيام برفقة أربعة أو خمسة آلاف مقاتل، ولكن ليس من أجل التعميد كما يريد الغزاة بل لقتالهم، وهكذا هبطوا عليهم فتسببوا لهم فى تخبط كبير وتركوا فيهم الكثير من القتلى والجرحى. وطاردهم عدد آخر من الكهنة، وعندما عبروا أراضيهم هربًا استعادوا الهدايا التى كانوا قد قدموها لهم من قبل، لأنهم لم يكونوا آلهة ولا يستحقون لا المحبة ولا الاحترام.

هرب الغزاة، وبعد سير طويل مات فيه الكثير منهم تحت وابل سهام مقاتلينا، تمكن بعضهم من العودة إلى سفنهم، تلك البيوت العائمة الضخمة. وانسحبوا، وجرى احتفال كما قالت أمى، وشربوا العرق ولعبوا لعبة الطيران.

لكن الإسبان عادوا بعد عدة أشهر، ومعهم المزيد من السفن، والمزيد من الرجال من ذوى الشعر فى الوجوه، ومزيد من الوحوش والعصى النارية.

وفهم أهلنا أن الانتصار فى معركة واحدة ليس كافيا.

***

بدأت فساتين السهرات تخرج من الدواليب، وتذكرت وجه أمها المتلذذ عندما كانت فى أوروبا قبل العودة إلى "فاجواس" وإعدادها لإدخالها الحياة الاجتماعية من خلال غزوات فى مجال الأزياء الإسبانية والإنجليزية والإيطالية، بالنسبة إلى

"لافينيا" التى كانت حديثة التخرج، فإن مراقبة أمها الغارقة فى مهامها دون أدنى أمل فى إبعادها عن المحال الكبرى المليئة بالأزياء والفاترينات العاجة بآلاف الفساتين. لقد كانت تجسد المعنى المعمارى للحوانيت والمراكز التجارية الحديثة: حيث تذهب العيون فى أى اتجاه لتلتقى دائمًا بهذا العرض من الفساتين إلى جوار فساتين أخرى، وصفوف من الأحذية المتراصة، وجزر عامرة بمستحضرات التجميل والماكياج التى تبدو كدمى متحركة. إن الرؤية العصرية كانت قد خضعت لدراسة تفصيلية. كانت تقول "لوكريثيا" وهى تساعد على ترتيبها على السرير:

- لديك كميات كبيرة من الفساتين الجميلة، يمكنك الذهاب إلى حفل الرقص بأى واحد منها.

لا تعرف "لافينيا" لماذا ربطت بينها وبين مشهد "سكارلت او هارا" فى أول مشاهد فيلم "ذهب مع الريح". فقد كانت "لوكريثيا" تمثل الخادمة الزنجية، وهى تستعرض فستان عرس "سكارلت" على السرير.

الاختلاف الوحيد هو أن "لوكريثيا" لم تكن زنجية ولا سمينة، فبشرتها السمراء لا تزال تحتفظ بالشحوب الناتج عن النزيف الذى كاد أن يقتلها. والمؤخرة العريضة تخفى نحافتها. قالت "لافينيا":

- إننى أتذكر الفيلم الذى كنت قد شاهدته.

قالت "لوكريثيا":

- وأنا أيضا، فيلم كان اسمه "سيسى" عن أميرة تزوجت من ملك. تكونين على هذا النحو عندما ترتدين أيًا من هذه الفساتين.

ضحكتا معا، وتذكرت "لافينيا" ذلك الفيلم أيضًا، حكاية رومانسية من حكايات الخيال، كانت منتشرة عندما كانت هى فى المدرسة. كل الفتيات فى ذلك الزمن كن يرغبن فى التشبه بهيئة "رومى شنايدر". قالت "لوكريثيا" وهى تنظر بإعجاب إلى فستان أحمر مزين بقطع الألماس اللامعة والذى أخرجته من الدولاب:

- مؤكد أن تكونى أميرة شىء جميل.

ضحكت "لافينيا":

- لا تصدقى هذا، فالملك فى ذلك الفيلم، وفى الحياة الواقعية، قُتل...

- لا أصدق هذا!.

- إضافة إلى أنه يجب أن تتذكرى أن هناك أشياء أهم بكثير من الفساتين الجميلة.

قالت "لوكريثيا":

- عندما نمتلك الفساتين الجميلة... لكن لا يجب أن نشعر بالحسد، ولا الغيرة من اللاتى يملكن الفساتين.

سألت "لافينيا":

- أنت تعتقدين أن يكون الإنسان فقيرًا أو ثريًا هو قدر كتبه الله، أليس كذلك؟

قالت "لوكريثيا":

- نعم، بعضنا يولدون فقراء، وآخرون يولدون أثرياء، إن الحياة ما هى إلا "وادى من الدموع". لو كان الواحد منا فقيرًا، ولكنه يعيش شريفًا، يعرف أنه عندما يموت لديه احتمال كبير لدخول الجنة.

جلست "لافينيا" فى السرير، محدثة "لوركريثيا" عن الأثر التنويمى للخضوع المسيحى، الظلم هو أن أى إنسان مهمًا كانت أفعاله سيئة فى الحياة يهرب من مواجهة العذاب فى الآخرة لمجرد أنه ندم فى لحظة ما على ما فعل. وقالت لها إن هذا لا يعنى أنها لاتحترم إيمانها بالله، ولكن الأديان يصنعها الإنسان. ألا تعتقد أنه من الظلم أن يطالبوا بالخنوع وقبول الأمر الواقع للفقراء فقط؟ وسألت "لافينيا":

- ألا تعتقدين أنه فى الحياة وليس فى الآخرة فقط، فإن على جميع الأفراد أن تكون أمامهم الفرصة متساوية ليعيشوا حياة أفضل؟

قالت "لوكريثيا" مفكرة:

- من الممكن، ولكن ما يحدث هو أن العالم كما هو موجود وليس أمام الواحد منا سوى القبول بالواقع، وأن يفكر أن حظه يكون أفضل فى الآخرة.

قالت "لافينيا":

- لكن يمكن عمل شيء هنا على الأرض.

قالت "لوكريثيا":

- حسن، نعم، الدراسة والعمل.

وأضافت "لافينيا" بصوت منخفض، وهى تشك إن كان يجب عليها أن تنتظر رد فعل من جانب "لوكريثيا":

- أو النضال.

- حتى يقتلونى؟ لا أنا أفضل أن أعيش حياة فقيرة عن الموت، هذا الفستان قرضت الفئران أطرافه.

وأشارت "لوكريثيا" إلى طرف الفستان. قالت "لافينيا"، وهى تشعر بشيء من الحرج من ذلك الحوار فى وجود فساتين السهرة:

- وأنا أخرجت آخر مقروض أيضًا.

قالت "لوكريثيا" وهى تتفحص الفساتين:

- يمكننى أن أقصها، لا تزال فى حالة تصلح للاستخدام.

وضعت "لافينيا" الفستان على السرير واقتربت من المرآة، فريسة للحاجة الفجائية أن تجعل "لوكريثيا" تتغير حتى لو بشيء قليل. إنها الرمزية. وقالت:

-"لوكريثيا" سأطلب منك خدمة.

- قولى، قولى، يا صغيرتى "لافينيا".

وهى تنظر إليها مندهشة.

- لا أحب أن تعودى إلى قول "صغيرتى "لافينيا"، ولا تناديني بلقب حضرتك.

قالت خافضة عينيها:

- لكنى دائمًا ما كنت أناديك بهذه الطريقة... لاأستطيع الاعتياد على غير ذلك، لا أستطيع، لن تخرج منى.

قالت "لافينيا":

- حتى لو لم تخرج منك، ابذلى جهدًا، من فضلك... لا أحب أن تعاملينى كما لو كنت سيدة أرستقراطية.

- حضرتك سيدتى... كيف أناديك باسم "لافينيا"؟ إن هذا ليس احتراما، من فضلك لا تطلبى منى هذا.

- إذاً لو عدت إلى التعامل معى على هذا النحو، فانا سأعاملك بالطريقة نفسها، سأقول لك "صغيرتى "لوكريثيا"، وسأحدثك بلقب حضرتك.

نظرت كل منهما إلى الأخرى وانطلقتا فى الضحك، كانت "لوكريثيا" تضحك بعصبية، قالت:

- لا أستطيع، لا أستطيع، كيف ستنادينى "طفلتى "لوكريثيا".

وعادت للضحك من جديد.

- سترين.

- لا بحق الله، يا لها من أشياء غريبة التى تخطر لك.

قالت "لافينيا":

- لنصبح صديقتين، أريد أن نكون صديقتين.

نظرت إليها "لوكريثيا"، بعينين حزينتين، صديقتين؟ قالت عيناها، صديقتين؟

أجابت "لوكريثيا" خافضة بصرها فى حيرة، وكانت تضم مريلتها وتعصرها كما لو كانت يداها مبللتين وتريد تجفيفهما:

- حضرتك تأمرين. أنا ذاهبة لرفع الغسيل المنشور، ربما تمطر.

وخرجت من الغرفة بسرعة ناظرة باتجاه الفناء.

لن يقبلونى أبدا، فكرت "لافينيا"، وجلست على فساتين السهرة، ناظرة إلى ظلال المساء، فكرت، ما كان يجب أن أحدثها عن أى شىء. من أكون أنا حتى أقول لها أى شىء؟

كان قد بقى أسبوع على موعد الحفل الراقص عندما عثروا على الطبيب الشرعى قتيلا، لقد كان الشاهد الرئيسى ضد مدير سجن "لا كونكورديا"، تذكرت "لافينيا" بوضوح المحاكمة التى استمعت إليها بالإذاعة بينما كانت فى التاكسى فى طريقها لأول يوم عمل لها. حينها، مثلها مثل كثيرين، أُعجبت بشجاعة

الطبيب الشرعى، وخشيت على حياته مثلها مثل معظم الناس. فى "فاجواس" مستحيل ألا يدفع الشرفاء ثمن شرفهم إما بالرحيل أو الموت.

فالضابط الطبيب "فلورس" سرعان ما صفوا حسابهم معه.

عثروا على الطبيب ميتًا، فى سيارته بعد اغتياله رميا بالرصاص على حافة طريق "سان أنطونيو"، حيث كان فى طريقه لزيارة بعض أقاربه بتلك المنطقة. ولم تقدم السلطات تفسيرا للاغتيال رغم أن مدير السجن "لارا" المتهم كان فى إجازة من سجنه - لحسن سلوكه - خلال نهاية الأسبوع. لم يشك أحد فى أنه هو القاتل، وكانوا قد أشاروا إليه فى مانشيت الطبعة العاجلة لصحيفة المعارضة "الحقيقة" والتى تخاطفتها الأيدى فى صالة الرسم.

غطت المدينة حالة من الغضب الصامت، وسارت دوريات البوليس وازداد عددها على نواصى الشوارع.

تقرر موعد دفن الطبيب فى اليوم التالى صباحًا، وأنه سيكون حاشدًا، وما كان للجنرال الأكبر أن يمنع مئات الأشخاص الذين استعدوا للمشاركة فى مراسم الجنازة كعلامة على الاحتجاج. كيف يمكنه أن يمنع ذلك وهو الرجل العسكرى؟ ولا حتى الميت نفسه يمكنه أن يمنع تحول جنازته - كما تشير كل الدلائل - إلى مظاهرة كبرى أكبر من مظاهرة الخضر الكبرى التى انتهت بمذبحة.

كان "فيليبى" يتحدث تليفونيًا عندما دخلت "لافينيا" إلى مكتبه.

بعد أن اتفق على اجتماعات مع شخص ما فى نقطة محددة باليوم التالى صباحًا، وضع السماعة ونظر إليها. قالت "لافينيا":

- كلنا كنا نعرف منذ يوم المحاكمة، نعرف أن الضابط الطبيب "فلورس" سيقُتل، ما كان يجب أن يخرج من السجن.

أجاب "فيليبى":

- لكن منعه لم يكن فى يد من اشتبهوا فى ذلك.

سألت "لافينيا":

- ستذهب غدًا؟

قال "فيليبى":

- نعم، سأذهب مع طلاب كليتى.

قالت هى، بحزم:

- أنا لا أعرف مع من سأذهب، لكن سأذهب على أية حال.

فى هذه المرة لا يجب عليها أن تراقب من بعيد تقدم المظاهرة نحو المقابر، فالآن الوضع مختلف، فكرت "لافينيا"، متذكرة الصوت الهادئ للطبيب خلال الإدلاء بشهادته. وعلى الجنرال الأكبر أن يواجه الرفض الشعبى فى مواجهة هذه الجريمة التى لا شك

أنها أُرتكبت بموافقته الصريحة. وتشارك هى الآن فى هذا الرفض.

- لقد كنت أتحدث تحديدًا مع "سباستيان"، وقال لى لا يجب أن تذهبى إلى المظاهرة مطلقًا، يجب أن تكونى "نظيفة" وبشكل خاص الآن. قالت "لافينيا" غير مصدقة:

- لكن.

قال "فيليبى":

- هذا لا أقوله أنا، لقد قاله لى "سباستيان" الآن، وطلب منى أن أخبرك.

سألت هى، وهى تجلس أمام مكتب "فيليبى":

- لكن... لم لا؟ أنا لا أفهم.

- إنه أمر سهل يا "لافينيا"، لو تبذلين جهدًا، يمكنك أن تفهمى، جميع وسائل الإعلام ستكون هناك، وكم كبير من رجال الأمن، ودوريات الجيش... ومن المحتمل أن يظهر هناك حتى الجنرال "فيلا"، وليس من المستحب أن يخبره أحد أنك كنت هناك، أو تظهرين فى التليفزيون أو فى صورة فى إحدى الصحف.

وافقت هى بهزة من رأسها، كان مفهومًا، ويجب أن تتفهمه، قالت لنفسها، لكنه أمر صعب، منذ أن انضمت إلى الحركة، وهى تحاول هضم فكرة ترك "وضعها الاجتماعى"، لتتحول إلى نوع آخر من

الشخصية، والتغلب على انتمائها الاجتماعى، وتتشوق إلى اللحظة التى تشارك فيها بإيجابية، وكسر الخوف وقبول الالتزام بالمواجهة، ليس نظرياً، لقرارها، لكن يبدو أن الأشياء تسير على عكس ما تريد، يأمرونها باستغلال وضعها الاجتماعى والمهنى، والحصول على معلومات كمعمارية مكلفة ببناء بيت الجنرال "فيلا"، والعودة إلى حركتها الاجتماعية الاعتيادية، وحضور حفلات الرقص، وعدم المشاركة فى المظاهرة، لم تنتظر هذا على الإطلاق، فكرت، لم تتخيل مطلقًا الوضع على هذا النحو، وظاهريًا الشىء الوحيد الذى يمكنها خدمة الحركة فيه هو أن تكون ما كانت عليه من قبل. قالت، محركة جسدها فى المقعد:

- إنه أمر محبط، كنت أعتقد أن حياتى ستتغير جذريًا... ويمكننى المشاركة، وليس البقاء على الهامش كما اعتدت دائمًا.

بقيت على الهامش

بقيت على الهامش مع "سارا" و"أدريان". فى حالة انتظار بالبيت، كانوا جالسين فى الممر، يصغون إلى الأخبار، إلى جوار حديقة الشجيرات، فيما كانت التجمعات البشرية تسير فى الشوارع فى صمت باتجاه المقابر بين صف من الجنود المدججين بخوذات القتال وهراوات لإرهاب من يحاولون حضور الدفن.

حل الصمت على المدينة، و أغلقت المكاتب والحوانيت أبوابها، لم يذهب أحد إلى عمله فى تحد

لوسائل الإعلام الرسمية التى كانت تشدد على ذهاب الجميع إلى أعمالهم وعدم السقوط بين يدى المحرضين الذين يحاولون "استغلال الحادث المؤسف".

كان الانتشار العسكرى مرئيًا منذ الساعات الأولى للصباح، عندما كانت "لافينيا" تقود سيارتها باتجاه بين "سارا" و"أدريان" شاهدت عربات النقل العسكرية المليئة بالجنود المتجهين إلى الطريق العام الذى ستسير فيه الجنازة، وكنوع من الحزن وضعوا المدرعات على النواصى القريبة من المقابر، مدرعات مزدانة بأقواس من الزهور الجنائزية على مقدماتها المعدنية.

يحاولون إضفاء العسكرية على جنازة القتيل، والطائرات تحلق منذ ساعات مبكرة.

محطة الإذاعة الرسمية، والتليفزيون الرسمى، ينقلان الجنازة على الهواء مباشرة، مضفية عليها شكل الجنازة العسكرية للقتيل.

كانت كاميرات التليفزيون تتجنب إظهار الجماهير المتجمعة حول العربة الجنائزية والوجوه المحمرة والباكية للزوجة والأبناء.

على جانبى الشارع، كانت صفوف من الجنود، فى وضع انتباه خلف الدروع يحاولون منع خروج الناس عن مسارهم.

صرخة أو حركة متمردة ويتحول كل هذا إلى مذبحة نتائجها غير محسوبة، كان الحضور محاطين،

ومحكومًا عليهم بالسكون، والاحتجاج فى صمت، أى شىء آخر يصبح انتحارًا.

صامتون، بلا حركة تقريبًا، ينظر "لافينيا" و"سارا" و"أدريان" إلى الشاشة الصغيرة، تجمعهم الرهبة. كانت تكرر "سارا" كصلوات:

– أتمنى ألا يفعل أحد أى شىء، أتمنى ألا يفعل أحد أى شىء.

تخيلت "لافينيا" "فيليبى" وطلابه يسيرون فى صمت، فى انتظار اللحظة المناسبة. قال "أدريان":

– لن يقوم أحد بأى شىء، فقد خطط له الجنرال الأكبر بشكل جيد، لا أحد يستطيع أن يفعل شيئًا.

دخلت الجنازة إلى المقابر. قال "أدريان":

– انظرى يا "لافينيا"، ذاك هو الجنرال "فيلا".

كان يقف بالقرب من الشاهد. رجل ممتلئ، وله كرش بارز وشعر صقيل وأسود، وممشط بشكل باروكى، ركزت عليه الكاميرا عند مروره.

يمسك فى يده بهاتف نقال، شعرت هى تجاهه بالامتعاض، من المؤكد أنه يقود هذه العملية.

تم إنزال التابوت إلى المقبرة. وعزفت فرقة موسيقى عسكرية السلام الوطنى، وضع الحفارون الشاهد، وبدأت الناس المتجمعة فى الانسحاب عندما

تحطم الصمت، وسمعت صرخات، وشعارات منطلقة من خلف شواهد المقبرة: قتلة!، حرس من القتلة!، ضد الجنرال الأكبر!، عاشت حركة التحرير الوطنى!، وطلقات رصاص فى الهواء، وحركة جنود يجرون، والجماهير تجرى، وطلقات الرصاص، انقطع إرسال التليفزيون. وتم وضع صورة ثابتة للقتيل فيما كان صوت المذيع يعلن: "قدمنا لحضراتكم، أيها السادة، النقل المباشر للجنازة العسكرية للضابط "ارنستو فلورس".

أغلق "أدريان" الجهاز، خرج الثلاثة إلى باب البيت، وتحركوا بهدف عمل شىء، سُمعت عن بعد طلقات رصاص متفرقة. هتفت "سارا":

– آى، يا إلهى، والآن ترى ماذا سيحدث؟ من الأفضل أن نغلق الباب يا "أدريان".

عادوا إلى الصالة.

ذهبت "لافينيا" إلى المطبخ بحثًا عن كوب ماء، كان ذهنها يرسم صورًا لمطاردات وحشية، كانت تحاول عن بعد أن ترسل رسائل تحذيرية إلى "فيليبى" تطالبه بعدم المخاطرة، الأمر لا يستحق، الجنود فى الشوارع كثيرون، وهم لا يفكرون على هذا النحو، والأخطار لها شكل آخر.

خرجت إلى الصالة، "سارا" و"أدريان" يجلسان فى كراسيهم وينظرون باتجاه الحديقة، كانا غائبين كما لو كانا لا يريان شيئًا. يبدوان كصورة فوتوغرافية ساكنة

بملابسهما الرقيقة جيدة التفصيل، بين الأثاث، والطفايات وأدوات الزينة المتراصة فى حذق والشجيرات ذات الأوراق اللامعة، والحديقة الداخلية الصغيرة بزهورها الكبيرة، كان يمكنها هى أن تختار هذا، فكرت "لافينيا"، ناظرة إليهما كمسحورين، كما لو كانا قد دخلا إلى حالة بديلة، هذا كان يمكن أن يكون حياتها أيضًا. كل شىء مخطط له لتكون هى فى النهاية على هذا النحو، بزوج مثل "أدريان"، يدخن مفكرًا، تم إخلاء الطريق نحو ذلك فى لحظة ما فيما كانت هى فى الجانب الآخر، كانت تشاهدهما كما لو كانت تنظر إليهما عبر مرآة لا تعكسها هى أبدًا، كانت فريسة لرعب يجب أن تسكته، ولا تستطيع أن تدخل فى هذا العالم الساكن. قالت فجأة:

- سأذهب.

كاد "أدريان" أن يصرخ:

- كيف أنك ستذهبين؟ هل أنت مجنونة؟

قالت "لافينيا" وهى تتناول حقيبة يدها:

- لن يحدث لى شىء، لا يحدث أى شىء بالقرب من بيتى.

تدخلت "سارا" واقفة بانزعاج:

- لكن لماذا ستذهبين وحدك إلى بيتك؟

قالت "لافينيا":

- لا أعرف، فقط أعرف أننى لا أحتمل البقاء هنا أكثر من ذلك، ودون أن أفعل أى شىء.

قالت "سارا":

- لكنك معنا هنا، اهدأى.

كانت تعرف أنه الأفضل لها، أن تهدأ، لكنها لاتستطيع، لا تستطيع البقاء هناك. قال "أدريان":

- هذه ليست لعبة يا "لافينيا"، لن تخرجى من البيت مادمت أنا هنا.

أجابت "لافينيا":

- أنت لست زوجى، لا يمكنك أن تقول ما يجب أن أفعله وما لا يجب، أنا ذاهبة، دعنى أخرج.

سُمعت طلقات أخرى، "لافينيا" متعجلة تحاول الخروج، لكن "أدريان" حال بينها وبين الباب، وكان قويًا، ورغم أنه لم يكن طويلا كان جسده ممتلئًا ومفتول العضلات. رجاها "أدريان":

- تعقلى يا "لافينيا"، من فضلك، لماذا تريدين الخروج؟

لم تستطع الإجابة، فقط كانت تشعر بالحاجة إلى الذهاب من هناك، كيف تشرح له هذا؟ كيف تشرح له أنها لا تريد أن تبقى فى هذا العالم الذى لاتشعر بالانتماء إليه؟ شيئًا فشيئًا، بدأ النبض يخضع للعقل، لماذا تريدين الخروج؟ إنها لا تستطيع أن تنضم إلى المتظاهرين الذين يسيرون الآن فى الشوارع وربما يحرقون الباصات، ويعبرون عن الغضب من إجبارهم على مرافقة الجسد بين الجنود فى صمت... لم يكن

باستطاعتها فعل أى شىء آخر سوى الانتظار، تمامًا مثلهما.

***

لماذا الاندفاع؟ ما الذى جعلنى أدفع بها إلى الخارج، إلى هناك حيث تُسمع أصوات المعركة؟ أنا نفسى لا أعرف، شعرت بالحاجة العميقة إلى قياس قوتى؟ أم عاد إلى داخلى صدى ذكريات العصى النارية؟

ما كان يجب أن يحدث، أنا خانعة داخلها، لاأعرف هذا المناخ، ولا خطاباته ولا قوانينه، لا أعرف قياس تلك الأخطار المجهولة.

اعتقدت أننى بعيدة عن اندفاعات الأحياء، لكن الأمر ليس كذلك، عندما تكون رغبتى قوية جدًا، تشعر بها هى بقوة يمكننى أن أتخيلها. يجب أن أكون حريصة، سأنطفئ فى دمها.

***

قالت "لافينيا" فيما بعد:

- لا أعرف ماذا جرى لى.

- ١٥ -

فى أيام قليلة تحول الغضب الكبير إلى هدوء حذر، هكذا كان الوضع فى "فاجواس"، تتجمع القوى، وفجأة تنطلق وبعدها ـ تمامًا مثل الأرض عندما تنتفض ـ يعود المشهد إلى وضعه المعتاد.

لم يحدث أى شىء غير عادى، فقط مجرد إشارات إلى الجانب المظلم من البلاد، ثلاثة قتلى وعشرات من الجرحى، والمعتقلين، وباصات محترقة، وواجهات محال محطمة، وتدخل الراعى الكنسى، "والحرس الوطنى يحافظ على النظام بطول البلاد وعرضها".

عاد "فيليبى" وطلابه إلى دروسهم الليلية، لم يصب أى منهم أو يُعتقل، لم ينضموا إلى صفوف الذين كانوا الأكثر حماسًا، حافظوا هذه المرة على اكبر قدر من الحذر.

قال "فيليبى" معترفًا بمدى صحة رؤية "لافينيا": "كان الأمر سيصبح انتحارًا، مقابل كل واحد أعزل منا هناك عشرة جنود مدججين بالسلاح، من أطلقوا الشعارات يبحثون عن الإثارة".

استمرت الاستعدادات لحفل الرقص.

ذهبت "لافينيا" إلى المغسلة لاستلام فستانها الذى كان "براقًا كالفجر فى ساعات قليلة"، كما تعلن المغسلة، المكان الوحيد الذى يقدم خدماته السريعة. أصحابه لطفاء وشقر البشرة من مهاجرى إحدى البلاد المجاورة، زوج متكامل فى البيت والعمل يتحركان فى هدوء خلال الصفوف الطويلة من الفساتين والبذل المحفوظة فى أكياس بلاستيكية تظهر عليها رسومات العلامة التجارية المكونة من وردة حمراء واسم المغسلة بطول الكيس مكررا بعدد مرات لا تحصى.

من حافة المحل وبينما كانت تنتظر، لاحظت وجود الكثير من فساتين السهر وبذل الأسموكنج التى تدل على اقتراب موعد حفل الرقص ونسيان المظاهرات والقتلى والرصاص.

بدا لها اصطفاف تلك الملابس شاذًا على شماعاتها المصطفة على أعمدة معدنية. ما إن التقطت صاحبة المحل الإيصال بإصبعها حتى اختفت بين غابة الملابس بحثًا فبما كانت هى تفكر فى كيف أن هذه الأقمشة ستعود إلى الحياة، وإنها سرعان ما تلتف على أجساد نحيلة وسمينة، وبشرات محمية بالكريمات الفزستقية وأنواع أخرى رقيقة من البذور، محمية من الشمس لتلمع بلونها النابع من الحليب والصدف.

سيكون مهمًا رؤية الرقص بعيون أخرى، فكرت، الوجود داخل الاستعراض وفى الوقت نفسه مراقبته من خارجه. قالت السيدة، مُخرجة إياها من تأملاتها:

ـ إنه هنا.

عندما وصلت إلى بيتها كان التليفون يرن، أسرعت لرفع السماعة خشية أن يكون قد بدأ رنينه قبل فترة، وأن يكون المتحدث هو "فيليبى"، ولا يعثر عليها. وصلها صوت الذى لا يخطئ فأصابها بالتشوش:

– "لافينيا"؟ "لافينيا"؟

– نعم، أنا.

– لقد التقيت اليوم مع "سارا" وقالت لى إنك ستذهبين إلى حفل الرقص.

– نعم؟

– لا، لا شىء، فقط كنت أود أن أعرف إن كنت بالفعل ستذهبين.

– نعم، سأذهب.

– أى، يا ابنتى، لا تعرفين كم يسعدنا هذا... لا تعرفين كم يسعدنا هذا وأنه يمكنك الذهاب معنا.

– لا أستطيع يا أمى، لقد تواعدت مع "سارا" و"أدريان".

لكنهما لن يرفضا فيما أعتقد، ألا ترين أنه من الأفضل أن تذهبى معنا بدلاً من الذهاب مع زوجين حديثى الزواج؟ سيكون أفضل اجتماعيًا.

- لقد تزوجا قبل أكثر من سنة يا أمى.

- نعم، أنا أعرف، لكن هذا وقت قصير، فما زالا حديثى الزواج، وسيكون حديث الناس أن نذهب كل منا وحده، يكفى ما قيل منذ أن غادرت البيت، وأنت لاتزالين عزباء.

كان عليها أن تفترض هذا، وكان قد خطر على بالها فى لحظة ما لكنها استبعدت أن يحدث، فلم تفكر أنه رغم كل شىء فإن أمها ستهاتفها، رغم أنها تعرف أنها تهتم بظهور ابنتها وحيدة فى حفل الرقص.

كان يجب أن تُحذر "سارا" ألا تخبر أحدًا، لن تتوقف دهشتها أبدا أمام اهتمامات أمها.

-لا تنزعجى كثيرًا يا ماما، أنا كبرت... ماذا يمكن أن يقول الناس ما لم يقولونه بعد؟

- أبوك وأنا نحب أن نأخذك معنا، ليس طبيعيًا أن نبتعد عن بعضنا، إنه شىء سيئ للغاية.

بعد أشهر من الفراق، ولم تفكر حتى الآن إنه أمر سيئ للغاية.

- لكن هذا هو الوضع يا ماما، وحفل الرقص لن يغيره.

ـ ربما تستطيعين الآن الاستماع إلينا، رغم كل هذا فنحن أبويك، لا يمكننا أن نظل طوال الحياة على هذا النحو.

حفل الرقص، والابنة المدهشة، كل واحدة مرتبطة بالأخرى.

ـ لا يمكن الذهاب معكما، ماما، لقد وعدت "سارا".

يمكننا أن نلتقى هناك، يمكننى الجلوس معكما لبعض الوقت، لن يكون سيئًا أن أجلس معهما، يمكن أن يضيف إليهما شيئًا.

– هذا ليس حلا، يا ابنتى...

– ماما، لا تحاولى، من فضلك...

– حسن، لكنك ستجلسين معنا لبعض الوقت، أليس كذلك؟ مؤكد؟

– نعم، ماما، مؤكد، كيف حال أبى؟

– إنه يعمل كالعادة، لم يعد من المكتب بعد.

– أبلغيه تحياتى.

– نعم، يا ابنتى، هل أنت متأكدة أنك لا تريدين الذهاب معنا إلى حفل الرقص؟ من المؤكد أن "سارا" لن تغضب.

– لا يا ماما، لقد قلت لك لا، لا تجعلينا نغضب من بعضنا.

– حسن، يا ابنتى، حسن، ستجلسين معنا إذًا؟

- نعم، ماما.

حسن، لقد سعدت كثيرًا لأنك ستذهبين إلى حفل الرقص. نلتقى هناك إذًا.

- نعم، ماما.

- حسن، إذًا إلى اللقاء.

- إلى اللقاء ماما.

نظرت إلى السماعة دون أن تضعها مكانها، وكان الصوت الحاد يسرى طويلا فى يدها.

كانت أمها طويلة القامة وجميلة، فى طفولتها، كانت رؤيتها تسبب لها إحساسًا بالدهشة والفخر، فى اجتماعات المدرسة، عندما كانت أمهات الرفيقات يجلسن فى الصفوف، كانت تفكر فى مدى رغبتها فى وجود أمها بينهن، لأنها ستكون الأطول والأجمل، لكن مثل تلك الاجتماعات كانت تتسبب لها فى عدم الراحة ولم تحضر أى منها أبدًا، كانت تقول: "إنها غير مفيدة، إنها تضييع للوقت".

كان جمالها يستهلك كل وقتها، قبل وبعد لعب الورق مع صديقاتها، تستقبل أباها وأصدقاءه.

لم تجدها إلى جانبها إلا عندما جاءت إلى أوروبا لتشترى لها "الشوار" المناسب لها استعدادًا لعودتها إلى "فاجواس". فى تلك المرة جرجرتها فى مسيرات طويلة للشراء والحديث بلا تعب عن الموضة والعادات والتقاليد والفنادق والمطاعم.

لقد كانت صورة بعيدة جدًا عن "لافينيا"، غير مرئية.

عندما كانت تشتاق إلى أحضانها، عندما كانت صغيرة جدًا، تتذكر بعض قصص الخوف من المربية، كانت تجد من أمها التعبير الرافض "لا تكونى سريعة البكاء".

منذ صغرها كانت تشعر بأن أمها لا تحبها.

لحسن الحظ كانت هناك العمة "إينيس"، تذكرت، كانت تمسح لها دموعها، التى كانت تغيب عنها فى الأثاث المحيط بها.

لأن عمتها "إينيس" كانت تحب احتضانها، ومداعبتها، وتشترى لها الحلوى، وتحب ضمها فى سريرها وتحكى لها حكايات بينما تدغدغ شعرها. كانت مثل "لافينيا" متعطشة للحنان.

كانت تحذرها أمها "أنت تتسببين فى سوء تربيتها"، وكانت هى تصاب بالرعب خوفًا من إبعاد عمتها عنها.

لكن أباها كان يدافع عن شقيقته. "إنها وحيدة، المسكينة، الطفلة الشىء الوحيد الذى يسعدها".

تقول "ناتاليا" صديقتها الإسبانية: "لقد أنقذتك العمة من الضياع".

لكن لا أحد استطاع أن ينقذها من غياب الأم.

وهذا لأنها كانت أمها، إنها الغياب.

كان يجب أن تفترض أنها ستهاتفها بسبب حفل الـرقص، من المستحيل ألا تـنـزعج مما ستقوله صديقاتها.

مع ذلك من المذهل ألا تهاتفها إلا بسبب هذا فقط.

انتبهت إلى أنها لا تزال تمسك بالسماعة فى يدها، فالصوت الطويل للرنة تحول إلى صوت متقطع، وضعتها وواصلت البكاء.

لقد بكت من أجل كل ما كانت تريد أن تبكى من أجله.

استيقظت مكتئبة، وازداد اكتئابها أكثر بعد مرافقة "سارا" فى المساء إلى الكوافير، الشىء الوحيد الذى عوضها عن فترة الانتظار ومشهد كل هاتيك النساء من ذوات الأقدام الرقيقة والتعامل الذى يستقبلن به، هى الصدفة السعيدة بلقاء للشقيقتين "فيلا". لقد دخلتا بإحساس كبار السيدات لإعدادهن للرقص، الذى كان فى الليلة نفسها، يقيمه الجنرال الأكبر فى نادى القوات المسلحة. قالت لها السيدة "فيلا" برنة مؤكدة لم تشعر بها: "لقد طلب زوجى الانضمام إلى عضوية النادى الاجتماعى، ولكن بما أنه قدم طلبه حديثًا، من المؤكد أننا لن نذهب إلى حفل الرقص حتى العام المقبل"، وأكدت "سارا" بعد ذلك أنه "بما أن الجنرال الأكبر، يرى كيف لا يقبلون ضباطه فى نادينا، قرر إقامة حفل رقص فى اليوم نفسه فى الكازينو العسكرى حتى لا يشعرون بأنهم أقل من".

فكرت "لافينيا" فقط فى أنه من حسن الحظ أنها التقت بالشقيقتين، وأن تقول لهما إنها ذاهبة إلى حفل الرقص، لقد كان اللقاء بهن فى الكوافير الأكثر أهمية بالمدينة.

عند عودتها إلى بيتها، أعدت لنفسها كوبًا كبيرًا من عصير البرتقال بمكعبات من الثلج، ودخلت إلى غرفة نومها لتستريح قليلا قبل ارتداء ملابسها استعدادًا لحفل الرقص، تمددت فى السرير مرخية عضلاتها، متخيلة نفسها فى طوف عائم على سطح الماء تحت شمس ساطعة. كانت فى حاجة إلى الاسترخاء، كانت مشدودة الأعصاب ومستثارة، كانت تشاهد الفستان الأحمر كما لو كان على شاشة، وهى تدخل صالونات النادى، وتقع عليها النظرات، فيصمت ضجيج الأكواب، على صوت موسيقى الاوركسترا التى تعزف بالشرفة، كانت تنظر هى إليهم من بعيد، تشعر بقوة اختلافها عنهم، تخيلت رد فعلهم، وأقدامها تتحرك على حافة الفستان بخطوات متحدية كراقصة فلامنكو، وقماش الفستان الرقيق يحف بكعبيها على الأرضية الرخامية البراقة. والصغار رفاق طفولتها قد تحولوا إلى رجال، يعانقونها بخوف، تفوح منهم رائحة الكولونيا وروائح التنظيف الكيميائية فى ياقات السموكنج.

كانت هى تبتسم، بدلال، وتشرح طريقة حياتها كمهندسة معمارية فتدخل فى الحوار جرعة من الملل الضرورى لتجعلهم يفكرون أن الطفلة التى أنهت لعبة الدمى بدأت تمردها الجديد واستقلاليتها.

استدارت فى السرير، شعرت بجسدها فاترًا ومتعرقا، فالعزلة فى سريرها هذا المساء لا حدود لها. ولا أحد يستطيع أن يفسر لها الإثارة التى تشعر بها لعودتها إلى ارتداء ذلك الفستان الأحمر من جديد، أن تستعرض نفسها الآن يكون مثيرا. كانتقام تقريبًا، أن تستعرض الآن فى وقت لا أحد يستطيع أن يلمسها، أو يخترق حميميتها، أو يهددها بزواج أبدى، إنه القلق المغلف بالنجاح. الإحساس كان فلسفيًا ومتناقضاً فى الوقت نفسه، لا تستطيع أن تنكر أنها تشعر باللذة من فكرة مشاهدة بعض الصديقات. فقط كان إحساسها باللذة الميكافيلية تقريبًا. تماما كاللذة التى شعرت بها بتخيلها لوجوه المهندسين الشباب الذى تخلوا عن تحضرهم فى مواجهتها، والاحترام الذى يكنونه للعذراوات الخافرات، ويتركون أنفسهم فريسة لغوايتها المحسوبة، فقط ليصلوا فى النهاية إلى الإحساس بأى أمل، وأنه لم يكن سوى لعبة فقط. لا تستطيع أن تقول شيئًا أمام هذا كله، وإنهم سبحوا فى اتجاه معاكس فى مياه تعرف وجهتها ومصيرها، وحتى الحقيقة اللذيذة كانت مقلقة.

فكرت: هل تخدع نفسها؟ إن كانت تصنع لنفسها بطولة روائية غبية مثل أى من صديقاتها بلعب دور العذراوات الخافرات؟ لا، فكرت، إنها لم تكن مثلهن، بالنسبة إليها فإن الذهاب إلى حفل الرقص كان عودة نهائية، عودة للخروج من الداخل، الدخول إلى مناخ عالمها كغريبة لتغادره نهائيًا، تخونه، تتآمر ضده للقضاء على هذا العالم النحاسى المصطنع.

وهكذا يجب أن يكون، لم تكن نادمة، لم تكن لديها رغبة فى الاستمرار، لكن ما كان لها أن تتذكر أصوات تلك الأجواء والمناخ الذى كانت محاطة به دائما فى كل حياتها والذى يجب أن ينفجر فى يوم ما، أن يختفى... وعندما يحدث ذلك، تكون هى فى الجانب الآخر، إلى جوار الصندوق الأسود حيث يدمر المفجر، حيث تشعل الأيدى الحريق.

وربما مثل "فيليبى"، ومثل الرجال الذين نشأوا على هوية محددة، وبشرة عميقة، صعب انتزاعها فتعانى من بشرتها الأصلية، الخفية، المتحفزة، خلف الهوية الجديدة التى ترغب فيها.

أغلقت عينيها وشعرت بضربة من الغم، كانت تود أن تبكى لشعورها بالوحدة، والضياع فى أرض خالية، لأنها لا تزال غير محددة فهى لا هنا ولا هناك، وإن ما تريده مجرد رغبة فقط، رغبة حارقة مجردة تجرى فى حقيقة حقلها المغناطيسى، الإبرة التى تشير إلى الوجهة النهائية. تتجه نحوها متعثرة، تتعرى، مندفعة بقوة غريبة.

أنهت آخر رشفة من عصير البرتقال.

فتح مفتاح "فيليبى" الباب. سمعته يبحث عنها بالبيت:

ـ يووو... أهلا "لافينيا"؟

– أنا هنا فى غرفة النوم.

دخل "فيليبى"، رأته محمرًا، وبقع من العرق على القميص، انحنى ليقبلها، تشممت هى عنقه، كانت

تحب عرقه، شيء بدائي وجذاب في بشرته الغارقة في العرق، بمذاق ورائحة ماء البحر. قال "فيليبي" ممررا يده على رأسها:

- شعرك يفوح برائحة حلوة.

قالت "لافينيا" ضاحكة:

- إنه شامبو حشائش ذكية، السيئ في الأمر أن جميع النساء في حفل الليلة ستفوح منهن الرائحة نفسها! لو كنت كلبًا وتبحث عني الليلة من خلال رائحتي فإنك ستنتهي بالتعثر في واحدة من الشقيقتين "فيلا"، لأنهن كن في صالون التجميل نفسه، فقد قرر الجنرال الأكبر تنظيم حفل للعسكريين، الليلة أيضًا، إنه حفله الأول، بنادي الترفيه العسكري. قال "فيليبي" وهو يجلس على حافة السرير:

- هكذا إذًا يقيم الجنرال حفلاً راقصاً أيضًا.

- نعم، كما تقول "سارا" إنها طريقته في تعويضهم عن احتقار إدارة النادي الاجتماعي لهم.

- إنها حركة جيدة... الترفيه عنهم حتى لايشعروا بأنهم مرفوضون من جانب الأرستقراطيين، وخلق حياة اجتماعية خاصة بهم. فالجنرال الأكبر ليس غبيًا، يعرف متى يكون ضروريًا إقامة السيرك.

- وسيكون سيركًا متكاملاً، طبقًا لمعلومات آل "فيلا".

- مؤكد أنه سيكون حديثًا شائعًا فى حفلك، مدهش، وسيكون مفيدًا معرفة ما يفكر فيه الأرستقراطيون، لديك عمل كثير الليلة.

- الأرستقراطيون لن يقبلوهم أبدًا، إنهم يحتاجونهم لكنهم يحتقرونهم، وهذا يعرفه الجميع.

- لكن حتى الآن لم يحدث أى تضارب بينهما فى أى حقل، كل منهما كانت له منطقته المحددة بوضوح، وكلما شعر الجنرال الأكبر أنه مهدد فإنه يقوى من رجاله، وقد منحهم مؤخرًا أعمالا تجارية جعلتهم ينافسون الأرستقراطيين، وهذا لن يرضى به أصدقاؤك أبدًا، أنا مقتنع من أنه مادام يريد تقوية العسكريين فإن الجنرال الأكبر يخلق تناقضات لايتخيلها ولا هو نفسه، تناقضات يجب أن نعرف كيف نُقيّمها حتى نستغلها.

- وهل تعرف أنت أن الجنرال الأكبر يشعر أنه مهدد؟

- أعتقد أنه قلق، لقد اعتقد أنه يمكنه أن يقضى على وجودنا فى الجبال بسهولة، تمامًا كما قضى على محاولات الانقلابات العسكرية للخضر، لكن هذا لم يحدث، نحن ننمو. وكان عليه أن يرسل إلى الجبال بالكثير من القوات. وأصيبوا بالكثير من الخسائر، ومظاهرة الأمس... أنت عصبية.

- لكن ما زلت أعتقد أنه لا يشعر بالتهديد.

- لا، ليس بعد، ولكن رجاله يخاطرون الآن أكثر

وهو يشعر بضرورة إرضائهم، الحفاظ على الجيش راضيا أصبح أكثر أهمية له.

قالت "لافينيا":

- كنت أحب أن أرى حفل الرقص فى الكازينو العسكرى من ثقب الباب... وأتساءل كيف ستعيشه الآنسة "اثوثينا".

قال "فيليبى":

- لا أعتقد أنها ستعانى كثيرًا، يبدو أنها راضية بدورها كشقيقة لزوجة "فيلا"، على الأقل من خلال ماتقولينه عنها.

- نعم، لا يبدو أنها تعيسة، تغتنم فرص شقيقتها دون أن تقدم مقابلاً.

قال "فيليبى"، غامزًا بإثارة:

- يجب أن تقتربى منها أكثر... إن لم تكن راضية. يمكننا أن نرضيها حتى بتقديم عريس لها.

وأضاف مقتربًا من الفستان متفحصًا من خلال كيس البلاستيك:

- هل هذا الفستان الذى سوف ترتدينه؟

- نعم، ويجب أن أبدأ فى الاستعداد الآن، إنها السادسة والنصف.

- ولكنهم لن يمروا عليك قبل الثامنة؟

- نعم، لكن يجب أن أستحم، وأتزين، وأنا لا أحب السرعة.

فى البداية اقتربت منه "لافينيا"، وضعت رأسها على صدره، كانت فى حاجة إلى احتضان "فيليبى".
قالت بصوت بعيد عن السخرية:

ـ أنا عصبية.

قال "فيليبى"، مبعدًا لها عنه وناظرًا فى عينيها:

ـ من أى شىء؟

– لا أعرف... من العودة إلى النادى، أشعر أننى غريبة، فأنا ما زلت لا أعرف من أكون.

قال "فيليبى":

– أنت رفيقة فى الحركة، ألا تقولين إنك متأكدة من هذا؟

– نعم، أنت محق، إنها أشيائى البلهاء.

ابتعدت عنه مقتربة من الدولاب لإخراج منشفة نظيفة، لا تريد أن تتحدث عن هذا مع أى شخص، فكرت، لأنهم لن يفهمونها، لا هؤلاء ولا أولئك. عليها أن تحتمل شعورها بالخطر وحدها. سألت "فيليبى":

– فى أية ساعة يجب أن تذهب؟

– فيما بعد عندما أراك مرتدية فستانك، أريد أن أراك فى هذا الزى التنكرى.

خرج باتجاه المطبخ قائلا إنه سيعد شيئًا لأنه جائع.

لم يـر أنها مـتنكرة عنـدمـا شـاهـدهـا مـرتـديـة الـفـسـتـان ومـتـزيـنـة، وعـنـدمـا خـرجـت من الـبـيـت مـع "أدريان" و"سارا".

ظل يراقبها عندما كانت تتزين، ويهزل معها طوال الوقت، مـحاولاً إخفاء قلقه بإبداء عدم الاهتمام، كلما تشـكلت صـورتهـا التى سيـراهـا بهـا الحـضـور فى حفل الرقص، كان يصمت، وبدت على نظرته الشكوك.

بدت "لافينيـا" رائعة أمام نفسـهـا فى المرآة، كانت قد نـحلت قليـلا وكان الفـسـتان يسـقط عـلى جسـدهـا برقـة أكبـر، وكان اللون الأحمـر يبرز فى تقاطعه مع لون بشـرتهـا الأبيض والـعنق القـاتم علـى الكتـفين. والحـذاء ذو الـكـعـب الـعـالى مـنـحـهـا مزيدًا من الـتـشـكيل ويبـرز صورتها أكثر.

قـال لـهـا "فيـليـبى" ضـاحـكًـا: "أنت الـصـورة الحيـة للبـرجوازيـة الـنـاجـحـة"، ضـحـكت هـى بـلا رغـبـة، فـهـمت من الجـمـلـة الـتـنـاقـض الـذى أصـاب "فـيـلـيـبى" بـسـبـب صـورتهـا المـرفهـة، فكرت، أن له تـنـاقـضـاته، يـنـظـر إليـهـا تـمـامًـا مثل نظـرة الجـالسين على مقـاعـد المستشفى. وربمـا تفسـيره بأنهـا "لا تـزال غيـر نـاضـجة" له عـلاقـة بهذا.

فى صمت، متكئة على المقعد الخلفى للسيارة فى طـريـقـهم إلـى الرقص، مخـتـرقين الطـريق الـعام المحاط بـأشـجـار الـنخيل، كانت تتذكر كـلام "فـيـليـبى" الـسـاخـر

عندما جاء "أدريان" و"سارا" لمرافقتها، والطريقة التى نظر بها إليهما - وبشكل خاص "أدريان" مرتديًا السموكنج - ووعدهم برقة شديدة، وبدا كما لو كان قد قال لها "نلتقى فيما بعد" من الطرف الآخر من حفرة عميقة كما لو كانت فى فيلم سينمائى تنشق فيه الأرض ورجل وامرأة عاشقان ينفصلان بجرف عميق. سأل "أدريان":

- هل أنت مستريحة فى الخلف؟ هل تريدين أن أزيد من برودة المكيف؟

قالت "لافينيا":

- لا، لا، أنا مستريحة لا تزعج نفسك.

مروا عبر أحياء مهمشة، أحياء بيوتها من الكرتون والأخشاب وشوارعها غير مسفلتة وسيئة الإضاءة، وبؤساء جالسون على الأرض المرتفعة، سيظلون هناك إلى أن يخصصوا لهم مناطق أخرى "أكثر مناسبة". أكثر بعدًا عن الرؤية. لا يكشفون فيه عن البؤس الذى يعيشونه، أو حتى تبيع البلدية الأرض وتطردهم منها.

وأخيرًا خرجوا إلى الطريق العام الواسع المضىء. وبعدها بقليل اتخذوا الطريق الخاص الذى يؤدى إلى مدخل النادى. كانت هناك صفوف من السيارات التى تنتظر المرور عبر مدخل المراقبة. تتوقف السيارات، ويبرز سائقوها الدعوة ليرتفع الحاجز - الذى

يستخدم مثله لعبور قطارات السكة الحديد على الطرق ـ وحتى يمكن التأكد من عدم مرور الذين لم ينضموا إلى هذا العالم الخاص.

كانت ملاعب الجولف مضاءة بأضواء على الأشجار، وأيضًا ملاعب التنس كانت أضواء اللعب الليلية مضاءة، حيا "أدريان" البواب وارتفع الحاجز، وأمام حاجز الدخول يقف سائقو سيارات المرسيدس بنز اللامعة، والجاكوار والفولفو، وسيارات أمريكية ضخمة وموديلات يابانية حديثة، ويفتحون الأبواب ليهبط منها أزواج يرتدون السموكنج وملابس السهرة.

فى منطقة حمّام السُباحة، كانت الأوركسترا تعزف " bossa nova "هبطوا من السيارة، كانت "سارا" تبدو سعيدة ومستثارة، ونفخ "أدريان" صدره عن المعتاد، كانوا فى حالة عصبية، تمامًا مثلها، فكرت "لافينيا"، مرت يدها على شعرها وفردت الفستان، أخذهما "أدريان" من ذراعيهما، وسار فى المنتصف بينهما، متفاخرًا.

تساءلت "لافينيا" ما الذى يفكر فيه "أدريان"؟ كثيرًا ما كان يأخذ عليها تمردها، كان مدافعًا غريبًا عن "الوضع الاجتماعى" رغم كلامه الكثير عن شجاعة المتمردين، فهو لا يقبل تمسكها بالتمرد النسوى، ويرفض علاقتها غير الرسمية مع "فيليبى"، وهو أيضًا، مثل أمها، يرى أن حضورها الرقص إشارة إلى عودتها لتحتل موقعها فى الواقع.

كان الصالون يبرق تحت إضاءة اللمبات الزجاجية الكبيرة، المزينة بهدايا من الزهور، فتلقى بأضوائها على المجموعات متعددة الألوان المرتدين ملابس السهرة، والصدور العارية والجواهر التى تتحرك فى موجات من جانب إلى آخر، فى انتظار البداية الرسمية للرقص. وفى منطقة الطاولة كانت ترن الضحكات الممزوجة بكريستال الكئوس الممزوجة بالثلج، والشمبانيا والويسكى.

ينفتح الصالون على شرفة إلى جانب حمّام السباحة الضخم ذى المياه السماوية، المضاء بعواكس مائية، وتم إنشاء ممر فوقه لعبور المبتدئين فى الرقص، وتطفو على الماء زهور لوتس ضخمة، طبيعية، استجلبت خصيصا من ميامى.

كان "أدريان" قد حجز طاولة بالقرب من حمّام السباحة، ليشاهد الاستعراض بشكل أفضل. فى الطريق إلى الطاولة، خلف النادل المكلف بقيادة الضيوف إلى طاولاتهم، كانت تسمع "كم مر من الزمن بدون رؤيتك، أنت جميلة جدًا، آمل أن تشاركينى رقصة" ورافقتها تعبيرات مثل: "لافينيا"! أخيرًا ظهرت!. قالت "سارا" عندما كانت تجلس:

- يبدو

- إنك أكثر شعبية من أى وقت مضى!.

قال "أدريان" سعيدًا:

ـ بدأت أشك أن إلحاحك كان جزءًا من خطة لزيادة الطلب وزيادة عدد المعجبين الراكعين تحت قدميك.

قالت "لافينيا" بابتسامة غامضة، وهى تستنشق هواء الليل الطازج، فيما كانت تنظر إلى زهور اللوتس فى حمّام السباحة والجسر الذى ستعبر عليه الصبايا المبتدئات"

ـ لقد اخترت مكانًا جيدًا.

ما أن جلست حتى مرت بعينيها على كل الصالون: كانت الطاولات مغطاة بالمفارش ومزينة بالزهور، كان أكثرها قد أُحتل، بينما طاولات أخرى عليها لافتة "محجوز"، من طاولة إلى أخرى، كانت النظرات تتفحص قصّات الشعر، والفساتين، والمحاولات النسائية لتوجيه التحية من بعيد، والتعرف على الملابس من خلال حوارات تليفونية أو من خلال تعليقات أشهر المصممين. لم تشاهد أبويها، لم يكونا قد وصلا بعد أو ربما كانا مختفيين خلف أحد الأعمدة السميكة المغطاة بالزهور والشجيرات. ربما تعثر عليهما عندما يبدأ الاستعراض ويجلس المدعوون.

من بعيد، تعرفت "لافينيا" على صديقة منذ أيام المدرسة وحيتها، وكثير من الزوجات متعلقات بأذرع أزواجهن، "انطونيو" و"فلورنثيا"، حياها بقوة من طاولة قريبة حيث تجمعت مجموعة أصدقائها القدامى، وقفت تحييهم بضجة فى فستانها الأحمر. قال "انطونيو" ساخرًا عندما اقتربت هى:

ـ يبدو أننا سنعتاد على رؤيتك فى هذه الأماكن الحقيرة.

قالت "ساندرا":

ـ لقد هجرتينا تمامًا.

أكدت "لافينيا" ضاحكة، وسعيد بلقائهم:

ـ لا، لا شىء من هذا، لقد مرت موجة الجدية.

وسأل "أنطونيو":

ـ وموجة "فيليبى" هذا؟

قالت "لافينيا" غامزة بعينها:

ـ لا تكن فضوليًا.

عبر رئيس النادى الصالون متجهًا إلى الميكروفون. قالت "فلورنثيا"، بنغمة تلميذة مدرسة:

ـ لقد بدأ.

عادت "لافينيا" إلى الطاولة مع "سارا" و"أدريان" وجلست عندما بدأ الخطاب.

-مساء الخير، أيها الأعضاء الأعزاء.

ارتفعت الأصوات الناجمة عن الحركة العامة للعودة إلى الطاولات، وبدأت الهمسات المثيرة تنخفض مع بداية الاستعراض منتجة صمتًا ضروريًا لسماع كلمات رئيس النادى، الذى واصل بنغمة رسمية:

"مثل كل سنوات تراث نادينا، نلتقى اليوم فى الرقص السنوى لنحيى الجميلات والفتيات

الناضجات، بنات أعضائنا الشرفاء، واللاتى سيجرى تقديمهن اليوم إلى المجتمع".

أشار الخطاب إلى صفات السيدات الصغيرات، والتى قرأ أسماءهن وأسماء آبائهن وسط التصفيق.

"والآن سيذكر أسماءهن واحدة فواحدة" قالت "لافينيا"، متذكرة عندما ذكروا اسمها: كانت تنتظر فى ركن السيدات فى أعلى السلم، وعندما أعلنوا اسمها، لتهبط السلم بينما الأوركسترا تعزف "الحياة الوردية" لم يكن هناك جسر على حمّام السباحة فى تلك المرة، من حسن الحظ.

والآن يقوم الرئيس، بشكل مسرحى، معتمداً على دقات طبلة الأوركسترا، معلناً اسم أولى المبتدئات، عروس النادى: "باتريشيا فيلون" (تذكرتها فى ممرات المدرسة بين الفتيات الأصغر منها) ظهرت الصبية فى الممر بفستانها الأبيض المحمل بالأحجار والترتر، وزهرة فى شعرها الكستنائى، تسير على الجسر كما لو كانت "ملكة جمال العالم". انفجرت الأوركسترا بمعزوفة "عايدة" لـ"فرد ؛" وتصفيق الحاضرين.

بيده الممدودة، كان الرئيس ينتظر العروس فى الطرف الآخر عند نهاية سيرها، بابتسامة رضاء وأهمية، أخذها من ذراعها ووضعها إلى جانبه تحت رقابة آباء الصبايا الأخريات.

همهمات وتصفيق رافقا ظهور تلك السحابة البيضاء الضبابية والزهور فى الشعور ووقفن إلى جانب الرئيس والعروس.

كانت "سارا" و"أدريان" يصفقان ويعلقان، وهى صفقت أيضًا متذكرة تعليمات "سباستيان" بأن تظهر سعادتها، كالسمكة فى الماء، هذا كان الجو الذى تتحرك فيه، ورغم كل شىء، وإن كانت تشعر الآن أنها فى مكان غير مكانها، فقد لفها الإحساس بالعبث، مثيرا فيها الرغبة فى السخرية من طقس بداية الاستعراضات الفاخرة لبقاء النوع.

شيئًا فشيئًا بدأت تشعر بالراحة لانضمامها إلى الحركة، وابتعادها عن الاستعراض، كان مستحيلاً أن تعيش هذا دون أن تنتبه إلى لغز هذا البلد الذى يتعايش فيه البؤس المتطرف ويمكن تجاهله: تجاهل الفلاحين الذين يلقى بهم من طائرات الهليوكوبتر عقابًا على تعاونهم مع المتمردين والتعذيب الذى يُمارس فى أقبية القصر الرئاسى.

بدأ الرقص، امسك الرئيس بذراع عروس النادى واتجه نحو صالون الرقص لبدء دورات رقصة "فالس" وبدأت الصبايا المبتدئات من آبائهم فى اتباعهم، بين التصفيق وضحكات الشفاه الملونة وهمهمات السعادة والتعليقات حول من الأكثر جمالا، ومن التى ترتدى الفستان الأكثر أناقة.

قام المدعوون عن طاولاتهم، وشكلوا شبه دائرة حول الخشبة التى ترقص عليها بطلات العرض الاجتماعى الأكثر أهمية خلال العام.

اقترب "أدريان" وسارا" و"لافينيا" مع الآخرين. قالت "سارا" التى كانت تقف إلى جوارها:

– هل تذكرين عندما حان دورنا نحن، أعتقد أننى لم أكن عصبية فى يوم ما مثل ذلك اليوم سوى يوم زواجى.

كانت تتذكر جيداً كل هذا، من وقت إلى آخر تعود إلى مشاهدة ألبوم الصور وتخجل من أن تكون هى التى تظهر متعلقة فى ذراع أبيها، بالتعبير نفسه الذى ترى به الآن الصبايا الراقصات. قال "أدريان":

ـ أنا لا زلت أذكركما أنتما ـ الاثنتين ـ كان لكما وجه غزالة صغيرة مرتعبة، وأحمد الله أنه لم يخلقنى امرأة.

أشارت "سارا" فجأة بتعبير جاد:

– انظرى هناك توجد أمك، إنها تشير لك.

رأت أمها عبر الصالون واقفة فى حلقة المشاهدين، وترفع ذراعها بالتحية، وأخرج أبوها نظارته ليراها أفضل. علقت "لافينيا" رافعة ذراعها لتجيب على التحية:

– لقد أصابتها الشيخوخة.

راقبتهما من خلال رءوس الجمع والباروكات، زاد وزن أمها قليلا، وبدأت تظهر كقابلة بشعر أشيب، وأبوها، على العكس، يبدو أكثر نحافة، لم يكن مختلفاً عما كان عليه فى آخر مرة.

انفرطت حلقة المشاهدين عندما أشار الرئيس إلى هؤلاء بأن ينضموا إلى الرقص، تعانق أبوها وأمها

وعبرا الخشبة راقصين نحو الطرف الآخر الذى توجد فيه هى.

لقد كانت اللحظة الحاسمة، وقف عدد من الجالسين إلى الطاولات لمراقبة اللقاء، ذلك الاجتماع فى ميدان عام على أنغام موسيقى راقصة. قالت أمها وهى تقبلها على وجنتها، كما لو كانتا قد خرجتا معًا من البيت:

- ابنتى، كيف حالك؟ كيف حالكم؟

موجهة حديثها إلى "سارا" و"أدريان". قال أبوها وهو ينظر إليها من أعلى إلى أسفل ويعانقها بقوة:

- كيف حالك؟ تبدين فى أحسن حال،

قطعت "لافينيا" العناق متخيلة صوت المخرج "كت" فى مشهد من فيلم مكسيكى ردىء عن أبناء مدهشين وآباء نادمين. كان مستحيلا عليها فى هذا المناخ أن تنفعل وتستجيب لمحاولات أبيها فى التعبير عن حبه لها. شعرت بالتأسى من أجله، على الأقل خلال تلك الأشهر، كان يهاتفها من وقت إلى آخر، يسألها إن كانت تحتاج مالا، أو ليعرف أحوالها. اقترح "أدريان" قاطعًا الصمت الذى أعقب العناق، ومنقذًا لهم من المشهد الممل على أصوات الموسيقى الذى قد يؤدى إلى ما لا يحمد، قال:

ـ لماذا لا تأتون إلى طاولتنا. "سارا" وأنا سنرقص.

أخذ زوجته من وسطها واتجها نحو الخشبة، شاهدت "لافينيا" "سارا" وهى تهمس فى أذنه، تخيلت أنها تعاتب "أدريان" لذهابهما للرقص بينما كان يجب أن يكون حضورهما سببًا فى تخفيف اللقاء الانفعالى مع أبويها. قالت الأم، بعد أن جلسوا إلى الطاولة:

ـ تبدين رائعة يا ابنتى، وما زال الفستان يبدو جديدًا، هل تذكرين عندما قلت لك إنه من الأفضل شراء أشياء من ماركة معروفة؟ ها أنت ترين أننى على حق.

قال الأب:

ـ تبدين جميلة.

سألت "لافينيا":

ـ كيف حال حضراتكم.

قال الأب الذى كان من الواضح أنه يبذل جهدًا ليدير دفة الحوار ويتجنب تدخل الأم فى الحوار:

- نحن على ما يرام.

قاطعته الأم:

- لقد كان لكِ سحركِ فى الحفل، كل صديقاتى سألننى إن كنت قد عدت إلى البيت.

قالت "لافينيا" وقد بدأت تشعر برد الفعل التقليدى الذى تثيره فيها أمها:

- أرجو أن تكونى قد أوضحت لهن أنه ليس كذلك.

سأل الأب، متدخلا بسرعة:

- كيف حال العمل معك؟

قالت "لافينيا":

حسن، حسن، والمصنع كيف حال العمل به؟

- إنه هناك على حاله، أنا فى حاجة إلى إدارى جيد يحل محلى تقريبًا. لقد كبرت فى السن وأصبحت متعبًا، ولكن العمل ما زال ينتج، وإن لم تتغير الأحوال فهناك مصانع آخرى يقيمها بعض ضباط الجنرال الأكبر.

- يقيمون مصانع؟

- نعم، إنهم يدخلون فى عدد من قطاعات الصناعة، والبنوك والعقارات فى البنية التحتية، هل سمعت عن البنك المتحد؟ حسن، إنهم يقيمونه برأسمال الجنرال الأكبر وعدد من جنرالاته، لقد بدءوا فى منافستنا فى كل ما يستطيعون. وهى منافسة غير شريفة لأنهم يحصلون على إعفاءات من الضرائب، فى المناطق الحرة الشهيرة ويبنون مبانيهم بآلات حكومية، يريدون إفلاسنا.

قالت الأم:

- متى ستأتين إلى البيت يا ابنتى؟ يمكننا آن ننظم مآدبة غداء مع صديقاتك.

سأل الأب منضمًا إلى اهتمامات الأم:

- ما أفكارك، ماذا ستفعلين بحياتك؟

قالت "لافينيا":

ـ حياتى هادئة ومنظمة، لدى عمل، وأدير بيتى، لا تتزعجوا من أى شىء.

وابتسمت دون أن تقدم أى تفصيلات، كتعبير عن وضع حد نهائى للموضوع.

استجوبتها الأم:

ـ وذلك المهندس المعمارى المجهول الذى ترتبطين به.

قالت "لافينيا" محاولة العودة إلى ما قاله الأب:

ـ إنه زميل عمل فقط، وأراه من وقت إلى آخر، لايوجد أى شىء جاد معه... ولن تفعلوا أى شىء لمنع منافسة الجنرال الأكبر؟

ـ كنا نجتمع، لكننا لا نجد أى حل.

بعد فترة من البقاء جالسين، ناظرين إلى الراقصين وسماع تعليقات الأم على الفساتين وآخر الشائعات، وحديث الأب عن اجتماعاته، وقف الأب قائلا إنه يكاد لا يستطيع الكلام من الضوضاء وإنه من الأفضل أن تأتى "لافينيا" لزيارتهم فى البيت.

وقف ثلاثتهم، من الواضح أنهم كانوا سعداء لانتهاء اللقاء، ويحتفظ كل منهم بما كان يريد أن يقوله، مخفيًا ذلك خلف قناعاته. وكان الوداع قبلة على الخد و"إلى اللقاء قريبًا". شاهدتهما يبتعدان: الأب والأم، طويلان بين من كانوا يرقصون، إنهما زوج من البشر بطلعة بهية، الأب بجسد مستقيم، وشعر

رأسه لا يزال كثيفًا، أشيب، وتقاطيع قوية، وعينان كبيرتان، يتحرك بتأن، يبتسم بلا رغبة فى وجه كل من يحييه أثناء مروره، والأم بهيئتها كسيدة معظمة، الشعر ثقيل ولامع، والأيدى طويلة ورثتها هى عنها، وتعبير بسعادة مصطنعة.

بينما كانت تراهما، لمبات الكريستال والأضواء كانت قد تحولت إلى اللون الغامض اللامع الذى تصنع الدموع. كانت تشعر كما لو لبست نظارات بالعكس، شاهدتهما بعيدًا من خلال العينين المغرورقتين بالدموع، وفهمت أنها تقف فى الجانب الآخر، والذى، تمكنت أخيرًا، من السباحة فيه عكس التيار وتوجد على الضفة الأخرى، بكاء فقط، وماء كان يفصلها عنهما، ماء يمحو كل شىء.

- ألا ترغبين فى الرقص؟ أنت وحيدة هنا.

يد رجل عارية أثارت فيها الخوف، الراقصون وصوت الأوركسترا، عادت إلى الدخول فى دائرة الرؤية. رفعت رأسها وشاهدت "بابلو خيمينيث" صديق من زمن البدايات، كان ينظر إليها من أعلى بذلة الأسموكنج والعصفورة السوداء فى العنق.

كان رجلا صموتًا وخجولا، ودرجة لون بشرته ولون عينيه كما لو كانا قد بهتا من المياه القوية فى بطن أمه، امرأة مسيطرة، كان الجميع ينادونه "بابليتو" كانت الصبايا يقلن عنه أنه لا خوف منه. قالت كإجابة:

- أهلا، "بابليتو".

قال هو محافظًا على يده ممدودة يدعوها إلى الرقص:

- أهلا، هيا نرقص... هيا لا تبقى جالسة هكذا.

وقفت معتقدة أنه ما كان يمكنها أن تختار زميلا أفضل لرقصتها الأولى إلا مع هذا الرجل الرقيق الشفاف الهادئ.

وكانت رقصة "البوليرو" تخفف من حدة الدخول إلى خشبة الرقص، فتحا مسافة صغيرة، كل اثنين كانا يتحركان متعانقين، مستغلين الموسيقى لاحتكاك الأجساد وقول أشياء فى الأسماع.

كان "بابليتو" يفوح برائحة الكولونيا، أمسك بها من وسطها برقة وبدأ فى الاهتزاز على الإيقاع. قال لها:

- عرفت أنك تعملين مع "خوليان سوليرا"، هل العمل مريح؟

- نعم، نعم، مريح جدًا، إنه عمل لذيذ.

- لكنك اختفيت... فقط يرونك فى المراقص الليلية.

- لأنه بعد سنة من البداية، أصبحت متخمة من هذا النوع من الاحتفالات والآن خفت حدتها.

التصقت به أكثر، كانت ترغب فى أن يتوقف عن الكلام حتى يمكنها الاستمتاع بالموسيقى والرقص، كانت تحب الرقص، كان "بابليتو" يرقص جيداً.

فكرت، ما كان يجب أن تفعل هذا، يجب أن تتكلم، أن تسأل عن أشياء، ومع ذلك، كانت ذاهلة، يجهدها أن تركز فى شىء، أن تنسى أبويها، كانت تود لو أن الأحضان التى تضمها كانت أحضان "فيليبى"، حينها كان يمكنها أن تغمض عينيها، ونسيان إيقاع الموسيقى وثقل العلاقة السيئة مع أبويها. سألت مستعيدة نفسها:

ـ وأنت ماذا تفعل؟

ـ أنا أعمل فى البنك المركزى، فى مكتب دراسات افتتحوه مؤخرًا، نقوم بعمل دراسات اقتصادية اجتماعية، من المفترض ألا تكون سياسية، أن تكون مستقلة، فيما يبدو أن رئيس البنك أقنع الجنرال الأكبر بضرورة وجود فريق يقدم معلومات حقيقية، الحكومة مهتمة أكثر الآن بمعرفة ما الذى يحدث حقيقة فى البلد. لا أعتقد أن عملنا له فائدة كبيرة، لكن، على الأقل، يشعر الواحد منا أنه ربما يمكنه أن يحّسن بعض الأشياء.

ـ لكن لا تشعر بسوء من عملك هناك.

ـ لا، أعتقد أن الشىء الوحيد الذى يمكننا عمله فى هذا البلد هو العمل من داخل النظام وبما أننا سنظل تحت حكمه لسنوات طويلة مقبلة فالعملى أن

نحاول كيف يمكننا تغيير بعض الأشياء للوصول إلى نتائج أفضل، وكما قلت لك، نحن مجموعة مستقلة لاعلاقة لنا بالسياسة، نحن تقنيون.

كانت على وشك أن تقول "لافينيا": أن تكون غير مُسيس هى طريقة مريحة للمشاركة، ولكنها تذكرت أن وجودها هناك للتمويه وليس لإبراز تمردها، إضافة إلى أن تعليقها لن يفيد شيئًا، فالمناخ المحيط بها الأغلبية فيه معارضون، والطبيعى ممارسة النقد والشكوى من النظام حتى لو كان حليفًا بشكل تكتيكى، الشعار كان انتقاده وليس تغييره.

كان هذا شعارها حتى وقت قريب.

انتهت الأغنية وغيرت الأوركسترا الإيقاع بادئة بنغمة أنهت الحوار. قال "بابليتو":

ـ أعيدك إلى الطاولة، هذا ليس الإيقاع الذى أحبه.

كانت "سارا" و"أدريان" قد عادا أيضًا، كانا يروحان بالمناشف.

ـ حلبة الرقص هذه كالفرن... كيف حالك "بابليتو"؟

–حسن جدًا، شكرًا، وحضرتكما تبدوان بأحسن حال أيضًا.

قال "أدريان":

–بعد المجهود الذى قمنا به.

فتح الرقص مع "بابليتو" الطريق لاقتراب أصدقاء وصديقات آخرين من الطاولة، خلال فترات توقف الأوركسترا القصيرة.

أحاديث جرى فيها تبادل بعض المعلومات عن الدراسة وتوجهات أخرى حديث فى الليل. والتفوا جميعا فى مناخ متحضر ولطيف، كان مستحيلا معرفة التفكير الحقيقى لتلك الوجوه الرقيقة والباسمة التى مرت عليها.

رقصت مع معارفها من الشلة: ومع "أنطونيو" الغيور من "فيليبى"، و"خورخى" ونكاته، تقضى معهم وقتًا لطيفًا، لم يكن صعبًا تحريك الحواجب والملاغاة بلباقة.

كانت فى بعض الأوقات تعود إلى الشعور بالغربة، تشغل عقلها بعض الصور عن "سباستيان"، و"فلور" و"فيليبى"، ومشهد جنازة الطبيب الذى يبدو أن الجميع قد نسوه. أكثر من فرد علق بأنه من حسن الحظ لم يتم إلغاء حفل الرقص، والخوف من أن كارثة على وشك أن تلفه.

صديقاتها القدامى بالمدرسة تحدثن معها عن مشروعات الزواج، والراغبين فيهن، والمودة وآخر تقليعات منع الحمل.

من وقت إلى آخر كانت تلاحظ نظرة "أدريان" الساخرة والفضولية.

كانت واثقة من أن "أدريان" تنبه إلى أنها تمثل، لكنه لن يعرف مطلقا لماذا تفعل هى هذا.

حاول أن يخرجها للرقص ولكن "لافينيا"، متنبهة إلى أنه سيخضعها للاستجواب، تظاهرت أنها لاتستطيع أن تضعه بين طلبات الرقص الكثيرة. وأخيرًا قالت:

ـ يجب أن نذهب، لا أستطيع الرقص أكثر من هذا، قدماى المسكينتان تعانيان.

دعمت "سارا" الفكرة خاصة أنها بدأت تبدو ساكنة. قالت:

ـ نعم، هيا بنا، أنا أموت من النعاس.

خرجوا للتنزه فى شرفة حمّام السباحة لتفادى التجمهر فى حلبة الرقص، فى الجراج، شاهدت أبويها من بعيد يقتربان من سيارتهما للخروج، كانت تراقبهما عندما كانا يرقصان بالقرب من طاولتها، ويعبران بالقرب منها بنظرات ملغزة. قال "أدريان" فى طريق العودة:

ـ كنت رائعة.

قالت "لافينيا" متصنعة الغباء:

ـ كنت لطيفة، أليس كذلك؟

قال "أدريان":

ـ أنت لطيفة فعلا، عندما تكونين أنت وليس عندما تدعين أنك امرأة متحررة، واستقلالية.

قالت "لافينيا":

ـ أنا متحررة واستقلالية، لا تخلط الأمور.

أجاب "أدريان":

ـ لن أفهم النساء أبداً.

بقيا صامتين يستمعان إلى تنفس "سارا" الرتيب التى كانت تنام فى الكرسى الخلفى.

***

هل هو الحنين الذى تشعر به؟ أنا كثيرًا ما شعرت بالحنين إلى حياة قبيلتى، لكن فى حالتى كان مستحيلا العودة، ما فارقته تكشف أنه كلوحة قماشية تتفكك، لم تعد أبدًا لحظات السعادة التى كانت تقيمها "اللكيماك"، التى كان يعلمنا فيها معلمونا فن الرقص والحياكة، لم أعد أبدًا للدخول فى الطقوس المقدسة التى كنا نقابل بها عودة الشمس بعد الأيام الأخيرة من السنة: تلك الأيام التعيسة كنا نلجأ إلى البيوت ونصوم ولم يكن مسموحًا لنا نحن الصبايا أن نستحم فى النهر أو التسلية بصيد أسماك البحيرة.

إن مشاعر "لافينيا" غريبة، واخزة كالسهام، مزيج من السم والعسل، هى كلها صورة ضبابية، ذراع يشير بإشارة الوداع، يحب ويكره فى الوقت نفسه، وللحقيقة فإن هذا الزمن ضبابى تحدث فيه وقائع متناقضة كما لو كان هناك عالمان واحد إلى جانب الآخر، دون أن يمتزجا. تمامًا مثلها ومثلى، نسكن هذا الدم.

***

نزعت عنها الفستان الأحمر، وألقت به على الكرسى، رأته يتحول إلى كومة من الطين تحت قوس الضوء القادم من باب الحمّام. غسلت وجهها، ونظفت ماكياج العينين الأسود.

انتبهت إلى أنها شاهدت "فيليبى" فى سريرها، ينتظرها، متصنعًا النوم.

كانت متأكدة أنه كان يراقبها بعينين مواربتين، لهذا منحت حركتها تمثيلا مسرحيًا، توقفت عارية أمام مرآة الحمّام، نظيفة من كل ما علق بها فى الحفل، قبل أن تسير حافية القدمين باتجاه السرير. متذكرة جزءًا من إحدى روايات "كورتاثار" كان فيها الرجل يراقب امرأة تجد نفسها وحيدة أمام المرآة، عارية. سأل "فيليبى" بصوت ثقيل، كما لو كان قد استيقظ للتو، فيما كانت ترفع هى الشراشف لتدخل السرير:

ـ كيف كان؟

أجابت، مسترخية إلى جانبه، وقد قبلت وجنته:

ـ حسن، حسن جداً.

ـ هل هذا كل شىء؟ ألن تحكى لى ما جرى.

ـ دعنى أفكر فى طريقة لتلخيصه... كان هناك كثير من البشر، فساتين براقة كثيرة، بترتر، وجاكتات، وجسر على حمّام السباحة لتسير عليها المبتدئات، زهور لوتس مستجلبة من ميامى تطفو على سطح الماء، أحاديث مهمة كثيرة، فرقتان من الأوركسترا،

صالون الرقص عن آخره... رقصت جيدًا، كنت لطيفة كما أراد "سباستيان"، والتقيت بأبوى.

ـ وعن أى شىء تحدث الناس؟

ـ عن كل شىء.

كان لديها إحساس دائم من أن الناس تتكلم لتسمع نفسها، فكرت "لافينيا"، كان هذا إحساسها حتى قبل أن يسجل وعيها أشياء تبين لها هذا. لقد لاحظت أنهم يتكلمون بشكل مستمر، كما لو كانوا فى حاجة إلى سماع أنفسهم لحماية أنفسهم من عزلتهم الخاصة، يبدو أنهم لا يعرفون سماع أصوات الآخرين، بل يتخيلون أنفسهم كأدوات صغيرة فى سيمفونية تشبع رغبتهم. ربما كان هذا نتيجة طريقة تعلمهم، إنها الطبقة، قالت لنفسها، جميعهم ـ بما فيهم هى ـ تم تنشئتهم ليعتقدوا أنهم مركز العالم، وبداية الكون. قال "فيليبى" مرتكزًا على كوعه ضاحكًا:

ـ إن هذا ضبابى جدًا، ماذا كانوا يقولون؟

ـ ما تريد أن تعرفه هو إن كنت قد حصلت على أية معلومات مفيدة، أليس كذلك؟ لأننى لو بدأت أحكى ما قالوه يمكننا أن نصل إلى الغد؟

حكت له ما قاله أبوها و"بابليتو"، وتعليقات متفرقة عن سوء ذوق الجنرال الأكبر لإقامته حفل للعسكريين فى نادى الترفيه للقوات المسلحة فى اليوم نفسه. قال "فيليبى":

ـ إذًا هم قلقون من الدخول إلى مناطق سيطرتهم... جميل.. هذا ما شعرنا به نحن.

شاهدته يتوه داخل نفسه فى حالة من التأمل المؤكد، سعيدًا بالبحث عما يؤكد رأيه، فيما هى على العكس، تريد أن تحلل الحفل من وجهة نظر مختلفة. لم تسمع شيئًا غريبًا فيما يتعلق بالحالة السياسية. ما تراه مهمًا هو أنها استطاعت أن ترى كل هذا بقدرتها على الملاحظة التى استطاعت أن تكونها مع مرور الزمن والذى أوصلها إلى حياتها الحالية. وأن ترى نفسها فى مواجهة طريقة حياتها وأن ترى أن للأشياء معنى، وسببًا للوجود. كانت تود أن تشارك "فيليبى" أفكارها، وأن تقول له إنها كم تغيرت منذ أن بدأت تستيقظ مبكرًا كل صباح بإحساس أنها فى مواجهة جب غير محدد المعالم، أمام كتلة من مادة فى انتظار التكاثر لتمتلئ بالأسماك أو تتحول إلى شجرة أو تفاحة. والآن بعد أن عرفت أن هذا أحد واجباتها، والآن بعد أن تولت قيادة الوقت وفكرت أنها دخلت أخيرًا سن النضج، وأن تكون قادرة على النظر حولها واكتشاف الآخر والآخرين تحت أضواء مختلفة دون الحاجة الطفولية إلى أن تجعل العالم يدور من حولها. قالت "لافينيا" مفكرة:

ـ إنه لمدهش رؤية كيف يتحرك الأشخاص الذين ينتمون إلى أصلى، جميعهم يريدون لفت الأنظار إليهم، إنها منافسة وحشية، يستخدمون أية أدوات للوصول إلى المركز، للسيطرة على مركز الضوء،

ويصبحون مسلين، بالطبع، لقد ضحكت كثيرًا، لكن انظر - على سبيل المثال - أنا لم يشاهدونى منذ زمن بعيد، كانوا يسألوننى فقط أسئلة سطحية، العادية... كيف حالك؟ ماذا فعلت؟ لم يسألنى أحد عن أى شىء آخر. وأنا لم أكن فى دائرة اهتمامهم، الشىء الوحيد الذى كان يهمهم هو الظهور، أن يكونوا ظرفاء، يحكون حكاياتهم التى لا تنتهى، بالنسبة لى، من الأفضل أن الأمر كان على هذا النحو، ولكنه يظل يعكس ما هم عليه.

رفع "فيليبى" كتفيه، بالطبع بالنسبة إليه له فهى لم تكتشف شيئًا جديدًا. سأل:

- ومع من رقصت؟

عددت له الرجال الذين اقتربوا من طاولتها لمعرفة إن كان لديها عريس.

كان مدهشًا رؤية ردود أفعالهم، كان يبدو أنه لايهتم بما كانت تفكر هى فيه، ولم يسألها حتى عن أبويها، وبخلاف الاهتمام السياسى، كان لديه فضول ذكورى لمعرفة من اقتربوا منها، كان يشع بعدم الثقة رغم كل مظاهر عدم الاهتمام التى يبديها على تقاطيع وجهه ومحاولته إغرائها ليمارس معها حبًا عنيفًا يشعر من خلاله أنه يمتلكها وحده وبذلك ينتقم من الأغنيات والموسيقى الأخرى المشابهة.

- ١٦ -

كانت "فلور" تذكرها بعمتها "إينيس"، كانتا مختلفتين جدًا، ومع ذلك، كانت هناك لحظات ما كانت "لافينيا" تشعر بشيء يجمع الاثنتين: طريقة حادة للكلام عن الحياة. الإحساس بالدواخل الحميمية للأشياء. كانت "فلور" تقول:

ـ أنت تهتمين بمسألة القبول أكثر مما يجب، أو بالهوية... كل منا يظل محتفظًا بهويته حتى نهاية أيامه، ويبنى أيضًا، وأنت كمعمارية يجب أن تعرفى ذلك، عند الميلاد يمنحونك الأرض، ولكن البناء مسئوليتك.

تضحك "لافينيا" :

ـ بالضبط بما أننى معمارية، أعرف كيف تؤثر الأرض... وإن كان كلامك صحيحًا، فأنا لا أعرف لماذا أهتم كثيرًا .

ـ إنه هكذا، لا تهتمى كثيرًا، اهتمى بأن تعطى أقصى ما عندك، والقبول سيأتى شيئًا فشيئًا، اللهم أن نكون صادقين مع أنفسنا، وهذا هو ما يجب أن يتعلمه الآخرون.

لقد كانت "فلور" على هذا النحو، دون حدة ولا تطرف، ولا تتوقف "لافينيا" عن الدهشة عند اكتشافها هذا، كلما عرفتها أكثر فإنها تكتشف مدى الرقة والعمق اللذين يكمنان خلف مظهرها الهادئ، وإن كانت تبدو جهمة أحيانا.

بين لحظات الراحة من الدراسة وخياطة بعض الأغنية والرسائل التى توضع فى أشياء تافهة لإرسالها إلى الجبال، الاثنتان طورتا علاقة صداقة جادة وأخوية. يشتركن فى قراءات نسوية وطريقة عمل علاقات جديدة بين الرجال والنساء.

والآن، بينما كانت تجلس لرسم إمكانات بيت آل "فيلا"، كانت "لافينيا" تشعر بالحنين إلى "فلور"، تراها قليلا منذ بضعة أسابيع، تبدو مشغولة جدًا، تمامًا مثل "سباستيان" و"فيليبى".

هى، من ناحيتها، توجه كل وقتها لإنهاء مشروع التخطيطات، لقد أعفاها "خوليان" من واجبات أخرى طالبا منها أن تركز كل مواهبها وطاقتها لإرضاء غرور الجنرال وأسرته.

وقفت أمام المكتب، كانت تتصفح مجلات أمريكية، وإلى جوار التليفون شاهدت بطاقات بريدية تحمل صور بيت "وليام بهارست" بميامى: حمّام السباحة الإغريقى برسومه الموزايكية، والصالونات الشبيهة بقصور العصور الوسطى، أربعون غرفة... كان مفيدًا معرفة العقلية التطلعية، لو قللنا من حجمها فإنها تصبح شبيهة بهم.

استراحت على الكرسى، بحثًا عن لحظات استرخاء، كانت تتعب من الرسم بشكل مستمر البعيد عن مبادئ البساطة والجمال لإرضاء ذوق السيدة "فيلا"، أخرجت سيجارة واستنشقت الدخان، أطلقت دوائر بيضاء تضيع كسحابات منكسرة فى ضوء نيون السقف، تأملت عبر النافذة الكبيرة المطر الخفيف لشهر مايو الذى يخفف من ضوء النهار.

رن التليفون، كانت السيدة "فيلا"، بعد الانتهاء من قبول فرضية نوعية الأرض التى اختارها زوجها، عندما فهمت إمكانات البناء على عدة مستويات، زاد حماسها، وتهاتف يوميًا تقريبًا لتقديم أفكار يمكن تنفيذها فى البيت.

فى هذا اليوم طرأت عليها فكرة التنازل عن غرفة الحياكة الخاصة بها، التى توجد إلى جانب غرفة الموسيقى لتقدم لزوجها مفاجأة. قالت السيدة "فيلا" فى التليفون:

ـ إنه يملك مجموعة من الأسلحة، أتعرفين؟ أفكر أن نعرضها على حوائط تلك الغرفة وذلك لعرضها بشكل جميل، ألا تعتقدين ذلك؟

قالت "لافينيا":

ـ لكن حضرتك بذلك تتخلين عن غرفة حياكتك، وتذكرى أن لديه غرفة الموسيقى والبار والبلياردو.

قالت السيدة "فيلا":

ـ لا يهم، لا يهم، الحقيقة أننى لم أمارس الحياكة على الإطلاق، والحياكة يمكن أن تكون فى أى مكان.

بينما كانت تتحدث مع السيدة "فيلا"، كانت "لافينيا" تتصفح بطاقات بيت "هارست"، وتذكرت أنها شاهدت متحف أسلحة فى إحدى الغرف، عثرت على اللوحة المتعددة الألوان، "الغرفة السرية"، حسب ما تشير البطاقة البريدية فى خلفيتها، وكانت لا تزال تسمع ثرثرة السيدة، بدأ عقلها يصنع إمكانات لهذه الغرفة. قالت "لافينيا":

ـ ممكن، ممكن، أنت محقة، لا شك أن الجنرال سيعثر على فكرة، سأقوم بالعمل على إحدى الفرضيات ولنلتقى الأسبوع القادم، ألا تعتقدين ذلك؟

وضعت السماعة وظلت تفكر، رسم الأرفف سيسهل الطريق إلى لقاء الجنرال، لأنها ستحتاج إلى بعض التفاصيل عن الأسلحة لتحدد الحجم، والوزن وطريقة التوزيع على الأرفف، سيكون منطقيًا طلب لقاء عمل معه.

أدارت البطاقة البريدية لبيت "هارست" عدة مرات، غرفة سرية للأسلحة فكرة جذابة للجنرال "فيلا"، وقفت متحمسة أمام طاولة الرسم.

حل المساء ولا تزال تقوم بعمل بعض الحسابات.

قبل ساعة الانصراف بقليل، ظهرت "مرثيدس" فى فرجة الباب، تسألها إن كانت تريد فنجانًا من

القهوة، تقدمت حتى الطاولة وبدأت تنظر من خلف كتفيها . وسألتها:

ـ لماذا ترسمين بنادق ومسدسات؟

أجابت:

ـ لأن السيدة "فيلا"، تريد غرفة للأسلحة، غرفة لعرض مجموعة أسلحة نارية جمعها زوجها منذ دخوله الجيش.

ـ إنها تريد شيئًا جديدًا كل يوم، أليس كذلك؟ لقد هاتفتك لهذا السبب.

ـ نعم.

صمتت "مرثيدس" ودارت حول الطاولة، وتلمس كل الأقلام والفرش بلا انتباه.

ـ أنت تحبين هذا العمل، أليس كذلك؟

ـ نعم، إنه عمل لذيذ .

ـ وأنا أحب عملى أيضا، لكننى مكتئبة اليوم.

ـ ماذا يحدث لك؟

-لدى مشكلات.

ـ مرة أخرى؟

قالت "لافينيا" دون أن تتجنب ذلك، فقد كانت "مرثيدس" تكشفت لها أسرارها من وقت إلى آخر، الجميع بالمكتب يعرف "مانويل"، الذى يرويها وتتواصل معه بأحاديث تليفونية مطولة، كان متزوجًا، ودائمًا ما

يعدها بترك زوجته، وعوده بدأت قبل سنتين، طبقًا لما تقوله "مرثيدس".

ـ والآن زوجة "مانويل" حامل، كان يقول لى إنه يعيش مع زوجته من أجل الأولاد، ومن المفترض أنهما يكادان لا يتحدثان. هاتفتنى صديقة اليوم وقالت لى أن الزوجة حامل.

ـ حسن، إن كنت قد قلت إنه كان يبدو خفيفًا.

قالت وهى تنظر عبر النافذة إلى المشهد الضبابى:

ـ وأنا أيضا، لكنى كنت أريد أن أصدقه، ووصلت فى تفكيرى حقيقة أنه يعيش معها من أجل الأولاد، ولكنى مقتنعة أنه يحبهم، والآن لا أعرف كيف أتصرف.

ـ أنت فتاة شابة يا "مرثيدس"، وجميلة، وذكية، تستحقين شيئًا أفضل من أن تكونى الثانية، لماذا لاتتركيه؟ وسترين أنه ليس الرجل الوحيد فى هذا العالم.

ـ كل الرجال واحد.

ـ ممكن، ولكن بعضهم على الأقل غير متزوجين.

ـ لكنى لم أعد نظيفة، والعزاب يحبون الزواج من عذراوات، وكل ما يمكن أن أطمح إليه الآن هو أن أكون عشيقة... لهذا يطاردنى الرجال المتزوجون.

فكرت "لافينيا"، إن الواقع يقول إنها محقة، نوع الرجال الذين تتعامل معهم "مرثيدس" يحلمون بالصعود درجات السلم الاجتماعى، ويفكرون على هذا النحو فى محاولة للتعلق بالممارسات التى تعتبر طبيعية فى الطبقات المميزة اجتماعيًا، فالمرأة بعد أن تقيم علاقة مع رجل متزوج تجد صعوبة فى سوق الزواج، ويرغبون فيها كعشيقة، وعندما يفكرون فى زوجة يبحثون عن البراءة، لسهولة تطويعها وخنوعها. وامرأة لا غبار عليها تعتبر ضرورية للدخول إلى دوائر اجتماعية معينة. وماضى "مرثيدس" يمكن أن يكون عائقا، مع ذلك... قالت "لافينيا":

ـ تذكرى أن العذراوات ندرة اليوم.

قالت "مرثيدس" ضاحكة:

ـ لكن لا تزال هناك أعداد كافية منهن.

إذًا فلتبق وحيدة يا "مرثيدس"، الوحدة أفضل من رفيق السوء، إذا كنت تشعرين بالتعاسة مع "مانويل"، لا أرى ضرورة لاستمرارك معه.

كانت "مرثيدس" تنظر إلى المجلات على المكتب بتعبير غائب، تتظاهر بالبحث عن حل لمشكلتها، ولكنها فى الواقع، كما تعتقد "لافينيا"، فهى فريسة حب لا نجاة لها منه.

شاهدتها تتخذ طريقها نحو الباب. قالت "مرثيدس":

ـ المشكلة أننى أحبه، أنا ذاهبة، أنا أعطلك.

وخرجت مسرعة.

مفكرة، نظرت "لافينيا" عبر النافذة إلى سحب المساء التى تغطى السماء المائل إلى اللون الوردى والأزرق.

تشعر بالحسرة على "مرثيدس"، تكاد تكون لعنة تقريبًا، فكرت، فى التعلق بالحب على النحو، وتساءلت، ماذا يفعل الرجال لإبعاد مثل هذه المشكلات عن حياتهم اليومية. على الأقل حتى لا يفقدوا تركيزهم، ولا يشعروا بأن الأرض تميد تحت أقدامهم عندما لا تكون الأوضاع جيدة، يبدو أنهم يمتلكون القوة لإدخال الحياة الخاصة فى سدود صلبة لاتتحرك وتمنعها من التشويش على بقية وجودهم. بالنسبة للنساء، على العكس، يبدو أن الحب هو مركز النظام الشمسى، وأى تحوير يمكنه أن يدخلهن فى العصر الجليدى، والغرق والعاصفة والفوضى.

سمعت صوت ساعة الخروج، وأصوات إغلاق لمبات الرسم، والمفاتيح، وإلى اللقاء غدًا صباحًا، كانت قد شخبطت أوراقًا وأوراقًا بشكل آلى، دون أن تفكر فيما تفعل، غارقة فى كهوف الحياة الرطبة، تفحصت الأوراق قبل أن تُلقى بها إلى القمامة: أسلحة نارية، ومسدسات، وبنادق، يا له من أمر غريب، لقد رسمت أسلحة قديمة وصماء وغير مستخدمة وعددًا من السهام وأقواس الرمى.

***

تفكر "لافينيا" في اللون الجنسي لشجرة الزعرور وتتساءل عن الحب.

الزمن لا يسير: هى وأنا البعيدان زمنيًا يمكننا أن نتحاور ونتفاهم فى ليالى القمر حول النار، أسئلة لاتحصى لا توجد لها إجابات، الرجل يهرب منا، ينزلق من بين الأصابع كسمكة فى نهر ساكن، ننحتهم، نلمسهم، نمنحهم القوة نحتفظ بهم بين أفخاذنا ولا يزالون بعيدًا كما لو كانت قلوبهم مصنوعة من مادة أخرى. كان "يارينثى" يقول إننى أريد روحه، وإن رغبتى العميقة أن أنفخه فى جسد امرأة، قال هذا عندما كنت أشرح له ضرورة المداعبة، عندما أطلب أن تكون يداه أكثر رقة على وجهى أو جسدى، تفهم أكثر عندما يندفع الدم إلى جنسى وأصبح حزينة، رقيقة وحساسة كشجيرة حديثة الولادة.

بالنسبة إليه، الحب تدافع، بلطة، عاصفة، كنت أخفف عنه حتى لا يشتعل التفاهم. أخافه، بالنسبة إلىّ على العكس، فالحب كان قوة بجاذبيتين: جاذبية من الحدة والنار والأخرى من القطن والنسيم.

كانت أمى تقول إن المرأة فقط التى تمنح الحب، والرجل يكاد يعرف ما هو ضرورى فقط، فالآلهة لم ترغب فى شغل قوته. لكننى شاهدت رجالا جنّوا بالحب ويمكننى القول إنه حتى "يارينثى"، لأنه احتفظ بى إلى جانبه، واشترك فى عراك مع الكهنة والحكماء. ما كان له أن يقبل، مثل أمى، أن نحمل

داخلنا الخضوع الضرورى فقط للمقاتلين. اعتقدت أن الرجال يخفون الحب خوفًا من التشبه بالنساء.

***

اتفقتا على اللقاء فى حديقة "لوس ثيبيس" العامة، منذ عدة أسابيع، منذ أن كانوا جميعًا مشغولين، لم تقم "لافينيا" بزيارة بيت "فلور"، كانت قليلا ما تراها، غالبًا فى أماكن عامة: حدائق، ومطاعم، أو خلال نقلها فى سيارتها من مكان إلى آخر. كانت "فلور" أيضًا كثيرًا ما تذهب إلى طريق الأشجار.

تلتقيان فى الحديقة تحت السماء الواسعة، تجلسان على طرف كراسى الحديقة البعيدة فى مكان محدد، متظاهرات بأنهن تلميذات مدارس بين أيديهن الكتب والكراريس، كانت تحب "لافينيا" تحب لقاءها، تحت أفرع الشجرة الضخمة التى تشكل حلقة من الظل، مزيج من الأخضر والأزرق، من ذلك المكان يمكنهما رؤية الأطفال يلعبون فى قاطرة السكك الحديدية القديمة المتروكة وفى صمت المساء، الاستماع إلى الضحكات الطفولية البعيدة.

وصلت فى الساعة المتفق عليها، لم تكن "فلور" قد وصلت بعد، تركت السيارة فى المكان المخصص للسيارات، أخرجت الكتب والكراريس الضرورية للتمويه الطلابى وسارت بهدوء نحو الدكة، كان الوقت حارًا، الأيام الشتوية التى لا تمطر فيها السماء يمكن أن تكون حارة ورطبة جدًا

في ذلك المساء لم يكن هناك سوى قلة من الأطفال يلعبون فى القاطرة القديمة، كانوا جميعًا صغارا وملابسهم باهتة قديمة ومحاكة مرات لاتحصى، يحاولون بسيقانهم الصغيرة الوصول إلى أعلى القاطرة، وفى جانب على حشائش الأرضية كانت هناك سلال وعلب الحلوى، والسجائر واللبان، التى كانت ترسلهم بها أمهاتهم لبيعها فى الحديقة، متروكة على الأرض تنقرها بعض الطيور.

فيما بعد، عندما وصل الأطفال الأثرياء مع مربياتهم المرتديات ملابس العمل والمرايل البيضاء، هؤلاء الأطفال ما كان يمكنهم أن يلعبوا فى القطار، عليهم الاكتفاء بالنظر إلى الألعاب من على طوار الحديقة، بينما يرفعون بضاعتهم وينادون عليها بأصواتهم الزاعقة: "الللللللعلب، الللللعلب"... "معنا اللباااان والسجاااير".

بعد دقائق، اقتربت "فلور" عبر الممر، تحمل حقيبة تحتفظ فيها بملابس التمريض بعد خروجها من المستشفى، وما زال ممكنًا رؤية الجوارب البيضاء والأحذية الخاصة بالعمل، التى تتناقض مع القميص الملون، يبدو عليها التعب، قبل أيام انتبهت "لافينيا" إلى أن "فلور" فقدت بعض وزنها، والآن يبدو أن الوجه الحاد لم يعد يترك مجالا للشك، كانت أكثر نحافة. مع ذلك، فإن العينين تلمعان وحركاتها أكثر عصبية. والإيقاع الجسدى متوتر بالسرعة. قالت لها وهى

تنحنى عليها لتطبع على وجنتها قبلة وتربت على كتفها:

- أهلا، آسفة لأننى تأخرت قليلا، لم أجد باصًا، لقد خربت العربة مرة أخرى، اعتقد أن هذه المرة النهائية.

عربة "فلور" "التشيتشو" كما تسميها دخلت مرحلة الشيخوخة والتى كانت تجعلها نزيلة المستشفى بشكل متكرر.

- هل أخذتيها إلى المستشفى؟

- لا أعتقد أننى سأعود إليها مرة أخرى، لاتستحق العناء، يصلحونها وبعد أيام قليلة تتفسخ من جديد، ربما يمكنهم بيعها كخردة، أشعر بالحزن لأننى أحبها كثيرًا، لكن الحقيقة أنها شاخت.

قالت "لافينيا":

- على أى حال يمكننا استخدام سيارتى.

قالت "فلور" وهى تخرج سيجارة وتفتش فى داخل حقيبة يدها بحثا عن الولاعة:

- سنتحدث عن هذا الآن.

مرت فترة صمت، ثقيلة، انتظرت "لافينيا" أن تعثر على الولاعة وتستنشق أخيرًا نفسًا طويلاً من الدخان. قالت "فلور"، برنة صوت من يبدأ حوارًا مهمًا:

- حسن، أتخيل أنك انتبهت إلى أننا مشغولون أكثر من المعتاد.

أمنت "لافينيا" على كلامها بهزة من رأسها، ودون أن تعرف السبب كانت قد فهمت زيادة النشاط من حولها، ويحزنها ألا تشارك، لكنها واعية من أن الحركة لها قواعدها غير المكتوبة، وطقوسها وأعراسها. وفجأة قالت "فلور" وهى ترفع رأسها وتنظر إليها بتركيز:

ـ تجرى أشياء... وأنت أديت القسم أليس كذلك؟

قالت "لافينيا"، متذكرة أنها قد قرأت تلك اللغة فى التعليمات والتى تعتبرها لغة جميلة ولكنها متناقضة، التحالف الرمزى، والالتزام الشكلى للانضمام إلى الحركة.

فتشت "فلور" حقيبة يدها مجددًا (يبدو مثل تلك الحقائب الطفولية المليئة بالكنوز التى يعتاد الأطفال على الاحتفاظ بها تحت السرير) أخرجت كتيب التعليمات الذى تعرفت عليه "لافينيا". ودفعها الخوف إلى الالتفات من جانب إلى آخر من الحديقة. لم يكن هناك سوى الأطفال الذين يواصلون لعبهم. هدأت. قالت "فلور" واضعة كتيب التعليمات على الكتاب الذى تتظاهر بالقراءة فيه:

ـ ضعى يدك على الكتيب.

قالت هامسة بضحكة:

ـ "لافينيا" يدك الأخرى... حتى لو قليلا... ورددى معى.

كان عليها أن تردد ما تقوله "فلور" بكلمات تحفظها عن ظهر قلب، إنها كلمات القسم، همست الاثنتان دون أن تنتبها لتلك الكلمات الجميلة، الفخيمة، وتحولت الشجرة والحديقة إلى كاتدرائية شاهدة على الطقس، شعرت "لافينيا" بمزيج مشوش من العاطفة والخوف واللاواقعية. لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة. حاولت أن تركز على معنى الكلمات، وتتمثل القسم بأن تضع حياتها على خط النار حتى لايظل الفجر مجرد وقت يمكن انتظاره، وحتى لا يظل الرجال مجرد ذئاب ويصبح الجميع متساوين ـ كما خلقوا ـ متساوين فى حقهم فى الاستمتاع بثمرة أعمالهم... من أجل مستقبل فى سلام، وبلا دكتاتوريات، حيث يكون الشعب مالكًا لمصيره... القسم بالوفاء للمنظمة والحفاظ على أسرارها وحمايتها حتى بحياتها نفسها، وأن تقبل أن يكون عقاب الخونة فقدان الشرف والموت.

جاشت عاطفتها مفكرة فى نفسها كما لو كانت شخصًا آخر، وتحت تأثير النغمة الحازمة والجياشة لهمسات "فلور"، التى كانت قد انتهت، تكاد ترفع صوتها بالقول "وطن حر أو الموت". كررت "لافينيا" بينما "فلور" تعانقها بسرعة، لتعيد بعد ذلك كتيب التعليمات إلى الحقيبة، حذرة (كما كانت تفعل خلال القسم) متجولة بعينيها فى هدوء الحديقة:

ـ وطن حر أو الموت.

العناق السريع القوى جزء من الطقس، الخاتم على الاتفاق، لكن شيئًا لم تستطع أن تحدده فى ممارسات "فلور" العصبية، نقل إليها شعورًا بالحزن. قالت خافضة عينيها:

ـ حسن، أنت أقسمت، أردت أن أقوم به بنفسى.

قالت "لافينيا" ولديها رغبة فى عناقها من جديد، بل حتى الرغبة فى البكاء:

ـ أنا سعيدة لأنك قمت به أنت.

مررت "فلور" يدها على شعرها، وضمت الخصلات المنطلقة على جانبى الوجه، مرخية تلك الخصلات إلى الخلف على هيئة ذيل حصان معقود بمنديل. واصلت "فلور"، متغلبة على عاطفتها الجياشة واستعادت رنة الصوت الرتيبة للاجتماعات:

ـ كما قلت لك، تحدث الآن أشياء: عقدنا فى الأيام الأخيرة اجتماعات مشتركة لقيادة الجبل وقيادة المدينة. وتم اتخاذ قرارات مهمة لحركتنا... لذلك كنا مشغولين.

أضافت هذا دون تقديم شرح مفصل. فكرت "لافينيا"، يجب أن تكون قد شعرت أننى أحسست بالعزلة، قامعة من جديد رغبتها فى احتضانها.

ـ لا أستطيع أن أقدم لك الآن تفاصيل أكثر من ذلك، ولكن تقرر أنه من الضرورى إعداد بعض الرفاق مثلك إعدادًا عسكريًا، وهذا له علاقة بموضوعات

ستعرفينها لاحقًا، أما الآن، نظرا لأهمية عملك فى إنجاز بيت الجنرال "فيلا"، الذى يرون أنه أولوية فيما يتعلق بحالتك، تقرر أن يعرضوا عليك إمكانية إعداد مبدئى فى نهاية الأسبوع.

وافقت بهزة من رأسها، منذهلة، بنادق ومسدسات، ورشاشات، وقواذف صواريخ وأقواس وسهام. واصلت "فلور":

ـ فالحركة، كما تعرفين، مرت بمرحلة أطلقنا عليها "تجميع القوى فى صمت"، أو الإبقاء على المقاومة فى انتظار ظروف أفضل، تلك المرحلة تكاد تصل إلى نهايتها. ويجب أن نبدأ فى الاستعداد للتخفيف من حدة الضغط على الرفاق فى الجبل. ونحتاج إلى تشكيل الوعى وتحريك الجماهير فى المدن... كل هذا يعنى أنه يجب إجراء مجموعة من التغييرات وإعادة التنظيم التى تؤدى إلى تحسين الاستعداد والقدرة لدى جميع الأعضاء... هل تفهمين؟ أليس كذلك؟

فهمت، من المؤكد أنها توقعت ما سيأتى، فقد شغل "سباستيان" وقتها مؤخرًا فى الذهاب إلى طريق الأشجار ليشرح الوضع، ليجعلها تعرف ضرورة أن تبدأ الحركة فى العمل، وجعل الحاجة إلى العمل واضحة لدرجة أنها هى نفسها قالت له: "ولماذا لانفعل شيئا؟"، وهو ما جعله يطلق ضحكة طويلة. وقال:

ـ نعم.

وأضافت "فلور":

ـ أردت أيضًا أن أبلغك، أن تواصلى العمل مع "سباستيان"، لأننى يجب أن أقوم برحلة.

إنها العمل السرى، فكرت "لافينيا"، لقد كانت تعرف، من خلال تعبيرات "فيليبى" أن فى الحركة "القيام برحلة" تعنى التحول إلى العمل السرى. سألت وهى تعرف أنه ما يجب أن تسأل، لكنها كانت راغبة فى معرفة إن كانت هذه المرة رحلة فعلا:

ـ أين؟

قالت "فلور" ضاحكة وهى تلمس ذراعها باعتزاز:

ـ لا أستطيع أن أقول لك... لكن... حسن، أنت تعرفين الموضوع.

بقيتا فى صمت، كانت "لافينيا" تفكر إن كان يجب أن تقول أم لا أنها تعبر دخلت مشاعرها وقلبها، كسرت "فلور" تفكيرها. قالت:

ـ تلك اللحظة صعبة دائمًا، إنها تبدو دائمًا كلحظات وداع، لأننا لا نملك التفاؤل الدائم والضرورى لمثل هذه الأعمال، ما كان يجب، لا أنت ولا أنا، أن يودع كل منا الآخر، مع التفكير بأنه ربما لانلتقى مرة أخرى، لكن هذا ما نشعر به... وأيضًا، إنها إمكانية حقيقية، وان حقيقة أيضًا أن نعود لنلتقى من جديد.

"هل تذكرين عندما كنت تحدثينى عن خوفك؟"- كانت تتكلم كما لو كانت تكلم نفسها، وهى تنظر إلى

الطيور التى تطير على المنظر الطبيعى الممتد من سفح الحديقة ـ عندما طلبوا منى أن أنتقل إلى العمل السرى، شعرت بالخوف، تذكرت الأشياء التى قلت لى عنها، وما قلته لعدد من الرفاق فى بداياتهم، وما قاله لى "سباستيان"، ولكنى فهمت أن هذه خطوة أخرى، وكل خطوة لها جرعتها من الخوف ومن الضرورى تخطيها، ولكن ما يحدث، إنه كلما زادت المسئولية فإن إمكانية المشاركة فى الخوف تكون أقل. والواحدة منا تواجه هذا الضعف وحيدة، وإن كان الخوف هو لايتغير، أنا كنت أريد هذا، إنه بالنسبة إلىّ نصر، لاتوجد نساء كثيرات فى العمل السرى، هل تعرفين هذا؟ إنه اعتراف بأننا يمكننا المشاركة وتحمل المسئوليات، مثل أى شخص، لكن، كامرأة، عندما نواجه مهام جديدة، نعرف أيضًا أننا نواجه نضالاً، نضال للاقتناع الأبدى بقدراتنا الخاصة. نظريًا تعرف الواحدة منا أنه يجب النضال من مواقف متساوية من المسئولية، ولكن ما يحدث هو أنك كلما كانت على عاتقك مسئولية فإن التخلص من الخوف يعنى ممارسة المسئولية... إضافة إلى أن تحافظى جيدًا على عدم إظهار هذا الخوف لكونك امرأة.

قالت "لافينيا" منتبهة إلى أنها لا تستطيع أن تحمّل توترها وخوفها فى خوف "فلور":

ـ أنا متأكدة من أنك قادرة على ذلك.

فقالت هى:

ـ هذا ما أوده.

قالت "لافينيا" لمجرد أنها يجب أن تقول شيئا:

ـ قبل أيام كنت أفكر بالضبط فى أن الرجال والنساء تخصصن بقدرات مختلفة. نحن ـ على سبيل المثال ـ لدينا قدرات عاطفية أكبر، وهم أكثر محدودية فى هذا المجال، فى حاجة إلى التعلم منا، كما نتعلم نحن منهم ممارسة السلطة بشكل مرن، والمسئولية، نحن فى حاجة إلى تبادل المواقع.

قالت "فلور" مفكرة:

– لا أعرف، فى هذه اللحظة أعتقد أنه الأفضل التخلى عما هو نسوى، ومحاولة منافستهم فى مجالاتهم، بأسلحتهم هم، ربما فيما بعد، يمكننا أن نطالب بقيم نوعيتنا.

واصلت "لافينيا":

– لكن يجب علينا أن نكون قادرين على "نسونة" المجال وبشكل خاص إن كنا نتحدث عن مجال صعب كالنضال.

قالت "فلور" برقة:

ـ بالنسبة إلىّ فإن مجال النضال، كما تقولين، اتخذ الشكل النسوى جدًا، ونحتاج إلى المشاركة من أجل هذا، فنحن نكون علاقات عاطفية وصلبة مع الآخرين... وأعتقد أن رجالنا حساسون، إنه الموت والخطر والخوف الذى يدفع أيا منا لتشكيل حائط دفاعى... دفاعات ضرورية، ومن غيرها لا أعرف كيف يمكننا أن نواصل.

كان يبدو أنها تطنطن لنفسها، فكرت "لافينيا"، وكلماتها تكاد تكون المحيط الرقيق لقمة جبل الجليد العائم على سطح المياه الباردة، ذكريات ومعايشات التى تكاد هى ألا تكون قد مرت بها، تطفو على عينيها وتأخذها بعيدًا.

قالت "لافينيا":

ـ سأفتقدك كثيرًا.

قالت "فلور":

- وأنا أيضًا، لكنى أشعر بالرضا لأنك ستواصلين العمل مع "سباستيان"، إنه نسوى ـ قالت ذلك ضاحكة ـ وإن كنت أحذرك من أن تقولى له هذا؛ لأنه قد يعتقد أنك تتحدثين عن شىء آخر... وسيساعدك "فيليبى" أيضًا، وإن كان هو أكثر ذكورية... أعتقد أنه معك أفضل من وجوده مع امرأة أخرى لا تواجهه أبدًا، يسعدنى أن أفكر كيف أنك قلبت خططه، لقد أصيب إصابة بالغة!.

قالت "لافينيا":

ـ أفكر أحيانا أن ذكوريته متخلفة، من خلال معرفة النساء اللائى عرفهن قبلى، هناك شىء فيه، ربما بلا وعى، يضعه فى هذا النوع من المواقف.

- غريب، هذه حقيقة؟ لم أفكر أنا فى ذلك أبدًا، ولكن بما أنك تذكرينه الآن... حقيقة، فالألمانية لم تكن رقيقة... نعم، إن "فيليبى" له قيمة كبيرة ويريد أن

يتغير، أنا متأكدة، واضح، أن أفكاره المتخلفة تبرز خلال الممارسة.

قالت "لافينيا" دون أن تتمكن من التركيز فى الحوار، تفكر وتعيد التفكير فى مرور "فلور" إلى العمل السرى:

ـ النضال مع "يارينثى".

سألت "فلور"، بفضول:

ـ ومن يكون "يارينثى" هذا؟

قالت "لافينيا":

ـ ماذا؟ ماذا قلت أنا؟

–أنك ناضلت مع "يارينثى"...

ـ لا أعرف من يكون "يارينثى"، لا أعرف من أين جاءنى.

سألت "فلور" ونفت "لافينيا" بهزة من رأسها:

ـ ألم تتضمن قراءتك عن النضال ضد الغزو الإسبانى؟ كان هناك "يارينثى" هندى أصيل من إقطاعى "بواكوس" و"كاريبيس" ناضل ضد الإسبان لأكثر من خمس عشرة سنة. إنها حكاية بطولية، يكاد لا يعرف النضال الذى جرى هنا. أقنعونا أن فترة الاستعمار كانت مثالية، ولكنها قناعة مزيفة، حقيقة لايعرف أحد إن كانت هذه أسطورة أم حقيقة، فإن "يارينثى" أحب امرأة ناضلت مثله، كانت من اللائى رفضن الإنجاب حتى لا تقدمن للإسبان مزيدًا من

العبيد... يجب أن تطالعى كتبًا عن هذا، ربما سمعت به فى مكان ما وبقى اسمه عالقًا بذهنك، هذا يحدث أحيانًا. يوجد مصطلح طبى عن هذا اسمه "التوازى"... ما يسجل بشكل غير واع، تمامًا عندما تصلين إلى مكان ويبدو لك أنك كنت فيه من قبل.

قالت "لافينيا":

ـ ممكن، أنت لا تعرفين الأشياء الغريبة التى تحدث لى، والأشياء التى تطرأ لى... أنا لا أهتم بها ولكن بما أنك تقولين الآن، ودائمًا ما تكون لها علاقة بالهنود... بالأقواس والسهام، وأشياء من هذا النوع... إنه أمر غريب... أليس كذلك؟

ـ أنا لا أراه غريبًا، ربما أدهشك شىء عندما كنت صغيرة... بعد كل هذا، فإن الماضى الأصيل نحمله داخلنا فى دمنا.

ـ ممكن، ربما حدثنى جدى عن هذا فى طفولتى.

حاولت التذكر دون جدوى، لم تتمكن من التركيز وأعادتها "فلور" نحو التعليمات الأكثر حداثة حول بيت الجنرال "فيلا".

بقيتا فى الحديقة لفترة طويلة، وانتقل الأطفال بمربياتهم إلى الأشجار والألعاب البعيدة يتأرجحون كالبندول مذكرين بزمن الوداع. وأخيرا قالت "فلور":

ـ لقد حانت ساعة رحيلى... حديثى معك كان مفيدا، أشعر الآن بأننى أكثر اطمئنانًا، أشكرك.

قالت "لافينيا" وهى تشعر بالرغبة فى البكاء:

ـ من يجب أن تشكرك هى أنا، لا تعرفين أهمية أن يكون لى شخص مثلك.

قالت "فلور" ضاحكة:

ـ حسن، لا تكونى هكذا، أنت تتحدثين كما لو كنت قد مت، سأظل قريبة منك، مادامت الحركة موجودة، سأكون إلى جوارك، وهكذا سيكون هذا لزمن طويل.

ـ لا أستطيع أن أتخيل أننى لن أراك حتى وقت غير معروف...

قالت "فلور" مشجعة:

ـ الحياة جدلية، كل شىء يتغير، كل شىء يعاد تشكيله، وربما قد نرى بعضنا فى أسرع مما نتخيل. علينا أن نكون متفائلين.

قالت "لافينيا":

ـ شكرًا على القسم، أنا سعيدة لأنك كنت أنت من أقسمت أمامه.

قالت "فلور":

ـ وأنا أيضا، والآن حانت ساعة الرحيل، الوقت متأخر.

قالت هى:

ـ هل تريدين أن أرافقك؟

ـ لا، شكرًا، اتفقت مع رفيق بالقرب من هنا، اخرجي بعدى بربع ساعة.

تحت تلك الشجرة العالية فى ذلك الركن البعيد من الحديقة، تعانقتا، عناقًا قصيرًا، حاولتا أن يكون طبيعيًا كوداع عادى، وقبلة على الوجنة.

شاهدتها تنطلق وبقيت وحيدة، جالسة على الدكة، تسمع لعب الأطفال، متأملة اختفاء اليوم الضبابى فى انتظار أن تمر الخمس عشرة دقيقة.

- ١٧ -

أوقف فى "لافينيا" تعليق صديقتها الحكيمة ذات الشعر والأسود والعينين المستديرتين، لا أريد لأحد أن يدرس الماضى الخاص بى، أريد أن أتذكره معها على طريقتى الخاصة، أن أربطها إلى ذلك الحبل السرى للجذور والأرض.

أخاف من التفكير فى موت "يارينثى" أيضًا، فقد حدث بعد موتى بقليل، شاهدته من مرقدى تحت الأرض كما لو كان حلمًا ... كانت تلك الأزمنة رهيبة، كنا مرهقين بعد تلك المعارك الكثيرة والحصار الذى كان يضيق علينا مع مرور الوقت، مات أفضل المقاتلين، كنا نموت واحدًا بعد الآخر دون أن نقبل احتمالية الهزيمة، كنا ندفن حراب القتلى فى أعماق الجبل فى انتظار أن تُشَرّع من جديد فى يوم من الأيام فى وجه الغزاة، ومع ذلك، كل قتيل لم يحل محله آخر، نزع جلدنا كما لو كان سكينًا من الحجر، كنا نفقد مع كل قتيل جزءًا من حياتنا. نموت مع كل واحد شيئًا حتى نهايتنا، نشبه جيشًا من الأشباح، كانت تقرأ فى أعيننا فقط إصرارنا الغاضب، من شدة

استمرار حياتنا فى الغابات كنا نتحرك كحيوانات وتحولت الحيوانات إلى حلفاء لنا، تنبهنا إلى الخطر، كانوا يشتمون غضبهم فى عرقنا.

كم أتذكر تلك الأيام من الصمت والجوع!.

***

كان البيت الذى تعيش فيه عائلة "فيلا" يقع فى المكان الذى كان وقتها من أجمل الأماكن بالمدينة، والذى تخلى عن مكانته الآن بعد إنشاء المناطق السكنية المرفهة على السفوح والمناطق العليا، التى أصبحت تحتل المكانة المتقدمة والدليل على حياة الترف، وهو المكان المقرر أن يُبنى فيه البيت الجديد.

بعد أن فتحوا لها الباب وقادوها نحو الداخل، شرحت الآنسة "مونتيس" لـ"لافينيا" أن هذا السكن تم بيعه لزوجين أمريكيين يعملان بالتعليم فى مدرسة الدراسات العليا للتجارة، وهم فى إجازة هذا العام. قالت لها:

- لهذا السبب نتعجل إنهاء البيت الجديد بسرعة، لأن الملاك الجدد سيعودون مع نهاية العام.

كانت شمس منتصف النهار التى لا ترحم تسقط على الحديقة، التى تقع إلى جوارها غرفة كبيرة مكيفة الهواء تستخدم كصالة استقبال.

لم يكن الجنرال "فيلا" قد وصل بعد، لكن كان من المنتظر وصوله فى أى وقت.

تقدمت الآنسة "مونتيس" لفتح الباب الخشبى والزجاجى تسبقه خشخشة أساورها الكثيرة، وأمسكت بالباب لتسمح بدخول "لافينيا" التى كانت تحمل تحت إبطها أنبوبًا من الكارتون ترقد بداخله رسوم المشروع.

كان سكن "آل فيلا" مزين بالألوان التى تخيلتها هى، كان مزيجًا من الأنواع الغريبة من الديكورات البراقة: مرايا بإطارات مذهبة، طاولات تتناسب مع الحوائط، أثاث ثقيل مبطن بنقوش الأرابيسك، كراس وطاولات مدهونة، زهريات ضخمة ومزينة بالزهور، سجاد مفروش بلون باهت، على الحوائط مشاهد لمناظر طبيعية، رسوم لأمواج اصطناعية.

فى الصالة، كان هناك حائط مغطى بلوحة ضخمة لمنظر غابة فى فصل الخريف. قالت الآنسة "مونتيس":

ـ اجلسى، شقيقتى ستأتى حالا، إنها تجرب فستانًا جديدًا. اليوم هو موعد الخياطة... حضرتك تعرفين ما يعنيه هذا... هل تريد تناول أى شىء؟

ـ كوكاكولا، من فضلك.

ـ الدواليب الملتصقة بالحوائط تعجب الجنرال جدًا.

قالت ذلك بينما كانت تقترب، بعد أن أغلقت الدواليب بالمفاتيح، ووضعت أمامها زجاجة كوكاكولا وكوب بالثلج.

قالت "لافينيا" مفكرة فى هذا الدولاب القديم سيئ الذوق:

ـ إنها توفر فى المساحة.

قالت:

ـ هذا ما يقوله هو، إنه اقتصادى جدًا، إضافة إلى أنه لا يحب أن يلمس الخدم كل شىء بأصابعهم، حضرتك تعرفين... إن ترك المشروبات الروحية للخدم معناه التخلى عنها. إنهم يسرقونها، دائمًا ما يكون لديهم شخص لهم علاقة خاصة به آو قريب يقدمونه له، لهذا أمر بتصنيع دولاب به ثلاجة هنا فى هذا المكان، كل شىء بأقفال، إنها الطريقة الوحيدة للحفاظ على الأشياء، فتح الدواليب بمفاتيح كلما احتجت لشىء كلفنى جهدا للاعتياد عليها فى البداية... فى بيتنا لم يكن أحد يغلق على أى شىء، لكن، هذا أمر مختلف.

سألت "لافينيا"

ـ منذ متى وأنت تعيشين معهم؟

ـ يووووه، منذ أن وُلِد الطفل... ثلاث عشرة سنة، مدهش كم يمضى الوقت، أليس كذلك؟

ـ وأصول عائلتك من أين؟

ـ من "سان خورخى"، كان أبى مديرًا لمزرعة "لافورتونا"، آنت تعرفينها، أليس كذلك؟ إنها مزرعة الدخان الخاصة بالجنرال الأكبر، وهناك تعارفت

شقيقتى والجنرال... حينها، كان لا يزال حارسًا للجنرال، كانوا كثيرًا ما يزورون المزرعة، فالجنرال يحب استضافة أصدقائه خلال نهاية الأسبوع لركوب الخيل والسباحة فى النهر... كانت أيامًا سعيدة التى يأتون فيها. يقيمون احتفالات كبيرة، يذبحون الذبائح من العجول والخنازير وكانت وقتها شقيقتى شابة وجميلة... ووقع "فلورينثيو" فى حبها، ثم تزوجا، كان الجنرال الأكبر شاهدًا على العقد، وقام بترقية "فلورينثيو" كهدية زواج وبهذه الطريقة حصل على ثقة الجنرال الأكبر حتى الآن يعتبره الجنرال... من يقول إنه فى تلك الأيام، أنا لم أتزوج مطلقًا، عندما جاءهم الطفل طلبوا منى أن أعيش معهم لمساعدتهم فى تربيته... أختى لم تكن قادرة أبدًا على تربية طفل... وأنا كنت وحيدة، كان أبى قد مات، مات المسكين بالريو، وأمى ماتت عندما وُلدت، وجئت إلى هنا سعيدة، فى الواقع، كان حلمى أن أدرس استعدادًا للرهبنة، لكن، فى النهاية فأنا أخدم الله فى هذا البيت... بعد كل هذا فحياة الراهبات صعبة وأنا أحب أشياء معينة فى الحياة... الملابس ـ على سبيل المثال ـ قالت مشيرة إلى الأساور وضاحكة بخبث ـ تعجبنى جدًا، وأحب الرقص ومشاهدة الرجال فى أناقتهم، بملابس أنيقة، أنا لا أرقص لكنى أحب مشاهدة الرقص... بالمناسبة، كيف كان حفل الرقص؟

أنهت "لافينيا" الكوكاكولا، لم تتخيل مطلقًا أن تكون الآنسة "مونتيس" ثرثارة إلى هذا الحد. قالت:

ـ آه، لقد كان جميلا، كان حفلا راقصًا رائعًا، كل سنة تمر تكون هذه الحفلات أفضل، وأكثر روعة، وأكثر تزيينا، وأنا أيضًا أحب أن أكون بين الناس، بخاصة فى مثل هذه المناسبات... لقد رقصت طوال الليل...

ضحكت مستمتعة بثرثرتها . قالت هى:

ـ مؤسف أننا لم نستطع الذهاب، لكن من المؤكد أننا سنذهب العام القادم.

سألت "لافينيا":

ـ وحفل رقص الكازينو؟

ـ آه، كان جميلا أيضًا، لكنك تعرفين، ليس كالآخر، فحفل النادى الاجتماعى أكثر شهرة، الحفل الآخر بلا تاريخ، أعتقد أن الجنرال الأكبر كان محقًا بعمله وكان الحفل جميلا، والأطعمة لذيذة، والشمبانيا مجانًا، وثلاث مجموعات من الأوركسترا، والاستعراض وكل شىء، لكن تقدمت فقط ثلاث فتيات ولم يكنّ جميلات... سمراوات ولا يلفتن النظر.

إنه هدف أحلام الفتيات، فكرت "لافينيا"، متذكرة ما كان يُقال عن الشقيقة العانس لأنها كانت صامتة وكان يبدو أنها تخفى شيئًا خلف حيائها، مؤكد أنها كانت تصمت أمام شقيقتها وزوجها، والآن بما أنهن وحدهن هذه المرة، تحدثن بلا توقف عن حبها للحفلات، وحياة المدينة البراقة. سألت "لافينيا"، بعد فترة ناظرة إلى الساعة:

ـ ربما انشغل الجنرال؟

أجابت الآنسة "مونتيس":

- لا أعتقد، لقد هاتفنا ليبلغنا أنه سيأتى متأخرًا بعض الوقت، ربما مر بمكتب الجنرال الأكبر، لكنه أكد على حضوره، فهو لا يتأخر أبدًا عن الغداء، أتعرفين؟ فقط فى الحالات الخاصة جدًا... أو عندما يكون فى مهمة... وإلا فإنه يتناول طعام الغداء دائمًا هنا فى البيت، فالطباخة رائعة، تعرف المذاق، إضافة إلى أنه لا يتخلى عن القيلولة.

سُمع صوت عدد من السيارات تتخذ مكانها فى الشارع وخبطة باب، عبرت هواء التكييف المنعزل. قالت الآنسة "مونتيس" وهى تتحرك كما لو كانت منجذبة إلى مغناطيس يأخذها إلى عكس الجاذبية الأرضية:

ـ لقد وصل، معذرة، سأخبره أن حضرتك هنا وأنادى شقيقتى.

خرجت من الصالون بسرعة.

بعد لحظات قليلة ستتعرف على الجنرال "فيلا"، كانت عصبية، مررت يدها على شعرها، تسببت فكرة التعرف عليه فى رعدة، وكراهية، فى المساء بالحديقة، كانت "فلور" قد قدمت لها معلومات عن مسيرته العسكرية، وفى الليلة السابقة، قدم لها "فيليبى" و"سباستيان" معلومات عن شخصيته، وأن عددًا من المتعاونين مع الحركة يرقدون فى السجن، يعرفون

تحقيقاته الطويلة، يلعب فيها دور الرجل الطيب، الذى يصل بعد ممارسة التعذيب ليطالب بعدم إجبارهم على الاعترافات بالقوة. فى الجبال، يطلقون عليه لقب "الطائر"، ويقال أن فكرة إلقاء الفلاحين أحياء من الطائرات الهليوكوبتر كانت له إن لم يقبلوا التعاون مع البوليس ضد المتمردين، وتنتسب إليه فكرة إنشاء السجون الشمالية: حفر بلا جدران ومحاطة بالطمى ومغلقة بالحجارة التى تكاد لا تظهر فيها سوى فتحات تجعل المساجين يغيبون عن وعيهم من قلة الهواء حيث يسجنون الفلاحين أيامًا وأيامًا حتى لا تبقى لديهم طاقة لاحتمال استنشاق رائحة فضلاتهم أو يصابون بالجنون.

كان اليد اليمنى للجنرال الأكبر، بسبب قدرته على إثارة الرعب بين الفلاحين ومقاومة المتمردين، وبسبب قدرته على الحفاظ على النظام بين القوات العاملة معه، ويرى فيه الجنرال الأكبر الرجل البسيط الذى تغلب على قدراته. كثيرًا ما كان يقول عنه "إنه من صنع يدى".

كانت معروفة أيضًا مهامه فى مد الجنرال الأكبر بالصبايا الجميلات خلال إحياء حفلات المجون.

"يجب أن تستغلى طبقتك، كما كان يقول "سباستيان" وكونى جادة ومهذبة، لكن عليك أن تجعليه يشعر أنك أعلى طبقة منه وإن كان هذا لا يجب أن يقال له فى وجهه، كونى متعالية كأميرة... وأن تقنعيه مهنيًا، وليس شخصيًا."

فكرة أن تُمثل أمام مثل هذه الشخصية كانت تدفعها إلى الرفض، وتذكرت حوارها مع "فلور" فى الحديقة، هذه أول مهمة تقوم بها، لا يجب أن تشعر بالخوف، يجب أن تنجح.

انفتح الباب بحركة عنيفة وقوية، دخل الجنرال ومن خلفه زوجته وشقيقتها، اقترب ليحييها ناظرًا إليها من أعلى إلى أسفل بنظرة زعيم قبلى. قال بسخرية ومديح فى الوقت نفسه:

ـ إذًا حضرتك المعمارية الشهيرة؟

هزت "لافينيا" رأسها بالإيجاب، راسمة أفضل ابتسامة ملغزة لها.

صافحها الجنرال بقوة، كانت يده كبيرة وجافة مثل شخصيته تمامًا، كان رجلا ينطبق عليه لقب الغوريلا تمامًا، وتقاطيعه ثقيلة تكاد تكون لتمثال كان يمكنها أن تكون تقاطيع جميلة لولا سمنته وتعبيرات وجهه. يبدو رافضًا لماضيه وأصله، تفوح من الجنرال "فيلا" كولونيا غالية الثمن ومستخدمة بحرفية ويرتدى زيًا عسكريًا كاكى اللون مفصل جيدًا على جسده ـ وهو اللون الذى يستخدمه كبار الضباط ـ والشعر مجعد بالزيوت اللامعة وقصة شعر قاسية تحدد ملامح رأسه، متوسط القامة وكرشه يدل على عشقه للمطبخ.

أشار عليها بالجلوس، فيما كان يجلس هو أيضًا، فى الوقت نفسه فإن الشقيقتين، كانتا صامتتين فى حضوره، وتبتسمان لها كما لو كانتا تشجعانها أو ربما

للمشاركة فى تأثير وجود الجنرال. قال هذا بالنغمة المتعالية التى حياها بها، وبصوت معتاد على إصدار الأوامر:

ـ أرينا هذه الرسومات.

حريصة على الحركة بمهارة، وقفت "لافينيا" متجاهلة النظرة الإغوائية للرجل، وأمسكت بالأنابيب الكرتونية، وأخرجت المخططات وفردتها على الطاولة المستديرة التى كانت إلى جانب الكرسى الذى يجلس عليه الجنرال. قالت بتثاقل:

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن نراها هنا.

وافق الجنرال، وقف بلا جهد ومن خلفه الشقيقتان:

ـ نعم، بالطبع.

بدأت "لافينيا" فى عرض التخطيطات المختلفة وشرحها: من الأمام والخلف والداخل والأسقف والأثاث والمناخ العام. كان دائمًا ما يقاطعها الجنرال بأسئلة وتعليقات، لكن "لافينيا" طلبت منه بتهذيب أن يحتفظ بتعليقاته حتى النهاية، لأن الكثير منها من الممكن الإجابة عنها خلال العرض. قال الجنرال:

ـ لا أحب هذه الطريقة، يمكننى أن أنسى الأسئلة لو تركتها للنهاية.

وواصل أسئلته ـ كانت بلا أهمية ـ هدفها أن يثيرها ولإرضاء فضوله: عن الأحجام والمواد والألوان

ومدى ملاءمة ضم البابياردو والموسيقى والبار فى مكان واحد لأنها تحتل الزمن نفسه، مع ذلك، كان يبدو أنه لا يهتم كثيرًا فى تغيير ما تراه زوجته، رغم لهجة أسئلته المتواصلة، لم يطلب سوى تغييرات طفيفة، وظل على طريقته المتعالية إلى أن فردت "لافينيا" رسوم غرفة الأسلحة، حينها تغيرت تعبيرات وجهه وأظهر اهتماما أكبر.

واضح أنه لم يكن قد فكر فى شىء من التفاصيل الدقيقة التى أدخلتها "لافينيا" ـ نظرت الشقيقتان واحدة إلى الأخرى وابتسمتا بسعادة ـ لاحظت سعادة الرجل عندما شرحت له تخيل الجدار المتحرك للأرفف. يتكون الجدار من ثلاثة أجزاء من الخشب، لكل جزء قائم من الحديد يرتكز على قاعدة من المعدن المتحرك بعيدًا عن الآخرين، وحركة ميكانيكية ملتصقة بالجدار تسمح له بالثبات فى الجدار أو الدوران بعيدًا عنه، من ناحية، تعرض الأجزاء ما عليها من أسلحة مرتكزة على مسطح الجدار، ومن ناحية أخرى، يمكن أن يبدو جدارًا من خشب الأبنوس المزخرف. بهذه الطريقة يمكن فقط للجنرال أن يفتح حركة الجدار عندما يريد فتخرج الأسلحة للعرض خلف الجدار الخشبى الأنيق.

الفارق بين الجدار الخشبى وحركته توفر للجنرال مساحة تبدو كما لو كانت "غرفة سرية" يمكنه استخدامها كخزانة للاحتفاظ بأسلحة أخرى أو الأدوات الخاصة بتنظيفها...

ـ أو أى شىء آخر يريده الجنرال.

وأخيرًا قالت "لافينيا" التى صدعت رأسها بمسدسات "هارست" محاولة رسم حدود الغرفة السرية ولم تشرك معها أحدًا فى ذلك ولا حتى "خوليان، كانت هذه ورقتها السرية، "الآس" الخاص بها، لتكتسب ثقة الجنرال، وقد أحدثت فعلها. وانعكس هذا فى تعبيرات الجنرال الذى كان ينظر إليها. قال "فيلا"، خافضا صوته بشكل ملموس:

ـ حضرتك ذكية جدًا، يجب أن أعترف أنها فكرة رائعة وجديدة...- واستدار نحو الزوجة وأضاف ـ أخيرا فعلت شيئًا جيدًا.

ابتسمت "لافينيا" كأميرة، محتقرة الجنرال بكل ما تملك من مشاعر فى جسدها، كانت فى حاجة إلى استشارته فى بعض الأشياء عن الأسلحة التى ستُعرض على الأرفف. قال هو"

ـ بالطبع، بالطبع، أرجو أن تبقى لتناول طعام الغداء معنا؟ وبذلك يمكننا الاستمرار بعد الطعام.

عندما خرجت من بيت الجنرال "فيلا"، كانت حرارة المساء الرطبة تغطى المدينة بهواء ثقيل من القيلولة والنعاس النهارى.

ودعتها أسرة "فيلا" على الباب، محاطة برجال الأمن المدرعين بالصدادات والنظارات السوداء وعلى وجوههم تعبيرات رقيقة، وشاهدوها وهى تمر بالقرب منهم بعد خروجها.

خلال لحظة معينة من الطعام، أبدى الجنرال إشارة خفية إلى ارتباط أسرتها للحزب الأخضر، قال، "مهندستنا تحمل دما أخضر"، أجابته هى، "إنه تراث عائلى، أنا لا أؤمن بالسياسة، أفضل عدم التدخل"، أكد الجنرال على قناعتها بأنها تفعل الأفضل، بخاصة أن السياسة للرجال فقط.

نظر إليها رجال الجنرال بالقناعة نفسها.

فتح لها أحد الحراس باب السيارة، شكرته هى بابتسامة أنثوية وودعت أسرة "فيلا" بإشارة منها بينما كانوا يتجادلون بحيوية على الرصيف، أسرعت بالابتعاد.

فى طريقها شعرت بالغثيان وبإحساس برغبتها فى الاستحمام. فكان يجب عليها المرور ببيتها قبل الذهاب إلى المكتب حيث ينتظر "خوليان" أخبارها، لم يكن سهلا عليها المرور بالغداء الدسم، فالطعام كان مليئا بالدهون بشكل مبالغ فيه وكان الجنرال يتحدث بفم ملىء بالطعام.

لم يكن سهلاً سماع شروحه عن تعامله مع الأسلحة المختلفة التى عرضها أمامها، متفاخرًا بقوة النيران لكل منها وقدرتها القاتلة.

لكنها أكملت دورها، وكان الجنرال سعيدًا، وافق على رسوم المشروع وأمر بعمل مشروع الوضع النهائى مع بعض التعديلات البسيطة التى لا قيمة لها. وكلفها أيضًا بالتعاقد مع الشركة المنفذة التى تراها هى

مناسبة لأنها ـ كما قال ـ جديرة بالثقة، وعرض أن يبدأ فريق عمل تجريف الأرض فورًا، يريد البيت منتهيًا فى ديسمبر المقبل على أكثر تقدير، وعلى استعداد لدفع أى تكاليف زيادة.

توقفت "لافينيا" فى إشارة المرور ويدها على بطنها لتسيطر على شعورها بالغثيان، فالجنرال ابتلع طعم معرض الأسلحة ـ أطلق عليه غرفة الاستوديو الخاصة ـ دون أن يتوقف عن النظر إليها بإلحاح، وفى لحظات بشكل شهوانى.، قالت "لافينيا" لنفسها، إنها جزء من اللعبة. ما كان يُنتظر من هذا الرجل تعاملا مختلفا، المهم أن خطة "هاريست" نجحت، وفكرت، أن المليونير الكاليفورنى ما كان فى إمكانه أن يتخيل الخدمة التى قدمها لحركة المقاومة فى أمريكا اللاتينية. كانت نقطة لذكرها لـ"باتريشيا".

خلال الغداء، غرقت الشقيقتان "فيلا" فى صمت كامل تقريبًا، ينقطع فقط بملاحظات تتطابق مع رؤية الجنرال أو لتوجيه الخدم المخصص لخدمة المائدة، فقط نظراتهن أظهرت أمام "لافينيا" سعادتهن وشكرهن، لم تتعرف على الأولاد، تناولا طعامهما فى المدرسة فى ذلك اليوم.

أيدى الجنرال كانت سمينة وأصابعه القصيرة كانت تسبح فى ذاكرتها، كان عليها أن تبذل مجهودًا كبيرًا خلال الغداء لإبعاد عينيها التى كادت تظل مركزة على تلك الأصابع وهى تمزق جزءًا كبيرًا من دجاجة سمينة.

أبعدت عينيها حتى لا تشعر بالغثيان الذى كاد يقلب معدتها بالقوة.

فتحت "لوكريثيا" الباب بتعبير متباه، بدت مؤخرًا سعيدة، تدندن بأغان خلال حركتها من جانب إلى آخر بالمسحة والدلو، والراديو فى المطبخ، بأعلى قوته، ينشر الموسيقى فى البيت. قالت:

ـ أية معجزة جاءت بك الآن؟ هل أنت بخير؟ تبدين شاحبة.

أجابت بينما تجرى تقريبًا بحثًا عن غرفة نومها:

ـ نعم، نعم، لا تجزعى، إنها من أثر تخمة غذائية فقط وحرارة أشعر بها، أنا فى حاجة للاستحمام.

ألقت بحقيبة يدها والرسوم على السرير، دخلت الحمّام غير قادرة على إيقاف رغبتها فى القىء.

تكره التقيؤ، فيه يتحول الجسد إلى أداة متمردة، يتعلق بالرقبة، لكنها الآن، عقلا وجسدا يعملان بتوافق كامل، يرفضان بقوة روائح ومذاقات وأيدى ثخينة، وأساور مجلجلة، ونكات وأسلحة باردة ولامعة، وأسنان تنهش لحم دجاج، وفلاحين، وسجون من الطين وأقبية تعذيب.

المنحنيات المتوالية تتداخل مع منحنيات النشيج والغضب، لم تكن ترغب فى البكاء، لا يجب أن تبكى، بل كانت تود ألا تغادر هذا الغضب المر، هى فى حاجة إليه فى مواجهة الشكوك، فى مواجهة العيون الخائفة

للشقيقتين "فيلا"، فى مواجهة هذا العالم القذر الذى ولدت فيه.

لقد كانت قوة نزع التقزز.

غسلت وجهها فى حوض الحمّام، وسمعت عبر الباب المغلق "لوكريثيا":

ـ طفلتى "لافينيا"، طفلتى "لافينيا"، هل أنت بخير؟ افتحى، دعينى أساعدك؟

فتحت الباب، وهى تمسح وجهها بالمنشفة وتتنفس بعمق وتشعر بالراحة. قالت:

ـ لقد مرت يا "لوكريثيا"، لم أستسغ الطعام، لكن مرت الحالة، سأتمدد لبعض الوقت لأنه يجب أن أعود إلى المكتب. سأكون بخير خلال لحظات.

وتركت نفسها تسقط على السرير، أغلقت عينيها بينما خرجت "لوكريثيا" لتعد لها مشروبًا من الليمون، بدأت تسترخى، تركت الجسد يسترخى، وأن يعود التنفس إلى رتابته لتستيقظ وتذهب لرؤية "خوليان"، وتخبره بالموافقة على المشروع، والبدء فى العمل حتى يمكن الانتهاء من البناء فى شهر ديسمبر، كما أراد الجنرال.

ـ إذًا لقد وافق على كل شىء؟

انطلق "خوليان" فى قفزات من أقصى المكتب إلى أقصاه، وكان يفرك كفيه من السعادة. وكان يقول:

ـ أنا كنت أعرف انك ستقنعيه، هل رأيت؟ كنت على حق عندما كلفتك بالتخطيط، هل ترين؟

ـ إنه على استعداد لدفع أى تكاليف إضافية حتى نسلمه البناء فى ديسمبر، وطلب أن نبدأ على الفور فى تجريف الأرض، من فضلك، "خوليان"، لاتواصل السير بهذه الطريقة لأنك تصيبنى بالدوار، لا أعرف لماذا أنت سعيد هكذا.

ـ لأننى كنت أفكر أنه كان من شبه المستحيل أن يوافق على الأشياء الغريبة التى وضعناها له... الساونا، والجمنازيم، والحمّامات، والصالات الأربع... لم ألتق من قبل بعميل سهل هكذا.

ابتسمت "لافينيا"، التى كانت تجلس على الكرسى فى استرخاء:

– هذا إننى لم أخبرك باختراعى الكبير...

وأخيرًا سأل "خوليان" وهو يسترخ على الكرسى الدوار خلف المكتب:

ـ أى اختراع؟

ـ معرض سلاح مأخوذ عن قلعة من القرون الوسطى، غرفة سرية بكل متعلقاتها.. رسمتها... مستلهمة من بطاقة بريدية لبيت "هارست" كنت قد قدمته أنت لى.

ـ لكنى كنت قد راجعت الرسوم.

قالت "لافينيا" وهى تنظر إليه بخبث:

ـ قبل أسبوع.

ـ نعم، لأنه لم يتبق سوى تفاصيل صغيرة...

ـ أعتقد أنه منذ خمسة أيام، اتصلت السيدة "فيلا" بطلب هذه الفكرة عن الأسلحة... ألا تذكر أنه كانت هناك منطقة خاصة بها، عبارة عن غرفة حياكة بصالة جلوس؟

أمن "خوليان" بهزة من رأسه، مهتمًا كما لو كان سيستمع إلى حكاية بوليسية.

-لقد قالت لى إنها تتنازل له عنها، وإنها تفكر فى مفاجأة لزوجها، وإنها استلهمتها من إحدى المجلات.

قالت دون أن تقدم تفاصيل كثيرة:

ـ فى البداية حاولت مماطلتها لكنها أصرت كثيرا، فقمت برسم متحف الأسلحة... لقد كان الجنرال سعيدًا للغاية.

قال "خوليان" ضاحكا ملء فمه:

ـ أتخيل ذلك.

ـ وغرفة الأسلحة ستظهر على الرسوم الرسمية على أنها الاستوديو الخاص، والرسم الحقيقى سيكون فى تخطيطات سرية، ونغمة التآمر كانت جزءًا من الجاذبية، طلبت منه ذلك لتكون الفكرة أكثر جاذبية، وبدا "فيلا" كقرد أهدوه ساعة، لكن هذا سر بينى وبينك فقط، لا تخذلنى.

قال "خوليان" غامزًا بعينه، سعيدًا، فإن "لافينيا" لم تكن تريد أن يعلم بذلك "فيليبى"، لأنها لم تكن متأكدة من موافقته على الفكرة:

ـ لا تهتمى.

قالت "لافينيا" مستغلة حالته الطيبة:

ـ "خوليان"، أنت تعرف أننى لم أشرف أبدًا على أى مشروع، أريد أن تسند إلىّ الإشراف على هذا، أعتقد أننى أستحق ذلك.

نظر إليها مفكرًا. وأجاب:

ـ لا أعرف، لا أعرف، الصراع مع المهندسين والمعلمين فى العمل صعب علينا، وفى حالة امرأة، يمكن أن يكون مستحيلاً تقريبًا.

سألت هى دون أن تتردد، محافظة على رقة نغمة صوتها:

ـ كيف يمكنك أن تكون واثقًا ما لم تكن قد جربت ذلك؟

أجاب:

ـ لأننى أعرف الجو العام.

قالت بعنف:

ـ أؤكد لك أن الجنرال سيكون موافقًا، لقد اقتنع أننى رائعة، كاد يقول إننى رجل، "لم أر أبدًا سيدة رائعة مثلك".

ـ لا أشك فى ذلك، لكن الجنرال لن يقبل تعليماتك أنت.

قالت "لافينيا"، رافعة صوتها:

ـ لكنى أنا من رسم هذا البيت الملعون! لماذا يكون مهندسًا آخر من يشرف عليه؟ أنا من يجب أن يفعل ذلك! وأى شىء آخر أعتقد أنه ظلم، هل فقط لأننى امرأة! يجب أن تتغير الأحوال فى هذا البلد كما يحدث فى العالم كله، حقيقة قد يكون صعبًا، ولكن عندما ينتبهون إلى أننى أقوم بعملى جيدًا سيكون عليهم احترامى.

قال "خوليان":

ـ لا أعتقد أن الأمر سهل هكذا، كل ما أستطيع هو أن أضعك مشرفًا مساعدًا.

قالت "لافينيا"، وكانت على استعداد لمواصلة العراك:

– لكن.

قال "خوليان":

– لكن، اهدئى، ولا تكونى مثالية، يمكننى أن أترك لك كل العمل تقريبًا، وأكون هناك من وقت إلى آخر، وهذا هو المهم، أليس كذلك؟ والأشياء الأخرى مجرد كلام نظرى.

قالت "لافينيا":

ـ كلام نظرى لا، إنها نظرة ذكورية متراكمة، أنت تؤمن أننى أستطيع أن أقوم بالعمل، لكن ليس من خلال تعيينى رسميًا لأننى امرأة، والرجال سيشعرون بعدم الراحة، أنا قادرة أو أكثر من أى مهندس معمارى من أولئك الذين يعملون معك.

ضحك "خوليان":

ـ بما فيهم "فيليبى"؟

قالت "لافينيا":

ـ بما فيهم "فيليبى"، إضافة إلى أننى أعرف أنك لن تضع "فيليبى" مشرفًا على هذا البيت!.

نظر كل منهما إلى الآخر بتحد وقال كل منهما ما أراد، دون أن ينطق بكلمة واحدة.

قال "خوليان" دون أن يرد على تحديها:

ـ لن تقنعينى، إذا لا يجب أن يجهد كل منا الآخر، ولا نقلل من النجاح الذى تحقق، إذا قبلت الطريقة التى عرضتها عليك يمكننا أن نتفق، وإلا، يجب أن أبحث عن مهندس آخر.

كانت على وشك أن تقول له أن يبحث عن مهندس آخر، وأن ترفض هناك، وأن تلقى فى وجهه الرسومات لكنها لم تستطع، لم يكن أمامها سوى القبول بالاتفاق، إن هذه الأوضاع التى يجبر فيها الإنسان على الصمت مرعبة، والأشياء الضرورية من أجل الوطن كذلك!.

قالت فى محاولة لتهدئة جموحها وهى تقف من على الكرسى:

ـ دعنى أفكر.

قال "خوليان":

ـ فكرى فيه وأخبرينى، سأعقد غدًا اجتماعًا مع المهندسين، اتركى لى الرسومات ولا تكونى هكذا، أنت تعرفين أنى أثق فى قدراتك المهنية، ليس بسببك، إنه بسبب شركات البناء.

خرجت من مكتب "خوليان" والإحباط مطبوع على وجهها.

فكرت، إن الأمر سهل، إلقاء اللوم على شركات البناء.

التقت "سباستيان" يوم الخميس وأوصلته إلى طريق الأشجار بعد هبوط الليل، وتحدثا عن زيارتها لبيت الجنرال.

قال "سباستيان" ناظرًا إلى الطريق بلا اهتمام:

ـ إذًا يريدون افتتاحه فى ديسمبر؟

قالت "لافينيا":

ـ نعم، و"خوليان" على استعداد لتلبية رغبتهم، ولم أتمكن من تعيينى مشرفة على البناء، ولكنه عيننى مساعدة.

واصلا الصمت لفترة ليست بالقليلة، رافقهما صوت صرصار الغيط مؤكدًا على الصمت الثقيل المحيط بهما، كانت هناك حركة مرورية قليلة فى تلك الساعة، فقط شاحنات كبيرة تجبرهما على تخفيف سرعة السير. سألت "لافينيا":

ـ كيف حال "فلور"؟

ـ حسن جدًا، إنها تعمل كثيرًا، إن "فلور" رفيقة رائعة.

قالت هى:

– أشعر بافتقادها.

قال:

– لقد أصبحتما صديقتين، وأنا أيضا أفتقدها.

– لكنك تراها، أليس كذلك؟

قال برقة:

– لا تكونى لحوحة، أنت تعشقين الأسئلة.

قالت "لافينيا":

– أنت محق، لكن هناك بعض الأشياء التى لاأعتقد أنها سرية جدًا.

– بأشياء ظاهرها غير مهم يمكن أن تكشف قضايا أكثر أهمية.

– ولكن لمن سأقول ذلك؟

– ليس عدم ثقة، لكننا لا نستطيع أن نتخلى أبدًا عن إمكانية أن يلقوا القبض علينا، وخلال التعذيب يمكن ذكر أشياء، فى الماضى كنا مهملين، وكنا نعتبر من يقول أية معلومات لأمن الدكتاتور خائنًا، والآن، وكلما كانت أدوات التعذيب أكثر قسوة نطلب فقط من الرفاق أن يتحملوا أسبوعًا واحدًا لمنحنا فرصة لترك أماكنهم، وبعد أسبوع واحد يمكنهم أن يدلوا بأقل القليل من المعلومات لتجنب المزيد من التعذيب.

شعرت "لافينيا" أن جلدها اقشعر بردا، حاولت ألا تفكر فى هذا الاحتمال. قالت:

– مؤكد أن التعذيب مرعب.

قال "سباستيان":

– نعم، أنا أفضل الموت على القبض علىّ حيا من أبناء القحبة هؤلاء.

– عندما كنت أتناول طعام الغداء فى بيت الجنرال، ظللت أتأمل يديه مفكرة فيما يفعل بهما.

– مؤخرًا لم يعد يقوم بذلك شخصيًا، فقط يوجه، لكن هناك رفيق من الجبل عذبه هو شخصيًا، دفنه لمدة أسبوع فى مكان ما تحت الشمس الحارقة تاركا فقط رأسه خارج الأرض، كان يأتى "فيلا" بدلو ماء ويلقيه على رأسه، كان الرفيق يشرب فقط القليل من الماء الذى يسقط على شفتيه، كان بقاؤه حيًا معجزة، تمكن من الهرب خلال نقله وأرسلناه إلى الجبل لأنه كان مصابًا بفوبيا الرعب، يجب أن تعملى بجهد لمعرفة أية معلومات يمكنك أن تحصلى عليها منه وأن يكون البيت مكتملا فى ديسمبر.

– ألا تعتقد أنه من الأفضل تعطيل البناء؟ هذه كانت خطتى، لهذا السبب طلبت منه أن يمنحنى وقتًا للمراجعة.

قال "سباستيان" جادًا:

– "لافينيا"، يجب أن تتعلمى أنه فى هذه الحالة، عمل الخطط ليس من مهامك، فقط الرسومات، أفكارك مُرحب بها لكن يجب الموافقة عليها من

القيادة، أنت معتادة على العمل وحدك فى الحياة وعليك أن تبدئى فى التعلم الآن على العمل فى فريق وأن تكونى مطيعة، لا أريد أن أقطع عليك مبادرتك، لكن فى الحركة لا يمكن أن يقوم كل منا بعمل مايخطر على باله، حتى لو كنا نعتقد أنه إيجابى، فالواحد منا مجرد جزء من التروس ويجب التفكير فى الأجزاء الأخرى، لهذا يجب استطلاع الأشياء مع المسئولين الذين لديهم معرفة عامة أوسع عن الوضع. فيما يتعلق بخطتك تأخير البناء، أرجو أن تنسيها، نحن يهمنا أن يثق فيك الجنرال كثيرًا، لذلك يجب أن تكونى منجزة جدًا فى عملك وأن تقدمى له البيت مبنيا فى ديسمبر.

قالت "لافينيا"، شاعرة بعدم الراحة:

- حسن.

قال "سباستيان":

- حقيقة، حدثتك "فلور" عن تدريب عسكرى، أليس كذلك؟ - هزت رأسها بالموافقة - سنقوم به نهاية هذا الأسبوع، و"فيليبى" المكلف بتوصيلك إلى المكان.

لقد وصلا إلى المكان الذى ينزل فيه "سباستيان"، توقفت "لافينيا" والمحرك يعمل، ريح باردة تهب فى الليل، حركة الظل الحاد المشرع للأشجار، ووجهه النحيل والجاد يشى بالانزعاج. قال:

- لدينا خطط كبيرة لك، "لافينيا"، الحركة تدخل الآن مرحلة مهمة جدًا، ولكن يجب أن تبذلى جهدًا من

جانبك، لا أحد منا كامل بلا نقيصة، إن كل شىء يمكن تعلمه، ونعرف أنه ليس سهلاً، وكلنا يمر بتلك المرحلة، وواجبنا مساعدتك على التشكل، أن نعلمك ما تعلمناه، لهذا لا بد من التواصل والثقة من جانبك، والتفهم والحزم من جانبنا ... إلى اللقاء.

قبل أن تتمكن "لافينيا" من الإجابة، كان قد ابتعد فى الطريق المظلم مسرعًا المسير، منتصبًا ونحيلا فى منتصف الريح.

كانت الريح تعوى فى الطريق عبر نافذة السيارة نصف المغلقة. لم تعرف كيف تصف تلك الخطوة التى ربطتها إلى مقعد القيادة، لقد منحها "سباستيان" احترامًا وإنذاره أصابها بالانزعاج، وذكرها أنها لاتزال بعيدة عن أن تصبح مثله، مثل "فلور"، وحتى مثل "فيليبى"، وربما كانت المسافة أبعد من قطعها، كيف يمكن أن يتوقف الواحد منا عن التعامل وكأن العالم ملكه؟ متى تتعلم ما تعلموا معرفته دائما؟ كم تفتقد "فلور"!.

كانت تشعر مؤخرًا أنها متمردة على العالم، ليس فقط بانضمامها إلى الحركة، بل بوعيها القوى فى مواجهتها مع الواقع الآخر الأكثر عدوانًا: جدالها مع "فيليبى"، ومع "خوليان"، والنظرة الساخرة لـ"أدريان"، و"جابرييل"، ولفت نظرها من جانب "سباستيان"... عالم الرجال.

قالت لنفسها بضعف، لا تخلطى عالم "سباستيان" بهذا كله.

- ١٨ -

عبرت عربة الجيب القديمة الطريق الموحل نتيجة المطر الحديث، كان السائق رجلاً متوسط العمر، له تقاطيع لطيفة ودمثة، يناديه "فيليبى" بلقب "تونييتو"، يمسك بعجلة القيادة التى كانت تتحرك بقوة كما لو كانت لا علاقة لها بإطارات السيارة.

كانوا قد خرجوا مع الساعات الأولى للفجر، ولم يسلكوا طريق الشمال سوى مع الأضواء الأولى، فى مكان محدد باتجاه داخل الوادى المحاط بالجبال، بدأ المشهد يستعيد شكله تحت الضوء المتعدد الألوان، من الوردى إلى الأزرق، كان رطبًا وغائمًا.

كان "فيليبى" وهى يجلسان فى الجزء الأمامى من الجيب، وفى الكراسى الخلفية، رجلان وامرأة، التقطوهم من أماكن متعددة من المدينة، لا يكاد يشعر بوجودهم أحد سوى من حوارات متقطعة.

كانت "لافينيا" صامتة خوفا من أن تقول شيئًا غير مناسب، شىء يمكنه أن يعرضهم للخطر، كانت هذه المرة الأولى التى تلتقى فيها بأفراد من الحركة،

وبما أنها كانت تجهل قواعد اللعبة فى مثل هذه الحالات فقد فضلت الصمت.

كان "فيليبى" يتناوم، فقط السائق الذى كان يبدو أنه مسترخ، ربما كان قديمًا فى المهنة، يدندن من وقت لآخر بأغان حديثة أو قديمة من أغنيات "أغسطين لارا".(*)

بدأت الشمس تضىء بمجرد انقشاع الضباب، وتلقى بأشعتها على حقول واسعة من الذرة والبصل، كانوا فى منطقة ريفية، لم يصل إليها التيار الكهربائى بعد، لذلك لم تكن هناك الأعمدة التى تشبه الصلبان، ولا العصافير التى عادة ما تقف على كابلات الضغط العالى فى المدينة.

الرائحة عطرة، نظيفة، رائحة أبقار بعيدة ورائحة حقول البصل. قال "فيليبى" مستيقظًا بعد حركة عنيفة للسيارة:

– كم بقى؟

– نحن نقترب.

أجاب "تونييتو" ثم عادا إلى الصمت.

إذاً نحن اقتربنا، فكرت "لافينيا"، كانت تأمل ألا تكون بليدة خلال التدريب، شرح لها "فيليبى" شيئًا عن

(*) أغسطين لارا" مطرب الثورة التشيلية فى عهد الرئيس سلفادور الليندى، وعندما قام الانقلاب العسكرى بقيادة الجنرال بينونشيه عام ١٩٧٣ تم سجنه مع مئات الآلاف فى إستاد سانتياجو الشهير وتمت تصفيته جسديًا.

التدريب، والتشكيلات وفك وتركيب السلاح، وأنواع إطلاق النار، "كما كانوا يتعلمون فى مدرسة نهاية الأسبوع"، وإن لم تكن بارزة أبدًا فى ممارسة الرياضة أو ألعاب الجمباز، والشىء الوحيد الذى يشفع لها نجاحها فى ممارسة بعض حركات الجمباز الإيقاعى والباليه خلال مراهقتها. لم تفكر أنه يجب عليها أن تهتم أكثر بممارسة الرياضة؛ لأنها كانت مشاءة جيدة ولها جسد متماسك بشكل طبيعى، كانت منزعجة من دروس إطلاق النار، لأنه حتى يوم تناول الغداء مع "فيلا"، لم تكن قد لمست سلاحا بين يديها إطلاقًا، وأمام الجنرال، لم تكد تلمس تلك الأسلحة مظهرة الرعب الأنثوى من الأسلحة النارية، رعب ظهر عليها أمام تلك الأدوات التى لا يعرف أحد فى كم من جرائم القتل استخدمت.

فى بعض الأحيان عرفت عمتها "إينيس" البنادق لأنها كانت تصطحب الجد فى طفولتها فى رحلات صيد الغزلان، وشرحت لها طريقة عمل مسدس قديم كانت تحتفظ به فى منطقتها التى تحتفظ فيها بالأشياء المقدسة، إلى جوار المسابح ورسائل العشاق القدامى، أدهشتها الدقة فى تصنيعها الداخلى، وتطبيق الفيزياء على الأسلحة النارية، والميكانيزم المصنوع بحذق، وكانت تلك المرة الأولى التى تنظر فيها عن قرب إلى تلك الأشياء التى كانت تصيب أمها برعب قاتل، "ممنوع اللمس، وممنوع حتى مجرد الاقتراب"، كانت تقول فى كل مرة يُخرج فيها أبوها

مسدسًا قديمًا عندما كان يسمع صوت حركة اللصوص، وهى الآن فى طريقها للتدريب على التعامل مع الأسلحة النارية. وربما تحتفظ فى يوم ما بأسلحة فى بيتها؟ كم بعيد على أبويها الاشتباه فى التحول الذى طرأ على حياتها، فكرت، منذ ليلة الرقص لم تزرهما سوى مرتين كغريبة عنهما، تناولوا القهوة معًا وأكلوا بعض البسكويت فى صالون البيت. كانا يتحدثان معها تليفونيًا من وقت إلى آخر، وكان أبواها يستطلعان عن حياتها الاجتماعية، لكنهما لم يكونا يوجهان أسئلة كثيرة، فقد فصلت بينهم مسافة واسعة يتابعان من خلال إشارات بعيدة وملغزة، هذا ما أرادته هى، كان من الأفضل إيجاد حالة من البعد الرقيق، لم تكن ترغب فى المخاطرة بحياتها الخاصة بزيارات مفاجئة من أبويها.

***

كانت تفكر فى أهلها، رغم أنها كانت واضحة، إن الصور تظهر فجائيًا، تتشوق فى لحظة الخطر إلى أحضان أمها والى تلك المرأة الأخرى التى ترقد فى ذكرياتها منذ زمن مضى، يبدو أن هناك قضايا فى حياتها لم تحل بعد، نواقص عميقة، مداعبات لم تحصل عليها، والطفولة معلقة فى عنقها كأرواح هائمة لأزمنة مضت، لم تودعهم أبدا، وأبواها لم يعمداها أبدًا، لم يشاهداها وهى تتباعد كما ينظر الرامى إلى السهم المنطلق بعيدًا، لم يتركوها طليقة.

***

لكز "تونيتو" "فيليبى" بكوعه وقال موقفًا السيارة:

- لقد وصلنا.

كانوا فى نهاية الطريق الترابى، الذى ينتهى بالقرب من سور إحدى المزارع، كانت الشجيرات من حولهم كثيفة، تنتصب على الجانبين مساحات كبيرة مزروعة بالموز.

أشار "فيليبى" إلى الجميع أن ينزلوا، هبطوا فى صمت وهم ينظرون بدهشة إلى ذلك المكان الذى لايؤدى إلى لا شىء، لا يُرى أى شىء عدا شجيرات الموز، أشار إلى "لافينيا" والآخرين بالانتظار قرب السور الشائك فيما كان يتحدث مع السائق.

بدأ "الجيب" القديم المتهالك فى التراجع على الطريق الذى جاء منه، وحين استدار، رفع "تونييتو" ذراعه بإشارة الوداع وابتعد بين الغبار الذى يثيره. قال "فيليبى" مشيرًا إلى مكان ما بين الأسوار:

- هيا إلى هناك.

تبادلوا رفع الأسلاك والمرور من تحتها.

ساروا لما يقرب من نصف الساعة، متلاصقين صامتين، وأخيرًا وصلوا إلى مكان خال ينتصب فيه بيت قديم.

كان النهار قد وضح، لكن لم تكن تصدر عن البيت أية إشارة تدل على الحياة، ومع ذلك، كانت المزارع قائمة.

اقترب "فيليبى" وخبط على أحد الأبواب: ثلاث ضربات قوية، تبعتها ضربتان سريعتان.

كانت تلك الإشارة، انفتح الباب وخرج من البيت رجلان فتيان، يرتديان الجينز، حفاة وبلا قمصان.

عانقا "فيليبى" واحداً بعد الآخر، فيما كانا ينظران إلى تلك المجموعة الصغيرة التى ترافقه.

- هل هؤلاء هم الطلاب؟

قال الأطول قامة منهما، شاب حسن المظهر، له أطراف طويلة ونحيلة، أبيض البشرة وشعر رأسه كستنائى.

قال "فيليبى":

نعم، إنهم هم.

ثم قدمنا له:

- "إينيس"، "رامون"، "بدرو"، و"كليمنتيا".

الفتى الآخر، ضخم وعفى، نظر إليهم بقليل من الدعابة، وسأل فابتسموا جميعًا بلا رغبة:

- هل أنتم مستعدون للإجهاد؟

قال "رينيه" الأطول بين الاثنين:

- فلنبدأ فورًا.

دخلوا البيت الكبير حيث أشاروا لهم إلى مكان لترك أشيائهم، عدا عدد من الأسرة المعلقة، لم يشاهدوا سوى فرن بدائى فى الركن وعدد من الأكياس.

بدأ التدريب فى الفناء، لم تفهم "لافينيا" ذلك المكان.

فكرت: أين الفلاحون؟ من يعيش هناك؟ فيما كان "رينيه" يطلب منهم أن يعد كل منهم رقمه، طوال الوقت الذى سيظلون هناك، سينادون بأرقامهم.

وأخذت "لافينيا" الرقم ستة، والأخير.

كان "فيليبى" يجلس فى الممر القديم، ويتأملها من مكانه.

- هيا نقسّم الدروس، أنا سأقدم لكم عناصر التشكيل المغلق، إنه تكتيك عسكرى، و"فيليبى" يقدم لكم دروسًا فى فك وتركيب السلاح، و"لورنثو" دروسه عن الرقابة النهارية وخلال الليل دروسًا عن الرقابة الليلية، لا أريد ضحكًا، ولا جدالا، حتى يحين وقت الراحة، مفهوم؟

- مفهوم.

قال الرجلان والمرأة فيما حركت "لافينيا" رأسها بالموافقة، وكانت تعتقد أن الآخرين أكثر مهارة منها.

قضوا طوال الصباح فى ذلك المكان، يتعلمون أصوات إصدار الأوامر والحركات المصاحبة لها: ثبات، يمين، يسار، نصف استدارة، السير، ذكر الأرقام من الأمام ومن الخلف، نصف استدارة، كان يصرخ "رينيه" فيستديرون جميعًا والأقدام ملتصقة.

لم تستطع فهم فائدة تعلم تلك الحركات التى تبدو مخصصة للجنود عنها لمقاتلى الحركة، لكنها

طبقتها بحرص، ونزت بالعرق عندما نفذت التدريبات القاسية، ثم أطلق "رينيه" صيحته "راحة".

شاهدت "فيليبى" يشير إليها بيديه وينفصل عن المجموعة، تبعته بين زراعات الموز إلى جدول يجرى بالقرب من المكان. قال لها وهو يجذبها من شعرها بإعزاز:

– هنا يمكنك أن تغتسلى ببعض الماء، فأنت مترية الجسد.

سألت "لافينيا":

– والآخرون؟ لم لا نناديهم؟ من المؤكد أنهم فى حاجة إلى الاغتسال وشرب الماء.

قال "فيليبى":

– سيأتون، لا تنزعجى، سيأتى بهم "رينيه". فقط أردت أن أسرق لحظات أكون فيها معك، لم نكن معا فى مكان مثل هذا أبدًا، فى الحقول.

– لِمنْ هذه المزرعة؟

– البيت مهجور، مؤكد أنك انتبهت إلى ذلك، وهو جزء من مزرعة بعض المتعاونين، بنوا بيتًا جديدًا ولا يأتى أحد إلى هذا البيت؛ لأن الفلاحين يقولون إنه يثير الرعب، يمرون من هنا فى الحالات الضرورية فقط، خلال فترات الحصاد، ولكنهم قطعوا الحشائش الأولى قبل فترة قليلة... إضافة، إلى أن معظمهم يتعاونون معنا، هذا المكان آمن إلى حد ما، أحب أن أراك تنزين عرقاً ومترية.

ضحكت "لافينيا"، كان الماء باردًا، مثلجًا تقريبًا، يجرى الجدول بين منحدرين من الطين، يحمل حجارة صغيرة، تحتك بالحواف، وبينما كانت تدعك ذراعيها المتعرقتين والوجه، تساءلت كيف يعمل عقل "فيليبى"، فبالأمس كان صامتا فى حضور "سباستيان" ولم يتحدث عن تدريبه العسكرى، وعندما انفرد بها كان حادا فى جداله، مصرًا على بيان أنها لا تزال جديدة فى الحركة، وأيضا، لا تتطلب أى من مهامها تدريبا كهذا.

وهى، مقررة عدم السقوط فى فخ رد الفعل، كانت تسمعه كما تسمع المطر، واعية أنه يتكلم رغما عن إرادته، لأن على"فيليبى" أن يطيع الأوامر، ومع ذلك، كانت تراه يعود دائمًا إلى ممارساته هذه، ولم تستطع أن تتجنب مرارة الحزن الناتجة عن تعليقاته، كما لا تستطيع الآن تجنب الدهشة من رؤيته سعيدًا، كما لو لم يحدث بينهما أى شىء. وفجأة قال هو، ربما متنبها إلى أفكارها:

– أنا تعاملت معك بشكل سيئ. لا أعرف لماذا أكون عنيفًا، لا أعرف لماذا لا أتقبل مشاركتك.

أجابت "لافينيا" ملقية الماء على شعرها:

– لا يفيد فى شىء أن تظل طوال الوقت تقدم اعتذاراتك، إن الندم وتكراره لا يفيد فى شىء وممل.

قالت كلمة "ممل" مؤكدة على تكرار الحرف، لكن لم تكن لديها رغبة فى الجدل، وفضلت الضحك.

سمعت همهمات الآخرين وهم يقتربون، كانوا يضحكون بصوت خافت، ويهزلون حول الروماتيزم، وآلام العظام، والعضلات الجافة... نكات حيية، عن مجهولين يلتقون فجأة معًا فى حالة غرق أو فى مغامرة، نهايتها إما الحياة أو الموت، وينتظرون متنمرين.

"كليمنثيا" الرقم ثلاثة، تقاطعت معها بنظرة تفهم ذات رقة أنثوية، كانت امرأة لها بشرة زيتونية، وشعر قصير، وتقاطيع جذابة، جسدها لم يكن ممتلئًا، لكنها ذات تفاصيل بارزة وخلفية عريضة تحركها بملاحة خلال سيرها.

لاحظت "لافينيا" كيف أن "لورينثو" ينظر إليها مرة بعد أخرى من مكانه المعد للمراقبة، معًا، كانوا يهزلون حول أن الأشباح سيصولون فى تلك الليلة ويدغدغون أقدامهم، وعادوا إلى البيت ليشعلوا نارًا لتسخين الغداء.

عجيب هذا التفاهم بين أفراد غرباء فى مثل تلك الحالات، لا يمكن تبادل أية معلومات شخصية، لكنهم يتقاسمون المعنى نفسه للحياة والحزم الصامت، ولهذا لا يشعرون أنهم غرباء عن بعضهم، بالعكس، خلال جلوسهم فى الممر القديم للبيت، يبدون كما لو كانوا يعرفون بعضهم من زمن مضى.

"لافينيا" بملابسها الجينز، وحذاء التنس الرياضى، والفانلة، وشعرها على هيئة ذيل حصان،

بلا ماكياج، تبدو مختلفة فقط بتقاطيع وجهها الرقيقة، لكن "رينيه" كان أيضا أبيض البشرة، وشاحبًا ونحيلاً، فى خلال التعامل يتماثلون جميعًا.

كان الطعام مكونًا من فطيرة من الأرز والفاصوليا وبعض القهوة، "لورينثو" و"رينيه" وحتى "فيليبى" كانوا يأكلون بمهارة كبيرة، مستخدمين أيديهم بلا تدقيق، كانت "لافينيا" تحاول إخفاء تشوشها، والصعوبة فى تناول فطيرة الأرز والفاصوليا دون استخدام أدوات الطعام، فقط بمساعدة الفطيرة دون أن تتجنب سقوط الحبات البنية والبيضاء، وبنظرة جانبية نظرت إلى الآخرين لترى إن كانت هى الوحيدة التى تجد صعوبة فى تناول الطعام دون استخدام الشوكة ولا السكين.

- عليكم أن تهتموا من الآن بممارسة التمارين، وأى واحد من حضراتكم لا يحتمل الجرى لنصف ساعة، ولا حتى السير عبر الجبال.

كان قد قال "رينيه".

بعد الغداء عادوا إلى البيت وأغلقوا الأبواب.

من خلال النوافذ، كان ضوء المساء يضىء المكان السميك الجدران بضوء شاحب، كانت "لافينيا" تعرف هذه النوعية من البناء الإسبانى الأصل، الجدران السميكة تحمى من الحرارة، والسقف المرتفع يسمح بارتفاع الحرارة على الرءوس تاركًا مسافة من الرطوبة المحتملة. فى البيوت الكولونيالية بالمدن، فإن

المساكن المغلقة على نفسها تنفتح فقط على الأفنية والممرات الداخلية، وبيوت الإقطاعيات الكبيرة مبنية لتناسب حياة الريف، تُقام حسب نسق آخر من التخطيط: الداخلى يستخدم فقط للراحة، ويتوجه الممر نحو الحقول التى تجرى فيها الحياة اليومية العادية والتى، فى أزمنة مضت، كانت تصنع من جذوع كبيرة، وكراس هزازة للسيدات والسادة ليتأملوا المزارع فى الأماسى.

مرور الزمن والهجر كانا واضحين على الجدران المقشرة، وخيوط العنكبوت، وضياع الشفافية الأصلية والأترية تتراكم على الجدران مُشكلة تخطيطًا يدل على القدم.

حمل "فيليبى" إلى وسط المكان حقيبة من القماش البنى، ومن هناك بدأ يخرج ترسانته المتواضعة: رشاش إم ١٦ صناعة أمريكية، ومسدس بى ٣٨، ٩ مم، كان هذا كل شىء، كان يمسك بقطع السلاح كما لو كان يمسك بسيقان أو أذرع معشوقة، "هذا رشاش إم ١٦ حقيقى"، بدأ بالقول بينما يمسح عنه التراب برقة، وشرح ميزاته القتالية، ومداه وبعض النقاط التقنية وبدأ فى فكه ببطء متحدثًا بلا توقف، ومسميًا الأجزاء المختلفة: المفجر، الزناد، الضارب، الماسورة.

راقبوه فى صمت وهو يضع القطع واحدة بعد الأخرى فى نظام واحترام.

فكرت "لافينيا"، "إنه كالتعرف على الموت"، وكانت تنظر بتركيز إلى القطع المعدنية الرقيقة المعقدة.

ورغم كل شيء، لقد فهمت العنف بطريقة أخرى الآن، فإنه بالنسبة إلى "لافينيا" معنى أن يقوم الإنسان بصناعة تلك الأدوات للقضاء على بشر آخرين لا يزال غير مفهوم، فالمصانع الكبرى تنتج القنابل اليدوية والرشاشات والمصفحات والمدافع، كلها للتدمير المتبادل. منذ أزمنة غابرة والوضع على هذا الحال: الإنسان، يسرق ويطارد ويدافع عن نفسه ضد البشر الآخرين، وكله بهدف السيطرة، ومحتوى الملكية، ما لى وما هو لك... إلى أن أصبح الأمر طبيعيًا، وانتظم فى الأنساق الحياتية، والحياة اليومية، الأكثر قوة فى مواجهة الأكثر ضعفا، ولا يزال فى القرن العشرين توجد الممارسات التى كانت تقوم بها القبائل الرحل: الحصول على نارها بالقوة، إن الوضع المتوحش للإنسان لا يزال قائمًا، ويبدو ظاهريًا غير قابل للتغلب عليه، وهم هناك يتعلمون استخدام الأسلحة النارية، ولا بديل عن لمسها والتعرف عليها، ومعرفة كيفية استخدامها، تمامًا كما يعرف الآخرون.

شعرت بالكراهية للجنرال الأكبر، وضد "فيلا"، والثراء، والسيطرة الأجنبية... وضد كل شيء يجبرها على أن تكون هناك، فى ذلك البيت المهجور، هؤلاء الشباب، الراكعون أمام البنادق، ينظرون إلى "فيليبى" فى صمت، ويسمعونه يشرح لهم القوة النارية، وعدد الطلقات الرشاشة، والطلقات المفردة، كانت هى تنتظر

اللحظة التى يشير فيها إلى الأهداف لإطلاق النار عليها، ولحظة سماع إطلاق السلاح، الصوت الحاد والمكتوم.

قال "فيليبى":

- الآن سنقوم بعمل إعداد وإطلاق فارغ.

وهذا هو ما فعلوه، لم يطلقوا طلقة واحدة. "الطلقة الفارغة"، هو ما كانوا يتعلمونه فى مدارس مثل هذه، طلقات، انطلاقات فرضية، يرسمون أوراقًا بالطلقات التى يتخيلون إطلاقها، فكرت "لافينيا"، كان يجب أن افترض ذلك، لأن صوت الطلقات كان يمكن أن يجذب الانتباه، ولكنه كان رائعا تخيل ذلك.

ناموا فى الليل فى الأسرة المعلقة فى أركان البيت، بملابسهم كاملة، فى بيوت الحراسة وفى المدارس وفى الجبال، دائمًا ما ينامون بملابسهم، وفى بعض الأحيان يكون مسموحًا خلع الأحذية.

قبل النوم، سمعت "لافينيا" "فيليبى" يتحدث مع "لورينثو" و"رينيه".

كان "رينيه" قد عاش فى الجبال ويتحدث عن الأوحال، وعن "الكلوراديياس" (حشرات تخترق الجلد وتصيب اللحم باحتراق مستمر)، وعن جوع المقاتلين، "نمضى طوال الوقت متحدثين عن الطعام، وما سنأكله عندما نهبط إلى المدينة"، كان يقول إنه يشعر بالغربة خارج الجبل، يعانى خلال السير فى المدينة، لم يعد

قادرًا على الاعتياد على الأرصفة بعد ممارسة السير فى الأوحال، السير قفزا كالقرود.

نامت وهى تستمع إليهم، حلمت أنها ترتدى فستانًا بزهور بيضاء وصفراء كبيرة فى مكان يشبه القلعة. وفى يدها مسدس غريب يشبه مدفعا مصغرًا، ومن خلفها امرأة بضفائر تأمر بإطلاق النار.

استيقظت عندما كان يهزها "لورينثو" بخفة. كان يكرر:

ـ يا رفيقة، يا رفيقة، إنه دورك فى الحراسة.

وقفت، وتبعت "لورينثو" فى الظلام نحو حاجز صغير بالقرب من البيت بين أشجار الموز، كان الجو باردًا والقمر فى ربعه الأول يكاد لا يضىء أشكال الموز.

سلمها "لورينثو" المسدس وأشار عليها أن تكون منتبهة لأية أصوات خطوات أو هيئات بشرية تسير بين أعواد الشجيرات، وعلمها كيف تصفّر فى حالة الاشتباه فى وجود حركة غير طبيعية.

لا يجب أن تطلق النار ما لم تكن متأكدة بأن المشكلة جدية، وإذا شاهدت شكل أى فلاح يجب أن تصرخ فيه "من هنا؟" وإذا أجاب "باسكوال" فكل شىء على ما يرام، لأنها كلمة السر.

ابتعد الفتى، لم تشعر هى فى البداية بأى خوف، بل شعرت أنها مهمة، تقريبًا مقاتلة، ومع ذلك، كلما

مر الوقت، تبدأ أصوات الليل فى التحول إلى أصوات عدائية ومثيرة للشكوك، كانت تهمهم من وقت إلى آخر "من هناك؟"، دون أن تحصل على إجابة. لقد كانت أصوات الريح والحشرات، وحيوانات الجبل.

شعرت بالبرد، وبعض قليل كانت أسنانها تصطك والقشعريرة تسرى فى جسدها، لتشجع نفسها فكرت فى "فلور"، و"لوكريثيا"، وفى "سباستيان". كانت تلجأ من وقت لآخر إلى ذكرى الجنرال "فيلا" حتى يشجعها الغضب على تحمل الموقف.

وأخيرًا فكرت فى عمتها "إينيس" وبعدها صلت لإله طفولتها المنسى حتى لا يأتى أحد، وحتى لاتستخدم ذلك المسدس الثقيل الذى لم تكد تتعلم طريقة إطلاقه النظرية.

كانت تعرف أن "لورينثو" فى نوبة حراسة أيضا فى مكان ما قريب منها، هو و"رينيه" و"فيليبى" يتبادلون الحراسة، يرافقون المستجدين فى الحراسة، لكنها لا ترى أحدًا، يجب أن تقنع بأنها تعرف أنهم موجودون فى مكان ما.

بعد مرور ساعتين، جاء "لورينثو" مع الرقم أربعة ليحل محلها.

عادت إلى السرير المعلق، ترتعش من البرد، وجدت "فيليبى" فى مدخل البيت خارجًا ليحل محل "لورينثو"، عانقها فى صمت، وبسرعة، وقال لها أن تحتل مكانه لتستدفئ. كان وقت ظهور الخيوط الأولى لأشعة الفجر.

لم تعرف لماذا عندما عادت حرارة الجسد بدأت تشعر بالضحك، بدأت في الابتسام وحيدة؛ لأنها عاشت نوبة حراستها الأولى وبعدها ضحكت بصوت خفيض مفكرة في نفسها هناك، في السرير المعلق، متحولة إلى شخص آخر: امرأة في منتصف الأرض الوطنية، في مزرعة خفية، متروكة للأشباح، وهم، الحالمون، مستعدون لتغيير الأحوال، إنهم شباب قلقون مغامرون مثل الكيخوته(*) برمحه الأثلم، ربما ضحكت من العصبية، والخوف الذي شعرت به وهي جالسة بين الأوراق العريضة للحشائش، والخوف من الثعابين، وضوضاء البوم التي تنطلق في طيرانها الليلي، وهي تشعر الآن بالحرارة تغزوها برفاهية، والتعب، والإحساس الغريب بالقوة، من أن تكون شفافة غير مرئية فيما في الخارج يسير الشباب.

في اليوم التالي، كان التدريب احتلال البيت القديم كما لو كان معسكرا في منتصف الجبل، وانتهوا متعبين في نحو الرابعة مساء، بعد عمليات زحف طويلة، وكمائن واحتلال وانسحاب.

في حوالي الخامسة والنصف ظهر "تونييتو" من جديد عبر الطريق بسيارته الجيب المتهالكة، انتظروه

(*) الكيخوته: بطل رواية «دون كيخوتة دي لامانشا» التي كتبها الإسباني «ثربانتيس» وصدرت طبعتها الأولى عام ١٦٠٦، والتي امتدت كنايتها حتى العصور التالية تعبيرًا عن البطل الذي يكون على استعداد للنضال من أجل أفكاره المثالية حتى أنه تخيل طواحين الهواء عفاريت تقف في طريق استعادة حبيبته «دولثينيا» فقاتلها.

مختفين فى الجانب الآخر من السور، ودعوا "رينيه" و"لورينثو" وصعدوا إلى الجيب. هذه المرة فى طريق العودة انفتح الحوار بكثافة، وتعليقات على مهمة كل واحد، ونكات حول من منهم كان الأكثر استراتيجية، والطريقة التى بقيت بها "لافينيا" ملتصقة إلى أعمدة أسلاك السور مانحة العدو وقتًا ليعتقلها.

صمتت التعليقات عند الدخول إلى المدينة، بعدها هبط ركاب السيارة فى مناطق مختلفة.

ودعوا بعضهم بعضًا (ربما لن يلتقوا بعد اليوم) وأخيرا، ترك "تونييتو" "لافينيا" و"فيليبى" على بعد نواص قليلة من بيتها.

قال "فيليبى" بينما يسير على الرصيف:

ـ كنت محظوظة، جاء دورك فى تدريب هادئ، وفى أحوال طيبة، لا تفكرى أن الأشياء دائمًا ما تكون على هذا النحو. قبل عام اكتشفنا الحرس الوطنى فى إحدى المدارس ومات كل الرفاق تقريبًا، فقط اثنان خرجا سالمين.

ـ نعم كنت محظوظة.

أمنت "لافينيا" مفكرة أنه لم يكن صعبًا رغم الطريقة التى يؤلمها بها جسدها.

قال "فيليبى":

ـ إن "سباستيان" يبسط حمايته عليك.

- هل تعتقد ذلك؟

قالت "لافينيا" بليونة وكانت حتى تلك اللحظة تمارس دور الخفية فى حضور "سباستيان" خلال التخطيط للتدريب.

بعد قليل، قالت كما لو كانت تحدث نفسها:

- يقول "سباستيان" دائمًا إن الحركة تخطط لمستقبل كبير لى، أعتقد أنه يقول ذلك ليرضينى عن نفسى، لكن يزعجنى ألا أكون عند حسن ظنه، لاأعرف فيما يمكننى أن أكون مفيدة.

قال "فيليبى"، الآن ناظرًا إليها بجدية عندما كانا يدخلان ويضيئان نور الصالة:

- هذا يتوقف عليك.

- ١٩ -

كانت نهاية شهر يوليو تقترب، نزعت "لافينيا" ورقة النتيجة وراجعت أجندة عملها لليوم التالى، كانت "مرثيدس" قد سجلت اجتماعا مع "خوليان" والمهندسين فى الحادية عشرة صباحًا واجتماعًا آخر مع الشقيقتين "فيلا"، فى الرابعة مساء.

وسجلت مهام أخرى يجب أن تراجعها بين الاجتماعات وألقت نظرة أخيرة على أوراق مكتبها، ونظمت الأقلام الرصاص والأوراق وأغلقت الأدراج بالمفتاح.

كانت "سارا" تنتظرها فى الخامسة والنصف وكانت الساعة الخامسة الآن.

أطفأت الأنوار وخرجت من المكتب.

سارت باتجاه مربض انتظار السيارات بخطوة سريعة، وسرعان ما دارت حول المنحنى لتدخل فى زحمة مرور الطريق المركزى، كانت هناك صفوف من السيارات تتقدم ببطء وتتوقف أمام إشارات المرور.

كانت تقود غير متيقظة تمامًا ومتعبة قليلاً، مفكرة فى الاجتماع مع المهندسين، وبيت الجنرال "فيلا" يجب أن يكون جاهزًا فى وقت محدد ويجب عليها أن تضمن تقدم عمل المقاولين.

من خلال النافذة، كانت تشاهد قادة السيارات الأخرى، منتبهين ومتابعين للتقدم أو عبور الإشارة الحمراء.

فجأة، فى عربة على مسافة قريبة منها، شاهدت "فلور"، لم تكن فى حاجة سوى إلى ثانية واحدة للتعرف عليها بشعرها القصير المصبوغ بالكستنائى الفاتح، يكاد يكون أشقر، شعرت بضربة دم تغرق قلبها، إنها "فلور"، صديقتها، بالقرب منها، يمكنها أن تراها وهى تصدر إشارات، وتبتسم فى وجه قائد السيارة، رجل ذو تقاطيع غير محددة، فكرت بسرعة ماذا تفعل لجذب انتباهها: أن تطلق آلة التنبيه، أو تتقدمه؟ لا، لا يمكنها أن تفعل أى شىء. لا شىء سوى محاولة أن تقترب من العربة، أن تحاول أن تراها "فلور"، لكنها كانت مهمة مستحيلة تقريبًا، ففى الحارات الأربع التى تخرج من الطريق، هناك خط من السيارات يتقدم بين سيارتها وتلك العربة. وحتى تقترب منها، يجب أن تدور دورات غير قانونية ممكنة ربما فى طريق سريع، لكنها مستحيلة فى طريق مزدحم.

تغير لون الإشارة إلى الأخضر والعربة التى توجد فيها "فلور"، التى لا تراها، فهى تواصل حديثها، تقدمت بسرعة قبل أن تتحرك هى.

حاولت الإسراع لكن السيارات التى تتقدمها كانت تسير ببطء، وفقدت أثرهم، وتمكنت من رؤية الجزء الخلفى للعربة الحمراء وهى تدور حول إحدى النواصى.

أخرج الإحباط من صدرها صوتًا جافًا، فضربت بقبضتها على عجلة القيادة، لقد كانت كرؤية: صديقتها قريبة جدا منها، وتبدو بعيدة عنها، لا يمكن الوصول إليها، شعرت بحزن ثقيل، وإحساس آخر بالضياع، وكان يحدث لها كثيرًا، الجانب الأكبر من أحبائها الأقرباء غابوا عن حياتها، ابتعدت، وإن كان افتقاد عمتها "إينيس" فقط كان محتومًا، وتذكر "فلور"، تذكر صديقتها الإسبانية "ناتاليا" و"جيرومى"، يوقظ فيها وخزة من الحنين.

للغياب تأثيرات لا تنمحى، فالوجوه تتشوه فى الغياب الضبابى للذكريات، وأحيانا نتساءل إن كان أولئك الأشخاص قد وُجدوا فى الواقع فعلا، فالحنين يستطيع أن يضفى عليهم مسحة أسطورية وغريبة، والزمن الخادع يخفى الماضى الضبابى خلفه، ويربطه فى الأذهان مع الخيالات والأحلام، فالفضاء الذى كانت تحتله "فلور" فى وقت ما، يمتلئ بصور أخرى، ومعايشات أخرى، وتتخلى عن المشاركة فيما هو يومى، الذى يعتبر المادة الأساسية للحياة، لقد كانت افتقادا، فراغًا، ثقبًا أسود يلتهم النجمة ـ فلور، أداة غامضة فى الذهن تبحث عن حماية للقلب الوفى دائما لألم الغياب.

لم يستطع أى شىء أن يمنعنى من الإحساس بالحنين إليها، أثرها ظاهر، فى الذكرى التى كانت تتمحى فى الوقت نفسه، كانت هناك حوارات، وفراغ، والتناغم بين الاثنتين، فهى الوحيدة التى مثلت تناغمًا نوعيًا وفرضيًا، ما لم تشعر به لا مع "فيليبى" ولا مع "سارا".

رؤيتها، الإحساس بالوجود على بعد أمتار منها دون القدرة على النداء عليها، ولا حتى إمكانية الإحساس بالرضاء من ابتسامة بعيدة، أو يد تلوح بإشارة الوداع، جعل الحزن ينبع وينتفض من أعماق مياه عينيها.

إن كل هذا صعب، صعب جدًا، فكرت، من الذى يحسب ذلك النضال، التخلى عما هو صغير أو كبير فى الإحساس الفردى عندما يكتب التاريخ؟ هل يحكى المعاناة، والتعذيب، والموت، لكن من الذى سيهتم بحساب التفرقة التى تنتج عن المعركة؟

تركت السيارة أمام بيت "سارا"، ومع "سارا" حدث الأمر نفسه، عن "سارا"، صديقة طفولتها، كل يوم يمر تبتعد عنها إلى درجة أنها فكرت بأنهما فى برج بابل غير المرئى، حيث تتداخل اللغات.

فتحت "سارا" الباب، كانت شاحبة. قالت:

– ادخلى، ادخلى، أعددت لك فنجانًا من القهوة وبسكويتًا.

قالت لها بتعبير عدم الارتياح:

- كنت أشعر بكثير من الغثيان.

نظرت إليها "لافينيا" بتساؤل.

- ألا تكونى حاملا؟ هل عادت إليك العادة الشهرية مؤخرًا؟

- لا، لم تعد، ولن تعود إلىّ، أخذت هذا الصباح عينة لفحصها بالمعمل، و، أنا حامل.

كانت تتحدث بلا انقطاع فتتراكم الكلمات بلا مسافات حتى تندلق فى "أنا حامل"، بشكل سعيد.

- يا لها من فرحة.

قالت "لافينيا"، مظهرة سعادتها، وهى تعانقها:

- أهنئك!

قالت "سارا" بعد رد العناق وتسحبها من ذراعها نحو الطاولة حيث توجد فناجين القهوة.

- هل قلت ذلك لـ"أدريان".

قالت "سارا" متنهدة وابتسمت بحزن:

- آى، ليس لدى "أدريان" أى إحساس بالرومانسية، منذ أيام وأنا أقول له إننى حامل: "هل ينقصك شىء، أنت حامل، إنه أمر حتمى تقريبًا" ظل يردد هذا، هاتفته لأخبره بنتيجة التحليل والشىء الوحيد الذى قاله لى إنه كان يعرف، وإن كنت لم أذكر أنه كرر لى هذا عدة أيام، فى أى حالة عندما تعثرين على النتيجة مكتوبة على الورق، ليس مثل التكهن به، كنت متخيلة صورة رومانتيكية أن يأتى إلى البيت

مسرعًا ويعانقنى بطريقة خاصة، وباقة من الورد... أى شىء! أى شىء عبيط، لكن تلك الجملة "لقد كنت أعرف"، جعلتنى أشعر بالحزن.

- لديك الحق.

قالت "لافينيا"، مقارنة بشكل عقلى ما يمكن أن تنتظره هى فى حالة مشابهة ففوجئت أنها لا تعثر على شىء، وعادت إليها صورة "فلور" فى السيارة دون أن تدرى لماذا. هل يمكنها أن تنجب أبناء فى يوم الأيام؟

- حسن، كما تقول صديقة لى، الحقيقة أن الحمل أمر يخص النساء، فالرجل لا يشعر بالعاطفة نفسها. هل تريدى سكرًا؟

قالت "سارا" بينما كانت تضع السكر فى الفناجين البيضاء.

أجابت:

- لا شكرًا، لا أعرف ما الذى يمكننى أن أقوله لك عن إحساس الرجال، فبالنسبة إليهم هو شىء غيبى يحدث لنا نحن النساء، وهم لا يملكون سوى تأمل مراحله. من المحتمل إنهم يشعرون به عن قرب وعن بعد فى الوقت نفسه، يجب أن يكون بالنسبة إليهم غريبًا، اسألى "أدريان".

- سأسأله وإن كنت لا أعتقد أنه سيقول شيئًا جديدًا، سيقول لى المعتاد، إنه سعيد وماعدا ذلك مجرد اجتهادات خاصة بى.

ـ أشعر بالغرابة عندما أفكر أنه سيكون لك طفل، مدهش كيف يمر الوقت، أليس كذلك؟ ما زلت أذكر عندما كنا نتحدث عن كل تلك الأشياء ونحن فى غرفتى ـ أغلقت عينيها وألقت برأسها إلى الخلف على مسند الكنبة. شاهدت الطفلتين وهما تتأملان اللوحات فى كتاب العمة "إينيس" الذى يحمل عنوان "معجزة الحياة".

قالت "سارا" بنغمة الحنين نفسها:

ـ نعم، لقد كبرنا... وسرعان ما سنكون عجوزين، سيكون لنا أحفاد، ولن نصدق ما يحدث.

سيكون لك أحفاد؟ فكرت "لافينيا"، وقد غزاها الحنين لاستحالة تصور مستقبلها بتأكيدات "سارا"، ربما لن يكون لها ولا حتى أولاد، فتحت عينيها ونظرت، كما فعلت مرات عديدة، البيت والحديقة وصديقتها جالسة باسترخاء، ترتشف القهوة، دائمًا ما يشوشها الإحساس بالتفكير فى أن تلك كان يمكن أن تكون هى، حياتها، كمن يتأمل من الوهلة الأولى تقاطع الطريقين، والاختيارات، لهى الأخرى، تلك التى تزداد ابتعادًا عن تلك الأمسيات أمام الزهور والورود، والبلاط الأبيض و"سارا" الرقيقة على الطاولة بجانب الفناء الأخضر الداخلى، الأحفاد، رؤية شيخوخة بخصلات بيضاء، لكن اختيارها يبعدها أيضًا عن الاختلاف، فى هذا الزمن المنعزل، المحمى، اللاواقعى، كانت متأكدة أنها لن تكون سعيدة على هذا النحو، وإن كانت تحب أن تفكر فى الأبناء، التفكير فى عالم أكثر رفاهية.

سألت "سارا":

ـ وأنت ألم تفكرى بعد فى الزواج، وأن يكون لك أولاد؟

أجابت:

ـ لا، ليس بعد.

أنا دائمًا منشغلة بسببك، لا أعرف لماذا دائمًا أخشى أن تكونى فريسة قراراتك، وتتبعين اندفاعاتك، وإن كنت دائمًا ما تقصين على أشياء صوفية، واعتقد أننا نحن الاثنتين أنت الأكثر رومانتيكية ومثالية، تجدين صعوبات أكثر فى قبول العالم كما هو.

ـ العالم لا شكل محدد له، "سارا"، هذه هى المشكلة، نحن من نجعله على هذا النحو أو غيره.

قالت وهى تمد لها طبق بسكويت جوز الهند:

ـ لا، أنا لا أقبل هذا، نحن لسنا من نقرر، إنهم الآخرون، نحن لسنا سوى الجمع، ناس، أى شىء، هل تريدين بسكويتة أخرى؟

قالت "لافينيا"، وهى تلتقط البسكويت وتنظر إلى الفناء نظرة تائهة:

ـ هذه رؤية مريحة.

كثيرًا ما تدخل فى جدال مع "سارا"، لكنها لم تعرف أبدًا إن كان مجديًا أن تواصلا الحوار، وبشكل عام يتوقف النقاش، ينطفئ بسبب عدم الرغبة فى مواصلته.

– لكن ما الذى يمكن فعله؟ قولى لى ـ هنا على سبيل المثال ـ ماذا يمكننا أن نفعل؟

قالت "لافينيا":

– لا أعرف، لا أعرف، لكن يمكن عمل شىء.

– لا تريدين قبوله، ولكن الواقع يقول إنه لا يمكن فعل أى شىء، وأنت ترين، ومع كل أفكارك، فأنت تقومين بتخطيط بيت الجنرال هذا.

– نعم، ماذا نعرف، ربما أُقنع الجنرال أن يهتم أكثر ببؤس الناس ـ اتخذت نغمة ساخرة، لإنهاء الحوار ـ هيا "سارا" لنتحدث عن ابنك المنتظر، لن نتوصل إلى أى شىء فى هذا الموضوع.

بقيت لبعض الوقت تتحدث مع صديقتها، كانتا مدعوتين يوم الأحد لقضاء بعض الوقت فى مزرعة أحد الأصدقاء. كان حفل عيد ميلاد المضيف، بالمزرعة حمّام سباحة والنزهة كانت تشى بقضاء وقت ممتع، اتفقتا على الذهاب معًا.

سألت "سارا":

– ألن تأخذى "فيليبى" معك؟

– لا، أنت تعرفين أن "فيليبى" لا يحب الاحتفالات.

قالت "سارا":

– لم أعرف أبدًا كائنًا معاديًا للاجتماعيات مثل خطيبك هذا، ولكن هذا أفضل، حتى نتحدث بحرية أكبر.

عند الخروج، التقت "لافينيا" مع "أدريان"، عند عودته من المكتب، هنأته، هو تلقى التهنئة بلامبالاة، وكطفل مدلل، ابتسمت هى فى داخلها، مؤكدة لنفسها أنه سعيد، ولكنه لا يعرف كيف يلعب دوره فى هذا الحدث، لم يعلق تعليقًا غبيًا أو ساخرًا، وهذا أفضل دليل على اهتمامه، مع ذلك، "سارا" لم تتمكن من الإحساس بتعبيره وتنتظره كما انتظرت العناق الدافق الذى يحدث فى الأفلام.

كانت تحب ممارسة الحب على أنغام الموسيقى، تترك نفسها لتيارات القبلات على خلفية موسيقية، موسيقى هادئة كالجسد المتكور على نفسه فى السرير، كان رائعًا التفكير كيف أن الجسد يمكنه أن يكون رقيقًا ومتغيرًا، طوال النهار يسير كجندى الاستعراض العسكرى بالشارع ومن مكتب إلى مكتب، والجلوس باستقامة على الكراسى القاسية غير المريحة، وفى الليل، لا تكون فقط الموسيقى بل الملمس والقبلات، يخرج من نفسه برقه، خفيفًا، ويغوص فى تخيل اللذة، ويرتشف الاحتكاك مع البشرة الأخرى، يموآن معًا.

لم تشعر أنها يمكن أن تفقد فى يوم ما الإحساس المدهش والعجيب للحظة انجذاب كثيفة، لتماسك وسحر، عندما تسقط آخر قلاع الملابس والنسيج مهزومة عن السرير والبشرة الناعمة، الوردية، والشفافة المنزلقة من تحت الشراشف التى تضىء الليل بنورها الخاص، كانت دائمًا تلك لحظة رائعة، رمزية، بقاء الجسد عاريًا، منكشفًا، منفتحًا فى

مواجهة كائن بشرى آخر تمتد بشرته أيضًا، تكون حينها النظرات الجديدة فى قدمها: التقارب، الملامسة، وتكتشف الأيدى قارات، أكفا من البشرة المجهولة والعودة للتعرف عليها فى كل مرة، كانت تحب أن يدخل "فيليبى" الإيقاع البطىء لزمن بلا رغبة فى الجريان، لقد علمته كيف يستمتع من الحركة للكاميرا البطيئة للمداعبة، اللعب الممتد الذى يصل إلى حد الانتشار، إلى أن يهدم سدود الصبر وتغيير زمن الإثارة والانجذاب بالرغبة، فتنطلق الأحصنة حتى النهاية السعيدة.

كان جسداهما يتفاهمان أفضل من تفاهمهما معًا، كانت تعتقد، فيما كانت تشعر بثقل "فيليبى" منطرحًا على ساقيها، متعبًا.

لقد اكتشفا منذ البداية متعة الحب، كانا يحبان الاكتشاف، والصعود والاصطياد فى الأعماق، يعشقان عالم الكواكب الجديدة، كانا مثل "ماركو بولو" الباحث عن البخور والعصفر، جسداهما وكل انشغالات طبيعية ومتلذذة.

كان يقول لها كل صباح وهو يجذبها من شعرها مداعبًا:

- دائمًا ما تفاجئينى، لقد أدمنت هذا على يديك، وأدمنت شهقاتك.

تجيبه هى:

- وأنت أيضًا.

لقد كان سريرها قاعة مؤتمرات الأمم، والصالون مكان الجدال وتصفية الحسابات، ويشهد حالات انفصالهما، بالنسبة إلى "لافينيا" كان غريبًا أن تتداخل أماكن الكلمات، لم يكن يبدو لها ذلك منطقيًا، في هذا المناخ تمكنا من غزو المساواة والعدالة والثقة، كانت قوتهما متعادلة كل واحد في مواجهة الآخر.

"إن الحديث مرات كثيرة يخلق المشكلات"، كان يقول "فيليبي" وكانت هي تجادل أنه ليس كذلك، كانت مقتنعة أنه ليس صحيحًا، إن الكلام يخلق التفاهم بين البشر، وتفاهم الأجساد شيء آخر مختلف، إنه اندفاع بدائي له سلطة مطلقة لكنه لا يصفي الخلافات، حتى عندما يسمح بالتصالح الرقيق، فإن العودة إلى المداعبات مجددًا، خطر، كما ترى هي، والتفكير في أن الصراعات يمكن أن تحل على هذه الطريقة، يمكن أن تتراكم تحت الجلد، وتظل متحفزة بين الأسنان، وتسري في هذه الأرض التي تبدو طبيعية ظاهريًا يؤدي إلى تمزيق تلاقي الأمم.

كان غريبًا أنه لم يحدث حتى الآن، مع الأخذ في الاعتبار أن التصادم كان متعددًا، ربما يرجع هذا إلى أنه في الأعماق عندما كانا يتجادلان فإن "لافينيا" تفصل "فيليبي" الذي تحبه عن "فيليبي" الآخر، والذي تعتبره لا يتحدث معبرًا عن نفسه، بل كتجسيد للخطاب القديم الرديء، إنه طفلها الشرير الذي تريد تأديبه، وتبعده عن "فيليبي" الآخر الذي تحبه.

كانت "فلور" دائمًا ما تقول إنها متفائلة أكثر مما يجب عندما تفكر أنه يمكنها أن تحرر "فيليبى" الخاص بها من "فيليبى" الآخر، لكنها تمنحها الأمل.

ربما كان الأمل هو العنصر الذى يسمح لها بالحفاظ على الموسيقى عندما تمارس الحب، وإن كان ربما مجرد أداة دفاعية ابتدعتها لمواجهة الإحباط والتشاؤم من التفكير فى احتمالية عدم القدرة على التغيير، كيف يمكن التفكير فى تغيير المجتمع بهذه القناعة وتخفق فى الاعتقاد فى تغيير الرجال؟ "إنه أكثر تعقيدًا"، كما ترى "فلور"، لكنها هى لا تقبل مثل هذه النظريات، لا تنكر مدى تعقيد المشكلة، ولم تكن تحلم بالتفكير فى حلول سهلة، وكانت تعتقد أن المشكلة هى الطريقة فى التعامل معها، كيفية إحداث التغيير، كيف تقوم المرأة بدورها فى مواجهة الرجل، ماذا تفعل لإنقاذ الآخر؟

تعلقت فى ظهر "فيليبى" النائم وتركت نفسها لغزو النعاس ليبعدها عن كل هذه الشكوك.

- ٢٠ -

كان الجنرال "فيلا" قد حدد لها موعدًا فى مكتبه، قبل عشر دقائق من الساعة المحددة، انحرفت عن الطريق باتجاه بوابة المجمع العسكرى.

أصدر الحارس صفارته بإشارة آمرة مشيرًا لها أنه لا يمكنها أن تمر، رافعا ذراعه مشيرًا إلى أنه عليها أن تعود إلى طريق السيارات.

توقفت، وأخرجت رأسها من النافذة وزعقت بأن الجنرال "فيلا" فى انتظارها.

الحارس ـ يرتدى الملابس الخضراء وخوذة قتالية ـ أوقف إشاراته وتقدم منها ببطء، وحذر، واقترب من السيارة. سأل، ناظرًا إليها بشك ماسحًا العربة من الداخل بعينيه:

– ماذا تقولين؟

– أقول إننى على موعد مع الجنرال "فيلا"، إنه ينتظرنى خلال خمس دقائق.

– هل لديك هوية؟

– رخصة القيادة.

أعطينى إياها.

التقطت حقيبة يدها، تراجع الحارس قليلا، كما لو كان يخشى إخراج سلاح، أخرجت رخصة القيادة وقدمتها له.

- انتظرى هنا ولا تتحركى.

انسحب باتجاه غرفة المراقبة.

لاحظت "لافينيا" أنها لم تكن عصبية، بالعكس، واثقة من نفسها، متشجعة بسمو أسبابها، مجربة المتعة بالدخول فى هذا المجمع الحصين، فى حصن العدو نفسه، كما لو كانت نسرًا يحوم ينظر من أعلى إلى مدى ضآلة ما يراقبه.

لا تستطيع أن ترى شيئًا فى المجمع العسكرى، كان مختفيًا خلف جدار عال وصلد، لا يقطع امتداده شىء سوى البوابة المعدنية السوداء التى تقف هى أمامها.

نقرت بأطراف أصابعها على عجلة القيادة بنفاد صبر، ما لم يعد الحارس بسرعة، ستذهب، وستقول للجنرال إنهم لم يسمحوا لها بالدخول، فيعاقبهم، فى المرة القادمة لن يوقفوها، سيتركونها تدخل بسرعة.

فى البداية كان من الصعب، أن تنتبه إلى أنها يجب أن تقوم بدورها بهدوء، بثقة من يسيطر ويستحق الاحترام، كان هذا أكثر نجاعة فى أكثر الحالات، خاصة بكونها امرأة، وهذا ما جربته فى اجتماعات

المهندسين ومع الجنرال "فيلا"، وإذا سقطت فى الخفة والابتسامة، يكون التعامل معها على أساس جنسى وغير لائق، فى الموضوعات المهنية، كانت "فلور" محقة: هناك ضرورة من التعلم من الرجال، وظلت تتأمل حتى تفهم طريقة الأداء.

نظرت إلى الساعة، مرت نحو خمس دقائق تقريبا، قررت ألا تنتظر لأكثر من خمس دقائق.

- الآنسة "الاركون" - قال الحارس وهو يقترب من نافذة سيارتها - لو تسمحى لى سأصعد لسيارتك لمرافقتك إلى مكتب الجنرال "فيلا".

- هل هو ليس هنا؟

- نعم، لكن يجب القيادة عبر المجمع، سأذهب مع حضرتك حتى لا تقابلى أية مشكلة.

وفتح الباب الجانبى، ودخل إلى جوارها.

انفتحت البوابة.

خلف الأسوار، مجموعة من المبانى والمتاريس تشكل قلعة، متصلة بشوارع أو تقف فى طرقها عربات مدرعة، وجنود يرتدون الزى العسكرى يقفون على الأرصفة.

عبرا متراسين من نوع السكك الحديدية حتى وصلا إلى مجمع من المبانى على شكل معين، بحجم أصغر ولها التركيب المعمارى والبنائى لروما الحديثة فى عهد "موسيلينى"، جدران ملساء ورمادية على هيئة

هندسية، مستطيلة، ذهنيًا، حفظت "لافينيا" تفاصيل المبانى، وهندسة الشوارع، فضلت أن تقود فى صمت حتى لا تفقد التركيز وتتعرف على إشارات المكان.

قال الضابط، دون أن يفقد تعبير المستجد لحظة واحدة:

– إنه هنا، هناك هيئة الأركان، يمكنك ترك السيارة هنا.

هبطا وبعدها عبرا فناء ودخلا المبنى المركزى، صورة ضخمة لأب الجنرال الأكبر، مؤسس القبيلة، تسيطر على المدخل.

السكرتيرة التى ترتدى ملابس عسكرية زرقاء حيت الضابط بهزة من رأسها.

صعدا درجات سلم عريض من الرخام، ووصلا إلى ردهة أخرى أكبر حجمًا، والتى تطل عليها عدة أبواب للمكاتب، يقف على باب كل منها حارس مرتديًا الملابس المزخرفة. فى الوسط، صالة انتظار ذات كراس جلدية، ومزينة بزهور بلاستيكية على الطاولات.

يتزين مكتب الجنرال "فيلا" بالمزيج نفسه من التفاصيل سيئة الذوق والبرودة المعمارية، واللوحة المسيطرة على الحوائط صورة للجنرال الأكبر مبتسمًا فاتحًا فمه حتى تبرز كامل أسنانه، والصورة ملتقطة من زاوية سفلية، وباقى الأثاث يحاول أن يكون حديثًا: نبيتى وكروم. وطفايات السجائر والزينة من القواقع

والحصى البحرية، وعلى الملفات تجمع السكرتيرة علب الكبريت فى كأس زجاجى ضخم.

كانت شقراء اصطناعيًا وعصبية، متوسطة العمر تحاول أن تضفى على نفسها مسحة من المراهقة، تبتسم بلا داع، طلبت منها أن تجلس حتى تناديها. وانسحب الضابط المستجد بهدوء قبل الدخول إلى غرفة انتظار مكتب الجنرال.

لم تكد تستريح على الكرسى حتى رن جرس التليفون الداخلى، وردت السكرتيرة قافزة: "نعم، جنرال". بلهجة طائر مريض وواصلت حركتها كببغاء ميكانيكية، وفتحت باب مكتب "فيلا"، مشيرة لها أن تدخل:

– مساء الخير آنسة "الاركون".

حياها الجنرال، واقفًا من خلف مكتبه الخشبى الأصم، محاطًا بصور الجنرال الأكبر وهو يعانقه، ويضع على صدره النياشين، يصطادان السمك معًا، وفى الهليكوبتر ويمتطيان الخيول.

– مساء الخير جنرال.

أجابت هى مقتربة لتصافحه عبر المكتب.

قال بهدوء:

– تفضلى بالجلوس، تفضلى، هل تريدين فنجانًا من القهوة.

قالت بابتسامة أكثر جاذبية:

- أشكرك.

علق الجنرال بلهجة إغوائية:

- أنت كل يوم أجمل.

قالت:

- شكرًا، ماذا تقول لى؟ هل من جديد؟ ماذا يمكننى أقدم لحضرتك؟

قال الجنرال، عائدا من تفكير ما:

- آه، نعم، أرسلت فى طلبك لأننى كنت أفكر بالأمس، وأنا أراجع الرسومات فى بيتى، أنه فى الشرفة المواجهة للصالة، إضافة إلى البرجولا، أريد أن أبنى أشياء خاصة بالشواء.

- لكن لدينا أخرى إلى جوار حمّام السباحة.

- نعم، نعم، أنا أعرف، لكن بصى، التى جوار حمّام السباحة تكون مفيدة فى الصيف، وفى الشتاء والأمطار أحتاج إلى مكان مسقوف لعمل الشواء، واضح، أليس كذلك؟ لأنها من هواياتى عندما يزورنى الأصدقاء.

أخرجت "لافينيا" دفتر مذكراتها وكتبت بسرعة، موافقة بهزة من رأسها.

- هل تريدها تمامًا مثل التى إلى جوار حمّام السباحة؟

-أعتقد أنها يجب أن تكون أصغر حجمًا، أليس كذلك؟

- حسن، على أى حال، علينا أن نمدد طول البرجولا.

- هذه فكرتى، ولكن من الممكن أن تكون أصغر قليلا.

-نعم، أصغر قليلا تكون أفضل - سجلت "لافينيا" متسائلة عن أسباب دعوة الجنرال لها، هل من أجل شىء كان يمكنه أن يقوله لها تليفونيًا. سألت:

- هل هذا كل شىء؟

- نعم، نعم، هذا كل شىء، لكن تناولى قهوتك بهدوء، لقد وصلت توا، احكى لى كيف يسير العمل فى البيت.

كانت متأكدة أن الجنرال لديه ما يقوله، وبدأت تفكر فيما سيقوله كدعوة للتقرب منها، وكذلك كيف تكون رقيقة وقاطعة فى الوقت نفسه.

شرحت له تفصيليًا الاتفاق مع المهندسين على تجريف الأرض، والمواد والتركيبات الكهربائية والمياه السوداء، لم تكن تريد أن تمنحه الفرصة لإدخال موضوع آخر فى الحوار.

سأل الجنرال:

- هل تعتقدين أن البيت سيكون جاهزًا فى ديسمبر؟ بكل تأكيد؟

قالت:

- سنعمل كل ما فى وسعنا، وأعتقد أنه مؤكد.

- نريد إقامة حفل الافتتاح ليوافق الاحتفال بأعياد نهاية العام ودعوة كل الأصدقاء، وحضرتك بالطبع.

قالت "لافينيا":

- شكرًا، شكرًا.

- هل تحبين الرقص؟

قالت "لافينيا" مفكرة ما علاقة هذا:

- ليس كثيرًا.

- مؤسف! كنت أفكر فى دعوتك لحفل صغير ننظمه نحن مع بعض الضباط... أنت تعرفين، شىء صغير، لقضاء بعض الوقت فى الترفيه، نحن نعمل كثيرًا ونكاد لا نرفه عن أنفسنا، ويبدو لى أنك من ذلك النوع أيضًا الذى يعمل كثيرًا وترفهين عن نفسك قليلا، رغم شبابك، حضرتك جادة جدًا.

- لا، ليس الأمر كذلك، إنها أفكار حضرتك، كثيرًا ما يدعوننى لحفلات وتنزهات.

قال الجنرال، كالخبير فى هذا الأمر:

- لكنك لا تلبين الدعوات تقريبًا.

- حسن، حضرتك تعرف أن الاستيقاظ مبكرًا كل صباح ليس سهلاً بعد سهرة طويلة.

بدأت تشعر بعدم الراحة، ودون أن تفهم اتجاه سؤال الجنرال، شعرت بحب استطلاع لا تعرف إن كان نابعًا من طبيعته كإغوائى أم أنه شىء أكثر خطرًا.

- هل لديك خطيب؟

- حسن... يمكن القول نعم، بشكل عملى، أخرج مع مهندس آخر، زميل عمل.

هل يعرف علاقتى مع "فيليبى"؟ فكرت "لافينيا"، كلما مر الوقت شعرت بعدم الراحة، وقررت أن تقول الحقيقة، اعتبرت أنه أفضل وأقل إثارة للشكوك مما لو أنكرت، لو كان يبحث حولها مؤكد أنه يعرف علاقتها مع "فيليبى".

قال الجنرال بتعبير برىء:

- آه... لهذا لا تستطيعين حضور حفلنا الصغير... مؤسف! لقد حكيت لأصدقائى عن نجاحك، أرجو المعذرة، قليلا ما يمكن العثور على نساء إضافة إلى جمالهن يكن ذكيات وماهرات فى عملهن كنت أود أن يتعرفوا عليك.

قالت بعد أن هدأت بعض الشىء:

- أشكرك.

- لماذا لا تقولين لى؟ هل يمكنك أم لا يمكنك؟

- متى؟

- الأحد القادم.

- لدى موعد... نزهة.

قالت "لافينيا" شاكرة له عرضه.

- لكن هذا نهارا والآخر ليلا.

- حضرتك محق، لكننا سنعود فى وقت متأخر وحضرتك تعرف فى مثل هذه الأشياء نعود مجهدين. لماذا لا نتركه لفرصة أخرى؟

قال الجنرال بابتسامة محبطة، بالطبع كان مستاء من عدم تحقيق ما أراد:

- حسن، إذا لم يكن من مفر... فى فرصة أخرى.

وقف إشارة إلى انتهاء المقابلة.

- على أى حال، ومعذرة لإصرارى، فكرى فيه، ربما لا تكونين متعبة بعد عودتك، لو قررت، يمكنك أن تهاتفينى هنا بالمكتب، سوف أصدر إليهم تعليمات بأن يرسلوا لك سيارة لأخذك، وقولى لخطيبك أن لديك اجتماع عمل.

قالت "لافينيا" باذلة جهدًا حتى لا تصرخ فى وجهه أن يتركها فى حالها:

- حضرتك إنسان لحوح.

قال الجنرال، معيدًا لها الابتسامة بإغواء تهديدى:

- دائمًا ما أحصل على ما أريد.

ومن جديد الضابط المستجد، المهذب كان ينتظرها ليرافقها فى خروجها من المجمع العسكرى.

فى صمت، محافظة على عدم إظهار غضبها،

وإحساسها بأنها أهينت، خرجت "لافينيا" من المكتب معتدة بنفسها من خلال الضرب بكعب حذائها العالى.

بدا لها أنها لاحظت نظرة أسى فى عينى السكرتيرة.

قال "فيليبى" وهو يسير قافزًا فى مكتبه، بغضب:

- كان يمكنك أن تقولى لا، ولا شىء آخر.

أجابته "لافينيا" :

- عمليًا كان هذا ما قلته، أنت تعرف أننى لاأستطيع أن أقول له ما أفكر فيه، كان علىّ أن أمثل دور الغبية! لا أدرى سبب موقفك هذا.

- لأننى أرى ما الذى وراء كل هذا... ومازالت هناك عدة أشهر لإنهاء البيت، يجب أن توضحى له فى أسرع وقت أنك لست على استعداد لترك نفسك للغواية.

-"فيليبى"، من فضلك، اهدأ، لماذا لا نفكر فى كيفية مواجهة هذا دون أن تغضب؟ ألا تشعر أن هذا بالنسبة إلىّ أسوا بكثير منه لك؟ أنت لا تعرف بماذا كنت أشعر وأنا أرى فى عينيه تلك النظرة .

- ألا تفهمين، ألا تفهمين لماذا لم أكن أرغب فى جرك إلى هذا الموقف.

قالت "لافينيا"، فاقدة هدوءها:

- لا أصدق ما تقول، كلكم وأنت أولهم، كنتم على

اتفاق أن بيت "فيلا" هو المهم، والآن تقول لى إنك لم تكن موافقا على وضعى فى هذا الموقف.

-... لقد اخترع لك حفلاً صغيرًا! تلك الحفلات الصغيرة للضباط شهيرة، من يعتقد نفسه ابن الكلب هذا.

- امرأة، فالنساء بالنسبة إليه جميعًا سواء. ماذا تعتقد ما سيقوله "سباستيان"؟ هل تعتقد أنه يرى مناسبا أن أذهب؟

- لا، لا لن تذهبى.

قالها بلهجة غاضبة.

قالت "لافينيا"، محاولة أن تصل إلى تفسير:

-"فيليبى"، أنت لست مسئولاً عنى، المسئول عنى هو، اهدأ، وتذكر كم من مرة قلت لى أن الحركة قبل كل شىء وكل ما عداها ثانوى، أنت تمارس ردة فعل زوج مهان.

قال متهمًا إياها:

- وأنت هادئة، هل هذا لأن لديك رغبة فى الذهاب؟

قالت "لافينيا" واقفة:

- سأذهب، لن أسمح لك حتى أن تنوه إلى إننى أريد أن أذهب إلى ذلك الحفل. يجب أن تتعلم كيف تسيطر على نفسك.

خرجت من مكتب "فيليبى"، صافقة الباب بعنف دون أن تهتم بنظرات الرسامين، ارتفعت الرءوس مرة واحدة عن طاولات الرسم، وتابعتها حتى أغلقت باب ركنها.

مر أسبوع تقريبًا دون أن تراه، يلتقيان فى المكتب دون أن يتبادلا كلمة واحدة، لزما الصمت العبثى.

يوم أحد الحفل، حضرت "لافينيا" النزهة الموعودة مع "سارا" و"أدريان" دون أن تتفوه بكلمة، عادت إلى البيت بعد نهاية النزهة وهى تخشى أن تجد رسائل أو سيارة تنتظرها، كهدية من جانب الجنرال "فيلا"، لكنها لم تجد شيئًا أكثر من العادى فى الشجيرات والكتب، والصمت من حولها بدون "فيليبى".

شعرت بالغرابة والغضب، إنه لا يريد أن يفهم أو ربما لم يكن راغبًا فى الفهم، التفاهم سلاح ذو حدين، فى مواجهة موقف "فيليبى"، كان صعبًا عليها أن تطبق نظريتها عن "فيليبى" الآخر، أن تعفيه من المسئولية عن إرث قديم، ظل هو على موقفه خلال أيام، متجاهلا إياها فى المكتب، ويغيب ويتهمها برغبة حقيقية فى حضور حفل "فيلا"، كان غباء، مدهش وعبثى ووضاعة لو كان قد فكر لحظة أن لها اهتمامًا شخصيًا بالذهاب إلى الحفل.

"إنها الغيرة، لا تنزعجى، الغيرة عمياء"، كما قال لها "سباستيان".

سألت هى - خاشية أن تجد إجابة مؤكدة - إن كان موقف "فيليبى" قد أثر على قرارها بعدم حضور حفل "فيلا"، شرح لها "سباستيان" إنه لا علاقة له بشىء، وأن الحركة لا يهمها أن تضعها فى تجربة صعبة ومزعجة، بل يرغبون فى أن تكون علاقتها مع الجنرال مهنية فقط، ولم يتم التفكير فى أية لحظة مقابلة تفكير العسكرى فى الإغواء، وإن كانوا يعرفون أن هذا يمكن أن يحدث، لهذا يطلبون منها أن تحافظ على موقف متباعد.

وأكد لها، أن موْقف "فيليبى" ليس له أدنى علاقة بهذا.

منطوية على نفسها، فتحت "لافينيا" النوافذ لتهوية البيت وتخفيف حدة حرارة يوم الأحد، الصمت وهدوء الفناء كانا يتناقضان مع نزاعها الداخلى.

الأسوأ أن تعرف أن هذا لن يكون نهاية العلاقة، وثقتها الداخلية بأنها سوف تقبل اعتذار "فيليبى"، عندما يحدث هذا، اعتقدت أن "فيليبى" راهن على الابتعاد ليحصل على قبول أكثر طمأنينة لو قرر الاعتذار، أثارتها هذه الفكرة، ولكن أغضبها أكثر عندما تأكدت أن هذا هو السبب فقط وليس شيئًا غامضًا الذى يؤخر اعتذاره.

- ماذا يمكننى أن أفعل؟

قالت بصوت مرتفع، ناظرة إلى شجرة البرتقال، وهى تحدثها كما اعتادت أن تفعل كثيرًا.

بدا لها أنها تستمع إلى صوت عمتها "إينيس" ورؤية عينيها العميقتين ذات اللون الشيكولاتى الواضح وهى تقول لها: "يجب أن تتعلمى أن تكونى رفيقة طيبة مع نفسك"، تذكرت حوارها مع "مرثيدس" فى المكتب، والتعليقات التى قالتها مع "سارا"، إنه من الصعب أن يتسق الإنسان مع نفسه، وأن يوفق موافقة مع حبه.

كانت قد تحدثت "سباستيان" عندما سألته أن يلفت نظر "فيليبى" بسبب تعامله معها، فكرت، قالت له، إن الحركة يجب أن تحرص على هذه المواقف قليلة الثورية لأعضائها.

كان "سباستيان" قد ابتسم بحزن، "الثورة يقوم بها البشر، يا "لافينيا"، وليس سوبرمان، ورجل المستقبل مازال حلمًا فقط".

والمرأة أيضا، من المؤكد، أضافت هى من داخلها.

***

مسكينة "لافينيا"، تنظر إلىّ، غارقة فى حبها، ولم تكد تلاحظ حتى ولادة الأزهار، والرائحة التى تنشرها زهورى البيضاء.

تحركت فى البيت مثل أولئك البشر الذين يسيرون فى نومهم، تائهة وحزينة.

لقد غزانى حزنها فاتحًا فروعى، إن الحنين معدا، كثيرًا ما فكرت فى الوحدة، نحن ـ البشر ـ نشعر بالوحدة، فى الحياة والموت، مضغوطون بشكوكنا

الخاصة، نخاف إظهار رقة البشرة، وأن الدم ممتص ورقيق.

الحب ليس إلا سوى اقتراب ناقص ممن هم أقرب إلينا .

أنا لم أتمكن من مرافقة "يارينثى" فى إحباطاته كلما خسرنا معركة وبقينا أكثر عزلة، فى كل مرة يسيطر الغزاة على مدينة جديدة من مدننا، على قبيلة أخرى من قبائلنا، العودة ليلا إلى الأماكن التى كانت من قبل مزارعنا التى تغذينا كانت مرعبة، ورؤية أهلها يرتدون ملابس طويلة مثل الإسبان، يتخفون فى الأبيض، منحنية كالعبيد، قليلون منهم من يجرؤ على الإجابة على أسئلتنا المرموزة ـ تقليد الببغاوات أو الديدان ـ فى بعض القرى، لم يعد يجيبنا أحد، فقط قد نسمع ليلا بعض البكاء، فقط لإشعارنا بأنهم لا يستطيعون مساعدتنا، ولم يعد أمامهم من شىء يفعلونه .

كنا نعود من تلك الأحزان لنجلس بعيدًا بعضنا عن بعضنا الآخر، ونغادر أفكارنا القاتمة.

ما كان يمكننا أن نقول لأنفسنا أى شىء. لا شىء يمكنه أن يسكت حزننا.

كنا نعرف أن نضالها حينها بلا أمل، ولكن ليس أمامنا من طريق آخر سوى الاستمرار.

كنا شبابًا، لم نكن نرغب فى الموت، ولكننا ما كنا نقبل الاستعباد كإنقاذ من الموت، نموت فى الجبال كمقاتلين، وتستقبلنا الآلهة بكل شرف، بالمقابل لو

استسلمنا للحفاظ على حياتنا، فإن الكلاب والنار سينتبهون إلى وجود أجسادنا وما كان لنا أن نأمل فى ميتة مزهرة.

لحماية أنفسنا من الهزيمة والإحباط، كنا نجتمع حول النار فى الليالى لنحكى أحلامنا .

لكن الحنين كان يصيبنا بالمرض.

كثيرًا ما كنا نصاب بالسكات، وفى الوحدة، كل منا يناضل ضد الخوف والحزن بطريقته الخاصة، لم تكن لدينا القوة لمواجهة الأشباح التى لا غنى عنها .

وفى النهاية بقينا وحدنا .

***

مع منتصف النهار، فى أرض الجنرال "فيلا"، كانت الماكينات الضخمة تحرك التراب، تراب رقيق ناعم بلون مترب يغطى الماكينات وملابس العمال بطبقة محمرة، كانت الشركة الهندسية قد وضعت كشافات قوية لإضاءة العمل الليلى، والمطلوب حتى يمكن تسليم البيت فى الموعد المتفق عليه.

هبطت "لافينيا" من العربة وتوجهت إلى المكان المسقوف حيث يوجد رئيس العمال مع رئيس المهندسين.

لاحظت عيون العمال تتابعها حيثما مضت.

تحت السقيفة، كانت هناك طاولة خشنة فى الوسط، وعدة كراس وطاولة أخرى موضوع عليها

ماكينة صنع القهوة، ورجلان، أحدهما شاب والآخر يتخطى الخمسين، يتناولان القهوة. قالت، متوجهة إلى الأكبر سنًا:

- صباح الخير، حضرتك السيد "رومانو".

قال الرجل الذى يرتدى قميصًا وبنطلونًا، وخلف أذنه قلم رصاص:

- نعم، هو أنا، ماذا تريدين؟

قالت مادة يدها لتحيته:

- أنا "لافينيا" المهندسة المساعدة للإشراف على المشروع.

- آه، نعم؟

قال السيد "رومانو" ناظرا إليها بحب استطلاع، له وجه طيب ووجنتان مستديرتان وعينان واضحتان، وحواجب كبيرة، وأشيب قليلا.

قالت "لافينيا":

- نعم، أرى أنكم ،تقدمون فى تجريف الأرض.

قال السيد "رومانو":

- ننتهى هذا الأسبوع، أقدم لك المهندس المساعد، السيد "ريثو".

قالت "لافينيا" لتستحوذ على تضامنه:

- حضرتك وأنا سنرى بعضنا هنا كثيرًا.

- يبدو أن هذا سيحدث.

قال المهندس المساعد، رجل فتى حسبت "لاُفينيا" أن عمره فى عمرها، نحيل وخجول.

تعاملت معه بطلاقة، كانت تريد ألا تغرس فيه رفض رجال المعمار الذى أعلن عنه "خوليان".

طلبت من السيد "رومانو" أن يشرح لها الخطوات التى يتبعونها لتجريف الأرض فى مستوياتها المختلفة والتى سيقيمون عليها قواعد البيت، وحتى لا تترك مجالا للشك فى سيطرتها على معانى المعمار.

تحدث السيد "رومانو" بهدوء، مجيبا على أسئلتها ورغبتها فى الاطلاع، لاحظت أنه ينظر إليها بتركيز، بغرابة تقريبًا، لكنها لم تشعر برفض من جانب أى من الاثنين.

كان المهندس المساعد صامتا، كان يركز عينيه على الرسومات الهندسية، ومتابعًا الحركة برأسه للحديث بين "لافينيا" والسيد "رومانو".

فكرت هى، "يا لى من محظوظة، حظيت بشخص خجول".

بعدها تمشوا فى مكان البناء وأخيرًا ودعتهم "لافينيا".

رافقها السيد "رومانو" حتى السيارة.

سأل:

- هل ستعودين غدًا؟

قالت "لافينيا":

- نعم.

مضيفة بابتسامة:

- ستراني كل يوم.

قال السيد "رومانو":

- هل تعرفين، كانت لدى ابنة أرادت أن تصبح معمارية؟

ولكنها بدلا من هذا، تزوجت وماتت فى الولادة، فى الحقيقة، أنا لم أفكر أبدًا أنه يجب أن تدرس هذا، ولكن عندما أرى حضرتك.

لم تعرف جيدًا كيف تجيبه، كان العجوز قد سحرها، ربتت على كتفه بيدها، هكذا هى الحياة، وانطلقت بسيارتها، تقبل السيد "رومانو" السريع والوقتى أعاد إليها ذكرياتها، كانت تمضى اليوم بطوله محاولة تجنب "فيليبى"، لكن أشياء مثل هذه تذكرها بأن بشرتها رقيقة.

فى طريق عودتها إلى المكتب، عثرت على مكتبها مذكرة قصيرة من "فيليبى، "مرى على مكتبى عندما تصلين"، تسارعت ضربات قلبها فى جسدها كمصعد، قررت الانتظار لبعض الوقت، رأت أنه ليس من الكرامة الإسراع بتلبية النداء عند أول إشارة، نادت "مرثيدس"، طلبت فنجانًا من القهوة وسألت إن كانت قد تلقت مكالمات هاتفية فى غيابها.

- انظرى فى مكتبك.

قالت "مرثيدس" بخبث، خارجة لإحضار القهوة، وعادت على الفور تقريبًا وبينما كانت تضع القهوة على الطاولة أخذت وقتًا لتعد منشفة ورقية، وقالت لها:

- هل شاهدت المذكرة التى تركها "فيليبى"؟

- نعم.

- قالت محاولة إخفاء انزعاجها من حب استطلاع "مرثيدس"، لم يكن ممكنًا إخفاء أى شىء مما يحدث فى المكتب عنها، كانت لديها وسائلها الغريبة لمعرفة كل ما يحدث، فى هذه الحالة، كان واضحا أنها اطلعت على المكتب. وأضافت:

- يجب أن تتخلى عن عادتك السيئة تلك للاطلاع إلى كل ما هو موجود على المكتب.

- نعم، فقط جئت لأترك لك البريد، وشاهدتها، لم يتركها مطوية ولا أى شىء، أنا لا أبحث عن شىء، إذا كان هذا ما تقصدينه.

أشارت "لافينيا" بيدها إلى أنها لم تكن ترغب فى الدخول فى جدل مع "مرثيدس"، حركت عجيزتها وخرجت من المكتب بإحساس أنها أهينت.

"مسكينة"، فكرت بعد شعور بالندم على تعاملها معها بهذه الطريقة القاسية، لكنهم جميعًا لديهم الشكوى نفسها من "مرثيدس"، حب استطلاعها الذى لا حد له، أن تمارس دور "القوادة"، اهتمامها بالحياة الجنسية للآخرين ربما كان نوعًا من تعويض حكايتها الفاشلة مع الحب، كانت قد عادت إلى علاقتها مع

"مانويل"، ومع ذلك فهذه المرة بجرعة من الندم والمرارة، تقريبًا كما لو كانت قد استسلمت لمصير غامض لا فكاك منه.

لم تتمكن من تجنب إحساس بألم فى المعدة عندما فكرت أنها تكاد تبدأ من جديد علاقتها مع "فيليبى" مع الحفاظ على الفارق، فالأمر مختلف بالنسبة إلى وضعها.

استرخت على الكرسى وأشعلت سيجارة، همهمة الهواء المكيف كانت مسموعة بشكل كبير مع هدوء المساء، لقد كانت ساعة الانصراف، رغم المناخ البارد اصطناعيًا، فإن بخار الحرارة يمكن رؤيته عبر النافذة يرتفع كستارة بيضاء مغشيًا المشهد الطبيعى.

لم تحاول أن تخدع نفسها فيما يختص بتراجعها، لكنها كانت تتخيله لتضع قواعد واضحة مع "فيليبى"، لم تكن مستعدة أن تترك الفرصة السانحة لتجعله يرى العبث وعدم الاحترام فى موقفه، لن تمنحه الانتصار بمصالحة سهلة.

كانت تجرب خطابها عندما ظهر "فيليبى" بالباب منفعلا.

– إذا الجبل لم يأت إلى محمد، فإن محمدًا سيذهب إلى الجبل.

قال وجلس، مشعلا سيجارة.

جاء مرتديًا مسحة اللطافة والإغواء، لاحظت "لافينيا"، محاولة استعادة حالتها الطبيعية، مرتكزة

مجددا على كرسيها دون أن تقول شيئًا، مقررة مجددًا عدم تسهيل اعتذاره.

قال "فيليبى":

- كيف انتبهت إلى ذلك، إن الاعتذار ليس من خصائصى.

ركزت "لافينيا" نظرتها.

قال هو:

- لكنه لم يكن شيئًا مهمًا، حتى تتخذى هذا الوضع...

قالت "لافينيا":

- إذا كان غير مهم كما تقول، لماذا تأخرت كل هذا الوقت لتأتى وتطلب الاعتذار.

-لأنه، كما قلت لك، أنا سيئ جدا فيما يختص بطلب الاعتذار... خاصة عندما تكون لها علاقة بغبائى الواضح، كيف يمكننى أن أشعر بالراحة لأعتذر لأننى كنت غبيًا؟ عليك أن تعترفى أنه من الصعب قبوله حتى من الشيطان نفسه.

- وهل تعتقد أنه يجب أن أقبله أنا؟

- لا، بالطبع لا، لكن، كما أنت نفسك تقولين، يجب تذكر التفاهم، وبعد كل هذا، إنها أشياء تعمل داخل الواحد منا رغم إرادته... عدم الثقة وانعدام الأمان... ذكورية، فى النهاية.

– الأسوأ هو أن أسمعك تستخدم كلماتك نفسها لإعفاء نفسك من المسئولية، أنت غير قابل للتقويم، أنت معلم الندم!.

– هل تريدين نتائج سحرية، هل تعتقدين أنه بالجدل فقط حول هذه المشاكل، يجب تغيير كل شىء، إنه ليس سهلا، لدى الواحد ردود أفعال بدائية تقريبًا فى مواجهة مواقف محددة، فى ذلك اليوم، على سبيل المثال، هل تعتقدين أننى لم أنتبه إلى أننى كنت أقوم بأفعال غبية، وأن ما قلته لك ليس عدلاً... لكنى لم أستطع تجنبه، خرجت الكلمات من فمى قبل أن أفكر فيها، وأنت صفقت الباب فى وجهى، لم تمنحينى الوقت لتصحيحه فى تلك اللحظة، وحولتيه إلى قضية خطيرة، أن أطلب اعتذارًا خاصًا كما أفعل الآن، وهذا غير مريح، من الصعب التغلب على الكرامة، وهأنت ترين أننى أقدم لك اعتذارى.

– أنا لا أستطيع أن أقضى حياتى بقبول اعتذاراتك لأنك عديم المسئولية بسبب تلك الاندفاعات البدائية. وأنا أسحب ما قلته عن نفسى، ولن أكون متفهمة، لأنه بالفهم كانت النتيجة علىّ أن أبرر لك كل شىء.

– أنا لا أبرر لنفسى، أقول لك إننى أعترف إننى اتخذت موقفا غبيًا، ماذا تريدين منى أن أقول لك أكثر من هذا؟

– لا أعرف لماذا أشعر أنى ينقصنى فقط أن أرتدى مسوح الكهنة لأكون قسًا يتلقى اعترافاتك والحكم عليك بالصلاة لمحو خطاياك.

قال "فيليبى" راكعا إلى جوار الكرسى فى حالة ندم:

- أصلى، يا "لافينيا"، لو طلبت منى أن أصلى، كل الصلوات.

لم تستطع هى تجنب الضحك، ولا العناق، ولا قبول التصالح المنتهى بالسخرية، كان هو يعرف الطريقة، وتسمح له هى باستخدامها، ليس هناك علاج فى مواجهة حاجات بشرتها، خاصة فى هذا الوضع حيث كان يبدو أن الكون جميعه متعلق بحدود دقيقة وكل يوم تعيشه هو يوم مكتسب تحت حد الانفصال أو الموت.

قالت "لافينيا" قبل أن يخرج "فيليبى" من الباب:

- يجب أن تعرف أن هذا آخر اندفاع بدائى قد أتقبله.

- ٢١ -

دائمًا متعجلة، ليس من أجل حضرتك، كانت تقول "لوكريثيا"، وهى تلتقط الملابس المتسخة من سلة الحمّام.

كانت "لافينيا" تتزين بسرعة لتعود إلى العمل، كان نجاحها مع "لوكريثيا" فى أن تناديها الآن باسم "لافينيا" فقط بدلا من "طفلتى لافينيا"، وأن تهمس إليها من وقت إلى آخر، بأسرارها عن حبها الجديد الذى يجعلها تغنى بينما تقوم بالأعمال المنزلية: يعمل كهربائيا، فى الخمسين من عمره وقد أنهى مراهقته التى عاشها من قبل، وعرض عليها الزواج وبيتًا صغيرًا، وسيقام العرس فى الشهر التالى.

ستكون "لافينيا" عرّابتها، "لأن حضرتك صديقتى"، كما أكدت "لوكريثيا"، وقبلت "لافينيا" هذه الصداقة، كان من الصعب عليها أن تحطم الشكل التقليدى للعلاقة القائمة مع الخدم.

ربما فى مرحلة أخرى، فى نوع آخر من المجتمع، فى المستقبل، قد تتغير الأشياء بينهما، ربما تقبلها وقتها كمتساوية لها، فكرت "لافينيا" فى كل هذا.

ما أن أنهت وضع أحمر الشفاه، حتى أشارت على "لوكريثيا" أن تشترى الخبز من محل قريب وخرجت من جديد.

بالضبط، فى الأشهر الأخيرة، منذ أن بدأ العمل فى بناء بيت الجنرال "فيلا"، وهى تمضى وقتها بشكل عشوائى، عليها أن تقوم بأعمال كثيرة حتى أن الأربع وعشرين ساعة لم تعد كافية، ويبدو أن كل ما حولها يجرى بلا توقف، ليس "خوليان" فقط، والمهندسون، ومتعهدو المواد البنائية، والنجارون، ومهندسو الديكور الداخلى، جميعا متعجلون بسبب الزمن الذى فرضه "فيلا"، بل أيضنا الحركة بدا أنها دخلت نشاطًا غريبًا، فجأة ظهرت أمامها وجوه جديدة، لرجال ونساء صامتين ومبتسمين عليها أن تنقلهم من مكان إلى آخر، فى أوقات مبكرة أو متأخرة، إلى طريق الأشجار.

كان يأمرها "سباستيان" أن تبحث عن أشياء غريبة - على سبيل المثال - خمس عشرة ساعة تعمل بشكل متقن، وساعات توقيت، وملابس احتفالات، وعدادات مياه...

و"فيليبى" المشغول فى أنشطة لا يعرف أحد عنها شيئًا، يغيب فى نهايات الأسبوع ويعود منهكًا ليلاً فى أيام الآحاد، كانت تشك فى أنه كان يحضر تدريبات عسكرية؛ لأنه يعود بأظافر وشعر متسخين، وفى حقيبة صغيرة بها الكثير من الملابس الغارقة فى الوحل والتى تدفع "لوكريثيا" إلى حد الحنق.

هكذا، خلال تصاعد الأحداث، كانت تمر الأشهر، والصيف يعلن عن قدومه فى رياح نوفمبر، وبدأت الأمطار منذ أكتوبر تترك مكانها للأيام الصافية مما يسمح لهم التقدم سريعًا فى بناء بيت "فيلا".

يواصل الجنرال إلحاحه فى دعوتها إلى احتفالاته الصغيرة، ولكن "لافينيا" كانت قد تركت كل شىء واضحًا بوضع أسس العلاقة التى يجب أن تحافظ عليها فى المجال المهنى. وتحت نصائح "سباستيان" الذى حذرها- بطريقة رقيقة ودبلوماسية ـ إما أن يقبلها مهنيا أو يكلف معماريًا آخر ليتحمل المسئولية التى تقوم بها، كانت لحظة عاصفة ومقلقة، ولكن فى النهاية بدا أن الجنرال "فيلا" قبل وخفف من حصارها والذى أصبح الآن فى مستوى يمكن إدارته.

وصلت إلى المكتب، وتحدثت مع "خوليان" بسرعة عن بعض المشكلات التى تحتاج إلى حلول وتضمن توريد الأخشاب التى تغطى الأسقف المستوية التى يجب البدء فى تركيبها فى الأسبوع المقبل.

جالسة الآن فى ركنها، تراجع العقود مع متعهدى الستائر والسجاد، راجعت فى ذهنها مجددًا المهمة التى يجب أن تقوم بها هذه الليلة، الطريقة التى يجب أن تقوم بها لإقناع "أدريان" للتعاون مع الحركة.

كادت تنسى تقريبًا أنه فى مرحلة ما ـ بدت لها الآن بعيدة جدًا - تحدث فيها "أدريان" كثيرًا عن

الحركة، وكان يبدى احترامًا صامتًا، كان هو أول من قدم لها أول شرح عن أهدافها أيام محاكمة مدير سجن "لا كونكورديا"، عندما كانت تطلق عليهم مسمى المنتحرون البطوليون.

ذكّرها "سباستيان" بذلك.

قال لها: "كانت هناك عدة محاولات للتقارب فى الجامعة لكنها لم تتم سوى بطريقة أولية، بعدها أنهى دراساته وفقدنا أثره".

فى دوار الأحداث التى قادتها إلى الالتحاق بالحركة، نسيت "لافينيا" - ببساطة - تعليقات "أدريان"، كان نسيانها غريبا، خاصة الآن حيث يمكنها أن تتذكر حوارات حكى فيها "أدريان" مواقف طريفة فى الجامعة عن "الأولاد"، مؤكد بما أنها كانت بعيدة عن ذلك فى حينه، فلم تكن تسمعه بانتباه كاف.

فى اليوم الذى ذكرت فيه اسم "أدريان" أمام "سباستيان"، بمناسبة تعليق على حمل صديقتها "سارا"، سألها "سباستيان" عن اللقب، وعندما قالت له "لافينيا" إنه يلقب "ليناريس"، همهم "سباستيان" "آه، نعم؟"، والأسبوع الماضى، سألها "سباستيان" عما يفعل "أدريان"، وكيف يعيش، وكيف يفكر، حاولت أن تكون عادلة فى حكمها، وحول توجهاته السياسية، ذكرت التعليقات التى كان يعتاد قولها عن الحركة، رغم أنه فى ممارسة حياته العادية كان يحاول أن يظل على الهامش، الحفاظ على وضعه، قال: "إنه مثل "خوليان"

ليس لديه أمل"، وإنه تمامًا مثل "سارا" يحاولان عدم الدخول فى موضوعات تجرهما إلى حقل السياسة، وخاصة أنهما يمثلان علاقتها مع العالم الاجتماعى، ولولاهما لكان صعبًا عليها أن تحافظ على التوازن بين وضعها الاجتماعى والتعبير عن توجهها الجديد والذى من المؤكد سوف يظهر خلال حماسها فى الحوار.

كان "أدريان" يهتم باختلال توازنها، وكان اهتمامه مفهومًا، قبلت "لافينيا" هذا التفسير، فقد شاهدها تنتقل من التمرد عندما هجرت بيت أبويها والنوادى وغيرها من الأنشطة، ليراها تعود مجددًا إلى حلقة الحفلات الاجتماعية والالتزام، وهذا التغير جعله ينتبه لأنه لم يقنعه.

وكانت المفاجأة أن "سباستيان" أشار عليها أن تطلب من "أدريان" التعاون مع الحركة، هكذا بلا مواربة، وقال لها: "إنه يعرف المطلوب منه". ملمحًا إلى مرحلة الجامعة.

لم يكن واضحًا لها تمامًا مسألة أن تطلب هذا دون مواربة، فكرت "لافينيا"، بينما كانت تنظم الأوراق على المكتب. كانت تتخيل دهشة "أدريان"، عندما تطرح عليه الموضوع، وهى غير المستقرة من المؤكد أنه سيتسبب لها فى رضاء داخلى، ومع ذلك، كانت غير واثقة من الشكل الذى يمكن أن يكون عليه رد فعله، لأن "أدريان" يملك قوة غريبة فى دفعها إلى الإحساس بعدم الأمان، ويجعلها تشعر بعدم الرضاء عن نفسها،

لم تكن تقوى أبدًا على مواجهة سخريته منها، كانت تخشى أن تسمعه يسخر من الحركة؛ لأنها تضم أناسًا مثلها، أو تصدر عنه تعليقات على هذا النحو، متلمسًا عدم ثقتها فى نفسها، وهذا الخط الدقيق الناتج عن ميلادها الجديد والذى لا تزال تعترف أنها حتى الآن مشوشة بخصوصه، رغم قبولها بأن الحركة كانت السبب فيه، فلا تزال تشعر أن طبقتها الاجتماعية كحمولة ثقيلة كانت تود أن تتخلص منها، كانت ترى أنه ذنب لا يغتفر، إنه حد فاصل لا يمكنها تخطيه ولا حتى بالموت.

فى الاحتفالات واللقاءات الاجتماعية التى حضرتها، كراهية رغم أنفها خلال الأشهر الأخيرة وجدت أكثر من سبب لوجود هذا الحد الفاصل، كانت طبقة كريهة، ويقززها التعالى الذى يتعاملون به انطلاقًا من إحساسهم بالسمو وعدم اهتمامهم بالظلم المحيط بهم، بينما يعيشون برفاهيتهم بلا اهتمام، كثيرًا، ما كانت تشعر أنها تكرههم حتى كزملاء، وبشكل خاص؛ لأنها تعرف دواخلهم، وتتوقع ردود أفعالهم، لم يكن يخفى عنها شيئًا، حتى لو أظهروا الشرف والاهتمام بما يجرى من حولهم، فقد كانت تستطيع أن تقرأ على تقاطيع وجوههم الشعور بالأسى والاحتقار لمن لا ينتمى إلى دوائرهم البراقة.

المرعب عدم القدرة على الانفصال الكامل عن كل هذا، عن السنوات التى مرت بها وكانت فيها مثلهم، وإجبارها على قبول هوية مشوشة، كانت تخشى أن

يظهر ماضى عائلتها القديم وتواجه بالوضع الكريه لها.

فيما كانت غارقة فى هذه الأفكار التى كانت تصيبها بالكآبة، كانت تشغل نفسها بتفاصيل المهنة المرتبطة بعملها، وفى المساء توجهت إلى بيت "أدريان" و"سارا"، قطعت الشوارع محاولة أن ترفع من معنوياتها المنهارة، ولتعزى نفسها تذكرت حياة رجال ونساء أقوياء أيضًا ينتمون إلى طبقات مرفهة واستطاعوا القفز على الحواجز نحو مستقبل جديد، وربما كان عدم ثقتها من قبول الواقع يعود إلى طفولتها، فكرت، لم تكن لها أدنى علاقة بالحركة، وربما كانت الحركة تمثل لها الآن الأب والأم وحبهما الذى حاولت أن تحصل عليه دائمًا بلا نجاح، ودون وجود عمتها "إينيس" ومحاولتها تبنيها كابنتها ما كان لها أن تصنع تلك المسافة، وتباعدها الصامت عن أبويها. من يمكنه أن يتنبأ به؟ ما كان أمامها سوى النضال ضد كل تلك الأشباح الماضية وبلا وعى! والآن أصبحت حياتها ملكًا لها، ما كان يفيدها فى شىء أن تعثر على مذنب فى هذا المساء الشاحب الذى ينمحى فى الظلال.

بدأت لمبات الإضاءة العامة تضىء فى شارع "أدريان" و"سارا"، تركت السيارة فى مدخل الجراج، خلف سيارة "أدريان" وسارت ببطء باتجاه الباب، غير واثقة حتى الآن من الطريقة التى ستطرح بها الموضوع، فقط عندما كان جرس الباب يرن بالداخل، انتبهت إلى أنها لم تضع حضور "سارا" فى اعتبارها.

كانا يتناولان طعام العشاء، كان يبدو على وجه "سارا" تعبير قدسى، كما لو كانت قد عثرت فى داخلها على مصدر عجيب من السلام والاسترخاء، اتخذ جسدها شكلاً ممتدًا بخطوط مستديرة ناعمة، لم تتمكن "لافينيا"، فى كل مرة تراها، من تجنب الإحساس العميق بالحرارة فى بطنها، ورغبة حيوانية تقريبا فى الحمل وموجة من الحنان. قالت، بينما كانت تربت على بطنها وتطبع قبلة على خدها:

- كيف حال هذا البطن؟

- تنمو... كما ترين.

قالت "سارا"، بتفاخر ساحبة الفستان على استدارة البطن. بالضبط، لقد نما بشكل ظاهر، بدا ظاهرًا حملها ذو الخمسة أشهر.

حيت "لافينيا" "أدريان" وجلست إلى المائدة.

أكلوا الثلاثة بين مساحات من الصمت المتقطع بتعليقات عن اقتراب شهر ديسمبر، وأعياد الميلاد، وحالة "سارا"، حديث عائلى بين أصدقاء، كانت "لافينيا" تبذل مجهودًا للتركيز، مهمومة بالعثور على طريقة للانفراد بـ"أدريان".

قالت فجأة:

- "أدريان"، أنا فى حاجة، بعد العشاء، إلى استشارتك فى بعض الأشياء عن المشروع الذى أعمل فيه.

قال "أدريان"، بابتسامة ساخرة:

- بيت الجنرال؟

- هو نفسه.

- بكل سرور.

-هل لديك طاولة رسم هنا؟ (إذا استطاعت أن تأخذ "أدريان" إلى الأستوديو، تكون قد حلت المشكلة).

- نعم، بالطبع، فى الاستوديو.

- لن نضايقك يا "سارا"، إن عملنا معًا فى الأستوديو لبعض الوقت؟

- لا تهتما، إذا كان لا يضايقكما سأذهب للاسترخاء، دائما ما يهاجمنى النوم.

قال "أدريان" بعذوبة:

- لقد تحولت إلى سيدة بيت. ما يجب عليك هو البحث عن كهف لتقضى البيات كدبة حتى يولد الطفل.

ضحكوا جميعا، "لافينيا"، سعيدة بعثورها على حل سهل للمكان ولكنه أعادها إلى هذا الحل قلقها حول الكيفية.

بعد دقائق من انتهاء العشاء، أشارت "سارا" إلى الخادمة أن تقدم القهوة لكل من "لافينيا" و"أدريان"، فى الأستوديو وودعت كل منهما بقبلة.

"بلا مواربة"، كان قد قال لها "سباستيان"، كانت كلماته تتكرر فى ذاكرتها مرة بعد أخرى.

دخلا الأستوديو، كانت غرفة صغيرة ومريحة، معدة من جانب "سارا" بكل حب، بالطبع، الدبلومات والشهادات الهندسية الخاصة بـ"أدريان" تحتل أحد الجدران، وفى الآخر كانت هناك صور من مشروعات قديمة، كانت مستخدمة من جانب الإسبان خلال الاستعمار لبناء المدن، خلف طاولة الرسم رف للكتب وصور العرس. فى وسط الغرفة، أريكتان مريحتان وطاولة صغيرة وضعت عليها الخادمة صينية القهوة وخرجت من الباب.

شغل "أدريان" تكييف الهواء، بينما كانت "لافينيا" تصب القهوة بحرص فى فناجين الخزف.

قال "لافينيا"، بنغمة ساخرة:

- أنت تشعر بالراحة فى هذا الزواج.

- نعم، هذا حقيقى؟ ليس هناك أفضل من أن أكون سيدا لبيت وترافقنى فيه امرأة طيبة.

- ها قد بدأت بما تعرف.

- حسن، أنت تعرفين أن هذا الحوار بيننا نحن ـ الاثنين ـ هو حوار إجبارى، على أى حال دائمًا ما نطرح الموضوع، وليس سيئًا أن نطرحه كمدخل لحديثنا.

ابتسم "أدريان". قالت "لافينيا":

- أعتقد أننا لن نتحدث فى هذا هذه المرة.

- نعم، أنا أعرف، سنتحدث عن بيت الجنرال "فيلا"... أعدك الا أكون ساخرًا، رغم أنك تعرفين ما أفكر فيه حول هذا الموضوع.

- أنـا أفـكـر مـثـلك، كـان أول ردة فـعل لى رفض تخطيط البيت.

- إذًا، لماذا قمت بذلك؟

- لأن هـنـاك من اعـتبـروا أنه من المهم أن أفـعل ذلك.

قالت "لافينيا" طـارحة ستارة من السرية، مفكرة أن طـرح المـوضـوع يـكـون أسـهل ممـا تـصـورت، وبـدأت تستمتع به.

- بـالـطبع، إنه "خـوليـان"، من المؤكد أنه اعـتبـره مهم جدًا!

- أنا لا أشيـر إلى "خوليـان"، أنـا أشيـر إلـى حركة التحرير الوطنى.

- وما علاقتك أنت بالحركة؟.

قال "أدريان" متخذًا وضـع المفاجأة.

قالت "لافينيا"، بجدية:

- أنا أعمل معهم من أشهر مضت.

قال "أدريان":

- يـاه، أيـتـهـا الـفـتـاة... أنـا كـنـت أعـرف أنك ستدخلين فى الشراك!.

قالت بنغمة ساخرة قليلا:

- إنها ليست شراكًا، يا "أدريان"، أنت نفسك قلت إنهم الـوحيدون الذين يعملون بجدية، الوحيدون الذين يفهمون.

- وما زلت أؤمن بهذا، لكنك لست معدة لهذا النوع من الأعمال، أنت رومانتيكية جدا، غير خبيرة، لاتعرفين مدى الخطر، مؤكد أنك تفكرين أنها مغامرة كبيرة.

- ربما كان هذا فى البداية، ولكن الآن الأمر مختلف، لا تستطيع أن تنكر أن الحياة تعلمنا.

-لا، لا أنكر، وأنت امرأة حساسة، لكن... لاأعرف.

- حسن، لا تهتم بوضعى الآن، كلفنى رفاقى أن أطلب تعاونك، قالوا إنهم تقاربوا معك خلال الجامعة وإنه رغم عدم تحديد العلاقة فى ذلك الوقت، فإنهم يريدون أن يعرفوا إن كنت مستعدًا للتعاون.

أراح "أدريان" رأسه على ظهر الكرسى وبقى صامتا، أخرجت "لافينيا" سيجارة، أشعلتها وأطلقت دخانا كثيفا دون أن تنظر إليه، مانحة إياه وقتًا للتأمل. وأخيرًا قال، منحنيًا لارتشاف جرعة من القهوة ناظرًا إليها:

-إذًا فقد حكوا لك ما حدث بالجامعة؟

- نعم.

- هذه كانت مجرد محاولات تقارب لا أكثر- قال واسترخى فى الكرسى - فى هذه الحقبة كنا نتعاون جميعًا بطباعة أوراق سرية، نوزعها... وبعدها تخرج كل منا من الجامعة وكان يجب التفكير فى أكل العيش... كسب المال، تحسين وضعه والزواج... فيترك الواحد منا أحلامه خلفه، ويتحول أكثر واقعية.

نظر إليها بتركيز.

قالت بنعومة:

- لكن يجب الإيمان بالأحلام، "أدريان"، لا يجب أن نقبل الهزيمة أمام الواقع المرعب. هل تريد لابنك أن يتربى ويعيش فى هذا المناخ؟ ألا تريد تغييرًا من أجله؟ هل تريده مثلك، يتهم أهله بأنهم لم يفعلوا شيئًا لتغيير واقع الأشياء؟

- ما لا أريد "لافينيا"، أن يصبح ابنى يتيمًا، أريد أن أكون إلى جانب "سارا" لتربيته ومنحه كل ما يحتاجه.

- كلنا نريدِ ذلك، "أدريان"، هل تعتقد أننى لاأريد أبناء أيضًا؟

- لكن ليس لديك.

لكنى أحب أن يكون لدى فى يوم من الأيام، فى واقع مختلف.

- أهنئك على تخطيطك، الواقع هو أن "سارا" حامل.

-لكن هذا لا يمكن أن يكون مانعا، "أدريان"، بالعكس، يجب أن تساعد لأسباب أقوى.

وقف "أدريان"، سار باتجاه طاولة الرسم، وبشكل عصبى، بدأ ينظم الأقلام والممحاة والمساطر. قال:

- وماذا يريدونى أن أفعل؟

قالت "لافينيا":

- ليس شيئًا كبيرًا، فقط يريدون أن تعيرهم سيارتك عدة ليال فى الأسبوع خلال الشهر المقبل.

قال "أدريان" بعصبية وهو يقترب:

- هل تعرفين معنى هذا؟ إن اعتقلوا شخصًا فى سيارتى سأدخل السجن على الفور.

- طلبوا منى أن أبلغك أنهم فقط أشخاص لاشبهة عليهم، لن يقود السيارة أى شخص مشتبه فيه، وأيضًا يريدون معرفة إن كان يمكنهم إخفاء بعض الأسلحة فى بيتك.

قال "أدريان":

- هذه لا، أنا على استعداد لتقبل أى شىء ناتج عن أعمالى، لكن تخزين سلاح هنا يعنى إدخال "سارا" وهذا لن أقبل الجدال حوله، أنا لا أريد أن أتخيل ما يمكن أن يحدث... مفهوم؟، هذه مشكلتى معكم، بعد أن نبدأ فى التعاون وقبل أن يندم الواحد منا يعرضّونه لمواقف حساسة وخطرة.

قالت "لافينيا"، شاكرة له فى داخل نفسها احترامه لهم:

- حسن، حسن، اهدأ، بما أنك بعيد عن الشبهات فكرنا أن بيتك يمكن أن يصلح كمخزن... وحتى أكون واضحة معك أنا من فكر فى هذا.

- هذه مشكلتك، لأنك لا تفكرين بشكل جيد، لم تنتبهى إلى من تواجهين، لأنك لم تشعرى أبدًا بالقمع

ولم يقترب منك، تعتقدين أن كل هذا مجرد فيلم، أنا نعم شاهدت فى الجامعة كيف كانوا يختطفون زملائى، بسبب أشياء أقل بكثير من هذا، ولم نعد لرؤيتهم بعد ذلك أبدا، اختفوا! كما لو لم يوجدوا من قبل!

قالت "لافينيا"، محاولة ألا تغضب وعدم الدخول فى جدال شخصى، ومحاولة ألا تؤثر كلماته فيها، وألا يجرحها:

- لا تقلق "أدريان"، إنس موضوع السلاح، قل مرة أخرى إن كان يمكنك مساعدتنا بالسيارة.

- كيف أن من سيقودها من غير المشتبه فيهم؟

- لأن سيارتك لن تحمل أشياء خطرة، يستخدمونها لنقل أشخاص، الخطورة قليلة جدًا، فقط علينا أن نصنع نسخة من المفاتيح، سأقدمها أنا لشخص معين، ثلاث مرات فى الأسبوع، عليك أن تترك السيارة فى مكان محدد وشخص ما سيأخذها من هناك، وسيتركها لك هنا بالبيت بعد ذلك بقليل.

- وكيف أفسر هذا لـ"سارا"؟

قالت "لافينيا"، سعيدة، بمجرى الحوار، فقد فكرت أن "أدريان" سيرفض:

- إن أردت أشرحه أنا لها.

- لا، لا لن نقول لها أى شىء، أفضل ألا تعرف أى شىء، هذا أكثر أمنا لها.

– شخصيًا أفضل أن نقوله لها، ولكن أنت عليك من يقرر.

– لن أقول لها، نهائيًا لن أقول لها أى شىء، ليس مناسبًا، مع الحمل، ستقلق، سأفكر فى أى سبب اخترعه عن السيارة.

هذه المرة جاء دور "لافينيا" للاستراحة فى الأريكة، أشعلت سيجارة فى صمت، نظرت إلى الساعة، كانت التاسعة ليلا.

قالت "لافينيا":

– سأذهب، لقد تأخر الوقت، ربما تكون "سارا" قلقة، هذا إن لم تكن قد نامت... أشكرك باسم الحركة.

–لا تكونى رسمية إلى هذا الحد.

– لست رسمية، أنت لا تعرف صعوبة الحصول على سيارة فى هذه الأيام، أو الحصول على متعاونين.

نهضت متعبة بشكل ظاهر، متعبة من تأمل صراع "أدريان" الداخلى، أن تشعر بضعفه وتفهمه فى الوقت نفسه.

قال "أدريان"، وهو يرافقها باتجاه الباب واضعًا يده على كتفها:

– ما زلت أرى أنه مثير للدهشة أن تكونى منخرطة فى مثل هذه الأشياء، من فضلك، احترسى، إنه خطر.

قالت "لافينيا":

- أنا أعرف، لا تقلق فأنا أعرف.

قال:

- إن الجنرال الأكبر قلق جدًا مما يحدث فى الجبل، ونضاله من أجل السيطرة على التجارة فى المدينة سيقضى على تعاون الشركات الخاصة معه، لاأعتقد أنه حسب ثمن ضغوطه بشكل جيد، لكنه مؤكد يشعر بشىء من هذا، هل لاحظت زيادة الحراسة؟

- نعم، نعم، بالطبع لاحظت ذلك، على أى حال، لو شككت فلن تشعر بشىء، فهو خبير فى مواجهة المتمردين.

ودعت "أدريان"، كانت الليلة مظلمة، بلا قمر، والنجوم الظاهرة لا تتمكن من إضاءة الظلال، وأضواء النيون كانت مطفأة، والشارع الملتف بالضباب يحتفظ بهواء ثقيل، وبدت السيارات غريبة وكحيوانات مهجورة، شعرت بالخوف، مضى زمن لم تجرب فيه رعب الأزمة الأولى، ولكن يبدو أن حوارها مع "أدريان" قد أحيا فيها رعبها القديم، وخلال الأشهر الأخيرة، منذ سماع أخبار القمع الفلاحى من "سباستيان" و"فيليبى"، يسيطر عليها إحساس بالغضب، فكان ذلك مصدر الشجاعة التى تدفعها فى أداء مهامها اليومية، وتحت رؤية الحصار الذى يعيشه الرفاق فى الجبل، تبدو الأخطار التى تتعرض لها المدينة قليلة الأهمية،

إضافة إلى أنه خلال تلك الأيام انحسر النشاط السياسى فى المدينة، بدا أن الحركة قد سكنت متحفزة، شيئًا فشيئًا، راكمت "لافينيا" يقينا بأنه يجرى الإعداد للضربة الكبرى، وهو الشىء الذى يفسر النشاط السرى المتواصل الذى كانت شاهدة عليه: نشاط غير ملحوظ بالنسبة لمن تجرى حياتهم بعيدة عن عالم النشاط السرى.

وإن كان "سباستيان" يتجنب أسئلتها المتعلقة بهذا، فقد كانت تتساءل أمامه بشكل متواصل، وتطلب رأيه حول إمكانية ردة فعل الجيش والسلطة فى مواجهة فعل قوى من جانب الحركة، ولكنه كان يرد بمقاطع من التعليقات والإشارات، كانت تشتبه هى فى إجراء عملية خطف، لكن "فيليبى" كان ينفى هذه الاحتمالية مرة بعد أخرى، كان يقول: "إن عملية اختطاف، تحول العمل إلى تركيز على العمليات الفردية، ونحن نريد توسيع رقعة النضال".

إن العمل الحاد أيا كان نوعه لا شك أنه سيفتح الطريق أمام قمع خانق، فانعدام النشاط نفسه وصمت الحركة فى الأشهر الأخيرة، قد يكون مزعجًا للجيش، خاصة إذا تبين أن العمل قد يتركز فى الجبال التى زادت فيها حدة القتال، قال "سباستيان": "يقوم الرفاق بعمل بطولى، إنهم يشغلون الجيش، بلا أسلحة تقريبا ولا ذخيرة ولكن بتضحيات كبيرة".

لكن تأكيدات "أدريان" كانت صحيحة: فالحراسة ازدادت، عدة مرات فى النهار وخلال الليل، تتجول

عربات الجيب الخضراء فى شوارع المدينة حاملة جنودا بملابس القتال والرشاشات. لقد كانت قوات مكافحة الإرهاب الشهيرة، والجماهير من جانبها كانت تجمع قواها للانطلاق إلى الشوارع من جديد، متحدية ومستعدة لإحراق الإطارات وقلب الأتوبيسات.

كانت عصبية المناخ تكاد تتخذ حالة فيزيقية تقريبا، بينما كانت تقود سيارتها فى الشوارع الصامتة المظلمة، غارقة فى تأملاتها.

كانت غارقة فى أداء أعمالها اليومية، لم تنتبه إلى الهواء الثقيل المحيط بها، لم تشعر بالخوف، لم تشعر بذلك الذى يجعل ظهرها يقشعر بردا، بينما كانت تجمع مقاطع المعلومات المحفوظة فى وعيها، كانت تضع المقاطع إلى جوار بعضها، وتصل إلى نتائج.

كان الخطر يقترب، رغم آليات الحماية التى كانت تمنعها من الإحساس بالوضوح الضبابى لما كان يقترب ويسمح لها بمضى الأيام بلا اهتمام من الخوف.

لم يتمكن الخوف من إيقافها رغم إنها ربما تكون قد فكرت أنها لا تزال تتمتع بإحساسها اللاواعى، وكانت تؤمن منذ طفولتها أن الكائنات التى تشبهها تتمتع بحماية خاصة فى هذا العالم: فالسجن ليس لأمثالها، ولا الموت، إنها تتمتع بمجموعة من المميزات، كانت تكرر ذلك لنفسها مرة بعد أخرى.

كما قالت "فلور" فى إحدى المرات، ليس سيئًا قليلا من الجنون، "قليلا من الجنون أمر صحى".

طردت الهواء من رئتيها، محاولة الاسترخاء، كانت سعيدة بنتائج اجتماعها مع "أدريان"، عند وداعها، عانقها هو بإعزاز وقلق، لم يكن شخصًا سيئًا، ربما يستطيعون الآن أن يصبحوا أصدقاء حقيقيين.

وجدت "فيليبى" فى غرفة النوم، كان يضع حقيبة على السرير، مليئة بالملابس والكتب. قالت وهى تضع حقيبة يدها على الكرسى شاعرة بالقلق:

- إلى أين أنت ذاهب؟

قال "فيليبى"، ملاحظا لها باستمتاع:

- لا تخافى، لن أذهب إلى أى مكان.

- لكن... وهذه الحقيبة؟ ماذا تعنى؟

- حسن، بشكل ما سأذهب بشكل جزئى.

قالت "لافينيا" عصبية باحثة عن سيجارة:

- لا تواصل ألغازك.

قال "فيليبى":

- أنت تدخنين كثيرًا مؤخرًا، هذا ليس جيدًا من أجل صحتك.

- دعنى أهتم أنا بصحتى، هيا؟ اشرح لى.

- هذا يعنى، إنه من أجل أمنك وأمنى، علينا أن نعتبر أنه ليس مناسبا أن أعيش فى بيتك، حفاظًا على

المظاهر، علينا أن نتباعد قليلا، كان يجب أن نفعل هذا منذ فترة، فأنا ما زلت غير مشتبه فيه، ولكنى لست خالصًا من هذا، ومؤخرًا، زادت الرقابة، لم نثق فى تغطيتك، ولكن فى هذا الوضع لا يجب أن نعرضك لأى خطر، فقد تحركنا مؤخرًا دون اتخاذ احتياطات مناسبة، وهذا ليس سرًا، علينا أن نزيد من وسائل الأمان، يمكننا أن ندمر كل شىء.

- ولماذا الآن، وما الذى سندمره؟

-"لافينيا" من فضلك، ألم تنتبهى إلى أننا نعمل فى إعداد شىء ما...

- نعم، بالطبع انتبهت، لكن... ما "فيليبى"؟ قل لى ما هو، أعتقد أن لى الحق فى أن أعرف.

- المسألة ليست حق، إنها مسألة أمنية، كان من المستحيل ألا تعرفى أن شيئا سيحدث، ولكن كلما عرفت معلومات أقل فهو أفضل لك ولنا جميعًا، أى منا لا يجب أن يعرف أكثر مما يتطلبه دوره المحدد الذى يقوم به.

- له علاقة بـ"فيلا"، أليس كذلك؟ هل ستختطفون "فيلا"؟

قالت "لافينيا" بتحد.

قال "فيليبى":

- لا، لا علاقة له بـ"فيلا"، أقسم لك، لقد كان "فيلا" مشروعًا مبدئيًا، لكننا استبعدناه.

- و، وإذاً، لماذا يصر "سباستيان" أنه يجب أن يكون البيت مكتملا فى ديسمبر؟

قال "فيليبى":

- ليشوش معلوماتك، وهذا لا يجب أن أقوله لك، أقوله لكِ لأنى أحبك، بسبب العلاقة التى تربطنا نحن ـ الاثنين ـ ولكن ما كان يجب أن أفعل هذا، وأحذرك من أن تخبرى "سباستيان" بذلك، أنت يجب أن تواصلى عملك وأن تتبعى توجيهاته، هذا سر بينى وبينك، حتى تكونى مطمئنة، أكرر لك ما كان يجب أن أقوله لك، لكنى لا أريد أن تظلى قلقة.

جلست "لافينيا" على الكرسى، وأطفأت السيجارة بكعب حذائها. وقالت باستسلام مهزومة أمام سر "فيليبى":

- إذًا، لن أراك بعد اليوم.

- نعم، سترينى، سترينى فى المكتب، ومن وقت إلى آخر يمكننى المجىء إلى هنا، وأيضًا يمكننا أن نلتقى فى مكان آخر، بعد اتخاذ الاحتياطات الأمنية المناسبة، ولكن ما يجب أن أواصل ما كنت أفعله من قبل، والعودة إلى البيت دائمًا، فلو انتبهوا لوجودى وتابعونى إلى هنا سيكون الأمر سيئًا للغاية.

- لكن ألا تعتقد أنهم يعرفون علاقتك بى؟

- محتمل، ولكن حتى الآن، لا يمكنهم معرفة الكثير من خلالى، فى المستقبل، سيتغير كل هذا، وبالفعل يتغير حاليًا، لهذا لا يمكننا أن نظل كما لو لم يحدث شىء.

قالت "لافينيا"، بدوار شاعرة بتعب متزايد، وبرغبة فى النوم وعدم الاستيقاظ:

- وهل ستذهب الآن؟

- نعم، سيمرون لأخذى خلال نصف ساعة.

-هل أنت متأكد أنك لا تخدعنى، "فيليبى"، وأنك لن تنتقل إلى العمل السرى مثل "فلور"؟

- لا، "لافينيا"، صدقى ما قلته لك، ولو انتقلت للعمل السرى سأخبرك.

اقترب من الأريكة، وأمسك بيدها حتى وقف الاثنان على أقدامهما وأمكنه احتضانها، أغلقت "لافينيا" عينيها وتركته يحتضنها بقوة، تنفست رائحة صدره، وتشممت قميص "فيليبى"، وبدأت فى البكاء بصمت. قالت:

- أنا خائفة.

همس "فيليبى" ضاما لها إلى صدره:

- لا تكونى هكذا. كل شىء سيسير على أحسن وجه، وسترين.

- لا أريد أن أبقى وحيدة.

- لن تبقى وحيدة، "لافينيا"، سنظل نلتقى.

- لن يكون كما كان.

قال "فيليبى"، ممررا يده على شعرها معزيًا:

- لفترة من الوقت.

- أنا خائفة.

كررت دافعة نفسها إلى حضن "فيليبى"، تتسمع ضربات قلبه، وقد غزاها فجأة إحساس لا واعى

بالتمسك بوجوده معها، متخوفة أن يتوقف هذا القلب، ومتلمسة بشرة "فيليبى"، وعضلات ذراعه، ذلك اللحم الذى يمكن أن تخترقه رصاصة، كانت دغدغاتها صامتة وساكنة. أغلقت عينيها بقوة فى محاولة الإحساس برؤية "فيليبى" فى بيتها مرة أخرى، فى يوم ما ليس بعيدًا: تحاول أن ترى نفسها معه، يقرأ كل منهما إلى جوار الآخر فى ليلة لذيذة، لا شىء، الرؤية لا تتشابه، منذ طفولتها كانت تعتقد أنه يمكنها أن ترى نفسها فى المستقبل، عندما كان يحدث لها شىء غير مؤكد، كانت تغلق عينيها وتركز لتجرب إن كانت ترى نفسها أبعد من وجودها الحاضر، أن ترى نفسها ـ على سبيل المثال ـ فى الطائرة تهبط (كانت تخشى الطيران) لو تمكنت من استحضار الرؤية، ستهدأ. إنها طريقتها فى معرفة أن كل شىء يسير بشكل جيد، وإنها ستصل دون حوادث، وكانت تنجح دائمًا، ورأت نفسها مرات عديدة، والآن لا ترى أى شىء.

– لا. أراك.

قالت، باكية، محاولة السيطرة على نشيجها الذى كان يبدو نابعًا من مكان أبعد من جذعها، أبعد منها هى نفسها، نابعًا من جذع واسع عريض لا يتسع له صدرها الضيق.

قال "فيليبى"، برقة:

– كيف لا ترينى، أنا هنا.

قالت "لافينيا":

- أنت لا تفهمنى، لا أراك فى المستقبل، لا أرانا معًا...

قال "فيليبى"، محتضننا لها أكثر، وناظرا إليها بضحكة ناعمة:

- لا أحد يمكنه أن يرى المستقبل.

وضعت "لافينيا" يدها على عينيها وبكت بصوت أعلى.

قال "فيليبى":

- هيا، هيا، لا تكونى تراجيدية، يجب أن تكونى قوية ومتفائلة، لا يجب أن يسيطر علينا الحزن والتشاؤم، يجب أن نثق فى أن كل شىء سينتهى بخير، ليس طيبا أن نترك أنفسنا لسيطرة الخوف، يجب أن نثق بأنفسنا.

نعم، يجب أن نثق بأنفسنا، لا يجب أن تترك "فيليبى" يذهب تحت سيطرة جذعها، يجب أن تكون قوية، تنفست بعمق، لم تستطع أن تمنح أدواتها الطفولية والسحرية ثقة أكثر مما يجب، إنها أدوات متخيلة، لا يجب أن تنهار أمام تشاؤمات صغيرة. إن خوفها هى، لم يكن أكثر من ذلك. قالت:

- أنت محق، أنت محق، سأهدأ.

تنفست بعمق مرة بعد أخرى، سيمر كل شىء بشكل جيد، لن ينتقل "فيليبى" إلى العمل السرى، ستراه غدًا فى المكتب، بدأت فى استعادة الهدوء ببطء.

دخلت إلى الحمّام للحصول على ورق لتمسح أنفها، أن تجفف دموعها، خرج "فيليبى" ليحضر لها كوبا من الماء.

سأل، عندما كانت هى جالسة فى السرير، وقد جاء بكوب الماء فى يده ولم تعد هى تبكى:

- كيف كان الأمر مع "أدريان"؟

قالت:

- أعتقد بشكل طيب، بذلت جهدا لإقناعه، وأخيرًا قبل أن يعيرنا السيارة، وسألته إن كان يمكننا تخزين السلاح فى بيته، لكنه قال إن هذا غير ممكن بالنسبة إليه.

قال "فيليبى":

- لقد تخيلت هذا، لكن شىء أفضل من لا شىء.

- قال إنه لا يستطيع لأن "سارا" حامل وهذا يعرضها للخطر.

قال "فيليبى":

- عادى، أنا لا أحمّله ذنبا.

ذهب بعد قليل من الوقت، أحاط بها صمت البيت ثقيلاً ولزجًا، لم تطفئ الأنوار، تركتها مضاءة كما لو كانت بهذه الطريقة يمكنها طرد الأفكار السوداوية الناتجة عن الدموع، فيما اختفى "فيليبى" عبر الباب.

- ٢٢ -

الزمن، هذا الإله اللعوب الذى يحركه منجمونا من خلال حركة النجوم، يدور فى مجالاته ومصيره وينسج شباكه، هى توجد الآن فى يناعة الحياة، حارسة لكل أشياء الأرض، و يغنى "ويهوتلالللى" على هذا النحو:

احترس من أشياء الأرض،

افعل شيئًا : اقطع الأخشاب، افلح الأرض، اغرس أشجارًا، واجمع الثمار.

أنت تحتاج إلى الطعام، والشراب، والملابس،

بكل هذا تقف على قدميك،

تكون حقيقيًا،

بهذا سيتحدثون عنك.

سيمتدحونك،

بهذا يعرفونك.

فى هذا العالم الجديد، تتقدم الأشياء البسيطة لتزيد من تعقيد العلاقات.

هى لم تمارس المعارك بالحراب، لقد قاتلت بقلبها حتى تعبت، حتى رأت مشهدها الداخلى يهتز بمئات البراكين، لترى انطلاق أنهار جديدة، وبحيرات، ومدنا مرسومة بضبابية، وأنا، الساكنة فى جسدها بسكون، أراها تقود مبان، وقواعد ثابتة لنوعها نفسه، وهى الآن تقف على قدميها ولا محال من تقدمها إلى حيث يجد دمها هدوءه.

***

قال لها "سباستيان" تليفونيًا، فى اليوم التالى:

ـ لدى مفاجأة لك.

من خلال نافذة مكتب "لافينيا" فى منتصف الصباح كان يمكن رؤية الشمس تخترق السماء وتضىء الجبال البعيدة، كانت تشعر بأنها أفضل حالاً.

فقد انتصرت فى الليلة السابقة على دموعها وسقطت فى تعب ثقيل تركها فى نوم عميق، لقد نامت بعمق حتى وقت متأخر، وصلت المكتب فى العاشرة صباحًا تقريبًا. سألت:

ـ طيبة أم سيئة؟

قال "سباستيان":

ـ حسنة، مفاجأة طيبة، بالطبع، لكنى لا أريد أن أخبرك بها تليفونيًا، انتظرك عند عمتى (العمة كانت عنوانًا متفق عليه من قبل تمامًا مثل "أبناء العم" أو "مغلق الأخشاب" وهى رموز تليفونية بسيطة) تعالى

لتأخذينى فى الخامسة مساء (الخامسة كانت السادسة).

ـ حسن جدًا، إلى اللقاء.

لم تتمكن من تخيل نوع المفاجأة الطيبة التى يحملها لها "سباستيان"، هل هى شىء له علاقة بـ"فيليبى"؟ تساءلت، لم تصدق هذا، فإن قرار انتقال "فيليبى" كان صائبًا، فإذا كان عليه أن يقوم بمهام دقيقة، من الأفضل أن يبتعدا عن بعضهما.

تذكرت الليلة الماضية وردة فعلها القانط، فلا تزال متذكرة خوفًا يؤلم معدتها، مؤكد أنها كانت نتيجة حوارها مع "أدريان"، وتأملاتها التالية فى العربة، والإرهاق، لكنها كانت حزينة، سيكون صعبًا أن تعتاد على غياب "فيليبى"، كانت قد شاهدته عند وصولها إلى المكتب، كان رقيقًا ولطيفًا، وسألها إن كانت قد نامت، كان مهمومًا بها، هدّأتْ من قلقه متصنعة التفهم وما كانت تتمناه، معتذرة عن ردة فعلها الأولى، وربطت هذا بالتعب، والعصبية التى وقعت مع "أدريان"، ومفاجأة أن تجده يعد الحقائب.

وكالعادة، وصلت "لافينيا" قبل الموعد المحدد، و"العمة" كانت ناصية قليلة المرور بالطريق الموازى لجدار المقابر المركزية، كانت هناك شجرة لوز كبيرة اعتاد "سباستيان" الاعتماد عليها خلال انتظاره، ماضغا اللوز الناضج الذى يلتقطه من الأرض.

مرت قبل ثلاث دقائق من الموعد المحدد، وأعلنت مذيعة الإذاعة بالرتابة المعتادة: "إنها الساعة السابعة

عشر وسبع وخمسون دقيقة"، كانت هناك امرأة تسير على الرصيف واستدارت عند الناصية نحو شجرة اللوز وتصل فى السادسة تمامًا.

فكرت، بينما كانت تبتعد، أن ذهنها سجل شيئًا عن مرورها، استعادت الرؤية المتخيلة للمكان بحثًا عن ذلك المسجل الذى يكاد لا يبين. ولم تتمكن من معرفته حتى استدارت فى الطريق فى الساعة المحددة ولاحظت المرأة معتمدة على الشجرة، تمضغ اللوز مثل "سباستيان"، وانتبهت إلى الهيئة المعروفة التى شاهدتها قبل دقائق وهى تسير باتجاه المكان.

لقد كانت "فلور".

شاهدتها "لافينيا" تضحك، وتدخل العربة، وشعرت بيدها ممتدة بلوزة صغيرة ناضجة ومتوردة. قالت "فلور" بينما كانت هى لا تزال غير مصدقة وتأخذ الثمرة الصغيرة من يدها وقد غزتها رغبة عارمة فى البكاء:

ـ لقد أحضرت لك هدية صغيرة.

تعانقتا، ولم تتمكن "لافينيا" من كتمان شهيقها المتقطع، وضغطت عليها "فلور" برقة. وقالت "فلور":

ـ لا تبكى، يا فتاتى، لا نستطيع الوقوف هنا، هيا أديرى محرك السيارة، أريدك أن تأخذينى إلى طريق الأشجار، اقضمى اللوزة، وسترين أن حموضتها ستعيد إليك نشاطك.

بالطبع، وضعت "لافينيا" اللوزة بين أسنانها، بينما كانت تستدير لتوجه السيارة إلى الطريق، إن اللمسة البسيطة، والثمرة المتواضعة التى قدمت إليها بحب، وحضور "فلور" غير المتوقع، حطمت جدران الحصن الذى احتمت خلفه فى الأيام الأخيرة، ولم تتمكن من إيقاف الدموع الغزيرة من الانهمار، جففت وجنتيها بظاهر يدها، وامتصت اللوزة وتنفست بعمق؛ لأنها بدأت تدخل الآن فى المرور الكثيف وعبور الإشارات وسيارات من خلفها ومن أمامها، تطالبها بالاهتمام بالطريق، وتجبرها على إغلاق ينابيع دموعها. قالت:

ـ اعذرينى، لأن الأيام الأخيرة كانت ثقيلة، وكنت متوترة ورؤيتك جعلتنى.

قالت "فلور":

ـ لا تنزعجى، فى أيام كهذه، عندما يعيش الواحد منا بأشياء كثيرة داخله، فإن أية إشارة صغيرة يمكنها أن تطلق الفيضان... إنها سعادة كبيرة أن أراك؟

قالت "لافينيا" مطلقة الهواء من رئتيها:

ـ لم أتخيل مطلقًا أنك أنت المفاجأة، إنها مفاجأة فاقت كل توقعاتى، إن "سباستيان" مدهش... إنه ساحر فى صناعة الأحداث.

ـ ولم تكن لديك مشكلة فى التعرف علىّ، أليس كذلك؟ بخاصة وأن شعرى قصير وكستنائى؟

- لا، لقد تعرفت عليك على الفور، كنت قد شاهدتك من قبل، هل تعرفين؟ من نحو ثلاثة أشهر فى الطريق المركزى، كنت فى سيارة مع رجل، لقد أزعجنى أن أراك قريبة جدًا منى ولا أتمكن من لفت أنظارك، أو إطلاق آلة التنبيه، أو الصراخ عليك، لاشىء.

ـ أنا لم أشاهدك، عندما أكون فى العربة، أحاول ألا أرى شيئًا خارجها.

قالت "لافينيا":

ـ كيف مرت الأحوال؟

ـ حسن، طيبة جدًا، عمل كثير، زملاء رائعون، الانتقال من مكان إلى آخر... وأنت، كيف الحال؟

ـ وأنا أيضًا عمل كثير، وبيت الجنرال "فيلا" يكاد يكون منتهيا.

ـ وماذا عن تلك المقابلة الأولى؟

ـ كانت رائعة، استطعت أن أغزو الجنرال "فيلا" من خلال تنسيق الاستوديو الخاص به، عبارة عن غرفة يعرض فيها مقتنياته من الأسلحة، لقد نقلت الطريقة عن جدار متحرك من بيت مليونير من كاليفورنيا، وسُحر به.

ـ وما هذا الجدار الدوار؟

ـ جدار، ثابت ظاهريًا، مكون من مجموعة من الألواح الخشبية المرتبطة ببعضها بمفصلات، وهذا يسمح له أن يعرض مقتنياته من الأسلحة أم لا، تمامًا

كالجدران السرية التى نراها فى الأفلام، كانت ورقتى لكسب ثقة الجنرال "فيلا"، وفقط "خوليان" وأنا والآن أنت من يعرف هذا السر.

ـ أى الأسلحة لا يراها أحد على الجدار، يعنى هذا أنها معلقة على الوجه الآخر من الجدار.

ـ نعم، بالضبط.

ـ وكيف يمكن إدارة حركة الجدار.

– سهل جداً، ببساطة من خلال رفع مفتاح سرى مخبأ خلف مفتاح الإطفاء الأخير من الجدار.

قالت "فلور":

ـ عبقرى، الآن أعرف لماذا كان اللقاء ممتازًا.

بقيتا صامتتين، ومرور الزمن وضع مسافة ما بينهما، وجاء الليل ممحيا أشكال الأشجار التى تحيط بالطريق، كانت "لافينيا" تقود ببطء لتزيد من زمن بقائها مع "فلور"، وكان الطريق هادئًا وعاديًا، لا توجد أية سيارة مريبة فى مرآة المراقبة الخلفية. قالت "فلور"، ضاحكة ملاحظة نظرات "لافينيا" المتكررة إلى المرآة:

ـ ها أنا أرى أنك أصبحت حريصة.

–خلال الأيام الأخيرة، يوجد توتر فى المناخ العام، و ازدادت الرقابة.

ـ زاد حجم العمليات فى الجبل والحرس الوطنى يريد أن يظهر قوته، نظريته، مع ذلك، بما أننا مدمرون، ما أن يتم التخلص فى الشمال مما يسمونه

مناطق التمرد المنعزلة، يفكرون إنهم تخلصوا منا تماما، ولم يتخيلوا أن لدينا القدرة على عمل شىء فى المدينة، إنهم يقللون من شأننا.

ـ الجنرال "فيلا" لا يتعب من تكرار أن التمرد فى البلاد محدود، قال ذلك فى مؤتمر صحفى قبل قليل.

ـ هذا يحتاج إلى دليل عليه، جيد أن تزيدى من احتراسك.

قالت "فلور" مؤكدة بحركة من رأسها.

قالت "لافينيا":

ـ لقد ترك "فيليبى" بيتى، فسر ذلك بأنه من الخطورة أن يشعروا بأية حركة مريبة وأن تقودهم شكوكهم إلىّ.

ـ نعم، هذا صحيح.

-أنا فكرت فى هذا من قبل، لكن بما أننى لم تكن لدى رغبة فى أن يترك البيت لم أعرض الأمر من قبل، كنت أعتقد دائمًا أنكم تعرفون ما يجب فعله، وأنا ليس أمامى سوى الانتظار لتبلغونى به.

- أنت ما زلت تشعرين بالبدايات، وهذا يحدث لكثيرين منا، بشكل خاص عندما ندخل الحركة بشعورنا بأننا لا أهمية لنا، والحقيقة أنه كلما مر الوقت وشعرنا بثقتهم فينا فتكون السلطة القول والرأى، أما عن موضوع "فيليبى"، لم نكن نرى أنه ضرورى حتى هذه اللحظة، والحقيقة أنه فى هذا

البلد، عندما تنتمين إلى طبقة محددة فأنت شخص بعيد عن الشبهات، فلا يراقبون ولا حتى زعماء المعارضة التقليديين. لأن لهم رؤية طبقية جدًا فى القمع والتآمر... ومؤكد أنها رؤية حقيقية حتى درجة معينة، وفى المستقبل سيتغير كل هذا، ولكنه لم يحدث بعد، لهذا نحن غير مهتمين تمامًا، وليس أصلك يعنى انتقاصًا من قدرك، ومن ناحية أخرى فإن "فيليبى" غير مشتبه فيه. كان ظاهرًا بعض الشىء عندما كان يحاضر بالجامعة، ولكن هذا لا تهتم المخابرات به كثيرا. فهم يعتبرون أن كل شباب الجامعة متحمسون وعندهم حب الظهور، والحقيقة أن نظام الأمن قديم وعفا عليه الزمن، لكنه بدأ يتغير الآن بإيقاع أسرع، ومع ذلك، لا يجب التقليل من شأنهم، لا يمكننا المخاطرة، والآن أكثر من أى وقت مضى.

بدأتا فى دخول الطريق الترابى الذى يتفرع من الطريق الرئيسى، وسرعان ما كان يجب عليها أن تترك "فلور". قالت "لافينيا":

- لكن، إننا لم نتحدث إلا عنى تقريبًا، ماذا عن الشكوك التى كانت لديك؟

قالت "فلور":

- لقد كان الأمر كما توقعت تقريبًا، كان علىّ أن أعمل بقوة، مثل رجل تقريبًا، لكن السرية فضاء للقاء فى السر، وأحيانًا يجب أن تمضى أيامًا محبوسة فى البيت مع رفاق ورفيقات آخرين، ونتعارف جيدًا، وتقل الدفاعات الذاتية، ويتحدث الأشخاص عن أحلامهم

وتساؤلاتهم... العمل فى صمت... وأغلب الحوارات لها علاقة بالمستقبل... لقد كانت تجربة ثرية، ولدى آمال الآن أكثر من السابق.

ـ والخوف، هل اختفى؟

قالت "فلور" ضاحكة باستمتاع:

ـ أسيطر عليه جيدًا، الخوف لا يذهب كله أبدًا عندما نحب الحياة ويجب المخاطرة، ولكننا نتعلم السيطرة عليه، الحفاظ عليه ساكنًا، واستخدامه عند الضرورة، المشكلة ليست فى الإحساس بالخوف، فيما أعتقد، المشكلة فى من أى شىء تخاف، وألا تتركى نفسك فريسة للخوف المطلق.

كانتا قد وصلتا إلى طريق الأشجار، أوقفت "لافينيا" العربة فى المكان المعتاد. قالت "فلور":

ـ واصلى قليلا إلى الأمام.

واصلتا الطريق فى صمت لعدة أمتار حتى وصلتا إلى ممر يقود إلى البيت الريفى الذى بدا فى الأفق، شكله غير محدد المعالم فى الظلام. قالت "فلور":

– الآن توقفى، سأبقى هنا، جئت بك إلى هذا المكان لأنك يجب أن تتعرفى عليه، فى الأيام المقبلة لو حدثت أية مشكلة خطيرة، خطيرة جدًا ـ على سبيل المثال ـ لو تابعوك أو حاولوا اعتقالك وأمكنك الهرب منهم... يجب أولا أن تفعلى ما أمكنك لا يتوصلوا إليك، وأن تأتى إلى هنا. من الضرورى ـ فى كل الأحوال ـ أن تتأكدى أنهم لم يتبعوك إلى هنا، عليك

أن تـراوغـيـهم. من نـاحـيــة أخـرى، لـو تـمـكنـوا من اعتقالك، يجب أن تحافظى على سـر هـذا المكان بكل حـيـاتك، إنه ضـروری، وألا تـكـشـفـى عـنه تحت أى ضغط، ولا تحت أى تعذيب، ولا فى أية لحظة.

وافقت بهزة من رأسها بنفس مؤمنة على خطورة كلمات "فلور"، نظرت إلى البيت، وما حوله يبدو كما لو كان معروفًا لديها رغم أنها المرة الأولى التى ترى فيها المكان الذى كان يتوجه إليه "سباستيان"، ومؤخرًا بعض الشخصيات الغريبة، للتنبؤ بحجم ما يمكن أن يحدث والتمييز السريع بين احتمالات عدة شعرت أنها بقيت جامدة على المقود، متجمدة من الخوف. لكن "فلور" كانت إلى جانبها. قالت "فلور":

– محتمل أن نلتقى مرة أخرى، ولذلك فلن نودع بعضنا، تذكرى آليات الأمان، وتذكرى أن تطبيقها حرفيا.

وهبطت من السيارة.

شاهدتها "لافينيا" تقف على قدميها، تتأملها، بينما كانت هى تستدير للعودة إلى المدينة. شاهدت يدها الممدودة بعلامة الوداع، وباطن يدها الأبيض يبرق فى ظلام الليل.

***

"فلور" هى "شوتشيتل" فى لغتنا، وتذكرنى "شوتشيتل" بصديقتى "ميميسكوا"، كانت فنانة النسيج، تنسج ساعات وساعات، فى صمت، تصنع

شيلان جميلة، واغطية ملونة تبيعها أمها. فى يوم علامة مائى، الندى، أهدتنى إزارًا وريشًا للأحصنة، تزينت بها واحتفلت بها.

كنا نحضر الاحتفالات الطقسية معًا، كانت موسومة هى، بملامحها الخشنة والرقيقة، لتخدم الآلهة عندما تصل سن البلوغ، تشابهنا قليلا، هى دائما ما كانت تعرف مكانها فى العالم، فى المقابل أنا كنت أشعر بالأماكن طبقًا للاستخدام أو طحن الذرة، و"اتشوبوتشلاتوكى" معلمتنا، كانت تعاقبنى بشكل دائم ومع ذلك فإن "ميميسكوا" (نجمة الشمال) كانت تحبها برقة، نظرًا لهذه الاختلافات، يمكنكم أن تقولوا إنه كانت هناك مسافة بيننا نحن ـ الاثنتين ـ لكن الأمر لم يكن كذلك، كانت هى تستمع إلىّ عندما كنت أحكى لها مغامراتى مع "ثيتلاكواتيل"، لأتعلم استخدام الرمى بالقوس والسهام، حتى أنها طلبت منى أن أعلمها، لكنها ذهبت بعد المرة الأولى، ولم تعد لتلك المحاولة مرة أخرى، كانت نظرتها عميقة كاللحن المقدس عندما تم تقديمها أضحية إلى "كيوتو ـ تلالوك"، إله المطر، تحدثنا كثيرًا فى تلك الأيام قبل الاحتفالية، كسرت صمتها المعتاد لتحكى لى أحلامها السحرية عن الكواكب الراقصة ورؤيتها للعودة من "كيتزالكواتيل"، الإله الذى كانت تحبه أكثر، والذى كانت تحلم بالاتحاد به، وبعد النظر فى عين حجر جاد "تلالكوك" تحت طبقات الماء.

أنا كنت حزينة وهى كانت تفهم كم مؤلم الفراق، فقد كنا كشقيقتين، ولكنها كانت تشجعنى على رقص

حياتى، كانت تغنى لى أشعارًا تقول: كل قمر/ كل سنة/ كل يوم/ كل ريح/ كل شىء يسير ويمضى أيضا/ وأيضا كل دم يصل إلى مكان هدوئه.

كانت تعرف أنها ستموت، وأنها لن ترانى بعدها أبداً، ولن ترى الزهور فى الحقول، ولا الذرة الذهبية، ولا اللون المحمر فى لحظات سقوط المساء، كل هذا كان يحزنها، لكن من ناحية أخرى، كانت سعيدة لأنها ستعيش مع الآلهة، وأنها سترافق الآلهة ـ الأم، "ثيهواتيتيو" فى رحلتها إلى المكان الذى تغرب فيه الشمس، كانت تقدم لى نصائح حكيمة، وتقول إنها سترافقنى أبدًا، كل غروب كنت أعرف أنها ترانى، وكانت ترانى من قبل، وترانى الآن، تسهر على حراستى.

يوم التضحية، سرت مع أمى بين المحاربين المكلفين بحفظ النظام، حتى المذبح المقدس، وحملوا "ميميسكوا" مع أطفال وفتيات آخرين مزينين، إلى حمّامات البخار لتطهيرهم، أمى وأنا ألقينا البخور وحجر الجاد فى المياه المقدسة.

استقبل الكهنة "ميميسكوا" فى السرير، مذبح التضحية، خلعوا عنها طبقة الريش وتركوها مرتدية فقط فستانًا بسيطًا من الكتان الأبيض، وألقوا بها إلى الماء، وقبل أن تختفى فى النبع الذى ينبع منه الماء دائما، نظرت إلىّ برقة ولفترة طويلة، وبعدها اختفت. بقيت لحظات طويلة، صامتة، مع أمى، متضرعة أن

تنقذها الآلهة وترسلها كرسولة، لكن "ميميسكوا" لم تعد إلى السطح وعندها بكيت أنا وصرخت، رغم كل محاولات أمى لإسكاتى، لم أكن أريد لها أن تغرق، ما كنت أقبل تقديمها للإله "تلالوك" الذى كان فى تلك اللحظة يتأملها بعين حجر الجاد.

كنت أعرف القليل عن أن "تلالوك" سيستقبلنى فى أحضانه، وسيرسل بى لأزرع الحدائق، وإلى هذه الشجرة التى أسكنها الآن، والتى منها أتشوق لصديقتى "ميميسكوا".

-٢٣-

توقفت أمام البناء، لقد انتهى بناء بيت الجنرال "فيلا"، وحشد كبير من الرجال يدورون حول البناء الجديد، يرفعون بقايا العمل عن الأراضى المحيطة، وكانت شاحنة شركة المقاولات تنقل فائض الأخشاب والاسمنت وبراميل الطلاء.

وجماعة أخرى من العمال كانت تفكك الألواح التى كانت تستخدم كمكتب لمشرفى العمل والعمال، هناك، أمضت "لافينيا" ساعات عديدة خلال الأشهر الأخيرة، مع المهندس "ريثو" والسيد "رومانو"، ومع "خوليان" و"فيتو".

كان ذلك يوم ١٥ ديسمبر ١٩٧٣، لقد تم تنفيذ مراحل العمل بكل دقة سويسرية.

البيت، المكتمل الآن، يحتل منطقة ستة آلاف وخمسمائة متر مربع، موزعة على أربعة مستويات، على نسق الشرفات البابليونية، بنوافذ ضخمة فى المستويات الثلاثة العليا.

والمناطق الاجتماعية الأكثر بروزًا: الصالونات المتعددة التى طلبتها السيدة "فيلا"، وغرفة الطعام

وغرفة موسيقى الجنرال لها منافذ على الرؤية البانورامية. فقط غرفة النوم الضخمة لأصحاب البيت، والاستوديو الخاص، وغرف نوم الأطفال، وشقيقة الزوجة، تم وضعها فى داخل البيت. خوفًا من اللصوص والاعتداءات.

ومنطقة الخدمة كانت تحتل المستوى الرابع، لم تكن هناك نوافذ كبيرة، لكن "لافينيا" تمكنت من وضع نوافذ واسعة بستائر تسمح - رغم كل شىء - بإمكانية تأمل المشهد والتهوية الجيدة.

كل الجدران الخارجية تم طلاؤها بالأبيض المتداخل فيه مناطق مغطاة بالطوب الطينى، تطل على الحدائق الداخلية.

ورغم سوء ذوق أصحابه، فإن البيت كان عملاً معماريًا رائعًا، كان يبدو كما لو كان معلقًا فى انحدار الأرض، وداخله الواسع كان واضحًا، متعدد المناطق المضيئة وممراته تسهل حركة سكانه.

الديكورات المتباهية كانت الشىء الوحيد الذى يضايق "لافينيا"، كان من المستحيل إقناع السيدة "فيلا" بالتخلى عن ترك اختيار الأثاث للنجارين الوطنيين، لم يتم صنع أى أثاث محلى سوى تلك القطع المصممة داخل جدران المبنى، أما أثاث الصالونات وغرف النوم وغرفة الطعام والسجاد والستائر والإكسسوارات فقد تم استيرادها من ميامى، أمضت الشقيقتان الأشهر الأخيرة فى السفر

بشكل دائم مسحورتان بمعروضات حوانيت فلوريدا، كانتا ترسلان بالطائرة الحشيات ونجف الكريستال والفازات وحوامل الورد البرونزية وكراسى الخيزران والكراسى البلاستيكية ومظلات حمّام السباحة.

لكن من الخارج، تيث تقف "لافينيا"، كان البيت متعة للناظرين، كان عش نسور فى أعلى الهضبة، والمشهد الطبيعى، مشهدها المعشوق، ينحنى أمام سكان ذلك القصر الفخيم الصغير، من خلال زجاج نوافذه النظيفة.

قالت لنفسها، سنستعيده فى يوم ما، فى يوم ما، على أمل أن يكون هذا البيت مقرًا لمدرسة الفنون أو يسكنه أشخاص حساسون تتناغم قلوبهم مع الجمال المحيط. قال صوت الآنسة "مونتيس" من خلفها:

– إنه خيالى، أليس كذلك؟

قالت "لافينيا"، مستعيدة توازنها من المفاجأة:

– لقد أرعبتنى، لم أشعر بوصولك.

قالت الآنسة "اثوثينا":

– لقد كنت حضرتك غائبة تمامًا، لقد وصلت وشقيقتى منذ لحظات، هى داخل البيت، جاءت بمنسقى الحديقة للبدء فى تنسيق الحدائق الداخلية، لقد استوردتا شجيرات كثيرة من ميامى، وأيضًا للحديقة الخارجية، يجب أن يكون البيت جاهزًا بكل شىء ليوم ٢٠ من ديسمبر، سيكون افتتاحه فى ذلك اليوم، سيكون أول وأكبر حفل لفترة أعياد الميلاد.

سألت "لافينيا" مفاجأة:

- فى خمسة أيام فقط؟

- بداية، فكرنا فى الافتتاح مع مطلع العام الجديد، لكن الجنرال الأكبر لن يكون فى البلاد، سيذهب فى إجازة أعياد الميلاد إلى سويسرا، إلى "سان مورتيز"، ولذلك قررنا إقامة الحفل قبل سفره. لهذا اشترينا النجيل وأشجار كثيرة من ميامى، إنهم يبيعون النجيل هناك كما لو كان سجادًا، كل ما هو مطلوب هو مده، سترين الروعة.

قالت "لافينيا"، مفكرة فى كمية الأموال التى أنفقوها فى النقل وفكرت أن الجنرال "فيلا" لم يقل شيئاً عن تقديم موعد الاحتفال، فلم تكن تراه مؤخرًا بشكل كبير، كان يمضى معظم الوقت فى المنطقة الشمالية.

- هل ستحضرين الاحتفال، أنت ضيفة الشرف.

قالت "لافينيا":

- بالطبع، بالطبع، والجنرال، متى يعود؟

- أعتقد غدًا، حضرتك تعرفين أن المسكين أمضى الوقت ذهابًا وإيابًا من هنا إلى الشمال، لحسن الحظ أن شقيقتى أمضت الوقت فى السفر أيضًا، كانت كثيرًا ما تشعر بالكرب عندما يسافر هو فى مهمة ما... هؤلاء المتمردون مرعبون... ويكرهونه، هل تعرفين، لقد أعلنوا عدة مرات أنهم سينفذون فيه حكم الإعدام، كما يقولون عندما يغتالون الناس.

قالت "لافينيا":

– نأمل ألا يحدث له شىء ويمكنه أن يحضر حفله. على أى حال هو يحترس كثيرًا، لا أعتقد أنه يجب أن تقلقوا.

قالت الآنسة "مونتيس":

– دعينى أبحث لك عن دعوتك، لقد بدأنا فى توزيع الدعوات، أعتقد أن بطاقتك مع شقيقتى.

تبعتها "لافينيا" إلى داخل البيت، عثروا على السيدة "فيلا" فى نشاط محموم، توجه مجموعة من الرجال يتبعونها من هنا إلى هناك. رفعت صوتها عندما شاهدتها تصل:

ـ الآنسة "الاركون"! كيف حالك؟ أنا لا أصدق أن البيت قد اكتمل؟ إنه رائع، أفضل مما تخيلته بكثير، والآن بعد أن نزرع كل الشجيرات التى استوردتها سيكون أكثر روعة، لقد ذكرت لك شقيقتى حكاية الحفل، انتظرى، لدى بطاقتك فى حقيبة يدى.

كانت متحمسة، فى حوار لا ينتهى مع نفسها، البيت والحفل، كانا ـ بلا شك ـ قمة أحلامها الاجتماعية، لقد غزتها زمرة الأصدقاء، سيكون حدث العام، الوضع الاجتماعى للجنرال "فيلا"، وهى كزوجة، لها حظ أنها وضعت لمسات يدها كامرأة فى هذه الصالونات، والحدائق، وفى الديكور.

بينما كانت السيدة "فيلا" تمد يدها بالدعوة – بطاقة تحمل فى ظهرها بيتا، يطلع بأشعة أعياد

الميلاد من وسط علبة هدايا وبداخلها مكتوب بحروف مستديرة للآنسة "مونتيس"- وظهر أبناء الجنرال فى المدخل.

الطفلة فى التاسعة من عمرها، سمينة، بتقاطيع لطيفة، وعلامات الخجل، ولكنها منذ طفولتها معتادة على التدليل والاهتمام المبالغ فيه، اقتربت ببطء، ناظرة إليها، ولمست حزام "لافينيا" الجلدى. وسألتها بتعبير حلو مؤكد أنها تستخدمه لتسحر وتحصل على ما تريد، ضحكت "لافينيا"، رغم أنها ابنة الجنرال "فيلا"، لقد كانت سمينة لطيفة، طفلة، فى نهاية الأمر، كان مؤسفًا لما ستصبح عليه فى المستقبل:

- هل تهدينى إياه؟

قالت لها الآنسة "مونتيس" :

- سلمى على الآنسة، لا تكونى سيئة التربية.

قالت الطفلة مبتسمة:

- أهلا.

-وأنت ريكاردو، سلم، إنها المعمارية التى خططت البيت.

الصبى، حديث الدخول إلى سن المراهقة، له محيا طائر خجول، مد يده بطولها، يشبه الآنسة "مونتيس" قليلا، ولكن له عينان حزينتان وملامح من يحتاج إلى الحماية فى محيط عنيف أكثر مما يجب لأحلامه فى الطيران، رسمت "مونتيس" غرفة نومه،

وتساءلت "لافينيا"، أكثر من مرة إن كان يحلم مثلها بالطيران. سألته:

- إذًا أنت الحالم بالطيران؟

هز الصبى رأسه موافقًا.

- وهل حلمت فى يوم ما أن تطير حقيقة؟

قال الصبى ناظرًا إليها بعينين لامعتين:

- نعم.

إن تعبير المراهق، أضاء بتساؤلات "لافينيا"، وجعلته يستعيد ملامحه الخاوية. قالت هى، ناظرة إلى الصبى، متضامنة معه، ورق قلبها له، وفكرت أنه ربما أمكنه أن يواصل الأحلام فى مناخ مختلف:

- الحلم ليس أمرًا سيئًا.

قالت "لافينيا"، ناظرة إلى هذه الصورة العائلية بمشاعر مشوشة:

- حسن، أعتقد أنه علىّ أن أذهب، وإذا كنتم فى حاجة إلى شىء يمكنك الاتصال بى تليفونيًا فى المكتب. غدًا، فى الحادية عشرة صباحًا سنأتى "خوليان" وأنا مع المهندسين لنقوم بعملية تسليم البيت رسميًا.

قالت السيدة "فيلا":

- حسن جدًا، أرجو أن يتمكن زوجى من الحضور، من المفترض أن يعود غدًا مع الساعات الأولى للصباح.

قالت "لافينيا":

- وألا يمكننا أن نقوم بذلك فى وقت متأخر، نبهينا حضرتك.

قالت السيدة "فيلا" وهى ترافقها إلى الباب:

- بالضبط.

قالت "لافينيا" قبل أن تخرج:

- انتظرى لحظة، أريد أن أراجع اللمسات الأخيرة فى الاستوديو الخاص، أرجو ألا تتأخروا بسببى.

قالت السيدة "فيلا":

- مؤكد، أنا سأواصل العمل فى الحدائق، إن كان هذا لا يزعجك.

عند دخولها غرفة السلاح شعرت بإحساس غريب ورقيق الراحة، خلال بناء البيت، حاولت أن تنسى تلك الغرفة التى طالما منحت "فيلا" سعادة، حجمها متوسط، بسجاد برتقالى ونافذة واحدة عليها ستارة بنية وتطل على الأفنية الداخلية.

الأثاث، كنبتان من الجلد وبينهما طاولة خشبية، مستندة إلى الحائط القريب من الباب، شاهدت على الأرض عدة صناديق خشبية مغلقة، من المؤكد أنها تحتوى على الأسلحة المختلفة لعرضها.

لأول وهلة، تبدو الغرفة أنها تنتهى بالحائط الخشبى المقابل أمام الكراسى: الحائط مكون من

ثلاثة ألواح من خشب الماهوجنى، بنقوش جميلة، اقتربت من أقصى الجدار، حيث يوجد نظام الفتح مخفيًا، أطلقته ودفعت أحد الألواح برقة، تحرك اللوح الخشبى على محوره، كاشفًا عن المساحة المختصرة بالداخل، الغرفة السرية بالشناكل وخزينة فولاذية مبنية فى المنتصف. فى الجانب المخفى من اللوح الخشبى الذى تحرك، يمكن مشاهدة دعامات ملتصقة بالخشب، حيث يتم تعليق الأسلحة، وضعت اللوح فى وضع مستقيم وبعدها دفعت اللوحين الآخرين، من خلال لمس النظام لوضعهما فى مكانهما، كان يعمل بدقة، والآن، من الصالون الخاص للجنرال، يمكن رؤية الألواح والدعامات الخاصة بمجموعة المقتنيات من الرشاشات والمسدسات، أطلقت النظام من جديد ليسمح بالحركة الدائرية وجعلته يعود من جديد من جانب الصالون، الألواح تعمل ومعدة بإتقان.

قبل إغلاق الأخير، بقيت للحظة فى الغرفة السرية، شعرت بالبرودة، يحتفظ المكان بالهواء البارد للمكيف كما لو كان مبردًا، لكن هذا لم يهمها، على أى حال، فإنه لا أحد سيبقى فيها لفترة طويلة.

- أنت تحلمين؟

كان الصبى يقف فى حافة الباب.

أجابت هى:

- نعم، أحلم أن جدى كان يضع على كتفى جناحين بيضاوين وكبيرين ويدفعنى للطيران من جبل عال.

قال الصبى:

- وأنا أحلم بالطيران بلا أجنحة، مثل سوبرمان، وأحيانا أحلم أيضًا أن أتحول إلى طائر، لكن أبى يغضب جدًا، يقول إن الطريقة الوحيدة للطيران أن أكون طيارا، هو يريدنى أن أكون طيارًا بالقوات الجوية.

قالت "لافينيا":

- كثيرًا ما يخطئ الآباء مع أبنائهم، لو أننى مكانك، أتخصص فى الطيران التجارى، أن تكون طيار حرب شىء محزن، لأنه يطير ليقتل، لا علاقة له بأحلامك فى الطيران.

فوق كل شىء، لو أصبحت طيارًا بالقوات الجوية للجنرال الأكبر، فكرت "لافينيا" فى داخلها، متسائلة إن كانت ترتكب حماقة بحديثها إلى الصبى. وقال هو وخرج جريًا مختفيًا بسرعة كما ظهر:

- مع السلامة.

عند خروجها من البيت، استقبلت "لافينيا" فى عينيها بريق منتصف النهار، فركت ذراعيها لتتخلص من القشعريرة، يا لها من عينين حزينتين عينا ابن "فيلا"!.

كان "فيليبى" يرتب أوراقًا على الطاولة عندما دخلت "لافينيا" إلى المكتب، لقد كان صعبًا جدًا تغيير إيقاع علاقتهما، كانا يلتقيان فى الشارع كعاشقين

سريين، يختبئان فى فنادق غريبة ليمارسا الحب، فى أكثر الأحيان فى ساعة تناول الغداء. قالت وهى تجلس على الكرسى المواجه لمكتب "فيليبى"، بعد أن قبلته قبلة طويلة فيما كانت تبحث عن الدعوة المرعبة فى حقيبة يدها:

– لقد قرر "آل فيلا" أن يكون حفل افتتاحهم فى العشرين.

وأضافت بوضعها على الطاولة:

–هذه بطاقة الدعوة.

أخذها "فيليبى" دون أن ينطق بشىء، قرأها وأعادها مرة أخرى.

– لأنهم يريدون أن يحضر الحفل الجنرال الأكبر، وبما أنه سيذهب مع أسرته إلى سويسرا فى أعياد الميلاد، كان عليهم أن يقدموا الموعد.

قال "فيليبى"، الذى كان قد جلس ويبدو على وجهه الانشغال والقلق:

– وكيف أصبح البيت؟

– من الخارج، يبدو جميلا، ومن الداخل... يبدو لا ملامح له، بيت عسكرى، لمحدث نعمة، حتى النجيل استوردوه من ميامى، فقط الدواليب المبنية بالحوائط هى الجميلة وبعض تناسق الألوان التى تمكنت من إقناع "فيلا" بها.

– حسن، هذا المنتظر منهم...

- نعم، لا توجد طريقة، بينما كنت أتجول فى البيت فكرت أنه ربما فى المستقبل، عندما تتغير الأحوال، يمكننا أن نشغله كمدرسة للفنون.

قال "فيليبى" ضاحكا:

- أحب تفاؤلك.

سألت "لافينيا":

- هل نتناول الغداء معًا؟

قال "فيليبى" باحثًا عن ورقة ما على المكتب:

- اليوم لا، يجب أن أخرج.

محبطة:

- لكنك قلت لى.

- نعم، لكن وقع شىء.

- شىء سيئ؟

قال بينما كان يقترب ليقبلها:

- لا، لا، فقط شىء عاجل، نلتقى فيما بعد.

لم تعد للقائه، لا هذا المساء، ولا فى اليوم التالى، فقط عثرت على مذكرة فى بيتها تقول إنه على ما يرام، وألا تبحث عنه.

مر يومان دون أن تعرف شيئًا عن أى إنسان، كان الوقت ليلا وريح ديسمبر تهب وتهز فروع شجرة البرتقال فى الحديقة، فجأة بقيت وحيدة فى العالم، وحيدة وفى كرب، انتبهت إلى أن الحركة إلى أى مدى

تمثل تقريبًا كل حياتها: أسرتها وأصدقاؤها، خلال شهرين، لم تفكر ولا حتى فى الذهاب إلى السينما، أن تقضى وقتًا طيبًا، وكل الحفلات التى حضرتها كانت مهامًا موكولة بها.

الحب والتمرد تمكنا من احتوائها بشكل كامل، لقد غرقت برغبتها، بحماس لم تجربه من قبل، فى تلك الشبكة من النداءات، واللقاءات والسفر لحمل أو إحضار رفاق، والآن، وبشكل فجائى، لا تملك أية وسيلة للتواصل معهم، ولا أى رقم هاتف، لا شىء، فقط عنوان البيت السرى، الذى تخيلته فى الظلام.

وأكثر من هذا، فإن العمل المتواصل خلال الأشهر الأخيرة فى بيت "فيلا"، توقف فى الوقت نفسه، فى اليوم السابق تم التسليم الرسمى، بحضور الجنرال، والزوجة، وشقيقة الزوجة، والأطفال، كل العائلة مرت بالبيت غرفة غرفة، ومساحة بعد أخرى، لامسين أزرار الكهرباء، وفاحصين التوصيلات الكهربائية، وصنابير المياه، والتفصيلات، ومنسقو الحديقة يضعون الشجيرات، ويفرشون النجيل، وشركة حمّامات السباحة مشغولون بملئها، ووضع مواد كيميائية فى الماء لتنظيفها، وابن "فيلا"، بتعبير الخواء الذى لم يحدث أبدا أمام أبيه.

قال لها "خوليان" أن تستريح أسبوعًا، لكن "لافينيا" رفضت العرض وأجلته لوقت لاحق، لا تعرف متى، فى أى وقت إلا هذا الوقت بدون "فيليبى"، ولا الآخرين، ماذا عليها أن تفعل الآن فى بيتها الصامت؟

الذى تحتله ريح ديسمبر، حيث تهجم عليها الوحدة؟ تفضل الذهاب إلى المكتب، حتى لو لم تفعل شيئًا أكثر من بقائها جالسة، غائبة، قلقة، مترقبة.

حتى مناخ أعياد الميلاد بدا كما لو اختفى بالنسبة إليها، كان يتسبب فى إحساسها بالتعب، الشىء الوحيد الذى يرفع من معنوياتها، أن تحيط نفسها بالألعاب الضخمة مثل بابا نويل أو الجليد المصطنع فى واجهات المحال التجارية، وكانت الرسومات الظاهرة على الجدران، نتيجة الساهرين من رفاقها المجهولين، غير المرئيين، رسومات تطالب بعيد ميلاد بلا سجناء سياسيين، كانت تنتشر فجأة فى كل الأماكن قبل أسابيع قليلة.

كانت أمها تهاتفها لتسألها إن كانت سوف تتناول العشاء معهم، "من فضلك يا ابنتى، من فضلك"، ربما لن يكون أمامها من بديل سوى تناول العشاء مع هذين المجهولين الاثنين بالنسبة لها، على الأقل فقد كانا سبب وجودها فى الحياة، لم يكونا لها أبوين، فكرت، متأسية، لم يغفرا لها أبدًا حب العمة "إينيس"، ولا هى، فى أعماقها غفرت لهما تركهما هذا الحب الذى خففهما من مسئوليتهما الأبوية عندما كانا فى شبابهما، وليس لديهما الوقت للتفرغ لطفلة فضولية، لعوب، عاشقة للكتب، وغارقة فى عالمها المتخيل من البيوت والألعاب.

يا له من كم كبير من عدم الفهم أو الفهم الخاطئ!

أين يوجد "فيليبى"؟ أين "فلور" و"سباستيان"؟

هاتفها أيضا "أدريان" و"سارا"، لدعوتها لقضاء ليلة عيد الميلاد معهما، "مع "فيليبى""، كانت "سارا" قد حكت لها أنهما يخرجان قليلا الآن لأن "أدريان"، بطيبة قلبه قرر أن يعير سيارته لرفيق بالعمل ليذهب إلى دروس ليلية ثلاث مرات فى الأسبوع، ومع ثقل الحمل، لا لم تعد تهتم كثيرا بإيقاع الحياة الاجتماعية السابقة. وهكذا انتبهت "لافينيا"، إن "أدريان" يؤدى واجبه بتنفيذ الاتفاق، وبين الاثنين، منذ اليوم الذى طلبت منه فيه التعاون، وأخيرًا، صمت الاحترام، فالآن لم يعد يسخر من نسويتها وعدم استقرارها، وهى تكاد تفتقد هذا، فالآن يقنعان بحوارات فاترة وبلا معنى، عجيب، فكرت، فى الوقت الذى كان يجب عليهما أن يتحدثا أكثر، وفى النهاية، فقد تواصلا بعبارات متساوية وأقل أبوية من جانب "أدريان"، وذكوريته، من جديد تبعدهما عن بعضهما.

العالم سيتغير، يجب أن يتغير، تأملت مستوحية رفاقًا يقاتلون فى الجبل بلا وجوه معروفة، إنهم أمل ذلك الحزن الذى تشعر به، ماذا أسوأ من هذه اللحظات الرديئة مقابل اللحظات البطولية اليومية التى يعيشها الرفاق؟ فى مكان ما من المدينة، كانت هناك جماعة تستعد للقيام بالضربة، الحدث الذى لم تتمكن من تخيله بوضوح، لقد حسدتهم جميعًا، وبلا شك "فيليبى" و"فلور" و"سباستيان"، لقد كانت معهم، كانت تمثل جزءًا من هذه الجماعة، جميعهم عدا هى.

هى التى كانت وحيدة، متروكة لوحدتها، وحفيف فروع شجرة البرتقال فى الريح.

***

فى ذلك اليوم استيقظنا فى الظلام، كان يجب علينا عبور النهر قبل شروق الشمس، فى الليلة السابقة، تحدثنا "يارينثى" وأنا مطولا، كعجوزين إلى جوار النار، تذكرنا أيام طفولتنا، تذكرنا أيام الحرب والحب، السحاب الرعدى، قدمنا كشف حساب لحياتنا، رسم ضبابى لكلمات متراكمة.

ربما نموت مبكرًا، كان قد قال "يارينثى"، كان يريد تذكر الماضى بما أننا لا نرى المستقبل بوضوح.

احتضنته بين ذراعى النحيلتين. "بهذه الأجنحة يمكنك أن تحتضنى العالم"، قال لى، تداخلنا كل منا فى الآخر، لعدة أيام كان جسدانا مصدرًا للذة التى لاتنضب، كانت القوة الوحيدة التى بقيت لنا حتى لانستسلم.

لقد انتهينا إلى جماعة من عشرة محاربين، كنا نحلاء ومتعبين، بنظرات حيوانات مطاردة.

كان ذلك الصباح باردًا، تهب ريح رقيقة تحرك أعواد القصب على حافة النهر، كنا نسير قريبين جدًا من مخيم الغزاة لذلك كان علينا أن نعبر بحرص شديد حتى لا يكتشفونا.

كانت حمولتنا قليلة، فقط بعض الأرانب البرية التى اصطدناها فى اليوم السابق، والأسرة المعلقة

والعصى التى نستخدمها لإقامة مخيمنا وبعض الأوانى الفخارية، كان "تشيتلتل" يسير فى المقدمة وأنا من خلفه، ومن بعدنا ثلاثة من المحاربين وكان "يارينثى" الأخير، كنا متوجهين للاجتماع مع شيوخ الكهنة لإقامة طقوس الابتهال، ولقراءة الطالع لمعرفة ما يخبئه لنا المستقبل، كنا نشعر بالحاجة إلى الصلاة، أن نتحد مع طوطمنا لنتخفف من الكوارث المتوالية. كان "تشيتلتل" قد حلم برؤية "تلالوك"، شاهده على هيئة امرأة بعينين دامعتين، تبتسم فيما يغطيها الماء، كان حلما مشوشًا لم نتمكن من تفسيره إلا فيما بعد.

كنت أنا وهو فى منتصف النهر عندما خرج علينا الإسبان.

لقد انتظرونا متخفين بين الذرة.

وربما كانوا يراقبوننا من اليوم السابق.

استدرنا فى الماء، عاجزين لأننا كنا بلا قدرة على الدفاع عن أنفسنا.

لقد سمعت طلقات عصى النار تسقط فى الماء بالقرب منى، بحثت عيناى عن "يارينثى" بينما كانت قدماى تحاولان الثبات فى أعماق النهر، فى الأحجار التى كانت تساعدنا على عبور النهر.

لمحته يجرى فى الجانب الآخر، لقد تمكن من الخروج من الماء.

لم يكن مصيره مثل "تشيتلتل" الذى شكل دمه بقعة حمراء من حولى، وشاهدت جسده يسبح طافيًا باتجاه المصب.

لم يكن مصيره مثلى.

لم يمت مثلى.

شعرت بضربة قوية فى ظهرى، ونار حامية شلت ذراعاى، كانت لحظة، عندما فتحت عينى من جديد لم أكن فى جسدى، الذى كان يسبح بالقرب منى نازفًا فى الماء، رأيت جسدى أيضًا يسبح باتجاه المصب، سمعت أصوات التحذير التى يطلقها الإسبان، وفجأة، من بين أشجار الضفة، حيث شاهدت "يارينتى" لآخر مرة، سمعت وشعرت بالصرخة الطويلة والعميقة لرجلى الجريح بسبب موتى.

لقد كان صوتًا حادًا أخرس الأعداء، وأرعبهم وجعلهم يخرجون من الماء جريًا للاختباء بين أعواد الذرة.

أنا كنت أطفو مع جسدى فى التيار المتجه نحو المصب، أكاد أشعر بـ"يارينتى" يجرى، متألمًا بجنون، على الضفة، يطارد أثر دمى.

فتحت فمى لأصرخ لكن الريح أغلقتها، وانتبهت لحظتها أن الأصوات والرؤى البشرية منزوعة عنى للأبد، لكنها كانت أحاسيس تسجلها روحى، وصور ممحاة، مشكلة بذاكرة حياتى، آه، أيتها الآلهة، يا له من ألم الشعور بـ"يارينتى" دون أن يرانى، ودون

التمكن من تحريك عضلة واحدة للمسه، ولتجفيف دموعه.

لقد لحق بى عند منحى بالنهر، وذلك بسبب أن الماء كان يستدير حول الأحجار.

هو و"ناتزوليل" أخرجانى، وسحبانى إلى الضفة.

سقط علىّ حبيبى "يارينثى" كعاصفة من الصراخ والرعد، هز كتفى بقوة، احتضننى، كان يقول: "ايتزا"، "ايتزا" بلغة القنوط المشوشة، لغة الحياة فى مواجهة الموت.

أكاد لا أتمكن من مقاومته.

عندها بدأت أفقد الوعى، ظللت أشعر بـ"يارينثى"، لكنى كنت أسمع فقط تموجات الماء، صوت الماء يتلاطم على الأحجار، الماء يلعق حافة النهر.

أعرف أن "تلالوك" سمح لى أن أبقى إلى جوار "يارينثى" فى الطقس، عندما كان الكهنة يصلّون إلى جوار جسدى عند المغيب، قاد الحكماء الشيوخ الطقس حتى حافة الماء، إلى أن تخلى "تلالوك" عنى للحدائق.

بعدها أخذ "يارينثى" جسدى وجاء بى إلى هنا، فى هذا المكان الذى انتظرت فيه قرونا، كما قرر لى أجدادى.

-٢٤-

سيكون اليوم التالى حفل افتتاح بيت "فيلا" ولم يكن لدى "لافينيا" من تسأله عما إذا كان عليها أن تذهب أم لا، قررت أن تقضى المساء فى جولة حرة، الذهاب إلى السينما أو زيارة "سارا" أو زيارة أمها، لم تكن قادرة على البقاء مع وحدتها المتوترة، وصمت رفاقها، إضافة إلى أنها لم تكن ترغب فى أن يسألها "خوليان" عن "فيليبى"، لأنها لا تعرف كيف تجيبه.

ركبت سيارتها وتجولت فى المدينة، دون أن تحدد إلى أين تذهب، وفجأة وجدت نفسها تتخذ الطريق الذى يصعد إلى هضبة طفولتها الخضراء، وإلى لوحة طفلة تشاهد العالم الذى كانت تعتبره ملكها، ولم يكن هناك شىء تملكه بعد، فكرت، ولا حتى حبها، ولا عائلتها، ولا حتى حياتها، لقد سلمت كل شىء إلى هذا الانتظار فى قنبلة الزمن، عليها أن تكون سعيدة، فكرت، على الأقل فقد حصلت على حلم حياتها بالسيطرة على حياتها الخاصة ووضعها فى خدمة مثالها الأكبر، كانت كامرأة تتأمل لحظة ميلادها، فى انتظار تقلصات الجسد ليمنحها الضوء الجديد لحياتها التى بنتها فى صمت طوال أشهر من العمل

وصبر الدم، لأن هذا كان الوحدة، وليس الهجر والخوف من اختفاء البشر الذين تحبهم فى مصير غامض، هذه الوحدة كانت مجرد انتظار الميلاد: رفاقها يستعدون فى مكان ما انطلاق انفجار من لاصوت لهم، المطرودون من الجنة، كررت لنفسها. لقد كانت هى وحيدة تحاول التنبؤ، لكن عليها أن تكون قادرة على الحركة بين الواقع والخيال، لا شك، فى أن استعدادات أشهر عدة يجب أن تنفذ، ما الذى تبقى لها من أدوات أخرى غير التنبؤ؟ من يمكنه أن يعرف إن كان "فيلا" سيكون هدف هذه الاستعدادات؟ من الذى يمكنه أن يعرف هذا؟

عليها أن تعرف ذلك اليوم، خلال ثلاثة أو أربعة أيام، ستعرفه من خلال نشرات الأخبار.

كان الطريق يتعرج نحو الأعلى، وزهور ديسمبر الصفراء ترقد على حافة الأسفلت، صعدت دون أن تتوقف لتستكشف إلى أين يصل طريق الأشجار العالية، واصلت اقترابها، واستدارت فى المنحنيات الضيقة إلى أن خرجت من الطريق الرئيسى والدخول فى الطريق غير المستوى الذى نخرته الأمطار، إنه الطريق المؤدى إلى الهضبة.

لم تكن تكاد تعرف أحدًا هنا فى تلك الساعة من المساء، كان يمر فى الطريق بعض الشباب العاملين فى الإقطاعيات القريبة من هناك، ولكن فى الهضبة لم يكن هناك سوى الريح التى تهب، والعشاق لم يأتوا لتأمل المشهد الطبيعى، ولكن لتأمل لحظة الغروب.

هبطت من السيارة وسارت على قدميها فى الطريق نحو القمة، وجلست على الصخرة التى تشكل بغرابة وجودها مسافة أو علامة ما، الكتابة الموجودة عليها انمحت، تحت احتكاك الذين جاءوا إلى هنا وجلسوا عليها، وخلال الحديث عن حبهم ومشروعاتهم وأحلامهم.

كان يومًا وضّاحًا، وتعرى تحت أقدامها المشهد من حلته الضبابية، والخط الباكى الأزرق يمتد فى البعيد بقممها الظاهرة والمتخفية المتعاظمة التى تقذف حممها على البحيرة، والمدينة الصغيرة الأقرب إلى عشب الجبال تطلق حوافها باتجاه الهبوط نحو المدينة، مظهرة خضرتها وأشجارها المنطلقة تحت قممها الكثيفة فيما جذوعها تتطوح فى توازن خطر نحو الفراغ. تهب من المناطق القريبة رائحة البن الحلوة وصوت الريح حين تمر بين الأوراق يتداخل مع أصوات العصافير الطائرة فى أسراب.

ارتكزت بحافة ذقنها على منحنى يدها، ناظرة إلى كل هذا بهدوء، وفكرت، نستحق التضحية من أجل هذا الجمال، أن نموت فقط من أجل الحصول على متعة هذه اللحظة: الحلم باليوم الذى يصبح فيه هذا المشهد ملكًا للجميع، هذا المشهد يلخص كل الانتماء إلى الوطن، لقد كان هو الحلم نفسه الذى حلمت به عندما كانت فى الجانب الآخر من المحيط، عبر هذا المشهد يمكنها الآن أن تفهم أحلام أعضاء الحركة، هذه الأرض كانت مقطوعة تتغنى بجسدها، بكونها امرأة عاشقة، متمردة على ما هو اعتيادى ومزر،

إنهما عالمان منفصلان بشكل مرعب، إن الشعب يستحق مثل هذا المشهد وليس تلك العلب الكريهة الرائحة المتراكمة إلى جانب البحيرة، والشوارع التى ترتع فيها الخنازير والنطف السرية والماء الملوث بذباب الفقر.

أين هم الآن، رفاقها؟ فى نقطة صغيرة، فى أى شارع يتجولون؟ فى أى شىء يشغل "فيليبى" وقته الآن بعد أن أصبحت تشعر الآن أنها جزء من كل هذا؟

قبل ذهابها إلى السرير، بشكل فجائى هاتفت أمها. قال الصوت من الجانب الآخر:

– "لافينيا"؟

– نعم، يا ماما، أنا هى.

صوت متعب، دائما ما تبدأ على هذا النحو، فكرت، معترفة أمام نفسها.

–كيف حالك؟

–حزينة بعض الشىء، حتى أكون صريحة معك.

تساءلت مع نفسها لماذا تقول هذا لأمها؟

–لماذا؟ يا ابنتى، ما الذى يحدث لك؟

– لا أعرف... نعم، لا أعرف، تحدث لى أشياء كثيرة، الحقيقة أننى أريد أن أتصالح مع أشياء كثيرة.

– هل تريدين الحضور يا ابنتى؟

– لا، ماما، لدى رغبة فى النوم، لا تنزعجى، فقط كنت أشعر بحاجة إلى الحديث مع أى شخص.

- لم نتحدث منذ زمن طويل.

- أعتقد أننا لم نتحدث أبدًا، ماما، أعتقد أنك اعتقدت دائمًا أنك لست فى حاجة إلى الحديث سوى مع العمة "إينيس".

قال الصوت متوترًا:

- حسن، أنت لم تحبى غيرها.

- لكن ألم تفكرى أبدًا أننى كنت أحبها؛ لأنها كانت مهتمة بى، لأنها كانت تحبنى، ماما؟

- أنا كنت أحاول، يا ابنتى، لكنك كنت تفضليها دائما عنى، معى كنت صامتة دائمًا.

- من الصعب الحديث عن هذا تليفونيًا، لاأعرف لماذا ذكرت هذا؟

- لكن يجب أن نتحدث عن هذا، لا أريدك أن تبقى دائما بتلك الفكرة بأننا لم نكن نحبك.

- أنا لم أقل هذا، ماما.

- لكن تفكرين فيه.

- نعم، أنت محقة، أنا أفكر فيه.

- لكن يجب أن تفكرى فيه، يجب أن تتفهمى موقفنا.

- نعم، ربما يجب أن أفعل ذلك، دائمًا يجب علىّ أنا أن أتفهم الآخرين.

- لا تكونى هكذا يا ابنتى، لماذا لا تأتين؟

- حسن، سأمر فى يوم قريب.

- مرى علينا صباحًا.

- لا أعرف إن كان بإمكانى...

- ابذلى جهدًا.

- حسن، ماما، تصبحين على خير.

- تصبحين على خير، يا ابنتى، هل أنت متأكدة إنك بخير؟

- نعم، ماما، لا تنزعجى.

- إذًا مرى غدا؟

- نعم، ماما، سأمر غدًا.

وضعت السماعة، كانت تلك المكالمة الأكثر طولاً مع أمها منذ أشهر عدة، وربما منذ سنوات، مكالمة على أى حال كشفت ما كان خافيًا تحت السطح، عن الأساسيات، عما لم يتحدثوا عنه أبدًا، فكرت، إنه ربما فى يوم من الأيام، ربما استطاعا تبادل المحبة، والتفاهم، فى يوم ما، تشعر بأنها قادرة الآن، يمكنها أن تراها ببساطة ككائن بشرى نتاج زمنه، ونتاج قيم معينة، على طريقتها، لأن أمها مؤكد أنها تحبها كما كان يجب أن تفعل هى، وربما الاندفاع نحو مهاتفتها نتيجة شعورها وحيدة ومسجونة. وربما لن تتفاهما أبدًا، لا هذه ولا تلك، فإن طرق حياتهما مختلفة، وبشكل خاص الآن.

دخلت الحمّام، وفكرت أنه ربما فى يوم ما تستطيع أن تُجرى مع أمها وأبيها حوارا مؤجلا منذ

الأبد، وهذا ليس بسببهما ولكن بسببها هى، فى مرة ما عليها أن تتصالح مع طفولتها، كانت تلقى بالماء على وجهها، غاسلة الماكياج، عندما سمعت ضوضاء فى الصالة، ضوضاء مكتومة، كما لو أن جسداً قد سقط، والباب يُغلق.

اندفع قلبها بضربة عنيفة فى صدرها، شلها الخوف، شاهدت وجهها فى المرآة شاحبا بينما كانت تصيخ السمع، محاولة إيقاف الرعشة التى اعترت ساقيها، سارت نحو الصالة على أطراف أصابعها وبحثت أولا فى الدولاب بعصبية عن المسدس الذى تركه "فيليبى" قبل ذهابه من البيت. عندما سمعت كما لو كان هناك من يناديها من تحت الماء، "لافينيا"، "لافينيا""، سرعان ما تعرفت على الصوت قبل أن تشعر باندفاع جسدها باتجاه الصالة مخترقة الأبواب، جرت إلى حيث كان منطرحًا على وجهه، فى الأرض، إنه "فيليبى". وصرخت تقريبًا:

-"فيليبى"، "فيليبى"، ماذا حدث لك؟

لا يزال منطرحًا على وجهه متحدثًا بصوت أجش، كما لو كان يبذل جهدا كبيرًا، وقال "فيليبى":

- اخرجى إلى الخارج، وانظرى جيدًا إن كانت هناك بقع دم فى المدخل.

وأغلق عينيه، خرجت إلى المدخل مشوشة، بقع؟ لم يكن هنالك شىء على الأرضية.

بالقرب من الباب شاهدت بقعًا من الدم.

دخلت إلى البيت من جديد، وركعت إلى جواره.
قال "فيليبى":

- نظفى البقع، نظفى البقع أولاً.

كان يتحدث من على الأرض دون أن يرفع رأسه.

جرت إلى المطبخ وبحثت عن خرق من أى نوع، بللتها وخرجت مرة أخرى، جريًا.

لم تعرف ولا حتى كيف نظفت البقع، سارت بسرعة إلى الحديقة ناظرة فى كل الاتجاهات، ممررة قدمها على النجيل المبلل حيث كانت هناك أيضًا بقع من دماء "فيليبى".

لم تر شيئًا فى الشارع، كان منتصف الليل تقريبًا.

دخلت وأغلقت بالمفتاح، وأغلقت النوافذ أيضًا بينما كانت تنظر إلى "فيليبى" المنطرح على الأرض، وأحد ذراعيه منثنيًا تحت جسده، شاحبا، لم يتحرك.

وركعت إلى جانبه من جديد. قالت:

ـ لقد تم، رفعت كل البقع، وأغلقت كل شىء، "فيليبى"، ماذا حدث لك؟

- والآن ساعدينى لأستدير - تنفس - ساعدينى حتى أصل إلى سريرك، أنا مصاب بطلق نارى.

كان يقول ذلك بصوت متقطع.

مصاب بطلق، جريح، سيان، كانت قد سمعت هذا التعبير مرات عديدة، يجب أن أهدأ، فكرت، تنفست

بعمق وساعدته على استدارة جسده، كان عليها أن تثبت حتى لا تطلقه من يدها، ولا تغيب عن وعيها، عندما شاهدت صدره، والمعدة، والملابس الغارقة فى الدماء، الأرضية والدماء على الأرضية.

كان "فيليبى" يبذل جهدًا كبيرًا ليجلس، يضم عينيه والفم.

– من الأفضل أن آخذك إلى السيارة، "فيليبى"، أنا أعرف أين يمكننا أن نذهب.

قالت مفكرة فى البيت الريفى على طريق الأشجار.

قال "فيليبى":

– لا، لا، ساعدينى.

همس والألوان متجمدة على وجهه.

فى زمن استمر أبديًا، تمكن "فيليبى" من الاعتدال، راكعًا، زاحفًا بمساعدة "لافينيا"، تقدم نحو ضوء غرفة النوم، لن يعرفوا أبدًا كيف تمكنوا من الوصول إلى السرير، تمدد "فيليبى" على جانبه وكان يجب مساعدته مرة أخرى حتى يمكنه أن يتمدد على ظهره، كان مجهدًا تمامًا من الجهد المبذول.

بدم بارد، كان بعيدًا عن الإحساس، جاءت "لافينيا" بمنشفة حمّام وبدأت فى فك أزرار القميص بطريقة غبية، لأن كل شىء كان ممزقًا.

أوقفها "فيليبى" واضعًا يده على يدها، مشيرًا إليها أن تنتظر.

مرت عدة دقائق، كانت الأفكار فى عقل "لافينيا" تتلاطم فى بعضها، كان يجب حمله إلى المستشفى، إصابته ليست مثل إصابة "سباستيان"، إن "فيليبى" كان يموت، ينزف، كان لحمه مفتوحًا عند المعدة، يجب عليها أن تنادى على الجيران، لا يهم أى شىء، لا شىء مهم مثل إنقاذ حياته، حتى لو اعتقلوهما بعد ذلك، لاشىء يهم، قالت "لافينيا":

ـ "فيليبى" إن الأمر خطير، هذا ليس لنكون هنا فى هذه الغرفة، يجب أن أحملك إلى المستشفى.

كانت على وشك أن تقول، أنت ستموت، لكنها سيطرت على نفسها.

فتح "فيليبى" عينيه، وعاد الهدوء إلى تعبيره، كان يتنفس بجهد.

بشكل غريزى وضعت خلف ظهره بعد المخدات لينحنى قليلاً، مفكرة فى الدم، والنزيف الداخلى، والرئتين.

كانت تكرر بينما اتخذت قرارها بالاتصال بـ"أدريان"، إن "أدريان" سوف يساعدها. قال "فيليبى":

– اقتربى، سأذهب إلى المستشفى لكن يجب أن أحدثك أولاً... من فضلك.

قالت "لافينيا":

– لكن دعنى أهاتف "أدريان"، دعنى أهاتف "أدريان" ليأتى بينما نحن نتحدث وحتى يساعدنى على حملك إلى السيارة.

- لا، لا. اقتربى أولا، لا وقت لدينا، بعدها، بعدها يمكن أن يأتى "أدريان".

- لكن.

- من فضلك، "لافينيا"، من فضلك.

كان مُصرًا، وكان يصر بعينيه، وبيديه، بكل ما بقى سليما منه. متعجلة، اقتربت منه "لافينيا".

- اسمعينى جيدا، العملية غدا، والعملية فى بيت "فيلا"، أنا فرد من هذه المجموعة... كنت... ـ قالها بنصف ابتسامة ـ وكل فرد لا غنى عنه.

كان يتحدث بحزم، كما لو كان قد جمع قوة ليحدثها، القوى الأخيرة التى بقيت له.

- أريد أن تحتلى مكانى، أنت تعرفين البيت جيدًا، ولم يعد هناك وقت ليتعرف عليه شخص آخر بشكل جيد، أريد أن تكونى أنت من يحتل مكانى، ولا أحد غيرك، أعرف أنه يمكنك فعل ذلك، إنه دين فى عنقى، لأننى كنت أنا من عارض مشاركتك...- تنفس مغلقا عينيه، وفتحهما مجددًا - أدين لك به، أنت يمكنك القيام به، وأنت أثبت قدرتك، أنت تستطيعين، هيا إلى البيت. قولى لهم إنهم أصابونى خلال عملية التاكسيات، قولى لهم لم يصبنى الحرس، لقد كان سائق التاكسى عندما قلت له أن يترك لى سيارته، اعتقد أننى لص، وأطلق النار علىّ مباشرة، كان الوقت متأخرًا عندما أخبرته أننى من الحركة، أصابنى التوتر، لم أفكر فى أنه كان مسلحًا، أخطأت، لقد كان

غبائى الخاص، وقال لى: "لو أنك أخبرتنى"- ابتسم "فيليبى" ساخرًا من مأساته الخاصة ومن الحادث غير السعيد، عطس، وأغلق عينيه، بدا أنه كان يستجمع قواه ليواصل - هو نفسه من جاء بى إلى هنا، أراد مساعدتى، لم يعرف ماذا يفعل، أراد أن يحملنى إلى المستشفى، لكنى أقنعته أن يتركنى بالقرب من هنا، وحذرته من عدم إبلاغ البوليس، هددته، وحتى - نحل صوت "فيليبى" - احتياطًا.

فكرت فى سوء حظ "فيليبى"، مؤكد أنه كان يحمل السلاح عندما أخبر سائق التاكسى: "هذا عمل لصوصى، اترك لى سيارتك"، وسائق التاكسى فى مواجهة العنف كان رد فعله سريعًا، فأطلق عليه النار أولا، مبارزة قاتلة، خطأ، مجرد ثوان قليلة.

جملة لو قيلت فى وقتها ربما كان "فيليبى" معافًا، لأن بعض سائقى التاكسيات يتعاطفون بل وساعدوا الحركة، ربما ما كان لهذا السائق أن يطلق عليه النار، ربما أشياء كثيرة! لا أحد يعرفها، ولم تعد تهم، كل التساؤلات كانت تنمحى عندما تنظر إلى وجه "فيليبى" والتعبير الذى يتقدم ليمحو شحوب وجهه.

كان تعبيرًا متوترًا، ثابتًا، كان ينظر إليها من قرب بعيد، كانت تشعر كما لو تفقده كموجة إذاعية تسيل فى الهواء وتختفى، بقيت ساكنة، مشلولة، وهى تسمعه يقول إنه منع مشاركتها فى العملية، ويطلب منها الآن أن تتخذ مكانه، تعادلات حب كبرى ونفاد صبرى تتقاطع فى صدرها كموجات ريح باردة، لا يمكنهما

مواصلة ذلك، لا يمكنهما مواصلة ذلك، ينظر كل منهما إلى الآخر، يقولان بالنظرة ما لم يستطيعا قوله فى وقته لإنهاء خلافات ومشاحنات أبدية، لقد توقف كل هذا هنا، فى مواجهة الموت، فى مواجهة دم "فيليبى" النابع من الصدر، وينتشر على شراشف السرير الذى عرفا فيه الحب، والحياة، وما لا يعرفه أحد.

- دعنى أتصل بـ"أدريان".

قالت "لافينيا" بنعومة، محاولة ترك يد "فيليبى" التى تثبتها فى السرير حيث ينزف.

قال "فيليبى":

- لم تجيبينى، هل ستتخذين مكانى؟ هل ستفعلين؟

قالت "لافينيا":

- نعم، نعم، سأفعل.

- لا تدعينهم يقولون لك لا.

- لا، "فيليبى"، لن أدعهم يقولون لى لا.

انتبهت إلى أنها تحدثه كطفل صغير، كان صوته هادئًا ومتصالحًا، كصوت عمتها "إينيس" عندما كانت تصاب بالمرض.

أغلق "فيليبى" عينيه وخفف من ضغط يده، عطس قليلا ورن صدره رنينا مرعبا من النزيف.

ذلك الصّوت نقل إلى "لافينيا" حيوية الحياة التى تهرب أمام عينيها ولا تقبل نهايتها ببساطة، ومع ذلك،

كان عليها أن تفعل شيئًا، فكرت، لا يمكنها أن تواصل المقاومة وتواصل التفكير أن على "فيليبى" أن يعيش رغم كل شىء.

وقفت وتوجهت نحو التليفون، دون أن تترك النظر إلى "فيليبى" الذى يرقد بعينين مغلقتين، ودم "فيليبى" ينمو كلسان أحمر على السرير.

- "أدريان"؟

أجابها الصوت المتناوم بكلمة خشنة تعنى نعم.

- "أدريان"، أنا "لافينيا"، استيقظ من فضلك؟

العجلة أيقظت "أدريان"، قالت له فقط إنها تحتاجه، ولم تشرح له أكثر من ذلك، إنها حالة طارئة، من فضلك، يجب أن يأتى إلى بيتها فورًا، الحالة طارئة جدًا، قال "أدريان": "حالا".

حسب الوقت الذى يحتاج للوصول، خمس عشرة دقيقة على أكثر تقدير، اقتربت من "فيليبى"، راكعة إلى جوار السرير، فتح هو عينيه.

-"لافينيا"؟

سأل وأفزعتها نظرته الغائبة.

- أنا هنا، "فيليبى"، "أدريان" سيأتى حالا، سنأخذك إلى المستشفى، سيمر كل شىء بسلام، استرح، لا تنزعج.

- أنت امرأة شجاعة، أتعرفين؟

قال "فيليبى" بصوت نحيل كصوت ريح يمر عبر قمم الجبال.

قالت "لافينيا":

- أعتقد أنه من الأفضل ألا تتحدث، أن تبقى ساكنا، يا حبى، حبى الصغير.

لم تتمكن من التخلى عن رغبتها فى الاقتراب منه، أن تضع رأسها على جبهة "فيليبى"، أن تقبله، أن تمرر أصابعها بين خصلات شعره.

- حبى، حبيبى الصغير.

قال "فيليبى"، كما لو يكرر اسمًا وكح من جديد بعنف أكثر هذه المرة ومن أجل رعب "لافينيا" بدأ خيط من الدم يخرج من فمه، بينما رأسه تتحنى حيث تحاول هى الاقتراب من صدره، حرك رأسه حركة خفيفة ثم بقى ساكنا.

انحنت "لافينيا" لتنظف الدم عن خده وشاهدت عينيه ثابتتين، والفم نصف مفتوح، كان "فيليبى" قد مات، لقد مات منها قبل لحظات، هناك، بالقرب منها: الصدر الذى كان يصعد ويهبط سكن ولم يعد يتحرك.

-"فيليبى"؟

قالت بصوت خفيض، تقريبًا كانت تخاف من إيقاظه، كما لو كان قد نام.

-"فيليبى"؟

قالت بصوت أكثر ارتفاعًا.

لم تكن هناك استجابة، لقد كانت تعرف أنها لن تلقى استجابة، بيديها الاثنتين، اعتمدت على

صدر "فيليبى" وضغطت بقوة، لأعلى وإلى أسفل، كما كانت قد شاهدت أكثر من مرة رجال إسعاف الطوارئ خلال عمل الإسعافات الأولية، امتلأت يداها بالدم، لم يحدث شىء، "فيليبى"، غارقًا فى دمه لم يتحرك.

قالت لنفسها، إنه ميت، قالت لنفسها، هذا لايمكن أن يحدث، أين "أدريان"، تساءلت، متى سيأتى، فكرت، لا يمكن أن يموت "فيليبى"، كررت لنفسها، وهى تلمسه، وتقرب وجهها من عينى "فيليبى"، وما يمكن أن تكون عليه نظرة "فيليبى"، النظرة الحزينة التى لم تعد تراها.

"لا!" كانت على وشك أن تصرخ "لا!"، قالتها لعزلة الليل.

"لا يمكن أن يحدث"، بدأت تقول بصوت مسموع، وبدأت تنادى "فيليبى" لا تمت، قالت له "فيليبى" عد من فضلك، "فيليبى"، بدأ صوتها يقنط وهو لا يتحرك ودون أن يصدر عنه صوت يهدئ من روعها "لا تكونى هكذا "لافينيا" إهدائى".

نهضت دون أن تعرف لماذا، وخرجت لتضىء أنوار البيت، كانت تتحرك بلا توقف، تريد أن تفعل أى شىء بيديها، دون أن تعرف ماذا، لم تكن تعرف إن كانت تود أن تضرب وجهها، أو شد شعرها، أو البدء فى البكاء، لكن الدموع ترفض النزول، فقط أمكنها أن تفكر فى "أدريان"، على "أدريان" أن يأتى، لن تصدق أن "فيليبى"

قد مات حتى يأتى "أدريان"، لقد أصيب "فيليبى" بنوبة من الإغماء، إنه مغمى عليه فى غرفتها، فقد الكثير من الدم، مؤكد أنه هذا هو ما حدث، هى ليست طبيبة، لا تعرف كيف تتعرف على الموت، على "أدريان" أن يأتى، سيعود كل شىء إلى حاله عندما يأتى "أدريان".

و... وصل "أدريان"، فتحت هى الباب وأمسكت بيده دون أن تنطق بشىء، وهو لم يوجه إليها أى سؤال لأنه وجدها ملطخة بالدماء، والفستان، واليدان ملطختان بالدماء.

ركع إلى جوار "فيليبى" ولمسه، وضع يده على جبهته، وشاهدته هى يضع يده أما فمه، شاهدته يشعل الولاعة ويقربها من عينى "فيليبى"، قال لها: "اعطنى مرآة" قدمتها له، ورأته يضع المرآة أمام فم "فيليبى"، ثم شاهدته يغلق عينى "فيليبى" ومرر يده على وجهه، وأغلق له عينيه من جديد، وأغلق فمه نصف المفتوح، ومدده على السرير، ووضع له ذراعيه على صدره كالموتى.

نهض من جانب السرير، وقف أمامها ونظر إليها.

- لا يمكن فعل أى شىء.

قال لها، بصوت خفيض جداً، كمن يهمس بسر، نظرت إليه "لافينيا" دون أن تريد أن تفهمه. وقال لها "أدريان":

– إنه ميت، لا يمكن فعل أى شىء.

قالت "لافينيا":

– يجب أخذه إلى المستشفى، نحن لا نفهم فى تلك الأشياء.

وضع "أدريان" يديه على ذراعيها، ونظر إلى عينيها بتركيز.

– نعم، نعرف، "لافينيا"، إن "فيليبى" قد مات.

قال، واحتضنها وبدأ يمسد رأسها بلطف.

قالت "لافينيا":

– لا يمكن، لا يمكن ـ وصرخت ـ لا يمكن.

وعاد "أدريان" إلى أخذها بين ذراعيه وعاد لضمها إليه.

–"لافينيا" من فضلك، لا تجعلى الأشياء أصعب مما هى عليه، من فضلك، إنه أمر مخيف ولكن يجب أن تقبليه.

لقد مات "فيليبى"، عليها أن تقبل الحدث، لماذا عليها أن تقبله؟ فكرت، لماذا عليها أن تفهم أن "فيليبى" قد مات؟ لا يجب أن نقبل أى شىء، انطلقت من بين ذراعى "أدريان"، وركعت إلى جوار السرير من جديد، لمست "فيليبى"، كان دافئا، كانت بشرته دافئة، لم يكن باردًا، فقط دافئًا، لكنه لا يتحرك، لم يكن يتنفس، عليها أن تقبل الأمر، لقد مات.

قالت:

-"فيليبى"، "فيليبى".

وبقيت راكعة وجهها ساقط على صدرها، والكتفين ساقطين بلا دموع.

اقترب منها "أدريان" مجددًا، وضع يده على كتفها، رفعها عن الأرض، وأخذها إلى الحمّام، وجعلها تغسل يديها، وأخرجها من الغرفة، وذهب بها إلى المطبخ، وأجلسها على كرسى بالمطبخ بينما كان يعد لها فنجانا من القهوة الساخنة.

قالت "لافينيا":

- يجب أن نأخذه إلى المستشفى، بأى شكل من الأشكال.

- هل تعرفين أسرته؟

- لا، فقط أعرف أنهم يعيشون فى "بويرتو التو".

- وهل أنت متأكدة أنه يجب أن نأخذه إلى المستشفى؟ أنا أعرف أنه صعب بالنسبة إليك، لكن ابذلى جهدًا، حاولى أن تفكرى لبعض الوقت، إن كان مناسبًا أن نأخذه إلى المستشفى؟ هناك سيطرحون أسئلة، ماذا سنقول لهم؟ قولى لى ماذا حدث؟ كيف حدث؟

- صعد إلى تاكسى، كان يريد أن يأخذ التاكسى، أن يأخذه من سائقه، أن يستعيره منه، أنت تعرف كيف تحدث هذه الأشياء... لكن السائق لم يفهمه، اعتقد أنه لص، وأنه سيسرقه، وأطلق عليه الرصاص،

ثم جاء به إلى هنا... خاف، قال إنه لن يتصل بالبوليس.

قال "أدريان":

- كيف؟ لا أفهم، صعد إلى تاكسى، واعتقد السائق أنه لص فأطلق عليه النار، لكن، وإذًا كيف جاء به إلى هنا؟ وكيف أن "فيليبى" لم يطلق النار أولا؟ ألم يكن يحمل سلاحا؟

قالت "لافينيا":

- لا أعرف، لا أعرف، من المفترض نعم، مفترض أنه أطلق عليه النار لأنه فعلها أولاً، لأنه لم يفكر فى أنه سيطلق النار عليه، لا أعرف، وبعدها قال له إنه ينتمى إلى الحركة، وطلب منه ألا يسلمه للبوليس، والرجل لم يسلمه، جاء به إلى هنا، ربما كان هذا كل ما حدث ـ ارتشفت القهوة من الفنجان الذى أعده "أدريان" ووضعه فى يدها، كان ساخنا، شىء جيد أن تشعر بالحرارة، كانت ترتعش، كانت تشعر ببرد شديد، ترى هل أمطرت؟ لماذا تشعر بالبرد؟ وعائلة "فيليبى"... ماذا عن عائلة "فيليبى"؟

وقف "أدريان" وعاد ببطانية، ووضعها على كتفيها.

قالت "لافينيا":

- عائلة "فيليبى" تسكن "بويرتو التو"، أبوه عامل شحن، هل تعتقد انه يجب مهاتفتهم؟ هل يجب مهاتفهم وتسليمهم "فيليبى"؟

فكرت: الجثة، جثة "فيليبى"، فكرت فى هذا، لكنها لم تقل شيئا، لم تتمكن، بدأت تشعر برغبة رهيبة فى القىء، وضعت القهوة على الطاولة وأمسكت بمعدتها، انحنت على نفسها، وأخفت رأسها بين ركبتيها، كانت تريد أن تبقى على هذا النحو، ألا تعود إلى رفع رأسها، ألا تعود إلى رؤية أى إنسان، أن تبقى فى البيت مع "فيليبى".

قال "أدريان":

-"لافينيا"...

لم تجب، بدأت فى التفكير فى أم "فيليبى"، كيف تكون؟ هل يشبه الابن أمه؟ يا له من رعب؟ الوصول مع "فيليبى" ميتًا. تخيلت صرخات المرأة، وزوجها المتألم، ماذا حدث؟ من المؤكد أنه سيتساءل، وبدأ صدرها يتقلص.

لمس "أدريان" كتفها، وسألها إن كانت تشعر بأنها مريضة، وأطلقت هى صوتًا رديئًا لم تعترف أنه صوتها، نشيج حاد وأجش.

قال "أدريان":

– ابك، ستشعرين بتحسن بالبكاء.

رفعت رأسها، قالت:

– لا وقت للبكاء، لا وقت للبكاء، كررت ـ لقد قال "فيليبى" إنه علىّ أن أحتل مكانه، ليس هناك وقت، لقد بدأ الفجر يضىء النافذة، وبعيدًا كانت تسمع صياح ديك.

على "أدريان" أن يتولى أمر "فيليبى"، "فيليبى" الذى أصبح ميتًا، وهى عليها أن تذهب إلى هناك، أن تذهب إلى البيت، إلى البيت الذى كان يجب أن يصله "فيليبى"، مؤكد أنهم ينتظرونه هناك، المجموعة متوترة الآن، يفكرون فيما يمكن أن يكون قد حدث، قد يحدث شىء إن لم تصل هى مبكرًا، إن لم تنبههم إلى ما حدث، يمكن لسائق التاكسى أن يبلغ عنهم، تركت نفسها ترتمى على الكرسى.

قالت:

-"أدريان"، أنت يجب أن تتولى أمر "فيليبى"، وأنا يجب أن أذهب.

فكر "أدريان" إنها كانت مشوشة، وإنها لم تكن تعرف ما تقول.

- لا تقولى هذا، "لافينيا"، علينا أن نعرف ما يجب أن نعمله معا، لا تكونى هكذا، اهدأى، اشربى مزيدًا من القهوة.

قالت "لافينيا":

- أنت لا تفهم، أنا بحال طيبة، أنا هادئة، لكن يجب أن أذهب، يجب أن أنبههم.

قال "أدريان":

- يمكننا أن نفعل ذلك فيما بعد.

قالت "لافينيا":

- لا، لا لا يمكن، لا أستطيع أن أقول لك أكثر من

هـذا، ويـعـد ذلك لا يمـكن، يجب أن أذهب الآن، قـبل طلوع الفجر، يجب أن أذهب الآن.

قال "أدريان":

- و"فيليبى"؟ ماذا سنفعل بـ"فيليبى"؟

كان خائفًا. قالت "لافينيا":

- يجب الاتـصـال بـ"خـوليـان"، إنه صـديـقه، هـو يعرف كيف يمكن العثور على عائلته، ويجب إخراجه من هنا خفية، دون أن يدرى الجيران، إخراجه من هنا وحمله إلى مكان آخر، إلى مكان آخر غير هنا، هذا مهم، أنا يمكننى أن أهاتف "خوليان"، لكن لا يمكننى انتظاره، يجب أن تبقى أنت هنا وتنتظره، واشرح له الحادث، وقل له إنه كان يجب علىّ أن أذهب، واطلب منه ألا يسأل عن أى شىء، وهو سيساعدك، أنا متأكدة، لقد كان صديقه، وكانا يحبان بعضهما.

قالت ذلك وشعرت أن لديها الرغبة فى البقاء والبكاء، لكن لا وقت لديها ويجب أن تذهب.

- ولكنك لا تستطيعين الذهاب على هذا الشكل، أنت لست فى حال طيبة، "لافينيا"، على الأقل انتظرى حتى يأتى "خوليان"، وأنا أرافقك.

- لا، أنا فى حال جيدة، لن يحدث لى شىء، فقط يجب أن أذهب لتنبيههم، حقيقة، صدقنى، لاتستطيع أن تأخذنى إلى هناك، لا أحد يمكنه فعل ذلك، يجب أن أذهب وحدى.

مررت يدها على شعرها، لكن فى لحظات شعرت أنها قد جُنت، كانت تناضل ضد نفسها، ضد الدافع لعودتها إلى غرفة نومها وأن تبقى إلى جوار "فيليبى"، تبكيه، لكن الدموع لا تنزل، كانت تشعر بقوة عارمة، وممزقة، تريد أن تذهب وأن تبقى، يجب أن تذهب، كررت على نفسها، يجب أن تكمل رغبة "فيليبى"، فقد كان آخر شىء قاله لها، أن تأخذ مكانه، يجب أن تفعل، إضافة إلى أن الآخرين ينتظرون الآن فى انزعاج، ويمكن إرجاء القيام بالعملية، كل شىء يمكن أن يفشل لو لم تشعر هي بقوتها، لو أنها بكت، وبقيت إلى جوار "فيليبى"، لكن كان مرعبًا أن تتركه وحده، مرعب تركه هناك، كل شىء قذر، كل شىء فى سريرها ملطخ بالدماء، لكن يجب أن تذهب.

دخلت الغرفة، كان "أدريان" يتبع خطواتها، كان "فيليبى" على وضعه، لم يتحرك، كان عندها أمل عند دخولها أن يكون "فيليبى" ممددًا إلى الجانب الآخر، كما كان يحب أن ينام، ولكنه كان لا يزال نائمًا على ظهره، وذراعاه متقاطعان على صدره، كما تركه "أدريان"، اقتربت من التليفون، بحثت فى أجندتها عن رقم بيت "خوليان"، رد هو على التليفون، قالت له إن عليه أن يحضر إلى بيتها وألا يقول شيئًا، ولكنه أمر متعلق بـ"فيليبى"، وقع حادث لـ"فيليبى"، وان الطارئ يحتاج إليه حالا.

دخلت بعدها إلى الحمّام، وغيّرت الملابس المدماة، ارتدت جينز، وقميصًا، وأحذية التنس،

شاهدت جاكتة "فيليبى" الزرقاء وحملتها، وضعتها على كتفيها، كانت لا تزال تقشعر من البرد.

قبل خروجها من الغرفة، ركعت إلى جوار "فيليبى"، كان البكاء يضرب صدرها كشلال ماء فى مجرى نهر، ألم يرتطم بكل ركن من جسدها.

قالت مقربة وجهها:

- سأذهب، "فيليبى"، سأذهب الآن، يا رفيق ـ كررت ـ وطن حر أو الموت، ـ بكت وهى تقبل يديه شاعرة لأول مرة برطوبة الدموع التى بدأت فى الانهمار.

وقفت هاربة من الماء الذى يهدد بشللها، وأن يتركها منهارة هناك على قميص "فيليبى" المدمى.

قالت لـ"أدريان":

ـ سأذهب.

وخرجت من الغرفة هاربة تقريبًا.

تبعها "أدريان" حتى الباب، ودعا بعضهما بسرعة، وعناق قوى. "قالت "لافينيا" "احرسه"، قال "أدريان" احترسى.

نظرت إلى ساعتها، كانت فى الخامسة صباحًا تقريبًا. أدارت محرك السيارة، مررت يدها على الزجاج الأمامى الذى يغطيه الضباب، وخرجت، بدأت الحركة فى الشوارع بحركة ناقلات توزيع الحليب وقادة الدراجات النارية يلقون الصحف فى حدائق

البيوت الأمامية، كان يوما مثل أى يوم، يوم آخر، كل شىء يبدو عاديًا، مرت ببيوت تضىء بألوان أعياد الميلاد فى حدائقها، أشجار عليها إضاءات ملونة، ونوافذ تظهر من خلفها أشجار أعياد الميلاد، لا يبدو أن شيئًا تغير، العالم لا يبكى موت "فيليبى"، كما لو لم يحدث، بدأت تبكى، النشيج يكشف عن الطريق الذى تتبعه الآن، والزهور الصفراء على حافة الطريق، رطبة، تتحرك بأثر النسيم الصباحى وديسمبر البارد.

كانت تشعر أن البكاء ينبع من قدميها، محدثًا فى معدتها ألمًا حادًا، تنفست بعمق، يجب أن تهدأ، لا يجب أن تبكى على هذا النحو، لن تستطيع القيادة لو واصلت البكاء.

كانت الأفكار تتلاطم كصور غير متناسقة، "فيليبى" ضاحكا، "فيليبى" فى السرير، "فيليبى" فى المكتب، "فيليبى" يقول لها إن العملية لا علاقة لها بـ"فيلا"، ويقول لها إنه لم يكن يرغب فى أن تشارك هى، "فيليبى" عندما تعرفت عليه، "فيليبى" فى سريرها، نازفا، ساكنًا، العالم بدون "فيليبى"، لم يتغير أى شىء، ومع ذلك، بالنسبة إليها فإن كل شىء قد تغير، الغضب، غضب موته، موت مجانى، موت البلهاء، والدكتاتورية، والجنرال الأكبر، والجنرال "فيلا"، وبيته الشاذ، ونساء "فيلا"، الغبيات، إنها تكرههم، تكرههم بكل أحشائها التى تؤلمها، بكل دواخلها التى تضرب معدتها، يمكنها أن تقتلهم بيديها، بيديها العاريتين، دون رحمة.

يجب أن تواصل، كان يمكن ألا يموت "فيليبى" مجانًا، يجب استكمال أحلامه، أحلامه وأحلام غيره، رفض أن يذهب موتهم سدى، ولا يكون مقابل لا شىء، لا يمكنه أن يموت مجانًا، يجب الانتصار، يجب القيام بأشياء كثيرة، و"فيليبى" ضاحكا فى الشاطئ، و"فيليبى" على السفينة فى طريقه إلى ألمانيا، و"فيليبى" طفلا فى المدرسة... وكل "فيليبى" عرفته ومن لم تعرفه، كصور تضاء وتنطفئ فى ذهنها، السيد "فيليبى"، و"فيليبى" الطائر، والحية "فيليبى"، والدب "فيليبى"، والحلو "فيليبى"، وأخيرًا، طلب منها أن تحل محله، ليس لأنها كانت ترغب فى ذلك، ولكن للضرورة أحكامها، النساء يدخلن التاريخ بالضرورة، ضرورة الرجال الذين لا يتوقفون عن الموت، والنضال، والعمل، كلها ضرورات فى النهاية، وإن كانوا اعترفوا بهن فقط بالاعتراف بالموت، لماذا؟ "فيليبى"؟ لماذا؟ لماذا ذهبت لتموت؟ حبيبى الصغير، صبيى الصغير، رجلى الصغير الجميل.

وهكذا وصلت إلى بيت طريق الأشجار العالية، كان البيت مظلمًا، دخلت بالسيارة حتى مدخله، أضاءت الأنوار، وظهر رجل، إنه رفيق التغذية، قالت "لافينيا": "أنا "إينيس"، هل تبيعون أشجارا هنا؟، إنها كلمة السر، "يا رفيقة، اتركى السيارة فى الخلف، وتركتها، أدخلتها خلف البيت، شاهدت عربات أخرى، وتاكسيات، من نوع "مرسيدس بنز"، كانت هناك، مخبأة، كانتا عربتى تاكسى، واحدة فى الجراج

والثانية فى الخارج مغطاة ببطانية، وسيارتها، يصبحون ثلاث سيارات، لم تكن هناك حاجة إلى تاكسى "فيليبى".

فى الباب الخلفى للبيت، الباب الزجاجى المؤدى إلى ممر معرش ببورجولا، شاهدت "سباستيان" و"فلور" يقتربان، كانا يضعان شيلانا على أكتافهما، وجوههما تشى بالانزعاج، ومرة أخرى ألم المعدة عندما شاهدتهما، وتلك الرغبة الرهيبة فى البكاء، والصراخ أيضًا، نظفت أنفها بظاهر يدها، اقترب "سباستيان" و"فلور" جريا، وضع "سباستيان" ذراعًا على كتفها وقال: "ماذا حدث؟"، ولم تستطع "لافينيا" أن تقول شيئًا، وبدأت فى البكاء، عانقت "سباستيان" وبكت دون أن تتمكن من النطق بكلمة واحدة، شاعرة أنها قد وصلت وأنها بين عائلتها، مع أهلها، مع أشقائها، ادخلوها إلى داخل البيت، فى صالة ضخمة بها قليل من الأثاث، بعض الكراسى من الألومنيوم، مغطاة بالبلاستيك المزين بزهور ملونة.

قالت "فلور" شيئًا للحارس الذى خرج من البيت من جديد، أطفئوا الأنوار، وبدأ النهار يزيح الظلام.

اختفت "فلور" وعادت إلى الظهور بكوب ماء من أجل "لافينيا"، أعطته لها، أجلسها "سباستيان" فى كرسى، وظل محتضنًا لها، ونصف راكع إلى جوارها، وهى تواصل البكاء.

شربت الماء، قائلة لنفسها إنه عليها أن تهدأ، فهى لم تأت هنا لتبكى، عليها أن تقول ما حدث، لكنها

كانت تشعر كما لو أن "فيليبى" سيموت فى تلك اللحظة، فقط فى هذه اللحظة سيكون موت "فيليبى" واقعيًا، فى اللحظة التى ستذكره فيها، ولذلك لم تطعها الكلمات، عندما توشك على الكلام تبدأ فى البكاء.

سأل "سباستيان":

- ماذا تريدين قوله؟ هل يبحثون عنك؟ حدث شىء؟

هى تهز رأسها نافية، تقول لا وتقول نعم، دون أن تتمكن من إصدار كلمة واحدة.

- دعها حتى تهدأ.

قالت "فلور" لـ"سباستيان"، واقتربت منها مربتة على كتفها وتقدم لها مزيدًا من الماء.

كان عليها تعجل بإخبارهم، كانت تراهم متوترين مع كل دقيقة تمر، شعرت بالانتباه فى البيت، وضوضاء خطوات فى الطابق الأعلى، وأشياء تتحرك. وأخيرا قالت:

- لم يتبعونى فى طريقى إليكم، لا تقلقوا، لايبحثون عنى، لم يحدث أى شىء مع الحرس.

أخذت شهيقًا عميقًا من الهواء، وكان يجب عليها أن تواصل، عليها أن تذكر اسم "فيليبى"، فى تلك اللحظة، عليها رؤية "فيليبى" يموت فى عينى "سباستيان" و"فلور"، يجب أن تقوم بذلك الآن، الآن بعد أن هدأ النشيج ويمكنها أن تتكلم:

– ما حدث هو أن "فيليبى"- شربت من الماء وتنفست بعمق - سطا "فيليبى" على تاكسى، واعتقد السائق أنه لص، وأطلق عليه النار عن قرب، ومات "فيليبى" فى بيتى، منذ نحو الساعة، وربما قبل ساعتين، هذا كل ما حدث.

والآن تجرى دموعها على الخدين ولكن النشيج بدأ فى الهدوء، كانت تحاول أن ترى "فيليبى"، فى كل مرة تتجلى فيها صورة "فيليبى" فى ذاكرتها، يعود النشيج، حاولت التفكير فى شىء آخر، فى كراسى الصالة، فى ذلك المكان، القاحل، المهمل، والجدران الشاحبة، لم تكن تريد أن ترى وجهى "فلور" و"سباستيان".

– عليك أن تبذلى جهدًا ـ قال لها "سباستيان" ممسكا بيدها وراكعًا أمام الكرسى - وستحكى لى ما حدث ببطء خطوة خطوة.

كررت ما قالت على أفضل ما استطاعت، راشفة رشفات من الماء، ومستخدمة المنديل الجاف الكبير الذى قدمته لها "فلور"، التى كانت تقف إلى جوارها، موازنة لها رأسها.

– سنرسل رفيقًا لرؤية ما حدث فى بيتك ـ قال "سباستيان" متوجهًا إلى "فلور"- أنت ستبقين هنا.

قال "سباستيان":

– اعطنى مفاتيح السيارة.

قالت "لافينيا":

- انتظر، لا تذهب، يجب أن أقول لكم شيئًا آخر، أراد "فيليبى" أن أحتل مكانه، وأصرّ، قال إننى أعرف البيت، وإنه يثق فىّ، وإنه يجب أن أقوم أنا بذلك، وإنه يجب أن آخذ مكانه.

- حسن، حسن، سنتحدث فى هذا فيما بعد.

- لا، يجب أن أقوم بذلك، "سباستيان"، من فضلك، لقد طلب منى "فيليبى" ذلك قبل أن يموت، وطلب منى أن أصرّ على ذلك.

- سنتحدث فى هذا فيما بعد.

قال "سباستيان" وخرج دون أن يترك لها وقتًا لتواصل حديثها.

قالت "لافينيا":

-"فلور" من فضلك، يجب أن تساعدينى، يجب أن أقوم بذلك، أنا أعرف ذلك البيت أفضل من أى شخص آخر.

- نعم، نعم، لا تقلقى، انتظرى حتى يعود "سباستيان"، فهو لم يقل لا، فقط أنه يجب الآن القيام بأشياء أخرى أكثر أهمية، ارتشفى بعض الماء.

- ٢٥ -

مات عند بزوغ الفجر، عاد إلى جانب الشمس، إنه الآن رفيق النسر، "كواكتيكال"، إنه رفيق للنجم، وخلال أربع سنوات سيخف وينزلق، متعرجًا، ويطير من زهرة إلى زهرة فى الهواء الرطب.

إن الذرة والأشجار تولد فى الغرب، فى "تامونتشان"، حديقة آلهة الحياة الأرضية، تقوم بعدها بالرحلة الطويلة للتوالد تحت الأرض. آلهة الماء: "كيوتى"، و"تلالوك"، و"تشاك" تقودهم وتشجعهم حتى لا يفقدون الاتجاه وينبعون من جديد فى الشرق فى منطقة الشمس البازغة، بالشباب والثراء، الوطن الأحمر للفجر حيث يُسمع غناء الطائر "كيتزالوكوكوتلى(*)"، لا البشر ولا الطبيعة محكوم عليهما بالموت الأبدى، إن الموت والحياة ليسا سوى وجه القمر: وجه وضّاح، وآخر مظلم.

تنبت الحياة من الموت كحبة ذرة، تتحلل فى أحضان الأرض وتولد من جديد لتغذينا.

(*) إنه طائر البلاد الساخنة الأسطورى الذى يغنى - من أسطورة اثيكية.

كل شىء يتغير، كل شىء يتحول.

إن روح "فيليبى" نفخت ريحًا فى أفرعى، وهو يعرف الآن إنى موجودة، وإننى أسهر من دم "لافينيا" على حراسة المكتوب فى ذاكرة المستقبل، إنه سينظر إليها من مسيرة النجوم التى تتبع الشمس حتى تصل إلى الحمل، يظل يتبعها ببصره، ويلقى إلىّ حرارته حتى أحافظ عليها.

إن دم "لافينيا" يغلى تمامًا كخلية تشتعل، ولإسكات بكائه لن يتم سوى بالحجارة والألم حين يتشكلان سهاماً مسمومة، تمامًا مثل ألم "ياريني" الراكع أمام جسدى المسجى.

حمل رجلان مثاران بالغضب جسد المحارب الشهيد، ألبساه ملابس نظيفة، وضمضا جراحه العميقة.

حملاه على الأكتاف، كان يبدو وكأنهما يحملان رجلا ثملا بالعرق.

***

أخذتها "فلور" إلى غرفة صغيرة على أرضيتها حشيتين نحيلتين وطويلتين، وقالت لها أن تحاول الاستراحة لبعض الوقت لحين تخبر الآخرين بما حدث.

بعدها بقليل، سمعت "لافينيا" فى الخارج همهمة أصوات، أصوات أناس يتحركون، وبعدها ساد صمت

وصوت "فلور" يقول شيئًا عن "فيليبى"، لم تكن قادرة على التمييز بين الكلمات، كانت تسمع من وقت إلى آخر اسم "فيليبى"، عدا ذلك كان يبدو غير مفهوم، نظرت إلى الجدران، خضراء متهالكة الطلاء، كان الوقت باردًا، ضمت جسدها بذراعيها، لم تكن هناك من طريقة لإبعاد ذلك الزمن الذى يجرى داخلها، مشوها بالموت والألم.

عادت "فلور" حاملة بين يديها فنجانًا معدنيًا، قهوة بالحليب، وقطعة خبز مدهونة بالزيد. قالت:

– ألا تريدين تناول بعض الإفطار؟ سيشعرك بالتحسن.

وضعته على الأرض، بالقرب منها وجلست على الحشية الأخرى.

قالت "فلور" كما لو كانت تحدث نفسها:

– شىء لا يمكن تصديقه، أكاد لا أصدق أن "فيليبى" قد مات، هذا يحدث لى مؤخرًا، لا أستطيع أن أصدق موت الرفاق، لا أشعر بشىء، لا أعرف إن كان فى يوم ما قريب سأبكى دون توقف، البكاء من أجل من لم أبكيهم. نقول إنه علينا أن نقبل أن الموت جزء من المهنة. أن نراه أمامنا، دون أن نخفض نظرتنا، أن نراه بشكل طبيعى، وأفكر إننا ـ ببساطة ـ نرفضه، ونظل نواصل الاعتقاد فى أننا سنرى الرفاق أحياء، ونفكر أنه يوم النصر سوف نلتقى بهم جميعًا، وأنه عندها سوف ننتبه أنهم قد ماتوا، وأنهم مختفون فى مكان ما...

كانت "لافينيا" تخفى وجهها بين ركبتيها المضمومتين إلى صدرها وتهتز دون أن تتمكن من البقاء ساكنة.

- هل مات منك وأنت وحيدة معه؟ هل كنت معه وحدك؟

قالت "لافينيا":

- نعم، عندما شاهدته فكرت أنه قد يحدث بين لحظة وأخرى، ولكن بعدها، عندما كنا نتحدث، رفضت أن أقبل أنه يمكنه أن يموت، وحتى بعد وصول "أدريان" وقوله لى، لم أصدقه، وبعدها حتى، دخلت الغرفة لأرى إن كان قد غير من وضعيته، إن كان قد تحرك، لكن لا شىء.

- وهل شرح لك هو أن العملية اليوم فى بيت "فيلا"؟

- نعم، وقال لى إنه يجب أن أحتل مكانه، لأنه مدين لى به لأنه هو الذى عارض مشاركتى، وقال لى "أنت شجاعة"، "يمكنك أن تقومى به، ولا تقبلى أن يقولوا لك لا".

-لكن ألا ترين صعوبة فى انضمامك الآن؟ نحن أعضاء المجموعة أمضينا شهرين مجتمعين، نتدرب، ونمارس التدريب على تنفيذ خطط العملية.

- لكن أنا أعرف البيت أكثر من أى أحد، أنا كنت هناك، وأنتم لا، أنا من رسم البيت.

– لكن هذا ليس كل شيء، "لافينيا"، نحن نعرف الخطط جيدًا.

– نعم، أنا أعرف هذا، أنا من قدم الرسومات إلى "فيليبي"، ولكن أجريت عدة تعديلات بعد ذلك.

– لكن الأساس لم يتغير.

– لا، لكن أجريت بعض التغييرات، أنا يمكنني أن أكون مفيدة، ليس الأمر نفسه رؤية تخطيطات ومعرفة المكان على الطبيعة.

كانت محقة، وقبلت "فلور"، لكنهما يجب انتظار "سباستيان".

بقيتا في صمت. ثم قالت "فلور":

– أتشعرين ببعض التحسن؟ أليس كذلك؟

– لا أعرف، لا أعرف ماذا أشعر، لا يبدو لي أي من الأشياء التي تحدث قد حدثت بالفعل.

قالت "فلور":

– يجب أن تكوني قوية، بخاصة إذا كنت تريدين المشاركة في العملية، لا يجب أن يراك "سباستيان" منهارة على هذا النحو، يجب أن تبذلي جهدًا لاستعادة وضعك الطبيعي، أن تتخلي عن نظرتك التائهة تلك، كالسائرة في النوم، يجب أن تفعلي ذلك، أن تفعلي ذلك من أجل "فيليبي"، إنه كان ينتظر ذلك منك.

– إنه محزن، أن يعترف في النهاية، إنه يمكنني أن أشارك، أليس كذلك؟ إنه محزن.

مسدت "لافينيا" شعرها بيدها، وعدلت من وضع القميص فى البنطلون، إن "فلور" على حق، يجب أن تتغلب على الألم إن كانت تريد المشاركة، قرّبت فنجان القهوة بالحليب وبدأت تشرب منه رشفات وقضمت الخبز.

كانت "فلور" تنظر إليها فى صمت. قالت "فلور" بعد فترة صمت طويلة:

- كان أكثر حزنًا أنك لم تتعرفى عليه أكثر... "لافينيا"، كانت لدى "فيليبى" مشكلاته، وأنت كنت تعرفينها أكثر من أى شخص آخر، ولكن الحركة كانت تعرف أنك قد أبديت شجاعة واستعدادًا، وقررنا مؤخرا أن نمنحك العضوية، كنا سنخبرك بعد العملية لكنى أعتقد أنه من المهم أن تعرفى الآن، وأنا أيضًا كنت أريد أن أخبرك، يحدث ما يحدث، يمكنك الاعتماد علىّ، أنا أحبك كثيرًا، أحبك كشقيقة، أعرف أنك تمرين بلحظات صعبة، لكنى أثق أنك ستخرجين منها أكثر قوة، أنا من رأيتك تتغلبين على شكوكك، أعرف أن لدى أسبابى لثقتى فيك، أسباب لاحترامك، لقد قررت الانضمام إلينا، وأن تخاطرى بكل شىء، وأن تضعى حياتك فى خط النار، كل هذا له قيمته وأعدك بالدفاع عنك ليسمحوا لك بالمشاركة انطلاقًا من قدراتك، ليس لأن "فيليبى" طلب منك ذلك، ولكنك لأنك تستحقين ذلك.

تعانقتا بقوة، وبكيتا فى صمت، بلا نشيج، نظفت "فلور" وجهها بظاهر يدها وخرجت تاركة "لافينيا"

هادئة وجادة، بإحساس بالحرارة، والسكون الداخلى.

فى الخارج، كان الرفاق يستعدون، كل شىء كان مثيرا، إنهم ينتظرون تلك اللحظة منذ شهرين، ولذلك فقد تدربوا بحرص شديد، لم يكن يعرف أى منهم تماما تفصيلات الاستعداد، سوف يقوم "سباستيان" بشرح كل شىء عند عودته، وخلال ذلك، أصدرت "فلور" تعليماتها لمحو كل الآثار من البيت، وأحرقوا كل الأوراق، وتم حفظ الملابس التى لن يستخدموها فى أكياس، ونظفوا الأسلحة.

كانت المجموعة الأصلية مكونة من أربع نساء وتسعة رجال.

والآن، بعد موت "فيليبى"، لا بد من التأكد من أن هناك خمس نساء يشاركن.

عاد "سباستيان" عندما كانت "لافينيا" قد انتهت من الاستحمام، كانت "فلور" قد أخذتها إلى غرفة حمّام صغيرة. وقالت لها: "إن الماء بارد جدًا، لكنك ستشعرين بالتحسن".

نزل الماء البارد على جسدها مثل كرباج، ماء الصباح البارد، جعلها تقشعر، وأعاد إليها الحيوية، وقفت تحت الدش، وجعلت الماء يجرى على وجهها، وشعرها الطويل الكثيف، كانت تود غسل الصور الرهيبة للساعات الأخيرة، وعينيها المثقلتين بالبكاء، لكن الإحساس بالماء على الوجنتين أطلق الدموع من

جديد، ولكنها دموع هادئة، قانطة، دموع كانت مرغوبة مع الحنين.

ارتدت ملابسها، وجاكيت "فيليبى" الأزرق، توقفت الآن عن البكاء، لم تعد تستطيع البكاء أكثر من هذا، لم يعد هناك مكان للبكاء حتى تتحدث مع "سباستيان"، بدأت الشمس تنشر الدفء، لكن المناخ فى هذه المنطقة بارد خاصة فى تلك الحقبة من السنة.

خرجت إلى الصالة، كانت تنتظر أن ترى أشخاصًا آخرين لكنها لم تشاهد سوى "سباستيان" و"فلور"، كانا منحنيين أمام مجموعة من التخطيطات المفرودة على طاولة طعام من الألومنيوم والفورمايكا.

رفع "سباستيان" رأسه، عندما شعر بوصولها. قال:

– تبدين أفضل الآن.

ابتسمت "لافينيا" قائلة إنها تشعر أنها أفضل، وأن الماء أعاد إليها حيويتها، ونظرت إليهما محاولة تبين ما يعبران عنه فيما يختص بها.

سألت، محاولة أن تبدو رنة صوتها متوازنة:

– هل قررتما إن كنتما ستتركانى أشارك؟

قال هو:

– نعم، ستشاركين، نعتقد أن معرفتك للبيت، بالطبع قيمة، ومع ذلك، علينا أن نُعدك بتدريب سريع،

لدينا القليل من الوقت، نحو عشر ساعات تقريبًا، والرفيق رقم عشرة سوف يعلمك كيف تستخدمين السلاح، وأنت سيكون رقمك الاثنى عشر، أنا رقم صفر و"فلور" الرقم واحد، من الآن نتعارف بالأرقام، لا يجب أن تذكرى أسماءنا أمام الآخرين، سوف نجتمع خلال لحظات، لإعادة مراجعة تفاصيل العملية.

ستشارك، فكرت "لافينيا"، لقد ضموها إليهم، شعرت للحظات أنها سعيدة تقريبًا.

كانت تعبيرات وجه "سباستيان" متوترة، مؤكد أنها لن تسمع هذه المرة بكاءه الصامت - الحشرجة الحيوانية لتلك الليلة البعيدة فى بيتها ـ ليس هناك وقت الآن، ولا مكان للبكاء، إلا أن "لافينيا" يمكنها أن تشعر بالألم يلفها فى دائرة من الحراب الحادة.

قالت "لافينيا":

- شكرًا، فقط شىء واحد، هل تم معالجة موضوع "فيليبى"؟

قال "سباستيان":

- نعم، وأيضًا أمكن تحديد مكان سائق التاكسى، وأقسم أنه لو كان قد عرف عن جماعة عمل الحركة ما كان قد أطلق عليه النار، قال إنه يحترمنا، وكما قال فإن "فيليبى" لم يقل شيئًا حتى بعد إطلاق النار، وهو تحت سيطرتنا الآن، هذا الرجل التعس.

أكد ذلك بغضب وقنوط.

كيف يكون الرجل الذى قتل "فيليبى"؟ فكرت "لافينيا"، لم تشعر بكراهية نحوه، لم تعرف ماذا شعرت، كانت تود أن تراه، ربما، لكنه لم يكن مهما، لماذا؟ ماذا يفيدها ذلك الآن؟ الحقيقة أن "فيليبى" قد مات ضحية للعنف الذى يلف البلاد، عنف شوارع الأرض، وعنف السكارى فى الكانتينات، وأكواخ حافة الحوارى غير الصحية، واللصوصية واعتقالات منتصف الليل، وصور الموت فى الصحف، وقوات الحرس الوطنى تجوب الشوارع، ورجال يرتدون خوذات القتال الخشنة ووجوههم الشمعية، والقوات الخاصة وشعاراتهم المرعبة، وعائلة الجنرال الأكبر.

فى مواجهة كل هؤلاء يجب توجيه الغضب والشجاعة.

غابت فى التفكير، وكانت "فلور" تنظر إليها، ونظرة "فلور" جعلتها تستعيد نفسها، وقال "سباستيان"، منحنيًا وهو يقرب التخطيطات:

- تعالى، أحب أن تلقى نظرة أخيرة على هذه التخطيطات.

اقتربت، تذكرت المساء الذى طلب منها "فيليبى" هذه التخطيطات، لقد أخرجوها من المكتب لتصويرها دون أن يشعر أحد، لم تكن راغبة فى تقديمها له، كان عليها أن تقبل حدًا آخر حتى تقبل أخيرًا، لم يشرح لها "فيليبى" أسباب حاجته إليها، وقال لها "إنه فقط يريد الحصول عليها، ربما تكون مفيدة فى يوم ما،

علينا أن نجمع كل ما نحصل عليه، وتذكرى عندما ذهبت إلى مكتب "فيلا" طلبنا منك أيضا أن ترسمى لنا كروكيًا له".

وكانت النسخة المفرودة على الطاولة مطابقة تماما عدا بعض التغييرات التى تمت فى الساعات الأخيرة: البرجولا أكبر فى الشرفة، والشواية تحت السقيفة، وغرفة الخياطة... الشىء الوحيد المهم الذى لم يكن فى التخطيطات كان النظام المعقد لإغلاق الأبواب الذى أمر الجنرال بوضعه لعزل المستويات المختلفة عن بعضها خلال الليل، وطلب هذا لمنع أى لص ليلى من الحركة من مستوى إلى آخر، وكل مستوى يمكن أن يكون منعزلا عن البقية، من خلال مزاليج محكمة. قال "سباستيان":

– هذا مهم جدًا، يقلقنا إمكانية الدخول، والمرور من مستوى إلى آخر.

قالت "لافينيا":

– لا نعرف إن كان الجنرال سيترك الممرات مغلقة أم لا، هذا من المفترض أن يعمل ليلا، عندما يذهبون للنوم.

قال "سباستيان":

– ولا، فيمكننا أن نفتحه نحن، ما إن نجمع الناس فى مستوى... والفناء؟ ماذا تقولين لنا عن الفناء؟

كان الفناء محاطًا بالأسوار، ولم تكن هناك إمكانية أن يخرج أحد من هناك، فالبيت كان محصنًا. وسألت "فلور"، وهى تنظر إلى "لافينيا":

- ولغز الجدار الذى شرحته لى.

رفع "سباستيان" عينيه، حرك حاجبيه منتبها. قالت "لافينيا"، مشيرة إلى الاستوديو الخاص على الرسومات:

- إنه هنا، يحتفظ الجنرال بأسلحته فى هذه الغرفة، مرصوصة على أرفف على الحائط، والحائط متحرك، إذا لم تشاهد الأسلحة، يعنى هذا أنها على الجانب الآخر، مخفية.

وسأل "سباستيان":

- وكيف يكون هذا؟ إنه غير موجود فى التخطيطات.

قالت "لافينيا":

- لا، موجود فى تخطيط منفصل.

أشار "سباستيان" إلى "فلور":

- من الأفضل أن تنادى على الآخرين، سنقوم بآخر تشكيل مغلق ونقدم لكل واحد التعليمات الخاصة به، ومهم أن يسمعوا هذا.

اختفت "فلور" فى السلم المؤدى إلى الطابق العلوى، وبعدها بدقائق، هبطت المجموعة حسب ترتيبها.

كانوا سبعة رجال وثلاث نساء، تعرفت "لافينيا" على "لورينثو" و"رينيه"، مدربا المدرسة العسكرية التى حضرت تدريباتها، لم تتمكن من إخفاء دهشتها عندما شاهدت "بابليتو"، صديق طفولتها، الذى رقصت معه فى حفل النادى الاجتماعى، والذى قال إنه يعمل فى المكتب الحديث الإنشاء "مكتب الدراسات الاجتماعية للبنك المركزى"، "بابليتو"، الرقيق، والذى طبقًا لرأى "سارا" غادر البلاد ليعمل فى بنك فى بنما، كانت الدهشة مزدوجة، كان الاثنان على وشك أن يكشفا عن هويتهما من المفاجأة لكنه أشار إليها أن تتصنع عدم الاهتمام، الرجلان الآخران لم يكونا معروفين لديها، تمامًا كالنساء الأخريات، إحداهن كانت صغيرة، ملفوفة جيدًا، وشعرها أسود، مسترسل، كستنائى وبعينين لوزتين لهما نظرة حلوة، وكانت هناك أخرى سمينة وسمراء، ولها تعبيرات رقيقة، وأخرى، جادة وممتلئة قليلاً، أكبر سنًا من الأخريتان. بخلاف تلك الأخيرة، حسبت أن معظم أعضاء المجموعة ما بين العشرينيات والثلاثينيات من العمر.

عندما كانوا جميعًا فى الصالة، أصدر "سباستيان" أوامره بالانتباه، وقفوا جميعا فى صف واحد، وأشارت عليها "فلور" أن تصطف إلى جوار الآخرين، وقفت آخر الصف، كان رقمها الثانى عشر.

– انتباه.

تحركوا جميعًا واتخذوا الاصطفاف العسكرى.

أمر "سباستيان":

- ذكر الأرقام من الأول إلى الأخير.

بدأ العد، كان "بابليتو" رقم تسعة، و"لورينثو" و"رينيه" رقم اثنين وخمسة، والفتاة ذات العيون اللوزية رقم سبعة، والسمينة اللطيفة رقم ثمانية.

- استرح.

خففوا من تعبيرات وجوههم وصدورهم ولكن لم يتحرك أحد من مكانه، وقف "سباستيان" أمام المجموعة وبدأ فى الكلام، كان تقليديا فى الحركة شرح الأسباب السياسية للعملية، والتأكيد على معناه، و"لافينيا" مثلها مثل الآخرين، استمتعت فى صمت واحترام وانتباه لكلمات "سباستيان" الحازمة، الذى شرح كيف أن الحركة وثقت فيهم، وفى قدرتهم على تنفيذ عملية "ايوريكا"، وقال، كانت واثقة فى الجميع، وعلى كل واحد أن يضع اسمه من أجل الحركة وبذلك يؤكدون على وجود النضال فى المدن والجبال، ضد قمع وعنف الدكتاتورية.

بهذه العملية، واصل قوله، سيتم كسر الصمت الذى حافظت عليه الحركة لعدة سنوات.

- وأحد أعضاء هذه المجموعة قد مات فجر اليوم... إنه الرقم ١٢.

قال بعد فترة صمت.

نظرت "لافينيا" إلى وجوه الآخرين. بدا عليها الدهشة والحزن.

ببساطة، حكى "سباستيان" وقائع أحداث موت "فيليبى"، وقال "هذه متطلبات العمل..." وإن "فيليبى" يجب أن يعيش بينهم، وأضاف أن العملية ستتم فى ذكراه، وتقرر أن تحمل اسمه، إن موت "فيليبى"، وموت العديد من الرفاق يدفعنا إلى تحقيق الأحلام التى قدموا حياتهم من أجلها.

توقف "سباستيان"، نظر إلى الأرض للحظات، رفع رأسه، وقال بصوت قوى وخشن:

- الرفيق "فيليبى ايتوربى".

- حاضر.

قالوا جميعًا.

كانت هناك لحظات صمت لاستعادة الذكرى التى لم تتمكن فيها "لافينيا" من تخيل موت "فيليبى"، وفكرت مرات كثيرة فى كل ما يحدث من حولها، وسمعت "حاضر" كصدى بعيد ومرعب.

واصل بعدها "سباسبتيان" شرح أن العنف لم يكن اختيارًا، بل فرضا، والحركة تناضل ضد هذا العنف، وتفترض نظامًا عادلا، ولا يمكن إقامته إلا بعد نضال شعبى طويل، والأمر لا يتعلق ببيع أحلام على المدى القصير، ولا مجرد تغيير أشخاص، ولكن تهدف إلى تغييرات أكثر عمقًا، وليست مجرد حلم بنهاية نظام يطيل من وضع الأشياء على حالها، هذا يجب أخذه فى الاعتبار بوضوح، حتى يمكن فهم وإيضاح لماذا لم يتم تنفيذ العملية حتى يغادر الجنرال الأكبر البيت.

قال، إن هذه العملية مجرد بدء مرحلة جديدة، تم وضعها لتخفيف الضغط على رفاق الجبل، المحاصرون والمطاردون منذ أشهر، وفتح جبهات جديدة.

وأخيرًا شرح المطالب التى سيطالبون بها: إطلاق جميع المعتقلين السياسيين، إذاعة وتطبيق جميع البيانات فى جميع وسائل الإعلام التى تشرح للمواطنين أسباب العملية، وإن مطالب المجموعة غير قابلة للتفاوض.

قال إن العملية ستجرى تحت شعار: "وطن حر أو الموت"، لا تراجع عنها، إما أن يخرجوا منتصرين أو أن يموتوا.

وقال بعد ذلك بصوت مرتفع رنّان: "ننتصر أو نموت"، الشعار "وطن حر".

أجابوه جميعًا بصوت مجموعة واحدة:

- أو الموت.

- فضوا الصف.

وأمر "سباستيان"، وكان منفعلا بشكل ظاهر، كان موت "فيليبى" يبدو ثقيلا فى الهواء، وعلى الوجوه الجادة.

من المفترض أنه مرعب بالنسبة إليهم، فكرت "لافينيا"، البدء فى العمل فى ظل هذا الموت القريب فى أذهانهم، كان صعبًا عليها الخروج من الصف، أن تتحرك من حيث كانت، جاءها فجأة التفكير فى

فداحة ما يفعلون، وهى، بين كل هذا، لا تزال حديثة العهد، كانت مرتعبة من فكرة ارتكاب خطأ يعرضهم للخطر، أن تتسبب فى تعريض العملية التى جرى الإعداد لها بحرص، والتى تعنى الكثير بالنسبة إلى مستقبل الحركة، ولكن الثقة التى وضعوها فيها كانت تشجعها، تجبرها على التغلب على شكوكها ومخاوفها الناتجة عن عدم خبرتها. قالت لنفسها إنه عليها أن تكون قادرة.

قال "سباستيان":

- والآن علينا أن نقف على هيئة شبه دائرة حول الطاولة، سأقوم بشرح التفاصيل لكم، الرفيقة رقم ١٢ كانت منغمسة فى تخطيط البيت - مشيرًا إليها بشكل تقديمى ـ ستشارك معنا فى العملية، وهى ستقوم بشرح التفاصيل الداخلية.

نظر إليها أعضاء المجموعة بانتباه، بإحساس التعاطف والرفقة، إنها واحدة منهم، تقدمت إلى جانب "سباستيان"، الذى كان يتحدث مشيرًا إلى التخطيطات، قال هو ممررًا أصابعه على جميع أركان البيت والذى فكرت "لافينيا" أنهم ربما يعرفونها أكثر منها:

- للبيت مدخل رئيسى ولكن يمكن الدخول أيضًا عبر الجراج، وفى المستوى الأول هناك ثلاث صالات، منفصلة بحدائق وممر، ولغرفة الطعام سلم للهبوط إلى المستوى الثانى، وغرفة حمّام للضيوف والمطبخ،

وفى الجدار الأيسر هناك باب يؤدى إلى الجراج والصالة.

كانت هى تنظر إلى المخطط دون أن تراه تقريبًا، فيما كان "سباستيان" يشرح المستوى الثانى، وغرف النوم، وغرفة الموسيقى، ومعرض السلاح، وغرفة الخياطة الصغيرة... فقدت هى خيط الكلام، تذكرت أشهر العمل التى تمحورت جميعا لتصبح أساس هذا العمل المخطط لذلك البيت، ذلك البيت المتسبب فى موت "فيليبى"، ما كان أن يموت "فيليبى" لو أن الشقيقتين "فيلا" لم تأتيا إلى مكتبها فى ذلك المساء البعيد فى ذاكرتها، بدا كما لو كانت تشاهدهما من جديد فى الثانية بعد الظهر. تذكرت رؤيتها الأولى للآنسة "اثوثينا"، الآنسة "مونتيس"، تخيلات تم تعديلها فيما بعد من خلال الواقع؛ لأنها كانت تعتقد أنها تمثل دور العانس، التى تشغل كامل وقتها فى حماية شقيقتها التى تعطف عليها، الشقيقة المهووسة فى سبيل الارتقاء إلى "الطبقة الاجتماعية" كما يسميها من لا طبقة لهم... فكرت فى ابن "فيلا"، الحالم بأن يصبح طائرًا.

– ماذا قلتِ عن نظام عمل المزاليج؟

سأل "سباستيان" معيدًا لها إلى الصالة، وأمام الرفاق الذين كانوا ينظرون إليها. قالت "لافينيا" محاولة أن تبدو أنها كانت منتبهة خلال التقديم:

– هناك زوج من المزاليج المتداخلة. الأول فى غرفة الطعام، والثانى، بين الأستوديو الخاص وغرفة

الخياطة فى المستوى الثانى. الأول يعزل منطقة الحياة الاجتماعية عن غرف النوم ومنطقة حياة الأسرة، الأكثر عائلية، والثانى، يقسم منطقة الخدمة. من المؤكد أنه خلال الحفلات تكون كل المزاليج مفتوحة، وأعتقد أن الجنرال وزوجته يريدون أن يشاهد الضيوف كل البيت.

- وحكاية الأسلحة؟

- الأسلحة موجودة فى أستوديو "فيلا"، فى مواجهة الباب هناك جدار من الخشب، والجدار يدور حول نفسه، يمكنه أن يحافظ على الأسلحة معروضة أو مخفية كما يريد، فإن لم تروها، يكون من الضرورى تشغيل الميكانيزم الموجود خلف مفتاح الإطفاء المزيف على الجدار الأيمن، هنا ـ قالت فانحنوا جميعًا ـ لفتح مفتاح الإطفاء يتم شد شنكل صغير وبعدها يتم رفع العتلة التى تستخدم كمزلاج، هذا يترك أجزاء الجدار حرة. وأنا أعتقد أنه سيحتفظ بالأسلحة معروضة خلال الحفل.

قال "لورينثو":

- لم نكن نعرف شيئًا عن هذا.

قالت "لافينيا":

- لا أحد يعرف شيئا، ولا حتى "فيليبى"...

- والأجزاء المقامة بالقرب من الحديقة، حمّام السونا والجيمنازيم وغيرها؟

قاطعها "سباستيان" بصوت آمر.

قالت "لافينيا" مشيرة إلى التخطيط:

- هناك يمكنكم أن ترونه، بجانب حافة حمّام السباحة، هذه المنطقة بها حمّامان بدش، وغرفتى تغيير ملابس، وغرفة جيمنازيم، وفى هذه المنطقة المنقسمة إلى حمّامات وغرف تغيير الملابس أمام الساونا، يوجد بار، منطقة اجتماعات مسقوفة. ـ هذا المكان هو الذى لم نفهمه.

قالت السمينة رقم ٨

هناك مدخل مباشر من حمّام السباحة، إلى المستوى الاجتماعى أو العائلى: هذا الممر المرصوف بالأحجار الصغيرة يمكن رؤيته هنا، وهذه المداخل بها أيضا مزاليج وشناكل.

قال "بابليتو" رقم ٩:

ـ البيت محصن جيدًا...

واصلت "لافينيا" شرح المداخل، والمناخات، كانت تتحدث ببطء، كانت تعرف البيت جيدًا، إنه نتاج عملها، وفكرتها، والآخرون كانوا ينظرون إليها باحترام.

سأل "سباستيان"، رقم (صفر) ورئيس مجموعة العمل:

- وفى الأستوديو أى أسلحة؟ هل تعرفين؟

قالت "لافينيا":

- يوجد من جميع الأنواع، بنادق ومسدسات ورشاشات صغيرة.

كان رأسها يؤلمها بشدة.

أخرجت "فلور" ورقة وشرحت أنهم سينقسمون إلى ثلاث مجموعات من أربعة رفاق فى كل مجموعة. واحدة من المجموعات تدخل من المدخل الأمامى، وأخرى من مدخل الخدمات، الموجود إلى جوار المطبخ، والثالثة تدخل من الجراج، ورئيس المجموعات كلها رقم (صفر) لم يكن محدداً له مكان، فى أى من المجموعات، لأن عليه أن ينسق عمل جميع المجموعات ويدخل مع المجموعة رقم ٢ من البوابة الرئيسية، قال "سباستيان":

- الأكثر أهمية، هو الدخول، من يبقى فى الخارج محكوم عليه بالموت. والمجموعة الثانية وأنا سنتكلف بإخراج الأسلحة من الغرفة تلك وتوزيعها.

على رؤساء المجموعات التأكد وهم بالداخل من إغلاق المداخل، والمجموعة الأولى التى ستدخل من مدخل الخدمة عليها أن تنضم إلى الأخريتين فى مدخل المستوى الثانى للبيت والثالثة عليها أن تحيط بالبيت، ومراقبة حافة حمّام السباحة وتسلم الضيوف الذين سيوجدون هناك، والدخول بهم من المدخل المؤدى إلى المستوى الثالث، وبعد التأكد منه الدخول إلى المستوى الثانى وبعدها أخذ الأسلحة وتقسيم الضيوف إلى مجموعات لتسهيل مراقبتهم، وضمان

الدفاع ومراقبة السكن. ويتم ضم جميع الضيوف فى المستوى الثانى، الأكثر أمنا.

الأكثر دقة وخطورة كانت اللحظة التى سيهبطون فيها من السيارات. أشار "سباستيان" إلى مجموعة التخابر التى ستقوم بالإحاطة بالبيت، بأنه سيتم قبل الدخول تنبيههم تليفونيًا بكل المعلومات عن جهاز الأمن الذى سيقوم بحراسة الضيوف بعد ذهاب الجنرال الأكبر.

كانوا يعرفون ـ من خلال مصادره ـ أنه سيحضر عدد من السفراء إلى الحفل، إضافة إلى قيادات عليا من القوات المسلحة، وأسماء معروفة من البلاد وعدد من أفراد عائلة الجنرال الأكبر.

قال "سباستيان":

– عندما نهبط من السيارات سنطلق النار على كل شىء يتحرك، وركاب السيارة الأولى يجب أن يفتحوا الطريق نحو البوابة، وركاب السيارة الثالثة يقومون بتغطيتهم بينما يتقدمون، علينا أن ندخل بأسرع ما يمكن على شكل قبضة واحدة.

قال "بابليتو" متوجها إلى "سباستيان":

– يا صفر منذ البداية كان يقلقنى أننا لسنا عددًا كافيا للسيطرة على عدد الناس الذين سيكونون فى الحفل.

ـ حسبنا أن عددًا كبيرًا منهم سيغادر عندما يذهب الجنرال الأكبر.

أضافت "لافينيا":

- وكثير من الناس لن يأتوا، فالجنرال "فيلا" ليست له شعبية اجتماعية.

- من الجنرال الأكبر وعدد الناس سيكون مرهونًا باللحظة التى ندخل فيها للقيام بالعملية، على أى حال، من المهم أن نتذكر أنه لا يجب معاملة الضيوف معاملة سيئة، ولا إطلاق النار عليهم، عدا فى حالة الهجوم، الأفضل هو الخروج من هناك بأقل عدد ممكن من الضحايا بين المدنيين، لا نريد ولا يمكننا أن نقوم بمذبحة، ضرورى أنه على الرهائن أن يفهموا أنهم يتعاملون مع ثوريين، وليس مع قتلة ولا أشرار.

مجموعة العمل، وإن كانت لم تعرف الهدف المحدد وأسباب الأمان فإنهم كانوا يدخلون لنوع من العمليات التى يجب القيام بها، وتدربوا خلال أشهر، كما قالت "فلور"، على مناورات للتعرف على أسلحتهم، والآن يقوم أعضاء المجموعة بمراجعة كل التفاصيل والحركات، وتواصلت الأسئلة للحظات طويلة، إلى أن بدا أن الجميع مقتنع وواضح، إلى أن تمكن كل واحد منهم من تخيل العملية خطوة بخطوة لكل ما سوف يحدث.

حينها أشار "سباستيان"، أن يبدأوا الاستعداد للعمل، والقيام بما يجب فى المرحلة السابقة على العملية فورًا.

أصدرت "فلور" تعليمات للمجموعة لمراجعة حقائبهم المحمولة "جريندية" التى تحتوى على المؤن المعلبة والذخيرة، والبطاريات والماء... ما سوف يحتاجونه فى حال استمرار الحصار لفترة طويلة، وقنابل دخان، والجراح، وأيضا وجهت آخر مراجعة للسلاح المحدد لكل واحد منهم. وتحدثت مع الرفيقة المكلفة بالمطبخ أن تعد وجبة خفيفة، مبكرًا، مهم أن يكون الهضم قد تم عندما يبدأون فى تنفيذ العملية تحسبًا لأية إصابة فى المعدة. لأنها ستكون أكثر خطورة فى حالة المعدة الممتلئة.

أشارت على "لافينيا"، أن تتوجه إلى غرفة فى العمق مع الرقم خمسة، لتلقى تعليمات عن استخدام السلاح، الذى كان عبارة عن رشاش صغير من ماركة "مادزين"، قديم ومرمم.

النشاط المحموم فى البيت جرى بنظام، والحقائب تم مراجعتها، بعرضها على الأرض، والمؤن المتراصة فى كل حقيبة، كان "سباستيان" يناقش تفاصيل أخرى للعملية مع رؤساء المجموعات، "فلور" والرقم اثنان والرقم ثلاثة.

كانت الساعة الثانية عشرة ظهرًا.

- ٢٦ -

لقد وصلنا إلى اليوم، الموعد الأفضل للقتال، الموسومة بـ"ثى اتكويتلى كلب واحد" التى قدستها آلهة النار والشمس.

قبل وصول الغزاة، لم نكن نذهب نحن إلى الحرب المفاجئة أبدًا، نرسل سفراء كثيرين للحوار حول الأرض المتنازع عليها، فى محاولة للتوصل إلى اتفاقيات صداقة، ليس فقط لمنح العدو الوقت للاستعداد للدفاع عن نفسه، بل وكنا نساعده بتقديم المساعدات من المؤن والأقواس والسهام. فقد كانت حروبنا خاضعة لرؤية الآلهة منذ نشأة العالم، منذ أن نسيت الثعابين السحابية الأربعمائة مهمتها فى منح الشمس طعامها وشرابها، فالحروب تقوم بقرار من الآلهة وهذا كان خاضعًا لأحكامها إن لم يتم تزييفها من خلال المواجهة غير المتكافئة أو بمهاجمة الأعداء دون تنبيههم.

لقد كان الغزاة هم من وضعوا قوانين جديدة للحرب، فقد كانوا هم مكارين وكذابين. كل الحروب التى واجهونا فيها كانت خدعة من بدايتها وحتى

نهايتها، لم يكونوا يحترمون القواعد الأكثر بدائية، وتنبهنا بأن هذا العدو يجب أن نواجهه ليلا، ننتظره متحفزين بمكر الفأر، فكان المقاتلون ـ محاربونا المقنعون الذين كنا نرسلهم لاستطلاع أرض الأعداء ـ أو فى أرض نكون نحن فقط من يعرفها أو نجرهم إليها من خلال إطلاق بريق المعدن الذهبى الذى كان يسحرهم.

لكن فنون الحرب تغيرت كثيرًا فى العالم حتى وصلت إلى هذا الزمن، والمقاتلون الذين يحيطون "لافينيا" يحافظون على الصمت، ولا يحملون دروعًا لحمايتهم من نيران الأعداء، فقد طوى النسيان الدرع والقوس والسهام، والحراب المسمومة، وهم لا يعدون أجسادهم بدهانها بالزيوت قبل المعركة وأعتقد أنهم عندما يلتقون مع العدو، لا ينفخون فى القواقع، ولا يطلقون الصراخ المرعب المنطلق من نفخهم فى صفارات العظام.

آه، لكن ماذا أقول؟ ماذا أتذكر!، إن ذكرياتى قديمة الآن حتى بالنسبة إلىّ، فقد قضى الأعداء على كل قوانيننا، فهم لا يقنعون مثلنا، بالحصول على الزمن الأهم بالنسبة إلى الأعداء، ويعلنون بذلك عن انتصار الإله الأبيض والإسبانى، وهزيمة "هويتثيلوبوتشى"، فقد كانوا يحرقون كل ما يقف فى طريقهم.

لم يكونوا يحتفظون بمقاتلينا ليقدموهم تضحيات على مذابح إلههم، أو قتلهم بالطريقة

المقدسة، كانوا يقتلون بلا رحمة ويسوقون الأسرى كالحيوانات، كأبقار، ليقدموهم بعد ذلك طعامًا للكلاب أو لاستخدامهم كحيوانات نقل، والغزاة لم يكونوا يعقدون هدنة بين المنتصرين والمهزومين، كما هى العادة، حتى يمكن إعادة الوئام بعد صدور حكم الآلهة، والغنائم التى يجب تقديمها للمنتصرين، فهم - ببساطة - يحصلون على كل الأملاك، ولا يتركون حجرًا على حجر.

حربهم مدمرة.

وإلههم الوحيد، أكثر وحشية من كل آلهتنا، وأكثر دموية.

وزعيمهم، الذى يطلقون عليه اسم الملك، لم يكن يجتمع أبدًا مع زعيمنا.

ولم يبق أمامنا سوى الشجاعة، ولم يبق لنا فى النهاية سوى غليان دمنا لنقاتلهم به.

وبالغليان انتصر "يارينثى" على الموت، بحث عن دروع، والقواقع الصلبة التى تحمى الحيوانات البحرية، وارتدى الجير والحجر ليواجه جنود الليل الكثيرين.

وتغلب على آلهة كثيرة بينما أنا أنام فى مثواى الأرضى، أشعر بخطواته التى لا تخطئ بين أقدام الفهود والغزلان.

إلى أن حاصره الغزاة، شاهدت كل هذا فى الحلم، فتحول إلى فهد، وقفز على الأحجار، ومن

هناك فى أعلى الجبل ألقى نظرة أخيرة على تعرجات الأنهار، وإلى جسد الشجيرات المنتشرة، وأفق البحر الأزرق، إلى تلك الأرض التى كان يسميها ملكه، والتى كان يمتلكها بالفعل.

صرخ فى الملتحين الذين كانوا يرتعدون أمامه: "لن تمسكوا بى، لن تمتلكوا ولا شعرة واحدة من هذا الجسد" .

"ايتثا" ، صرخ، فأخرجنى من حلمى إلى الأبد، وألقى بنفسه فى الفراغ، ألقى بنفسه على الأحجار التى تلقته بحلاوة ونثرته على جسدها، ولم يتمكن الغزاة أبدًا من الحصول على نثرة واحدة من جسده، تلك أرض أغنياتى، الأرض المعشوقة التى رفضت الخضوع للغزاة.

***

باتباع تعليمات "فلور"، انسحبت "لافينيا" و"لورينثو" إلى الغرفة المشار إليها.

لم يكن تدريبًا، بقدر ما أن "لورينثو" عانقها بقوة وقال:

– آسف جدًا، يا أختى، أكاد لا أصدق ما حدث مع "فيليبى"، يا لها من ميتة سيئة، كيف أن سائق التاكسى أطلق عليه النار؟

شرحت له بصوت هادئ، إنه لسبب ما تشعر أن موت "فيليبى" كما لو حدث منذ زمن بعيد، أو كما لو لم تكن هى نفسها، التى كانت بالأمس، بل امرأة قوية

وحازمة، لن تتراجع فى مواجهة الخطر، تقريبًا لايهمها أن تموت، لقد فكرت للحظة، ربما كان هذا نتيجة الدم البارد الذى تأملت به ما سوف يحدث فى الساعات القادمة.

كان "لورينثو" خشنًا ومتكبرًا خلال تدريب نهاية الأسبوع فى المزرعة، استخدم هذه المرة كل القوة واللطف الذى يحتويه جسده القوى المفتول العضلات.

علمها أسرار السلاح، تركيبه وفكه، والمزايا القتالية، وصفات السلاح القتالى، كما لو كان يتحدث عن جسد امرأة، عن عروس غامضة وصلبة، كان صوته قريبًا ورقيقًا، وبقناعة أن كل شىء لا يمكن أن ينتهى نهاية سيئة، وأن العملية سوف تتكلل بالنجاح.

مرت عدة ساعات خلال هذا التدريب، كانت فيه "لافينيا" منتبهة، ولم تترك تفصيلة واحدة، تلك الغرفة وكلمات "لورينثو" كانت الشىء الوحيد المضىء فى ذلك القاع الأسود بعقلها، يجب أن تنجح، فكرت، لقد كانت هى "فيليبى"، لقد انصهرا ليحتلا مكانًا فى العملية، و"فيليبى" سوف يعيش بيديها، فى إصبعها الضاغط على الزناد، فى حضور شجاعتها، فى دمها الساخن ورأسها البارد، فى "القوة دون فقدان الرقة" التى يقول عنها "التشى"(*). سأل "لورينثو":

(*) تلك كلمات «التشي جيفارا» أحد زعماء الثورة فى أمريكا اللاتينية ورفيق «فيدل كاسترو» فى الثورة الكوبية ومات بعد حصار المخابرات الأمريكية له فى بوليفيا عندما فكر فى نقل الثورة الكوبية إلي سائر بلاد المنطقة.

- أنت تشعرين الآن كما لو كان جزءًا منك؟ هذا ما يجب أن تشعرى به، خلال المعركة، لا يجب أن تفكرى أن السلاح سوف لا يكون أمينًا معك، وإنه سوف يستجيب لك كما لو كان ذراعًا أو ساقًا، كما لو كان شخصًا يحب الواحد منا وعلى استعداد للموت دفاعًا عنا... هل تشعرين به هكذا؟

قال مقتربًا واضعًا يدا على كتفها والأخرى على السلاح الذى كانت تضعه "لافينيا" على صدرها. قالت "لافينيا":

- بالطبع، أشعر بهذه البندقية كأختى... أو كما لو كانت "فيليبى".

قال "لورينثو":

- هذا هو بالضبط، هذا هو، هذا ما يجب أن تفكرى فيه، هذا السلاح هو "فيليبى"، فكرى فى هذا عندما تطلقين النار، فكرى فيه عندما تستخدمينه للدفاع عن نفسك.

كانت لديها الرغبة فى البكاء مرة أخرى، أن تبكى على السلاح متخيلة أنه "فيليبى"، لكنها لا يجب أن تفكر فى أن "فيليبى" قد مات، يجب أن تفكر فيه حيًا، حيًا ومتحركًا، حيًا وشجاعًا، صلبًا وقويًا.

مسحت عينيها المغرورقتين بالدموع، وكان ينظر إليها "لورينثو" برقة، وقال لها:

- هذا هو يا أيتها الأم الصغيرة، لا تجزعى.

لن تجزع، فهذا ليس وقت البكاء.

اللحظة تقترب، كان "سباستيان" قد خرج لتلقى آخر تقرير من فريق التخابر، وكانوا على استعداد كامل، كل واحد فى مكانه، والعضلات متوترة، كانوا يطلقون بعض النكات من وقت إلى آخر، كما لو كانت صمامات أمان تخفف من حدة التوتر، كانت المجموعة موجودة فى الصالة، بعضهم يجلس على الكراسى وآخرون على الأرض، بظهورهم معتمدة على الحائط.

"فى أى شىء يفكرون؟"، تساءلت "لافينيا" وهى تنظر نحوهم.

بعد أن خرجت من الغرفة مع "لورينثو"، اقترب منها "بابليتو" تلامسا بطريقة للتعارف الأبله، كل منهما تأسف بالطريقة التى أراد بها أن ينقل للآخر أفكاره.

والآن، جالسة على الأرض، كانت تراه مفكرًا، صامتا، من وقت إلى آخر يبتسم عندما تتقاطع نظراتهما، بعكس الآخرين، فهم لم يواجهوا الفقر والوضاعة، لقد جاءا هما إلى هنا ممتلئين بفراغ الثراء، لا شىء فى حياتهما، يبدو عليهما الهدوء الظاهرى، ما كانت تتخيل أن تشعر بكل هذا بعد موت "فيليبى"، ولكن وجودها هناك، بظهرها المعتمد على الجدار، بين كل هؤلاء الأشخاص القادرين على الحلم، يشعرها بحرارة داخلية رقيقة، والثقة فى أنها أخيرًا عثرت على شاطئها.

وأخيرًا أخرجت خوفها، وأخيرًا تثق وتؤمن، لقد كانت مطمئنة من رغبتها فى الوجود هناك، تشاركهم، تشارك هؤلاء الأشخاص اللحظات التى ربما تكون الأخيرة فى حياتها.

كانت تشعر بالفخر بأنها مجرد واحدة من المجموعة، أن تكون منصهرة فيهم، جميعًا متساوون أمام اقتراب الخطر، هنا تنتهى كل الرفاهية، وكل ذكريات الطفولة، ربما قد لا تعرف أبدًا أنها تقبلها بشكل خاص أم لا، ولكن الواقع أنها فى هذه اللحظة، فى هذا التقاطع الزمنى، كلهم منصهرون، إنهم حيوانات من النوع نفسه، حياتهم متعلقة ببعضها، كل منهم يثق فى الآخر، كلهم علقوا حياتهم بعقارب الزمن الجماعى، والدفاع المتبادل، وفى قدرة العمل الجماعى.

سوف يدافع كل منهم عن الآخر، سوف يعملون كجسد واحد، تحركهم رغبة واحدة، وإلهام واحد.

بعد أشهر عديدة، شعرت أنها استطاعت أن تكوّن هوية تسكنها وتدفئها، بلا ألقاب، وبلا اسم- فقط الرقم ١٢ ودون موقع، ولا حنين لزمن مضى، شعرت أنها لم تفهم أبدًا قبل ذلك بالوضوح الخاص بقيمتها وأهميتها، وإنها جاءت إلى العالم، مولودة فى هذه الحياة لتبنى ولم يكن هذا صدفة نتجت عن طيش حيوانات منوية وبويضات، فكرت أن وجودها كان بحثًا عن تلك اللحظة، بالإحساس فقط وبدون

استخدام خرائط ولا أوراق إبحار كونية قد وصلت إلى الصالة، وجلوسها على هذه الأرض الصلبة والباردة، وأن تعتمد بظهرها إلى هذا الجدار، إن كثيرا من الشكوك، والآلام وموت "فيليبى" كانت ضرورية، عندما غادرت بيت أبويها، وابتعادها عن "سارا"... وفكرت فى الابن الذى سوف يولد من صديقتها وفى مستقبل ربما يكون مختلفًا.

ربما شعرت عمتها "إينيس" بالفخر بها، فقد كانت تؤمن بالحاجة إلى الشفافية، وترك أثر لخطواتها فى العالم.

وجدُّها، المتحمس للثورات الهندية المعادية للاستعمار، محامى القضايا الخاسرة، أول من طبق نظام العمل اليومى ثمانى ساعات والتأمين على العمال، تقريبًا قام بذلك فى أزمنة العبودية المظلمة، ربما يكون ناظرًا إليها الآن، مفكرًا أنها أخيرًا وضعت أجنحتها وطارت.

لولا موت "فيليبى"، ورؤى المستقبل بدونه، ربما كان انتظارها هذا له طعم الفرح والحماس.

ورغم "فيليبى" فقد شعرت بالرغبة فى الضحك ـ أن تضحك فى عيون جميع من يوجدون فى الصالة ـ وشعرت أنه لم يكن إلى جوارها فقد عثرت على نفسها فى الحب الجماعى الذى خفف كثيرًا من عزلتها.

بعد أن تصالحت مع كل المشكلات التى قيدتها خلال الأشهر الأخيرة، فقد قررت قبول، بحزن، أن

تكون علاقتها مع "فيليبى" لم تكن متصالحة، وأن صراعهما لم يتعادل سوى بالموت، فقط موت "فيليبى" أعاد إليها حقوقها، وسمح لها أن تكون هناك، إن الرمز كان مظلمًا ومرعبًا، ولكنها لم تقبله كنهاية لقصة حب سيئة أو تكرار لحكاية آدم وحواء القديمة، لقد كان "فيليبى" من أوائل سكان العالم، والتاريخ، رجل جميل ومشعث فى الكهوف، وبعدها تغيرت الأشياء، بعدها، علمت أن "سباستيان" هناك حاملا بين يديه وعدًا.

هل الآخرون يقومون بعمل مراجعة لحياتهم مثلها؟ تساءلت، ممررة نظرتها على الوجوه الغارقة فى نفسها.

كان "سباستيان" قد قال إنه عليهم أن ينتصروا أو يموتوا، إنها عملية بلا انسحاب.

لقد كان هذا... ربما، كانت هذه آخر لحظات فى حياتهم، من المؤكد أنهم يفكرون فى هذا، قالت لنفسها، حتى لو كانوا يؤمنون بانتصارهم فإن الموت مسافر محتمل فى هذه الرحلة، إنهم يعرفون ذلك، حتى لو أخفوا نظراتهم.

لكن المناخ كان جادًا، والأشجار ساكنة، فكرت، متذكرة شجرة البرتقال، وإنها تشعر بها ساكنة، الشجرة.

لم تشعر بهذا الموت مثل أى موت آخر، فلم تكن محاطة بأبراج مظلمة أو أشباح مجهولة الهوية، لقد

حدث بطريقة تكاد تكون غير محسوبة، كان الخطر محتملا، لا يلفه أى سر، لو ماتوا لن تكون لديهم احتمالات للندم، لأنه كان قرارًا واعيًا، إنه اختيار حر، لم يتراجعوا عن الموت بل عن الحياة، لأنه سيكون نهاية كريمة، لا شىء من الغباء أو الفراغ، إنهم يعرفون لماذا ولأى هدف يموتون، وهذا كان مهمًا، ومريحًا، لم تكون حياتهم مفرغة ولا محنطة بالإجبار على امتلائها، لقد كانت لحياتهم معان، و"فاجواس" لم تكن مدينة كبيرة كل شىء فيها مقرر مسبقًا ولا أى حياة فيها لها معنى أكثر من هذا، وهنا لا مكان لقضايا الوجود الكبرى، وكان سهلاً اتخاذ موقف، فى هذا الوضع، إنه وطنها الصغير الذى كان كل شىء فيه لا يزال فى بدايته، ولا يمكن التنصل من المسئولية بطرح تفسيرات تعتمد على دراسات فلسفية مطولة.

لا بد من الاختيار بين الضوء والظلام.

فكرت، إنه رغم أن ذلك أمر مرعب، أن يحتم علينا أن نضع الحياة على خط النار، وعدم القدرة على وجود بديل آخر عن النضال، الموت مثل "فيليبى" فى عز الشباب، وكان هذا أداة قصوى، كما شرحه لها "فيليبى" فى يوم ما، إنه ردة فعل عنيفة فى مواجهة العنف الذى يعتبره البعض من المميزين طبيعية.

جميعهم كان لا بد من حق لهم فى وجود اختيار آخر لنوع آخر من الحياة.

نظرت إلى النساء، وفكرت فيما قد عشنه قبل الوصول إلى هذا المكان، جالسات، تنتظرن فى صمت،

فهى جاء بها موت "فيليبى"، كان لا بد من موت "فيليبى" لتحتل مكانه.

إن النساء يدخلن التاريخ بقوة الضرورة.

ظهرت أضواء فى النافذة، لقد عاد "سباستيان" وقفوا على أقدامهم، ورفعوا حقائبهم، ووضعوا فى الجيوب الأقنعة المصنوعة من الجوارب النسائية.

نظرت "لافينيا" إلى ساعتها، الثلاثة عشر شخصًا جميعهم يحملون ساعات محددة مضبوطة على الوقت نفسه، كانت العاشرة والنصف ليلاً.

قال "سباستيان" عند دخوله:

ـ هيا بنا، لقد ذهب الجنرال الأكبر، وأيضًا السفير الأمريكى وعدد كبير من المدعوين، لكن لايزال هناك الكثير من الأسماك الكبيرة للشبكة.

جمعهم فى وسط الصالة ليشرح جهاز الأمن الذى لا يزال يوجد فى بيت "فيلا": قلة من رجال الأمن، وبعض حراس كبار المدعوين. قال "سباستيان":

– وهناك بعض الحراس يلعبون الورق، لا يتوقعون شيئًا، لذلك علينا استغلال عنصر المفاجأة إلى أقصى حد، الدخول يكون سريعًا! لا تنسوا هذا، من يبقى فى الخارج فهو رجل محكوم عليه بالموت!.

فكرت "لافينيا": "إلا إذا كان امرأة"، ما كان يمكنها أن تتخلى عن تهكمها على لغة الحوار عند سماعها تلك الطريقة فى الكلام.

تشكلوا على هيئة مجموعات صغيرة.

رؤساء المجموعات، "فلور" و١ و٢ رينيه" و٣ فتى متوسط القامة، اسمر بشوارب كبيرة، خرجوا باتجاه السيارات المتوقفة فى الحديقة.

كانت عربتا تاكسى من ماركة "مرسيدس بنز" قديمة، ولكنها كانت حسنة الصيانة.

وعربة "لافينيا".

كل مجموعة ركبت عربة.

كانت "لافينيا" تشكل جزءًا من المجموعة رقم ١ وكانت "فلور" رئيسة المجموعة التى تتشكل أيضًا من ٨ و"لورينثو".

قالت "فلور" بصوت آمر:

١٢ أنت تقودين السيارة.

جلست "لافينيا" أمام عجلة القيادة، وصعد كل من "فلور" و٨ و"لورينثو" إلى العربة بسرعة. انطلقت الموتورات وسرعان ما أصبحوا جميعًا على طريق الأشجار العالية، والهضبة والبيت المرئى أصبحت من خلفهم، محاها الضباب الذى كان يغطى الليل. قالت "فلور" عندما كانوا يتخذون الطريق:

– علينا أن نترك السيارات بمجرد وصولنا، علينا أن نوقفها على هيئة مثلث، ويصفها رقم ٨ وأنت تتركين السيارة فى المنتصف و٧ يقف خلف سيارتك، وبذلك نشكل نوعًا من المتاريس أمام البوابة، وعندما نهبط منها، أنت تفهمين أليس كذلك؟

– نعم.

أجابت "لافينيا" قائدة السيارة بسرعة متوسطة واعية بمسئولية القيادة وعدم ارتكاب أى خطأ يمكنه أن يضع العملية فى خطر، لم تفارق عيناها الطريق محافظة على الاقتراب جداً من ١١ ودون أن تبتعد عن ٧ اللذان يقودان السيارتين الأخريين.

كانوا قد تركوا الضباب من خلفهم، كانت الليلة باردة وضبابية، إحدى ليالى ديسمبر.

قالت السمينة:

- أعياد الميلاد هذا العام ستكون رائعة، أعياد ميلاد بلا معتقلين سياسيين.

قال "لورينثو":

- مع طعام جيد، مؤكد أننا سنأكل ديكًا روميًا فى بيت "فيلا".

ضحكوا جميعًا من النكتة.

سألت "فلور" "لافينيا":

- هل تشعرين بتحسن؟

أجابت "لافينيا":

-حسن جدًا، لولا ما حدث مع "فيليبى" يمكننى القول إنى سعيدة.

قالت "فلور":

-إن "فيليبى" موجود معنا، أثق أنه سوف يساعدنا جميعًا.

سألت:

- ماذا كان دوره هو؟

قالت "فلور":

- كان دوره أن يترأس المجموعة رقم ٣ والرئيس الثانى للعملية كلها. وحل ٢محله.

ضحكت "لافينيا"، بقليل من التهكم، وحكت نكتة "فيليبى" التى تقول إنه يمكنها أن تحل محله.

قالت "فلور":

- أنت لم تأت إلى هنا لتكونى مكان "فيليبى"، وتذكرى ما قلته لك.

شكرتها لأنها ذكرّتها بذلك، وإن كانت تعرف أنه لولا موت "فيليبى" ما كان لها فى هذه اللحظة سوى أن تكون فى بيتها، خارج هذه الدائرة، دون أن تشارك.

قالت "فلور":

-علينا أن نراجع مهمتنا، أولا: نهبط ونحن نطلق النار على هيئة حلقة مغلقة، إطلاق النار على كل ما يتحرك والجرى باتجاه البوابة اليمنى، مدخل الخدمات، ثانيًا: ندخل بسرعة، ونهبط بالممر المؤدى إلى حمّام السباحة، وإلى المستوى الثانى للبيت، لو وجدنا أحدًا فى طريقنا، نأخذه رهينة فى صمت إلا إذا كان مسلحًا ونقتاده معنا إلى المستوى الثانى. تذكروا أننا سنطلق النار على رجال الأمن، وفى المستوى الثانى نجتمع بالمجموعة ١ وتذكروا ألا تضعوا

الأقنعة حتى ندخل إلى داخل البيت، هل كل شيء واضح؟

أجابوا بالإيجاب، حاولت "لافينيا" أن تتخيل كل خطوة: الممر الخشن المؤدى إلى حمّام السباحة الذى كثيرا ما هبطت إليه للتفتيش على العمل، والمبنى بكتل أسمنتية معينة، كانوا على وشك الوصول إلى الطريق السكنى المؤدى إلى واجهة بيت "فيلا"، كانت تشعر بثقل السلاح على ساقيها، شعرت بوضوح الواقع الغريب، لم تطلق فى حياتها سلاحًا من هذا النوع، رصاصاتها الوحيدة أطلقتها من مسدس، فى يوم واحد، مع "فيليبى"، على شاطئ منعزل، "العديد منا لم يطلق السلاح الذى يحمله أبدًا"، كان قد قال لها "لورينثو"، لقد كان أمرًا مدهشًا، لكن هذه الحقيقة، لقد تم الإعداد للعملية بشجاعة أكثر منه معدة بالأدوات الكافية، لم يعد مهما التضحية، انفصلت السيارات الثلاث بعض الشيء حتى لا تثير الشبهة عند الناصية القريبة من بيت "فيلا"، حيث كان يوجد بعض رجال الأمن يحملون أجهزة لاسلكية، كانوا غافلين، يتحدثون فيما بينهم، وكانت عدة سيارات تعبر المدخل، لم يهتموا بوجود سيارات التاكسى.

كانت مجموعة التخابر قد قدمت تفاصيل محددة عن أماكن كل رجال الأمن والحرّاس الموجودين بالقرب من البيت. من تلك المعلومات أمكن تحديد مهام مجموعة إطلاق النار، عليهم أن يطلقوا النار

حتى لو لم يشاهدوا أحداً، إطلاق النار على المكان المحدد لهم، كانت تلك التعليمات.

سُمعت "فلور" تقول:

- الأقنعة، الأقنعة.

عندما كانوا على مسافة قريبة من البيت، أسرعوا بالسيارات، وأسرعت "لافينيا" مع الآخرين في الوقت ذاته.

- ٢٧ -

بعدها بقليل هبطوا من السيارات أمام بيت "فيلا"، أخذوا حراس الأمن على حين غرة، كما قال "سباستيان"، فقد كانوا يلعبون الورق ولم يستطيعوا الانتباه حتى تخطى الحدود المسموح بها، وعندما انتبهوا بدءوا فى الجرى العشوائى.

المجموعة رقم ١ و"سباستيان" على رأسها، كانت أول من أطلق الرصاصات الأولى.

كان على "لافينيا" أن تنطلق نحو الجانب الأيمن، وفتح النار بالرشاش، أمسكت به بقوة ـ كما قال لها "لورينثو"- وهبطت وسط الأصوات الصماء، وكانت الطلقات فى كل الاتجاهات، جرت نحو الأمام، وعادت لحساب أن تكون فى منطقة نيرانها، وضغطت على الزناد، شعرت بالرعب للحظات عندما شعرت بارتفاع الأيدى أمام السلاح، وكانت الضوضاء الجحيمية تخترق أسماعها، تذكرت أنه يجب عليها أن تبقى ثابتة وأن تمسك رشاشها بقوة على مستوى حزام الوسط، وإن كانت الطلقات قد أصابتها بعدم الاتزان للحظات، لكنها لم تفقد ثبات أقدامها، وفكرت أنها لو توقفت فى مكان واحد يمكنهم أن يصيبوها.

جرت إلى الأمام منحنية، كما علمها "رينيه" فى تدريبات المزرعة، ومن جديد، شعرت أنها ثابتة على ساقيها وأطلقت مجموعة جديدة من الطلقات، كانت أذناها تطن، والطلقات تصفر فى كل مكان، رأت "رينيه" و"سباستيان" يدفعان الباب، رفعت إصبعها عن الزناد، وجرت من جديد بشكل متعرج إلى أن وصلت إلى مدخل الخدمات لتنضم إلى الآخرين.

كان "سباستيان" والمجموعة الأولى قد مرقوا من البوابة الرئيسية باتجاه داخل المنزل.

كان القلب يدق بقوة مرعبة، كانت مرتعبة من ضوضاء الطلقات، بدا لها كل هذا تشويشًا، لم تكن تعرف إن كانت العملية ناجحة أم لا، كانت تشعر بحاجة شديدة إلى دخول البيت، لم تكن تريد البقاء فى الخارج، لا تريد أن تكون "رجلا ميتا".

دفع "لورينثو" الباب بكتفه، واتكأ عليه بقوة.

كانت "فلور" تقول باستعجال:

–بسرعة رقم ٥ ادفعه بكل قوتك.

على النجيل، على بعد مسافة قصيرة، شاهدت اثنين من رجال الأمن، بمعاطف بيضاء وبنطلونات سوداء، ممددين على الأرض ميتين، كانا يحرسان البوابة التى انفتحت، والتى دخلوا عبرها إلى داخل بيت "فيلا".

أغلق "لورينثو" الباب، هو ورقم ٨ حركا أصص أشجار كبيرة وثقيلة، ووضعوها خلف البوابة، وأحكما

إغلاق المزاليج، وأشارت "فلور" إلى "لافينيا" أن تتبعها، تقدمتا نحو مدخل المستوى الثانى، وهن تنظرن إلى جميع الاتجاهات، والأسلحة على استعداد للانطلاق.

كانت تُسمع طلقات فى الخارج، وبدأ الصمت يسيطر على الشارع، لقد تمكنوا من الدخول جميعًا إلى البيت.

وتمكنوا من سماع موتور إحدى السيارات، التى انطلقت بأقصى سرعة.

قالت "فلور" مستديرة نحو الاثنين الآخرين:

- بسرعة، بسرعة، مشطا تلك المنطقة.

كانوا قد ارتدوا الأقنعة، وبدت ملامحهم مشوهة التقاطيع، وغريبة تحت ضغط النايلون.

يكادون يشعرون بالأمان، عندما مرت رصاصة إلى جوار "لافينيا"، جاءت من اتجاه إحدى الشجيرات بالحديقة. ألقوا جميعًا أنفسهم على الأرض، بقوا منطرحين، وشعرت "لافينيا" أنها غير قادرة على التنفس.

-غطونى.

صرخ "لورينثو" بينما كان يتحرك بشكل متعرج باتجاه الشجيرات، وفتح رقم ٨ و"فلور" النيران، ضغطت "لافينيا" على الزناد، مغلقة عينيها، فى انتظار انطلاق الرصاصات لكن لم يحدث أى شىء، فالزناد لا يتحرك، لقد بقيت بلا سلاح، بلا دفاع، حاولت إصلاح الرشاش.

وصل "لورينثو" إلى الشجيرات مطلقًا رشاشه العوزى، ونزعت إحدى الطلقات صرخة من خلف الشجيرات وصوت جسد ينهار.

اقترب "لورينثو" بهدوء، زاحفًا على الأرض، نظر ثم وقف على قدميه:

- لن يشكل هذا مشكلة بعد الآن.

صرخ وهو يجرى لينضم إلى الآخرين.

قالت "لافينيا":

- رقم ٥ سلاحى معطل.

أخذه "لورينثو" نظر إليه للحظات وحاول أن يكون لطيفا:

- عليك أن تغيرى له الخزنة، هذا لا شىء.

خلال التوتر، والرعب من الطلقة التى مرت بالقرب منها جدًا، لقد نسيت العنصر الأساسى جدًا، يومان بلا نوم تركا أثرهما.

واصلوا التقدم، كانت تُسمع من داخل البيت صرخات نساء، وأصوات ارتطامات، كانت منطقة الحديقة التى يتقدمون عبرها هادئة، ومضاءة بشكل خافت بلمبات وضوء قمر يغيب على استحياء.

شاهدوا الحمّام فى العمق، والمجموعة الثالثة تتقدم، زميلان يرافقان اثنين أو ثلاثة من الضيوف، أيديهم إلى أعلى، كان هناك عدد قليل من الناس فى

الحديقة ساعة الهجوم، ربما كان ذلك بسبب برودة الليل والظلام المحيط.

وأخيرًا اقتربوا من المدخل المؤدى من الحديقة إلى المستوى الثانى،، كان مغلقًا، كان مؤمنًا بمزلاج وقفل.

- ماذا نفعل؟

قالت السمينة مستديرة نحو "فلور" بوجه قانط.

-ابتعدى.

قالت "فلور" مشيرة إلى القفل بالمسدس ومطلقة النار، عن قرب شديد، مما أدى إلى حدوث دوى أكثر قوة، وشعرت "لافينيا" كما لو كانت آلاف من النحل يطن فى أذنيها.

وقالت "فلور":

- رقم ٥ اندفع باتجاه الباب.

- سوف انزعه من جذوره.

قال "لورينثو" ضاحكًا للحظات وبعدها دفع الباب، بكل قوة التوتر والعضلات.

انفتح الباب، واندفعوا بلا نظام إلى المستوى الثانى.

ربما كان المشهد مثيرًا لو حدث فى لحظات مختلفة، لكن التوتر قضى على الهزل والضحكات: رجال ونساء يرتدون الملابس الرسمية وملابس السهرة يقفون ووجوههم إلى الحائط وأيديهم إلى

أعلى، شاهدت "لافينيا" أيضًا عددًا منهم يرتدون الملابس الرسمية لكبار الضباط، أحدهم يرقد ميتًا فى الأرض، لم تتمكن من تفادى قشعريرة مرت بكل عمودها الفقرى.

كان الرقم ٧و ٦ يسيران بين الضيوف، يصفعونهم، أخرجوا من أحذية الضباط مسدسين أو ثلاثة، وشاهدت "لافينيا" السيدة "فيلا" وشقيقتها، كانتا ممتقعتين، والعيون تدور فى محاجرها، والطفلة تبكى بلا توقف، والطفل تصطك أسنانه، كان ملتصقًا إلى جانب أمه كغزال مرتعب.

كانوا نحو ثلاثين شخصًا، كان العدد كبيرًا فى هذا المكان، شعرت بالأسى تجاه الطفلين.

نظرت بسرعة نحو باب الاستوديو المفتوح، كانت الأسلحة فى حالة عرض، كان "سباستيان" والآخرون قد أخذوها من مكانها، وتساءلت إن كانت الألواح التى تشكل الجدار قد تحركت من مكانها.

رقما ٩و١٠ دخلا فى تلك اللحظة، قادمان من المستوى الثالث، يدفعان أمامهما ستة من الموسيقيين، وعددا من الخدم وثلاثة من الضيوف.

- إلى الحائط؟

صرخ "سباستيان" فقط عندما رأى أنه لم يكن هناك مكان لهم إلى جوار الحائط ، أشار إلى وسط الصالة:

-إلى هنا.

صرخ رقم ٩:

ـ عودوا إلى الحديقة، وخذوا هذا من هنا.

مشيرًا إلى الضابط الميت.

خرج الرفيقان، حاملين الجثة، بقى فقط الضيوف والخدم والموسيقيون.

-اصفعوهم.

أشارت "فلور" إلى رقم صفر.

اقتربوا، كانت "لافينيا" قد شاهدت صفعات فى شوارع المدينة، كانت تعرف كيف يمارس الحراس هذا، فعلت ذلك محاولة أن تكون اليد قاسية، متذكرة أنهم يجب أن يكونوا مختلفين، لم يكونوا من الحرس.

كان الموسيقيون وخدم البيت يهمهمون ببكاء تقريبا: "لا تفعلوا بنا شيئًا، من فضلكم، نحن لا علاقة لنا بهذا".

قالت "فلور" بتسلط:

- صمتًا!.

نظرت "لافينيا" حول الصالون ما إن انتهوا من صفعهم ورصهم حول وفى منتصف الصالون، والوجوه مستديرة الآن نحوهم، ينعكس عليها الخوف، والضباط، الذين يبدون دائمًا واثقين من أنفسهم، ويبتسمون على شاشات التليفزيون، كانوا ينظرون بخوف كل إلى جانب الآخر، كانوا من محترفى

الحرب، من المؤكد أنهم يفكرون فيما يجب عمله الآن، وفى الركن، كانت هناك الشقيقتان "فيلا" بوجوه ممتقعة ومشوهة من الرعب، تحتضنان الابن والابنة، كان الفتى ينشج، والطفلة تواصل الصراخ، غمرتها موجة من الأسى على هذين الطفلين، هما لم يختارا أين يولدان، والآن يتحملان ذنب الأب القاسى، وربما يتحملان هذا الذنب إلى الأبد، وهما يكادان لا يفهمان شيئًا. ومع ذلك، عليهما أن يعانيا.

انتبهت "لافينيا" إلى عدم وجود "فيلا"، قالت السيدة "فيلا" باكية بينما كان يحقق معها "سباستيان": "لقد ذهب مع الجنرال الأكبر لمرافقته حتى بيته". فكرت "لافينيا"، "أى شىء آخر يمكن أن يُنتظر منه فهو لا يزال يحافظ على عاداته عندما كان حارسًا".

فجأة سمعوا فى الخارج تدافعات قوية.

نظر الستة كل منهم إلى الآخر، وبدرت عن الضباط حركة، فى الوقت الذى أشارت فيه "فلور" إلى أنها مدافع متحدثة إلى "لورينثو".

أمرت "فلور" عندما تنبهت إلى حركة الضباط:

– لا أحد يتحرك، رقم ٥ افصل هؤلاء الضباط من المجموعة وخذهم إلى تلك الغرفة– مشيرة إلى غرفة ابن الجنرال– واترك باب الغرفة مفتوحًا وابق معهم، ورقم ٨ رافقهم معه.

نظر الفتى نحو غرفته، كان قد بدأ فى البكاء.

تقدم رقم ٥ دافعًا أمام سلاحه ضباط الحرس وقادهم إلى الغرفة ويرافقه رقم ٨ .

قال "سباستيان":

- قسموهم إلى مجموعتين، رقم ٢ و٤ اذهبا إلى الحديقة، واحكما دفاع المكان.

كان صوت "سباستيان" شعاعا مرق عبر عمودها الفقرى، فاعتدلت، وأصبحت المجموعة الأولى مكونة من رقم صفر و"فلور" و"لورينثو" ورقم ٨ وهى.

أصابها تتابع الأحداث السريعة بالدوار، ورغبة فى القىء، إن الادرينالين تسبب لها برعب فى الفم، كانت تشعر بالعطش، وشفتاها كانتا مشقوقتان كما لو كانت قد عانت شتاءً قاسيًا، نظرت من جديد إلى من حولها، تعرفت على بعض الوجوه، لم يكن هناك أحد ينتمى إلى الأماكن التى كثيرا ما تواجدت فيها، فقط تعرفت على زوجين، أحدهما كان مدير شركة "ايسو" وزوجته، والآخر كان الثرى رجل الأعمال الذى يسيطر على تجارة الأخشاب فى البلاد. وكانت زوجته تبكى، فيما يشير إليها بيده بعصبية لتصمت.

بعض الوجوه كانت معروفة لمشاهدتها فى الصحف ونشرات أخبار التليفزيون.

تفريغ الشاحنات، وسُمعت ضوضاء موتورات، فكرت "لافينيا" ربما كانوا رجال مكافحة الإرهاب، سوف يحاصرونهم ويغتالونهم جميعًا.

قال "سباستيان":

- رقم ١٢ اقترب.

اقتربت، كانت تؤلمها الحركة، والجسد ثقيل، كانت تجرب رؤية المشهد من خارج نفسها، فى أذنها طلب منها "سباستيان" أن تخرج إلى وسط الصالة شقيقة زوجة "فيلا" وضيفين معها، وإرسالهم إلى الخارج بمنديل أبيض، وأمر بعدم إطلاق النار أو سوف يقتلون جميع الرهائن، و"إلا سنقوم بمذبحة".

دون النطق بأية كلمة، اقتربت من ركن الغرفة التى كانت فيها الآنسة "مونتيس" مرتعبة ومحتضنة ابنة "فيلا"، فكرت: "ربما تتعرف علىّ" وقائلة لنفسها ربما لا، فهى نفسها من الصعب عليها التعرف على وجوه الرفاق من تحت الجوارب، لم تكن تريد أن يتعرفوا عليها، كانت تخشى أن يكتشفوها.

أمسكت ساعد الآنسة "مونتيس"، دون أن تنطق بكلمة واحدة، ودفعتها نحو وسط الغرفة، نظرت إليها الآنسة "مونتيس" بتعبير من الرعب. راجية:

- لا، لا، من فضلك!.

قالت بحزم:

- هيا!.

أخذت الثلاثة إلى جانب "سباستيان"، لم تتعرف عليها الآنسة "مونتيس".

فقط عندما استدارت لتفتيش باقى الصالة، فإن المجموعة المتراصة فى الوسط، والضيوف إلى

الحائط، توقفت نظرتها على وجه الصبى، كانت مندهشة من الصبى المراهق، كان ممتقعًا وباكيًا، كان ينظر إليها بتركيز، لقد توقف عن البكاء وكان يبدو أنه لا يستطيع إبعاد عينيه عنها، لقد تعرف عليها، لقد كانت متأكدة، أبعدت عينيها مرتعبة كردة فعل نتيجة خوفها.

قال "سباستيان" متوجها نحو الآنسة "مونتيس":

-حضراتكم، ستخرجون، ستخرجون من باب الجراج، وستقولون لهم ألا يطلقوا النار أو سنقتلهم جميعا، مفهوم؟ جميعا!.

أكدت الآنسة "مونتيس" بهزة من رأسها، كانت ترتعش، فى الركن كانت الفتاة مع أمها تبكى بلا توقف، كان يبدو على الصبى أنه على وشك الانهيار، كان ينظر إلى "لافينيا" كالمسحور.

كانت الضوضاء فى الخارج مهددة، كانت تُسمع أصوات أقدام حرس يجرون، ومدافع تتحرك، وطلقات، وكانت مجموعة الحديقة تطلق النار، والحراس يطلقون النار فى الخارج، كانوا يحاولون تطويق البيت، وسمعوا أصوات مروحيات عن بعد.

قال "سباستيان":

- بسرعة!، بسرعة! رقم 1 خذهم إلى الباب، ورقم ٦ رافقهم- ثم استدار إلى من بالصالة وأمر النساء أن يصرخن "لا تطلقوا النار"، كان يقول لهن ـ اصرخن، اصرخن بكل قوتكن، اصرخن بألا يطلقوا النار.

قدم إلى "فلور" منديلا ابيض.

كان التشوش يزداد مع مرور الوقت، ومروحية حومت على المكان.

كان "سباستيان" ورقم ٨ و"لافينيا" ورقم ٧ يسيطرون على المجموعة التى كانت عيونها مفتوحة من الرعب، والنساء يصرخن بكل ما يملكن من قوة.

خرجت "فلور"، مرت عدة دقائق من التوتر، والطلقات تنطلق فى كل مكان، والمدفعية تتحرك.

وفجأة حل الصمت.

عادت "فلور" ورقم ٦ بينما كانت شقيقة زوجة الجنرال والآخرون من الضيوف قد وصلوا إلى الخارج.

لم يتوقف الفتى عن النظر إلى "لافينيا".

كانت قد مرت ساعتان منذ بدء عملية "ايوريكا".

معتمدة على جدار الاستوديو، كانت "لافينيا" تحرس الرهائن. محاولة الابتعاد عن عيون ابن "فيلا".

المكان كان كبيرًا، ولكن عدد الناس كان خطرًا، عدد كبير، فكرت، كانت تمسك على الرشاش بقوة، كانت يداها تؤلمانها، ويؤثر فيها التوتر، والصداع لايزال يلازمها.

امتد الصمت مع مرور الوقت.

قال "سباستيان":

-رقم ٦ اذهب إلى الحديقة، وهات من المجموعة ٣ تقريرًا عن الوضع.

كان "سباستيان" ينظر إلى وجوه من بالصالة، كان يتحدث مع "فلور"، وبالقرب منها، كان واضحًا أن "فيلا" كان قد خرج لحراسة الجنرال الأكبر، كانت تقول، وعندما يعود سيجد منزله محتلاً، سوف تقدم له شقيقة زوجته تفاصيل ما حدث، لكنهم يحتفظون بزوجته، وأبنائه ـ إطلاق الأطفال مقابل السماح بدخول الوسيط ـ إضافة إلى رجال الأعمال كان هناك عدد من أعضاء قيادة أركان الجيش، وسفراء التشيلى والأوروجواى ووزير الأشغال العامة، ووزير الخارجية، والأهم من كل هذا، شقيق زوجة الجنرال الأكبر، وزوج الأخت الوحيدة للجنرال الأكبر، وأحد أبناء عمومته... لديهم عدد كاف من الرجال المهمين... سينتهى كل شىء بشكل جيد.

لكن العدد كان كبيرًا.

أعلن "سباستيان" بصوت عال، وبدأ فى اختيار بعض النساء والموسيقيين والخدم:

- سنترك جماعة أخرى تخرج من هنا.

قال:

- ستخرجون كل أربعة أشخاص معًا، هيا بسرعة.

تكررت العملية وتم دفعهم باتجاه الباب، بقيت الغرفة أقل ازدحامًا، وعادت المروحية من جديد.

– قولوا لأبناء القحبة هؤلاء إنه إذا عادت المروحية للمرور من هنا سنبدأ فى إخراج قتلى.

كان يصرخ فيمن كانوا يخرجون.

فى تلك اللحظة، رن جرس الهاتف، أصاب أعضاء الجماعة بعض الوجوم.

قال "سباستيان":

–رقم ١٢ أجب.

توجهت "لافينيا" إلى التليفون، كان شكله غبيًا، أبيض مذهب يشبه الأجهزة القديمة التى تنتمى إلى بدايات القرن.

رفعت السماعة، والصوت على الطرف الآخر كان متسلطًا ومعتادًا على إصدار الأوامر منذ أجيال مضت، لقد أصابها بالفزع، لقد كان الجنرال الأكبر الذى يقول:

– الرئيس يتحدث، من يتحدث هناك؟

أجابت "لافينيا" بصوت حازم:

– حضرتك تتحدث مع فرقة "فيليبى اوريبى" من حركة التحرير الوطنية.

سأل الجنرال الأكبر:

– ماذا تريدون؟

لم تجب "لافينيا"، أشارت إلى "سباستيان" بأن يقترب، أخذ رقم صفر السماعة، وعادت المروحية للطيران من جديد.

قال "سباستيان":

- عليك أن توقف أى تحرك ضد هذا البيت أو لن يخرج من هنا أحد سالمًا، وقل لطياريك أن يتوقفوا عن الطيران على البيت.

فى الغرفة، حل الصمت، كانوا جميعًا يستمعون إلى المحادثة التليفونية.

- نريد حضور القس "روفينو خاركين" كوسيط، وأيضا نطلب طبيبا، الدكتور "اجناثيو خواريث".

كان هؤلاء معروفين بعدم الانتماء السياسى، ولكن حياتهما مستقيمة.

كان "سباستيان" يستمع.

- نطالب بإطلاق كل المعتقلين السياسيين وإذاعة بياناتنا فى جميع وسائل الإعلام التى نقدمها للوسيط بلا رقابة، وإلا فإن حضرتك ستكون المسئول الوحيد عما يحدث للرهائن، وأمامك ساعة واحدة لإرسال الوسيط.

وقطع الاتصال.

بينما كان "سباستيان" يتحدث، توقفت "لافينيا" فى وسط الصالة، على بعد أمتار قليلة من المجموعة التى تضم أسرة "فيلا".

كان الصبى يواصل النظر إليها، ولكنه ينظر الآن بطريقة مختلفة، كانت هى تتجنب نظرته، ومع ذلك، كانت تشعر بشىء غريب فى نظرته المتواصلة، كان يبدو أنه يحاول أن تراه هى، وأن تركز عليه.

كانت "فلور" ومن رافقوا الموسيقيين حتى الباب قد عادوا، كانت تُسمع فى الخارج أصوات وحركة سيارات.

اقتربت "فلور" من"سباستيان"، وسمعت "لافينيا" الحوار الذى جرى همسا، قالت "فلور":

-لقد أصيب رقم ٩ وتحتفظ به المجموعة ٣ فى غرفة تبديل ملابس حمّام السباحة، أصيب بجرح فى الساق، وتم عمل الإسعافات الأولية له، لكنه يفقد الكثير من الدم.

قال "سباستيان":

- نحن ننتظر الطبيب، يجب أن نفتح عيوننا جيدًا.

كانت قد مرت أربع ساعات.

واصل الصبى النظر إلى "لافينيا" بتركيز، لم تعد تصطك أسنانه كما كان من قبل، وإن كان يبدو شاحبًا، فقد كان هادئا أكثر من أى وقت مضى.

لماذا ينظر إلىّ هكذا ابن "فيلا"؟ بدأت تتساءل، كان يبدو أنه يريد بنظراته أن يقول شيئًا، شعرت بالحرارة، كان الجورب يضايقها، كانت تقطر عرقًا، كانت تعانى من نتائج التوتر، والسهر الطويل، وكانت لاتزال تحت تأثير الطلقات، لا تزال تسمع الطنين فى أذنها اليمنى.

فى كل مرة ينفتح فيها الباب، الذى كان يخرج أو يدخل منه الرفاق من الحديقة، كانت تحبس أنفاسها،

كانت تنتظر إطلاق نار، لكن لا شىء يحدث هناك فى الخارج. وتوتر عميق يخيم على الليل، تقطعه خطوات ثقيلة واتصالات باللاسلكى، وأصوات عربات.

لا يزال الفتى يتابعها، نظر إليها، التقت عيونهما وتعارفت، كانت "لافينيا" على وشك أن تبتسم له، أن تمنحه أمنا، وإنه لا يجب أن يخشى شيئًا، لن يحدث له شىء، لكنها واصلت جديتها، ما أن أمسكت باهتمامه، أشار الفتى بنظرته إلى خلفها بإلحاح، كان يبدو أنه يريد أن يشير إلى شىء خلف ظهر "لافينيا".

هى لم تتحرك، ربما كانت شركا، وإنه يريد أن يبعد نظرها، قبل كل شىء فهو ابن "فيلا"، وألح الفتى، من وقت إلى آخر وبشكل ملح، كانت ترافق اتجاه نظراته حركة بذقنه، والسيدة "فيلا" إلى جانبه تهتم بالطفلة التى تبكى بكاء متقطعًا.

وألح الفتى أن تنظر هى إلى خلفها.

بذلت "لافينيا" جهدًا عقليًا يكاد يستنفد آخر قواها، لتتخيل ما هو موجود خلفها.

جلس الرهائن على الأرض، تنفيذا لأوامر "سباستيان"، ثم خرج هو بعدها مع رقم ٦ لمعرفة حالة "بابليتو".

راجعت "لافينيا" تخطيطات البيت فى ذهنها، إلى الجانب الأيسر يوجد مزلاج الفناء، وغرفة الموسيقى والبلياردو... والى اليمين، الاستوديو الخاص بـ"فيلا"،

حيث كانت توجد الأسلحة، ورقم 1 وصفر وزعاها بين الجميع، بعض الأسلحة القديمة، مسدسات قديمة وأسلحة صيد كانت قد تحطمت، إن لم يكن بأسلحة "فيلا" الخاصة، وأكثر من واحد منها غير صالحة للاستخدام، وكل واحد من المجموعة يمتلك سلاحين، وكان مع "لافينيا" مسدس ماركة "ماجنون" فى حزامها.

لماذا ينظر الصبى كثيرًا باتجاه الاستوديو؟

عاد "سباستيان" إن "بابليتو" يوجد فى حالة سيئة، وما عدا ذلك، فإن الوضع فى الحديقة تحت السيطرة.

بعد سماع الأنباء الجديدة، عادت"لافينيا" لاحتلال مكانها.

ـ ٢٨ ـ

عاد التليفون إلى الرنين من جديد.

قال "سباستيان":

-١٢ أجب، لو كان الجنرال الأكبر اتركيه لى.

لم يكن الجنرال الأكبر، كان القس الذى طلبوه كوسيط، لقد قبل الجنرال الأكبر الحوار، والقس يطلب تعليمات ليقترب من البيت.

تحدث معه "سباستيان".

بينما كانت تعود إلى احتلال مكانها من جديد، شاهدت "لافينيا" فى مواجهتها الجدار الخشبى المنقوش بالاستوديو، الغرفة السرية، وانتبهت الآن فقط! يا له من أمر غريب، فكرت، هذا ما كان الفتى يلح عليها أن تنظر إليه، لكن، لماذا؟ فكرت، فالأسلحة غير موجودة الآن، لقد وزعها "سباستيان" ورقم ١ على المجموعة... هل يفتحون الغرفة السرية؟ تساءلت فجأة، لأنهم لم يكونوا يعرفون هذه الغرفة السرية جيدا فقد اهتموا فقط بوجود الأسلحة على الجدار الدوار...

عادت إلى مكانها فى الرقابة من جديد، واستدارت، اعتمدت بظهرها إلى الجدار البارد للأستوديو الخاص بالجنرال "فيلا"، كانت غارقة فى أفكارها.

ظل الفتى ينظر إليها، كان ينظر إليها بتركيز متسائل، كانت عيناه تلمعان، كان فى عينيه تعبير شقيق "سارا" عندما كان يكشف عن أسرار الكنز المفقود فى مزرعة الجد.

وحينها فهمت، لقد عرفت، وغزتها الثقة بشكل أصابها بالشلل، وشاهد الفتى المراهق تعبيراتها، شاهدها تتوتر، تعتدل كما لو كان الجدار قد لسعها وأشار إليها بإشارة التأكيد، انحنى برأسه إلى الأرض بإشارة "نعم" فقط لتفهمها هى.

لم يلحظ أحد هذا التبادل، لقد كانت هى وهو وحديهما فى هذا العالم، كانا يتحدثان بلغة الإشارة، إن "فيلا" موجود هناك، مختبئ فى الغرفة السرية، كيف أنها لم تفكر فى هذا من قبل!.

لم يشك أحد فى أن السيدة "فيلا" كانت تكذب. لا أحد! ولا حتى هى التى كانت تعرف حجم هذه الغرفة، ببساطة لم يخطر على بالها، لقد صدقت المرأة تمامًا مثل الآخرين، وكان معروفًا عن "فيلا" أنه خادم مطيع، ويرافق الجنرال الأكبر حتى بيته، لم يعتبر أحد هذا أمرًا غريبًا، والآن كيف عليها أن تقول ذلك؟ إن "فيلا" موجود هناك. والثقة فى صدق ذلك

جمدها، إنه هناك ينتظر اللحظة المناسبة للخروج وقتلهم جميعًا! أن يخرج مطلقا النار ويقتلهم جميعًا! وبذلك يحكم على العملية كلها بالفشل.

لماذا لم تؤكد هى على تفتيش تلك الغرفة؟

ببساطة لأنها اعتقدت أن الآخرين سيقومون بذلك! والآن، متذكرة الشرح الذى قدمته لمجموعة العملية قبل ساعات قليلة فقط، انتبهت إلى أنها لم تقدم تفصيلات كافية عن حجم المساحة المخفية، وحتى لحظات معينة من بداية العملية، علق أحدهم بأن الأسلحة كانت معروضة أمام الأعين، ولم يخطر على بالها هى أن تسأله إن كان قد حرك جميع أجزاء الجدار.

لماذا؟ بأية طريقة غابت عنها أهمية الكشف عن وجود مكان موجود فيه الآن الجنرال "فيلا" مختفيا، كحيوان شرس ينتظر اللحظة المناسبة؟

كيف تقول لهم ذلك؟ إن "فيلا" موجود هناك، لم يعد لديها أدنى شك فى ذلك، هذا هو ما أراد الصبى أن يقوله لها، إنه هناك.

جالسين على الأرض، وظهورهم إلى الجدار، كان الضيوف ينتظرون، تحدث "سباستيان" مع القس بالتليفون، والآن عليهم أن ينتظروا وصوله، كانت "فلور" وبعض الرفاق الآخرون قد خرجوا لإعداد المطالب استعدادًا لدخوله البيت، أصبحت القضية هى الانتظار. كان الصمت يخيم ثقيلاً فى المنطقة المحيطة.

نظرت "لافينيا" إلى الفتى، كان فى حالة انتظار، لماذا نبهها إلى هذا؟ تساءلت، كانت تعتقد أنها شاهدته يوم تسليم البيت، كان يبدو جاداً، ومتماسكاً، كان يسير خلف أبويه دون أن ينطق بكلمة واحدة، كان مهموماً، مؤكد أنه كان يكرهه، لم يكن الأب يفهم أحلامه، كان يسخر منه، ومن أحلامه فى الطيران، بالنسبة إلى "فيلا"، المعروف بلقب "الطائر" أن الطيران كان يعنى إلقاء الفلاحين من الهواء، وقتلهم.

هل كان يعرف الصبى هذا؟ تساءلت، هل هذه إحدى طرق الانتقام الطفولية الرهيبة؟ لقد شعرت بقشعريرة، تسليم الأب! وهى... ما الذى يجب أن تفعله هى الآن؟

دخل رقم ٤ إن رقم ٩قد مات، سمعت هى الرمز الذى قيل لـ"سباستيان"، ورقم ٩كان "بابليتو"، لقد مات "بابليتو".

يجب عليها أن تواجه الجنرال "فيلا" بمفردها، فكرت، لا يجب أن يخاطر أحد بمواجهته غيرها. لقد مات "بابليتو". ولا يجب أن يموت أحد بعد الآن، نظرت فيما حولها، كان "سباستيان" يعتمد على جدار غرفة النوم الرئيسية، وأرقام ٦ و٨ إلى جانب غرفة الحياكة، ورقم ٧ يؤمن المدخل المؤدى إلى المستوى الأول، لم يكن هناك أحد فى المواجهة المباشرة لجانب معرض الأسلحة، لا يمكن أن يطلق "فيلا" النار ضد أى شخص عداها، بدأت يداها تنزان عرقاً، قبضت

على الرشاش، وبحركة بطيئة، مموهة، اختبرت الأجزاء الخاصة بالسلاح، كان كل شىء جاهزاً للانطلاق.

لم يكن الصبى يبعد عينيه عنها، كان يريدها أن تقوم بعملها، وكانت تشعر هى أنه يريدها أن تؤدى عملها، كان يدفعها بنظرته، لم تكن تصدق ما ترى، ربما كان يريدها أن تعثر على الأب وتنقذه، ربما كان هذا ما يريده، فقد كانت قد حدثته عن شرور الحرب، وقتل الناس، ترى هل فكر فى أنها ستقوم بحماية الأب، عليها أن تقوم بعملها بسرعة، عليها أن تنتظر اللحظة المناسبة.

راجعت فى ذاكرتها حركة الألواح، عليها أن تفتح المزلاج من الجدار، وبعدها يمكنها أن تدفع اللوح بقدمها، ويمكنه أن ينفتح لو أنها دفعته بقدمها بقوة، وفتح لوح واحد يكفى.

ومن هناك يمكنها أن تدفع "فيلا" أمام سلاحها، وأن تطلب منه أن يسلم نفسه.

سيقوم "فيلا" بتسليم نفسه، لأنه فى هذا الوقت بالذات يعرف أنه محكوم عليه بالموت لو أنه خرج من مخبئه مطلقًا النار.

سُمعت أصوات فى الخارج، لقد وصل الوسيط، دخلت "فلور" لتتبه "سباستيان"، خرج هو، وحلت "فلور" فى مكانه، لم تتبادل هى و"لافينيا" أى كلمة منذ بدء عملية "ايوريكا"، كان يبدو زمنًا أبديًا.

بدأت تبزغ خيوط الفجر، ووجوه الضيوف الجالسين على الأرض تشوهت من السهر، وطفلة "فيلا" كانت قد نامت، وكانت عينا الصبى تنغلق فى بعض اللحظات، دون إمكانية للسيطرة على النعاس، كان يقاوم النوم، دون أن تكون لديه رغبة فى إبعاد عينيه عنها، عندما كان يفتح عينيه بعد غفوة قصيرة، كان ينظر إليها.

عليها أن تفعل ذلك الآن، فكرت "لافينيا"، ستقوم به عندما تغفل عينا الصبى، عادت للضغط من جديد على الأجزاء السوداء من الرشاش.

بدأ الصبى يغلق عينيه، كان مراهقًا، النوم له سلطة عليه أكثر من الخوف، والتوقع... ماذا؟ فكرت "لافينيا"، ترى بماذا يشعر الآن؟

ما كادت تتأكد أنه قد نعس، حتى بدأت فى الانزلاق نحو وسط الغرفة، كانت "فلور" و٦ و٨ يراقبون الضيوف، سيمضى بعض الوقت قبل أن ينتبهوا إلى تحركها، وقت قصير جدًا، لكنه سيكون كافيًا.

عرقلت السجادة البنية حركة خطواتها. وتحركت بسرعة داخل الغرفة، كانت هادئة، عليها أن تستجمع الدم البارد من مكان ما، عليها أن تفاجئه، فكرت، عليها أن تتحرك بسرعة.

بخفة، حتى لا تنبه "فيلا"، أطلقت حركة اللوح من الجانب الأيسر، لم يصدر عنه صوت.

دفعت اللوح الأول بالقدم.

- هذا الطفل لا يجب أن يتحرك.

سُمع صوت "فلور" فى الصالة.

وبعدها، فى اللحظة المناسبة فى عينى "لافينيا" التى لاحظت فيها "فيلا" متحفزا، سمعت صوت الرعب الصادر عن الصبى، "لالالالالالالالالالا" طويلة، ومرعبة كارتداد صوت طبل.

نظرت "لافينيا" الممسكة بسلاحها بثبات إلى الجنرال "فيلا" المكشوف فى الظلام داخل الغرفة التى بنتها بنفسها، شعرت بقشعريرة مرعبة، "فيلا" وهى بقيا ثابتين لجزء من الثانية تحت رعب صرخة الطفل.

ابتعدت محتمية بدفع اللوح، كان الجنرال "فيلا" على استعداد لإطلاق النار عليها.

انطلقت صور مشوشة فى ذهنها بسرعة الكواكب فى مسافة مجنونة، وهطلت فى ذهنها.

وصرخة الطفل مرة أخرى:

-لالالالالالالالا.

***

لقد كان هناك ذلك الرجل، تمامًا مثل كل ضباط الغزاة: بوجهه الذى شكله إله شرير، ينظر إلى "لافينيا"، متعرفًا عليها.

وصرخة الصبى.

تجمد دمها، شعرت بالصور تتصادم، صور لامعة وخاوية، ذكريات قديمة وحاضرة.

لقد شاهدت وجه "فيليبى"، شاهدت طيوراً معدنية كبيرة تقذف من بطنها رجلا، وضربات مرعبة وصرخات.

رأيت طفل "سارا" دون أن يولد، وغرفة "لوكريثيا" المظلمة، ورائحة الكافور، وأحذية المستشفى، والطبيب الشرعى المقتول.

رأيت الصبى، الذى يريد أن يطير، ذلك الطفل الذى وشى بأبيه، كراهية له، وفقط فى اللحظة الأخيرة، فهم أنه كان يحبه، وحاول إنقاذه بصرخة طائر جريح، مجمداً "لافينيا"، الصبى المكون من شكوك ترى هى نفسها منعكسة فيها بشكل غريب.

أنا لم أشك لحظة واحدة، لقد انطلقتُ أنا فى دمها، وصرخت من جميع أركانها، ولولت كريح كاسحة تلك الثانية من التراجع وضغطت على أصابعها، أصابعى على ذلك المعدن الذى يقىء ناراً.

***

شعرت "لافينيا" فى مجارى شرايينها بقوة جميع الثورات، شعرت بجذور الأرض العنيفة لذلك البلد المتمرد تندفع إلى أحشائها وتدفعها بقوة على رؤى ذلك الفتى، ورؤاها لنفسها التى تتطلق فى تلك العيون البريئة، فى الحب والكراهية، وفى الوصية الإنجيلية "لا تقتل". عرفت وقتها أن عليها أن تغلق آخر حلقات

الدائرة، أن تدمر آخر حواجز تناقضاتها، وأن تتخذ موقفاً أخيرًا ونهائيًا، تحركت بسرعة، وقفت فى مواجهة الرجل القوى الذى يضعها فى دائرة سلاحه وضغطت بأصابعها - المتشنجة والقوية - على الزناد.

أسكتت الطلقات المرعبة صرخات الطفل الجريحة، وشقت طلقات رشاشها الهواء ثانية قبل أن يطلق عليها "فيلا" النار معتقدًا أنه قد انتصر، مفرغًا الكراهية السوداء لأصوله، والتى تدرب فيها على القتل لسنوات طويلة.

شعرت "لافينيا" بالضربة فى صدرها، وحرارة تغزوها، شاهدت الجنرال لا يزال واقفًا فى مواجهتها، متماسكًا يطلق النار، وجسده وملابسه الرسمية مزركشة بالدماء، وكانت نظرته المتفاخرة، سمًا.

وهى لا تزال تحت وابل طلقات "فيلا"، استعادت توازنها، وبثبات ودون أن تفكر فى أى شىء، كانت ترى صورا متناثرة من حياتها، وقد بدأت تجرى أمام عينيها كغزلان، شاعرة بنفسها تحت وطأة سخونة الدم النازف، شدت السلاح إلى جسدها وأنهت إطلاق كل ما بداخله.

شاهدت "فيلا" يسقط متكورًا، وحينها فقط سمحت للموت أن يغزوها.

حدث كل هذا فى ثوان قليلة، "فلور" ورقم ٨ اللذين انتبها على صرخات الطفل، وصلا فى اللحظة التى تقررت فيها النهاية.

بعدها بلحظات ظهر "سباستيان".

كان الوسيط قد تسلم المطالب.

وسيبدأ الحوار.

عملية "أيوريكا" انتهت بشكل جيد.

غداً سيكون كل شىء قد انتهى.

***

البيت غارق فى الصمت، يكاد الريح يبدو على أفرعى كشهيق السحاب الذى يطفئ النار، وأنا وحيدة من جديد.

لقد أكملت دورة: مصيرى كبذرة نابتة، تحمل مصير أجدادى.

إن "لافينيا" الآن أرض ودخان، ترقص روحها فى رياح الأمسيات، ويغذى جسدها حقولاً خصبة.

رأيت من دمها انتصار آلهة العدالة.

لقد استعادوا إخوتهم، انتصروا على الكراهية بجدية وقوة حارقة.

الأضواء موقدة، لا يستطيع أحد أن يطفئها، لايستطيع أحد أن يُسكت الطبول الضارية.

أرى جموعًا كبيرة تتقدم فى الطرق التى فتحها "يارينثى" والمحاربون، مقاتلو اليوم والأمس.

لن يستطيع أحد أن يمتلك هذا الجسد المكون من بحيرات وبراكين.

ذلك المزيج من الأعراق.

ذلك الشعب العاشق للذرة،

وأعياد ضوء القمر،

شعب الغناء والنسيج بكل الألوان،

لا هي ولا أنا قد متنا دون مصير أو إرث،

لقد عدنا إلى الأرض لنحيا من جديد،

سنثمر فاكهة تحمل هواء الأزمنة الجديدة.

الحية "يارينثي" ،

الحية "فيليبي" ،

سيرقصان على حظائرنا

وسيخصبوننا إلى الأبد .

سنعيش في مغيب السعادة

في فجر كل الحدائق،

وسريعًا سوف نرى يوم السعادة الهادئ.

وسوف تبتعد سفن الغزاة إلى الأبد

وسوف يصبح الذهب والريش الملون ملكنا إلى الأبد،

والكاكاو والمانجو،

ورائحة البرتقال.

لا أحد يعشق يمكنه أن يموت أبدًا .

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ نوّة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالفينو» رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢- القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ قرية ظالمة.. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطىء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ شوشا.. للكاتب البولندى «إسحق باشيفتس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية ـ جائزة نوبل.

٢٣ ـ الأنثى كنوع .. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ إسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريجيتّه كروناور» مختارات.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلُو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بيربياروبيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. ر واية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن.يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ يوميات عام سيئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ انقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم مآ.. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الإسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ ـ المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٧٤ ـ كلُّ رجل.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ نُريد أن نتحدث عن كيڤين.. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

٧٨ ـ حزن مدرسى.. للكاتب الفرنسى «دانيل بناك» رواية.. جائزة روندو.

٧٩ ـ غدًا.. للكاتب الألمانى «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٨٠ ـ الكلمة المكسورة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

٨١ ـ أن نُصبح أغرابًا.. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ـ بيتر كامينتسند.. هِرْمَنْ هيسّه.. عدد خاص.. جائزة نوبل ١٩٤٦.

٢ ـ بيت السيد بيسواس.. ف. س. نايبول.. جائزة نوبل ٢٠٠١.

٣ ـ مدريد الأصيلة.. كارلوس أرنيتشيس.. وسام الاستحقاق ١٩٣٥.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

الرواية

"إيتثا" أو "قطرة الندى". التى تعبر عن النقاء البدائى فى الطبيعة والتى تنتمى إلى حياة شعب نيكاراجوا خلال الغزو الإسبانى بعد ما يُسمى "عصر الاكتشاف". تعود إلى الحياة من جديد فى القرن العشرين من خلال تجسدها فى شجرة برتقال، وهكذا تتسلل البطلة الأسطورية إلى البطلة المعاصرة من خلال عصير البرتقالات التى تقطفها. فتكونان معًا مزيجًا واحدًا. فنرى الشخصية الأسطورية التى تلعب دور الحارس، بل الموجه للشخصية المعاصرة لتواصل النضال القديم ضد كل أشكال الظلم والطغيان، فإذا كانت الشخصية الأسطورية "ايتثا" قد لعبت دورها فى التمرد على تقاليد القبيلة وتبعت حبيبها "يارنثى" فى حربه ضد الغزاة الإسبان، فإنها تعود مجددًا لتدفع البطلة المعاصرة "لافينيا" للنضال ضد دكتاتورية "الجنرال الأكبر" الذى لا يقل قسوة وظلمًا فى تعامله مع مواطنى بلاده من الغازى الإسبانى.

الروائية: جيوكوندا بيلى، كاتبة من نيكاراجوا.
الجائزة: جائزة "كاسا دي لاس اميركا" عام ١٩٧٨.



ISBN # 9789774217323

6 221149 019638

٢٠ جنيهًا

الهيئة المصرية العامة للكتاب